د. بيلا غرانبرغر

النرجسية

دراسة نفسيّة

ترجمة
وجيه أسعد

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب :

collection science de l'homme
dirigée par gérard mendel

dr béla grunberger

le narcissisme

essais de psychanalyse

النرجسية : دراسة نفسية = Le Narcissisme / بيلا غرانبرغر؛ ترجمة وجيه أسعد. -
دمشق : وزارة الثقافة، ٢٠٠٠ . - ٣٥١ ص ؛ ٢٠ سم. -
(الدراسات النفسية؛ ٤٢).

١- ١٥٨ غ ر ا ن ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- غرانبرغر ٥- أسعد ٦- السلسلة مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٠٢٨ / ٦ / ٢٠٠٠

الدراسات النفسية
« ٤٢ »

مقدمة

«أي شيء تعلنه لنا إذن هذه الشراهة وهذا العجز إن لم يكن أن الإنسان كان ينعم في الزمن الغابر بسعادة حقيقية لم يبق له منها الآن سوى العلامة وأثر فارغ كل الفراغ، يحاول دون جدوى أن يملأه بكل ما يحيط به، باحثاً في الأشياء الحاضرة، ولكنها كلها عاجزة عن تقديمه، لأن هذه الهوّة اللامتناهية لايمكن أن يملأها سوى موضوع لامتناه ولا يتغيّر، أعني إلا الله ذاته؟».

باسكال، **أفكار**

توطئة

جمعنا في هذا المؤلَّف عدداً معيّناً من الدراسات المتمحورة على النرجسية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ظهر الجزء الأعظم منها في **المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**. وتؤرّف هذه الدراسات، التي تمتدّ على ما يقارب خمس عشرة سنة، محاولتنا الإحاطة بهذا المفهوم موضع الجدال، في ضوء تجربتنا العيادية التي قادتنا إلى أن نمنح النرجسية مكاناً أكثر أهمية، من حيث الكيف والكم، من المكان الذي يُنسب إليها في العادة، مع أن تاريخ حركة التحليل النفسي، التاريخ الحديث كلياً، يشهد بهذا الصدد ضرباً من التطوّر. إن هذا التاريخ هو الذي يسوّغ، إلى حدّ معيّن، جهدنا المبذول لاستخلاص فَرَض ذي علاقة بأصول النرجسية وماهيتها، جهداً لم تكن مكافأته أول الأمر إلا ضرباً من «المردود» الكشفي على مستوى نظرية التحليل النفسي وكذلك ضرباً من التلاحم المتعاظم للتفسيرات التي اقترحناها لبعض الوقائع العيادية، التي يحتجب معناها عن فهمنا لولا ذلك. وإذا كنا على هذا النحو تحاشينا حتى الآن تركيزاً منهجياً على مفهومنا، مفهوم النرجسية ـ مع أننا باشرناه في عدة مناسبات، بالنسبة للنظرية الكلاسيكية – فإننا نعتقد أن الحين قد حان لنستعيد محاولتنا في منظور أوسع، لا سيّما أنها تتّخذ ـ جرّاء التطوّر نفسه الذي أشرنا إليه للتوّ ـ مظهر ضرورة ليست موضع شك؛ و «إذا كان مفهوم النرجسية، من جهة، أحد الإسهامات الأكثر أهمية في النظرية التحليلية، فإنه هو أيضاً من جهة أخرى أحد المفاهيم الأكثر التباساً»، كما لفت النظر إلى ذلك في الواقع س. إ. بولْفَر في مقال حديث جداً (صحيفة الرابطة الأمريكية للتحليل النفسي نيسان «أبريل»، 1970).

وفي حين تفرض الأهمية العيادية للنرجسية نفسها في الزمن الراهن ـ العصر

الذي نعيشه جلَب للمراقب حصاداً غنياً بهذا الصدد- ، يبدو أن مفهومها يتنامى قصوره؛ إنه عيب أصلي أبانه فرويد نفسه من جهة أخرى في رسالة موجّهة إلى أبراهام: «أشعر أنني مغتاظ بعمق بسبب عدم كفايته».

فالنرجسية، بوصفها ظاهرة عيادية، موضوع شبهة، موضوع حكم قبلي غير مؤات، يشارك فيه المفهوم الذي يمثّلها مشاركة إلى حدّ معيّن؛ وتشهد المواقف الفجّة التي تتجدّد بين المحلّلين من جيل إلى جيل، بصورة أو بأخرى- مثال ذلك أن «النرجسية مفهوم ينبغي تقويضه»، أو الفكرة المصاغة حديثاً التي مفادها أن إدخال غريزة الموت تمهر بخاتمها شهادة موت النرجسية، وبعض زلاّت القلم التي تنزلق تحت ريشة بعض الزملاء الذين يتناولون هذا الموضوع بالمعالجة، أقول تشهد المواقف شهادة كافية على ازدواجية المشاعر التي توقظها النرجسية؛ وسنحاول أن نحيط عن كَثَب بالأسباب المحتملة لهذا الموقف الملتبس.

ونذكّر أول الأمر أن التحليل النفسي هو، في ماهيته، مشروع لإزالة الوهم («إنهم لا يعلمون أننا نحمل إليهم الطاعون»)(*)، وأن طريقته هي طريقة الردّ، وذلك أمر يكوّن في ذاته جرحاً نرجسياً («ذلك ليس إلا ...»)؛ والتحليل النفسي هو على هذا النحو، وبصورة أكثر بروزاً كذلك عندما يتناول النرجسية نفسها موضوعاً له، ولو لم يكن إلا لأن تسمية النرجسية تقابل الآن ضرباً من تضييق الوهم النرجسي، وهم القوة الكلية.

أضف إلى ذلك أن التحليل يصادف بالضرورة مقاومة جديدة كلما خطا خطوة حاسمة، من حيث أن قبول كشف يقتضي جهداً فكرياً، وعلى وجه الخصوص عندما يضعنا في مواجهة مع دافعياتنا اللاشعورية(1). والحال أن هذه المقاومة لا

(*) عبارة قالها فرويد ليونغ أمام تمثال الحرية في واشنطن، ويقصد الأمريكيين «م».

(1) إذا كان المعارضون والجمهور يمكنهم دائماً أن يدافعوا عن أنفسهم بضرب من إضفاء الصفة الفكرية أو بالإسقاط (يتذكّر المرء بعض الفرنسيين الذي كانوا يريدون تماماً قبول معطيات التحليل النفسي العيادية بالنسبة إلى يهود النمسة المنهارين وبعض الماركسيين الذين كانوا أيضاً على وفاق للاعتراف بوجودهم «لدى أعضاء البورجوازية ذات النجم الآفل والفاسدة»)، فإن المحلّلين أنفسهم ينبغي لهم أن يدمجوا لاشعورهم، لا على النمط الفكري كما هو الأمر بالنسبة للإنسان بصورة عامة، بما في ذلك هم بالطبع.

يمكنها إلا أن تُنتج توقفاً، كما في العيادة، والتوقف في العلم يفضي، كما نعلم، إلى الركود، أو إلى ماهو أسوأ أيضاً، النكوص.

أضف إلى ذلك أن الفرصة ستسنح لنا فيما يلي من هذا الكتاب أن نتناول بالمعالجة السمة المضادّة للنرجسية، سمة الأنا العليا الجماعية التي نعيش تحت سيطرتها، وأن نتناول أسباب إثمية نوعية ترتبط بالنرجسية.

وننوّه أخيراً، على سبيل الذكرى، بالمقاومة التي يمكن أن تولّدها نظرية متكوّنة الآن بسبب البحث عن ضرب من الراحة الفكرية، بحث نتيجته أن يُقسر نجوع النظرية بعض القسر في أمور مرْضية قليلاً أو كثيراً مع تجاهلٍ نواقصها (دون الكلام على بدائل نظرية تؤلّف ـ في مجملها ـ ذلك التعبير نفسه عن مقاومة أساسية كثيفة لروح الكشف الفرويدي الأساسية ذاتها)؛ فالنظرية المكتملة يمكنها أن تعارض إدخال عامل جديد، أياً كانت أهميته الواقعية، إذ يُحتمل أن يزعزع البناءَ إدخالُ هذا العامل. وعلينا أن نتجاوز هذه الصعوبة بمقدار ما يمكننا تطمين القارىء: فلإدخال عنصر يبدو متجانساً في بناء نظري، بالنسبة لفحوى النظرية وللعامل الجديد ذاته الذي ندمجه فيها، قيمة اختبار حقيقي؛ وإذا كان الإسهام الذي يمثّله هذا الاختبار صحيحاً، فإن إدخاله سيكوّن تتمّة عضوية، بدلاً من تفكيك النظرية؛ إنه سيدعمها على العكس.

وبوسع القارىء أن يتساءل هنا لماذا نتكلّم على عامل جديد في حين أن النرجسية هي الآن مُدْخَلة في التحليل النفسي منذ أكثر من نصف قرن (1914). وربما تكهّن مع ذلك، في الوقت نفسه، أن ما نقترحه في ظلّ هذا الاسم يختلف في بعض النقاط عن النظرية الكلاسيكية التي لن يفوتنا أن ننتقدها في البدء بالطبع. ونحرص على أن نوضّح، قبل الدخول في تفصيلات برهاننا، أن نقطة انطلاق فَرَضنا هي النظرية الغريزية الكلاسيكية. وتتبع النرجسية خلال كل وجودها، إذ تنبعث من الأعماق الغريزية، تطوّراً يفضي مبدئياً إلى ضرب من التوليف تكفّ المكوّنتان عن أن توجدا بوصفهما مكوّنتين منفصلتين. فبين هذين الحدّين الأقصيين (الأصل والتوليف) إنما تبدو النرجسية مع فينومينولوجيتها الخاصة

والمختلفة من الناحية الوظيفية ـ وعلى وجه الخصوص في فترات من التطوّر النفسي الجنسي ذات امتياز ـ عن المكوّنة الدافعية، إذ تكوّن بعداً من أبعاد الحياة النفسية منفصلاً تسوده قوانين ليست قوانين الحياة الدافعية بالمعنى الصحيح للعبارة. وتدخل النرجسية، خلال طور انبعاثها بوصفها عاملاً مستقلاً، في علاقة ديالكتيكية نوعية مع المكوّنة الدافعية. ودراسة هذا الديالكتيك الخاص تفرض نفسها علينا بصفتها مرتكز التطور النفسي الجنسي وتتطلّب تفصيلاً أهمّ بكثير من بعض الملاحظات الموجزة التي يمكننا أن نخصّصها لهذا الديالكتيك في إطار هذا التوطئة؛ ونأمل مع ذلك أن تتيح الإسهامات التي جمعناها في هذا الكتاب للقارىء إدراك الدلالة التي يتّصف بها هذا الديالكتيك في رأينا والأهمية التي نعزوها إليه.

ونحن ننوي في هذا العمل إذن:

1 ـ أن نلفت انتباه القارىء إلى نوعية العامل النرجسي؛

2 ـ أن نحدّد مكان هذا العامل بالنسبة للبناء الفرويدي بوصفه «غريزياً»؛

3 ـ أن نبيّن أهمية هذا المنظور في فهم بعض الجوانب من السيكولوجيا الإنسانية، ليس فقط فيما يخصّ القطاعات العيادية بالمعنى الصحيح للعبارة، بل فيما يخصّ التيارات الروحية في عصرنا أيضاً وتيارات الماضي الروحية، وكذلك مظاهر النفس في مجالات الفن والعلوم، والدين، والأخلاق والإيديولوجيات؛ وإذا كان هذا البرنامج ينقصه التواضع، فهو ليس إلا برنامجاً افتراضياً ويلحق من جهة أخرى بمشروع كان عزيزاً جداً على المبدع ذاته، مبدع التحليل النفسي (2).

---

(2) أما عن نمط نقديمنا، فإننا آثرنا إعادة الانتاج الزمني لمختلف العروض دون أي تعديل أو سبْر؛ فالأقوال المعادة، بل التناقضات، ليست مستبعدة ونحن نعتذر عن ذلك، وكان علينا، حتى نتجنّبها، أن نحرّر كتاباً ثانياً إذا صحّ القول، ذلك ما نوينا أن نفعله من جهة أخرى.

مدخل

I

مصطلح «النرجسية»(1)، الذي استخدمه هافيلوك إيلّيس في سياق الطب النفسي عام 1898، كان سادْجَرْ قد أدخله عام 1908 بوصفه مفهوماً في التحليل النفسي. فمجلّة رابطة التحليل النفسي في فيينا، «الدقائق»، المنشورة بجهود نانْبوغ وفودرِنْ في «المطبعة العالمية للجامعات» (1967)، هي التي تحتوي في الوقت نفسه ذكر ستيكل مقال سادجر وتعليقات فرويد الذي يقول: «ملاحظات سادجر ذات العلاقة بالنرجسية تبدو لي جديدة وصحيحة».

ولا يخلو من الفائدة أن نذكّر أن هذا المؤلف نفسه هو الذي زوّد النرجسية (إنها «انحراف خاص» في رأي فرويد، انظر هامشاً لعام 1910 في «ثلاث محاولات»، وانظر دراسته ليونار دو فنسي في العام نفسه) بدلالة أوسع، إذ اعتبرها «مرحلة نموّ سويّ» («درب الجنسية يمرّ في النرجسية، في حبّ الذات بعبارة أخرى»)(2). أما رانْك («مساهمة في النرجسية»، مقال في «صحيفة البحث في علم النفس التحليلي وعلم النفس المرضي، 1911)، فإنه مدّ المفهوم على الزهْو و «الإعجاب الذاتي».

(2) نحن نستأنف المناقشة في هذه النقطة الأساسية من منظورنا بالطبع، ولكننا سنستشهد منذ الآن بـ شمْفور: «المرء يجد السعادة في ذاته نادراً، ولا يجدها في مكان آخر»، وتلك إشارة في وقت واحد إلى غلبة العامل النرجسي في الحب وإلى النرجسية المرضية، وإلى قول جاك ريغو (كتابات، غاليمار) الأقرب إلينا زمنياً: «أجمل صبيّة في العالم لا بمكنها أن تمنحني إلا ما لديّ».

ويعرّف فرويد مفهوم النرجسية، عام 1911 دائماً، في «حالة شريبر»، بالنسبة إلى «**الأنا بوصفها موضوعاً ليبيدياً**»، ويُدخل عام 1913 («الطوطم والتابو»)، في مفهوم الإحيائية، السحر و**عاطفة القوة الكلية**. ويتناول بالمعالجة، عام 1914 أخيراً (في مقال عنوانه «من أجل إدخال النرجسية»)، ضرباً من «**الاختيار النرجسي للموضوع**» كما يعالج «علاقة ذات ارتباط بالموضوع» لها الماهية نفسها؛ ويتكلّم أيضاً على «**تقدير الذات**»، مصدر «مثال الأنا». ويعرّف فرويد النرجسية، بعد أن أرسى قواعد نظرية نرجسية لـ **النوم**، **الفصام**، **توهّم المرض**، أنها تتمّة ليبيدية للأنانية» (غريزة الأنا)، وذلك تعريف مفصليّ سيستوقفنا طويلاً فيما يلي من هذا الكتاب.

وإعادة النظر الموجزة هذه في المسألة تبيّن لنا الآن أن مفهوم النرجسية حامل دلالات متنوّعة جداً؛ إنه يدلّ أول الأمر على انحراف، ثم على مرحلة ليبيدية، فعلى حالة نكوصية (نوم، مرض عضوي، ذهان). إنه يميّز أيضاً اختياراً للموضوع ونمطاً خاصاً بالعلاقة (انظر فرويد، «من أجل إدخال النرجسية»). وهذا المصطلح ذاته، في مقال فرويد «الحداد والسوداوية»، يشرف على سيرورة «استدخال علاقة» ونجد في المقال فقرات يتكلّم فيها فرويد على «**اهتمامات**» نرجسية: سيقدّم هذا المصطلح من جهة أخرى لمعجم مصطلحات الرابطة الأمريكية للتحليل النفسي (مور وفاين 1967) ذلك التعريف المعتمد: «النرجسية: تمركز الاهتمام السيكولوجي على الأنا».

كل هذه التعريفات (التي يمكننا أن نضيف إليها «الطاقة الحيادية الخالية من الصفة الجنسية» في مقال فرويد «الأنا والهو» و «اتجاه الليبيدو»، من غير أن نتكلّم على الفَرَض الذي اقترحناه الخاص بالنرجسية أنها **مرجع** (انظر في هذا الكتاب الفصل الثاني: «تمهيدات لدراسة موقع النرجسية»)، تكوّن في الظاهر مجموعاً غير متجانس ومتناقضاً في بعض الأحيان. فمن ينكبّ على مشكل النرجسية يتعثّر بتعدّد المعاني المفارق لهذا المفهوم، تعدّد معانٍ كان لو أندرياس ـ سالومه قد درس

جانباً أساسياً من جوانبه في مقال ظهر في مجلة **فصلية علم النفس التحليلي**، عام 1962، بعنوان «توجّه النرجسية المزدوج». ويسعى المؤلف ليشرح التناقض بين اتّجاه الشخص النرجسي الذي يبحث بأي ثمن عن أن يتفرّد، وبين الاتجاه الآخر لهذا النرجسي الذي لا يمكنه أن يعيش دون علاقة انصهارية دائمة. والواقع أن النرجسية **ذات توجّه مزدوج دائماً**؛ إنها تصوّر ناجم عن منظور نقترحه، منظور يتيح لنا على هذا النحو أن نبدّد التناقض الظاهر الذي بيّنا وجوده ـ بعد تناقضات كثيرة أخرى في كل مكان ينصبّ الكلام على النرجسية. فالعامل النرجسي هو، في الواقع، عامل ديالكتيكي إلى أقصى حدّ، ذلك أنه لا يمكنه، كما سنرى فيما بعد، أن يوجد في الحالة النقيّة ويجد نفسه دائماً بالضرورة مقترناً بعوامل أخرى على نمط متناغم أو نزاعي؛ فنحن إزاء نرجسية نابذة وجابذة، أولى أو ثانوية، إيجابية أو سلبية (مندمجة أو أضيفت عليها الأثمية)، سليمة أو مرضية، ناضجة أو غير ناضجة، منصهرة بالمكوّنة الدافعية أو متعارضة معها، مناوئه لها. وسنقيّم بالحري أهمية هذه الأوضاع الديالكتيكية (نحن نستبق على هذا النحو ما سيلي) بمقدار ما نأخذ بالحسبان دور العامل النرجسي في كوكبة المراجع داخل الأنا الإجمالية كما سنتناولها بالمعالجة فيما بعد(3).

وعندما فرويد أدخل النرجسية في قلب نظريته، كانت هذه النظرية (الثنائية

---

(3) سيتيح لنا التصور الديالكتيكي على هذا النحو أن نتعرّف العامل النرجسي نفسه في اللوحات العيادية ذات الفينومينولوجيا المتباينة، التي تعارض كل واحدة منها الأخرى، لدى المرأة المصابة بالغلمة النسوية المرغمة على أن تهب نفسها لكل الرجال بفعل الحاجة النرجسية القاهرة إلى أن تكون محبوبة؛ ولدى مغوية الرجال الباردة جنسياً التي ينبغي لها أن تفتن الرجال للسبب نفسه ولكنها التي ينبغي لها، في الوقت نفسه، أن ترفض الاستسلام لهم بفعل النرجسية؛ ولدى المرأة التي تتزيّن والمرأة التي تهمل نفسها، معتقدة أنها كاملة، وذلك أمر يمضي بها إلى حدّ الهذيان. فالنرجسي هو من يحب نفسه جيداً ولكنه الذي يحب نفسه حباً سيئاً أو لا يحبها على الإطلاق. والنرجسي هو الذي ينسحب من العالم ولكنه أيضاً هو الذي يدهشه بمآثره؛ والجنسي المثلي نرجسي، ولكن الجنسي الغيري الذي يعرض رجولته نرجسي هو أيضاً، إلخ. فالتصوّر الديالكتيكي للنرجسية ليس فقط قادراً على أن يقلّص الاختلافات في اللوحات العيادية التي تقدّمها المظاهر المتباينة لعلم أمراض النرجسية، ولكنه يمكنه أن يقدّم ضرباً من تصنيف الأمراض وضرباً من وصف الأمراض على وجه الخصوص يكون تحليلياً نفسياً حقاً بدلاً من أن يكون محض اختباري، كما ورّثنا إياه الطب النفسي.

الغريزية ـ غرائز الأنا والغرائز الجنسية) تضمن له سمة ديالكتيكية يحرص عليها حرصاً شديداً وهو على حقّ. وكان يحرص أيضاً على **وجهة النظر الاقتصادية**، حجر الزاوية في بنائه الميتاسيكولوجي ونتيجة طبيعية من جهة أخرى للثنائية التي استُنبطت منها إذا جاز القول، ذلك أن العلاقة البينية الكمية لعضوي الثنائي الديالكتيكي تدخل بصورة جدّ طبيعية، بالنظر إلى أنهما متجانسان من وجهة النظر الوظيفية (الاثنان من الدوافع)، في وضع ديالكتيكي. والحال أن إدخال النرجسية، حتى نبدأ بالثنائي الديالكتيكي، زرع الاضطراب في عمله الوظائفي بوصفه كذلك. والواقع أن الثنائية الغريزية الأولى ـ كما نعلم ـ كانت قد وُضعت موضع تساؤل، كما يعرضها فرويد ذاته: «الليبيدو المتمركز على **الأنا** كان قد تلقّى اسم «النرجسية». وكان هذا الليبيدو والنرجسي على نحو طبيعي، وفي الوقت نفسه، مظهراً من مظاهر الغرائز الجنسية، بالمعنى التحليلي للكلمة، غرائز كنا مرغمين على أن نجعلها متماهية مع «غرائز المحافظة على البقاء» التي كنا قد سلّمنا بوجودها منذ البدء. **فالتقابل البدئي بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية كان قد أصبح على هذا النحو غير كاف**» (نحن الذين نضع الجملة بالحرف البارز) («ماوراء مبدأ اللذة»، ترجمة جانكيليفيتش). ونحن سننظر في نتائج هذه الأزمة للنظرية الفرويدية ـ أزمة حاسمة في تاريخ النظرية ـ فيما بعد من هذا الكتاب وسنستأنف المشكل من وجهة النظر الاقتصادية كما كانت تبدو بعد إدخال النرجسية: في إطار الثنائية الغريزية، تكون الأنا موظّفة ليبيدياً ولكن بما أن الليبيدو يمكنه أن «ينطلق» صوب الموضوع، فإن كمية الليبيدو تترجّح بين الذات والموضوع، ويستقرّ ضرب من الذبذبة بحسب المبدأ الطاقي: «كلّما امتصّ أحدهما الليبيدو افتقر الآخر»؛ فالليبيدو ذو ماهية دافعية دائماً، سواء انطلق صوب الموضوع أو ظلّ مخزوناً في الأنا.

ويبدو جيداً، والحال هذه، أن هذه القاعدة تبين، إذا كانت صحيحة على وجه العموم، غير فعّالة في بعض الحالات ومن الثابت أنه إذا كان يوجد، في الخطوط الكبرى، ضرب من التوازن والتذبذب بين حب الموضوع والحب

النرجسي، فإنه يُلاحظ على الأغلب أن الإنسان يحوز الليبيدو الخاص بعالم الموضوع كلّما **كان قادراً على أن يوظّف أناه الخاصة على نمط معيّن**. وفي مجال الذهان، شرح فرويد، إذ طبّق النظرية الكمية، بعض الذهانات بتراكم الليبيدو المسحوب من الموضوع أو من عالم الموضوع في أنا الفرد، ليبيدو يصبح على هذا النحو نرجسياً (نرجسياً ثانوية)؛ ولكن تلميذه فودرن دحض هذا الأسلوب في الرؤية إذا دافع، في موضوع الفصام، عن أفكار متعارضة كل التعارض (ففي رأيه أن «حدود الأنا» لدى الفصامي حدود **محرومة من التوظيف** نرجسياً بدلاً من أن تكون مشحونة بالليبيدو إلى حدّ كبير، فالمسألة مسألة إفقار من ناحية الليبيدو النرجسي، وذلك ما يطابق أسلوبنا في رؤية الأمور كما نعرضها تحت عنوان «الانتحار السوداوي»).

وثمة مثال يوضّح توضيحاً جيداً ذلك الخطأ في وجهة النظر الذي ارتكبته ـ يبدو لنا ـ نظرية فرويد، مثال يقدمّه لنا تصوّره «حالة العشق». وفي رأي فرويد (الذي لا يتكلّم، نقول عابرين، إلا على الجنسية، والليبيدو، وتيّار الحنان، أو «حالة العشق»، ولكنه نادراً يتكلّم على الحب)، أن العاشق يتجرّد في الواقع من ليبيده لمصلحة الموضوع الذي تُضفى عليه، من الناحية النرجسية، **قيمة كبرى**، في حين أن الفرد ذاته يتضاءل يصبح تعساً، وتلك فكرة تتوافق جيداً مع نظرية الترجّح الكمي، ولكنها لا تصمد أمام فحص مهما قلّ كونه معمّقاً. والواقع ـ وتلك معاينة بمتناول الجميع ـ أن العاشق إذا كان يضفي قيمة كبيرة على موضوع حبه، فإنه لا يشعر هو ذاته على الإطلاق أنه في حال من الانتقاص من قيمته بالمقدار نفسه؛ فالحب عاطفة ابتهاج ترفع الفرد بدلاً من أن تخفضه. حتى «دودة الأرض التي تعشق النجم» تتلقّى انعكاسات ألق النجم. فالبعد الخيالي بين دودة الأرض والنجم هو، في الواقع، من ماهية جنون العظمة، ولو أن القوة الكلية تسقط على الموضوع كما يبدو. (إن مهانة المعجب إزاء موضوع إعجابه آلية مازوخية تتيح في نهاية المطاف للفرد أن يشارك في عظمة الموضوع، سواء في حالة الوجْد لدى الصوفيين أو في حالة العشق). وفي حالة ثنائي عاشق، يكون كل منهما إسقاطاً

نرجسياً للآخر ويشارك في حالة من الحماسة تضفي القيمة إلى حدّ أعلى (الأغنية التي تتكلّم على «عاشقين متيّمين ببعضهما» اهتدت جيداً إلى هذا الفارق النرجسي الدقيق الذي يبين مع ذلك في هذا الضرب من «السيادة» (في الحب والحرب، كل شيء مباح، يقول المثل الانغليزي) التي تُعزى إلى الحب؛ فالحب يغفر كل شيء (حتى جريمة العشق مغفورة) ويُمنح العاشقون بعض الامتيازات لأن الناس يكتشفون في رؤية الثنائي السعيد إسقاط نرجسيتهم الخاصة المتّصفة بجنون العظمة والقوة الكلية. فالحب يمكنه أن يقارب، من هذه الناحية، ذلك الخلْق الفني وثمة محاولة من جهة أخرى لاعتبار بعض حالات الحب الكبيرة، التي أصبحت شهيرة روائع فنية.

فامّحاء العاشق امحاءٌ أمام موضوعه، أي مثْله النرجسي، وهو يملكه في المتخيّل على الأقلّ، وهذا الموضوع مرآة يرى العاشق نفسه فيها؛ وفي هذه اللحظة يمكنه تماماً أن يظهر بمظهر الصغير حتى يُبرز إعلاء شأن صورته الخاصة إبرازاً أفضل على غرار تاجر الألبسة العتيقة الذي يلومه الزبون على أن اللباس الذي اختاره له ذو رائحة كريهة فيجيب ساخطاً: «كيف؟ هذا اللباس كريه الرائحة؟ إنني أنا الكريه الرائحة!».

والأب الذي يسقط نرجسيته على طفله لا ينقص قدره أيضاً. إنه، في الحالة التي يضحّي بأناه الجسمية الخاصة في سبيل طفله، إنما يفعل ذلك في سبيل استطالته النرجسية.

فالترجّح بين ليبيدو الموضوع والليبيدو النرجسي ينبغي النظر إليه من منظور آخر، لا بوصفه وضع توازن بين النرجسية وليبيدو الموضوع، بل بوصفه **علاقة ديالكتيكية بين مكوّنة غريزية ومكوّنة نرجسية**.

فأن يحبّ المرء نفسه كثيراً أو قليلاً أمر غير ذي علاقة إذن بكمية ليبيدو الموضوع الذي يحوزه بل بالعلاقة بين نرجسيته وليبيده الدافعي، إذ أن نرجسيته تتيح له (أو لا تتيح) ضمن حدّ معيّن أن يقبل من الهو الخاصّ به كمية معيّنة من الليبيدو التي تُقاس، في حين أن النرجسية ذاتها، بوصفها كذلك، تفلت من كل تقييم كمي؛ ومستوى الشحنة الليبيدية (الموظّفة أو غير الموظفة نرجسياً) خاضعة

لبعض الترجّحات، في حين أن النرجسية تظلّ مستقرّة وهذه اللفظة ليست أيضاً مناسبة مع ذلك لأن النرجسية لا حجم لها و «الانتشار»، انتشار الحساسية العامة النرجسية، يعبّر بالدقّة عن حالة اللامتناهي، اللامحدود، التي تثير الحماسة.

فعلينا إذن أن نجري ضرباً من الانشطار بين النرجسية والعامل الدافعي (انظر مقال ملاحظات عن الانشطار بين النرجسية والنضج الدافعي»)، واعتبار النرجسية مستقلّة من الناحية النظرية عن العامل الدافعي. إن للنرجسية ديناميكيتها الخاص بالقياس على الشحنة الدافعية، ومن هنا منشأ الصعوبات النظرية، وتعذّر أن نمنحها تعريفاً مرْضياً، بمقدار ما نستمرّ في النظر إليها داخل الإطار الدافعي. ولهذا السبب أيضاً يجد فرويد نفسه متزعجاً في تحديد موقع لها، فهو يضعها في الأنا تارة، وطوراً في الهو (1923)، ليسكنها في الأنا أخيراً (1939).

وتتعثّر أيضاً صيغة «النرجسية متمّم لليبيدي للأنانية» بالواقع العيادي ذلك أننا نلاحظ غالباً أوضاعاً نزاعية بين النرجسية والأنا، تعارض النرجسية فيها الأنا بدلاً من أن تدعمها؛ ونعاين على الغالب أن متابعة مثال نرجسي أُضفيت عليه قيمة كبيرة تتغلّب على كل المصالح الأنانية للفرد، وذلك يمكنه أن يمضي، خلال تعاقب منهجي من الأفعال المعادية للأنا، إلى إلغائها الكامل (بالموت)[4]. فالمراهقة، المرحلة التي شرعت بعض محتوياتها النوعية تتسرّب بعمق إلى الأنا العليا الجماعية الراهنة لعالم الراشدين، تشجّع ضرباً من تفوّق النرجسية العام على الأنا، مع احتقار لهذه الوكالة المركزية الهيّابة الهزيلة التي مهمتها تنظيم نشاطات الأنا الإجمالية. والإحالات إلى مبدأ الواقع، التي تأخذ بالحسبان بعض الغرائز وضرورات الواقعي والعالم المحيط، منبوذة والواقعُ نفسه موضع نكران بفعل التمسّك بوهم نرجسي شبه هاذٍ. وقد يعترض علينا معترض أن هذه الحالة حالة

---

(4) كل منا يعرف شباباً صغاراً (المراهقة هي العمر النرجسي بامتياز) يعيشون في ضرب من الانفتاح الدائم للتقدير الذاتي المغالي والهاذي مع أنه يشعرون بالانزعاج في الوقت نفسه، أي أنهم يكرهون أناهم الجسمية الخاصة التي يبحثون عن التخلّص منها، جزئياً على الأقلّ، بفعل النشوة (ek - stase): أن يكون المرء خارج جسمه التي يؤمّنها المخدّر لهم.

مرضية، ولكن هذه الحالة تكوّن مع ذلك حالة تفلت من الصيغة القائلة إن «النرجسية متمّم ليبيدي للأنانية»، لأن الأنا هي على هذا النحو موضع الهجوم بالدقّة(5).

وحتى نرجع إلى الأزمة التي قادت فرويد إلى الحكم على نسخته الأولى من «الثنائية الغريزية»، فإن هذه الأزمة لم تكن نظريته الغريزية الثانية، نظرية الإيروس والثاناتوس(*)، قد حلّتها. ويعاين فرويد ذاته درب هذه النظرية عندما يقول: «بالنظر إلى أن الملاحظات التي أبديناها في «ما وراء مبدأ اللذة»، وإسهامات السادية في الإيروس أخيراً، ليست وقائع، فسيكون من العسير علينا أن نحتفظ بتصوّرنا الثنائي الأساسي» («الأنا والهو»). والحال أن الملاحظات التي ينوّه بها فرويد تنتمي إلى سجلّ كان حتى ذلك الزمن قد حرّم على نفسه باستمرار وبقوة ولوجَه واستخدامَه، ويستمرّ فرويد مع ذلك في أن يصفه، في العمل نفسه الذي يعرض فيه هذه الملاحظات («ماوراء مبدأ اللذة»)، أنه «محض تأملات». ويتكلّم أيضاً في المناسبة عينها على «جهد الارتفاع فوق الوقائع تماماً»، وذلك أمر يكوّن تناقضاً صارخاً مع المبادىء التي كان قد أعلنها. ويصف هو نفسه مع ذلك نظريته الجديدة بـ «الغريبة» («الفَرَض الغريب لغريزة الموت») ويضيف: «إنني لا أتبنّاها كما أنني لا أسعى إلى الحصول على تبنّيها، واعتقاد الآخرين بها؛ ويبدو لي أنه لا ينبغي جعل العامل الوجداني يتدخّل في هذه المناسبة». إنه كلام غريب، كلام عراقة وهو يكوّن في الوقت ذاته إيجاباً بالسلب. ويبدو أن فرويد يقترب في ذلك اقتراباً متعاظماً من نزاع شخصي بالنسبة له. «للأسف - يقول - ليس المرء غير متحيّز على الغالب عندما يجد نفسه أمام أمور نهائية من المشكلات الكبرى، مشكلات العلم والحياة».

ولكن هذا الفَرَض - يتابع فرويد كلامه - «ذو عيب مفاده أنه محروم من كل سمة

(5) من المؤكد أن هذا الموقف المضاد للأنانية يناسب دون أي شك ضرباً من الحاجة إلى التوازن، ويخدم الأنا إذن في نهاية المطاف وينبغي اعتباره أنا متناغمة. ولكن الجانب الذي تتوصّل به الأنا إلى النتيجة المرغوبة يطرح مع ذلك مشكلات فيما يخصّ العمل الوظائفي لهذا المرجع الأساسي (انظر في هذا الموضوع أندره ستيفان: «الكون الرافض»، المكتبة الصغيرة، بيّو).

(*) أحيل القارىء إلى «المعجم الموسوعي في علم النفس»، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة دمشق، 1999. ونقول باختصار غريزة الحياة وغريزة الموت «م».

مشخّصة وأنه حتى لا يمنح الانطباع بـ**تصوّر صوفي** (نحن الذين نضع العبارة بالحرف البارز) ... فنحن، إذ نصوغه ونتبنّاه، نفسح المجال لاتهام مؤداه أننا نبحث عن الخروج بأي ثمن من عقبة كبيرة» .

ومن الغريب أن يلاحظ المرء أن فرويد، على الرغم من أنه يُسمع هذه الأحاديث التي تعبّر بوضوح عن شكوكه وحيرته، استطاع أن يبسط النظرية ذاتها في «الأنا والهو» كما لو أن المسألة مسألة فَرَض ذي أساس علمي ثابت وصحيح تماماً . فهذه التأملات انتهت إلى أن تفرض نفسها عليه، وكما يقول، «من الآن فصاعداً لا يمكنني أن أفكّر على نحو آخر» . وليس بوسعنا، دون أن نشرع في تحليل فرويد، أن نمرّ على هذه الجملة الأخيرة دون أن نلاحظ أنها تحمل علامة قسْر وجداني داخلي، نزاعي . وإذا كان وضوح مثل هذا القسر لا يجعل الفكرة العلمية التي يرتبط بها فكرة باطلة، والحال هذه، إذا وضعنا الفكرة في سياقها، فإن هذا الوضوح لا بدّ له مع ذلك من أن تجعلنا نفكّر في الأمر .

والأمر على أي حال ذو علاقة بمحض فَرَض لا تدعمه أدلّة عيادية، فَرَض يعتبره صاحبه ذاته على هذا النحو؛ وإذ نستبعده إذن لأسباب ـ من جملة أسباب أخرى ـ فوق علمية لن يفوتنا أن نوضّحها خلال برهة، فإننا نعارض مع ذلك بدليل لم يكن قد ذُكر بعد ـ على ما يبدو لنا ـ في أدب التحليل النفسي، الأدب ذي الحجم الكبير، المخصّص لهذا المشكل المثير للاهتمام: قد تكون غريزة الموت ضرباً من ميل الحياة إلى أن تعود إلى الموت، أي إلى الحالة غير الحيّة للمادة غير العضوية، وتلك حالة كانت تسبق يقظة الحياة على الأرض . ويصعب والحال هذه، في الحالة الراهنة للعلم وفي ضوء الكشوف الحديثة الخاصة بتنظيم المادة، مركز حركات الطاقة ومصدرها، أن نحتفظ بتمايز فجّ بين المادة الحيّة والمادة غير الحية (كذلك فقد عفّى الزمن على إدخال فصل دقيق بين العالم الحيواني من جهة وعالم النبات من جهة أخرى، بعد كشف بوز (Bose) ذي العلاقة بالجهاز العصبي لدى النباتات) . أضف إلى ذلك أن فرويد يستند إلى المازوخية الأولية، وعاطفة الإثمية والارتكاس

العلاجي السلبي، ليدعم قضيته؛ والحال أن المشكلين الأخيرين تلقّيا منذئذ ـ وذلك على الرغم من فرض غريزة الموت ـ شروحاً مرْضية، أما وجود المازوخية الأولية، فإنه ما أمكن البرهان عليه قطّ؛ فالتسليم بفرض غريزة الموت لشرح هذه المازوخية هو، في جميع الحالات، تأجيل فهمه إلى أجل يُحتمل ألا يحدث أبداً.
أما آلية التكرار الذاتية، فإنها تظلّ لغزاً إلى حدّ من الحدود، إلا إذا قبلنا تدخّل المرجع النرجسي، على غرار، تقريباً، ما فهمت جـ. شاسوغه ـ سميرجلْ آلية حلم الامتحان (ملاحظة عيادية خاصة بأحلام الامتحان، في كتابها «من أجل تحليل نفسي للفن والإبداعية»، المكتبة العلمية، بيّو)، أعني أن الأنا تستأنف الفعل أو السلوك، بمقدار ما يكون تحقيقه غير مرض أو أخفق في زمنه، وتلك صدمة مرتبطة بمرحلة من الأنا منصرمة وتكوّن جرحاً نرجسياً لا يندمل (عدم جدوى جهود الفرد يرتبط بتعذّر إلغاء البعد الزمني، إلغاء هو وحده الذي ربما يمكنه أن يعيد الوحدة بين الفعل وزمنه المرمَّم).

فالمعيش (وليس غير الحيّ)، الذي يبحث الإنسان عن تكراره، هو إقامته الجنينية تماماً، وذلك وضع كان قد طُرد منه طرداً على نمط يسبّب الصدمة ولا يكفّ عن الرغبة في أن يجده مجدّداً، وهذا ميل أساسي، قاعدة فَرَضنا، فرض النرجسية. ولكن هذه الرغبة التي تُعاش بحدّة خاصةٌ بالحياة لا بالموت، ولو أن هذه الرغبة في النكوص العميق تفضي من الناحية العملية إلى الموت في بعض الأحيان؛ فاللاشعور لا يعرف مفهوم الموت، وليس ثمة شيء أكثر منطقية على مستوى معيّن من أن يكون المؤمن في بعض الديانات، منها الأكثر أهمية في عصرنا، يعتبر الموت باب الدخول إلى الحياة (الأبدية)(6).

فأن يكون ممكناً أن يرتبط هذا البحث عن الحياة السابقة على الولادة

---

(6) استيهام الأبدية (واللامتناهي) يمدّ جذوره، كما سنرى فيما بعد، في الحساسية العامة النوعية المرتبطة بـ المحدودية الزمنية للحياة الجنينية ومن المحتمل أن يكون استيهام الحصالة النرجسي (ليس ثمة أحد يمكنه أن يفعل شيئاً بي) يرتكز على الأسس نفسها. فـ«الفعل» لا يمكنه، كما رأينا للتو في موضوع آلية التكرار الذاتية، أن يُعاش على نمط ابتهاجي إلا بإلغاء التفاوت بين الرغبة في الفعل وإنجازه: «تماماً، وفي الحال».

بالخوف من الدوافع، ذلك واقع عيادي ليس موضع منازعة، ولكن تسمية «غريزة الموت» الخوف من الدوافع، الذي يمكنه أن يمضي في بعض الحالات حتى الرغبة في موت الغرائز، أمر يعني إسقاط خوفنا على مقولة نفسية تتجاوزنا بوصفنا أفراداً، وبعبارة أخرى، إسقاط خوفنا على ضرب من «الألوهية» (نحن نتبع هنا اقتراح جانين شاسّوغه ـ سميرجل). فالمسألة هنا مسألة قفزة من العيادة إلى الميتافيزيقا.

ولكن ما يكوّن في الواقع مشكلاً بالنسبة لنا في موضوع النظرية، نظرية غريزة الموت، لا يكمن في السمة محض التأملية لهذا المفهوم بقدر ما هو الواقع المذهل الذي مفاده أنه مفهوم يقبله، في مجانيته الكلية وباستعجال، كل أولئك الذين، محلّلون وغير محللين (ميلاني كلاين تشكّل حالة على حدة وفي رأيها مع ذلك أن «غريزة الموت» ليس لها المعنى «الفرويدوي»)، قاوموا التحليل النفسي مقاومة ضارية، ما دام هذا التحليل النفسي كان يلحّ على محتويات الدوافع. أضف إلى ذلك أن الأمر ذا الدلالة أيضاً يكمن في أن كثيراً من هؤلاء «الفرويديين الجدُد» يقصرون فرويديتهم على قبول النظرية المجرّدة، نظرية غريزة الموت ـ غريزة الحياة ولكنهم يرفضون رفضاً مطلقاً نظرية المراجع (الأنا، الهو، الأنا العليا)، في حين أن المفهومين كانا قد وُضعا في وقت واحد.

أيكون ذلك لأن نظرية المراجع تشتمل على واقع عيادي لا بدّ إذن من جهله؟ (وينقضّون على «محض تأملات» تتيح إعداداً فكرياً على نحو صرف مرْضياً من الناحية النرجسية بقدر ما هو في مأمن من كل إحالة إلى الواقعي، إلى العيادة، إلى البيولوجي، وفي مأمن على وجه الخصوص من الدافعيات اللاشعورية).

ولكن موقعنا يتحدّد هنا في مستوى ملاحظات سطحية ليس فحصها دون جدوى مع ذلك؛ ولكن بوسعنا أن نجازف في محاولة إبداء ملاحظات أخرى، على سبيل الافتراض المحض بالطبع. وهكذا فإننا نتساءل أليست القيمة الذاتية للفَرَض إيروس ـ ثاناتوس كامنة في واقع مفاده أنها تحمي من الجرح النرجسي الذي

يسبّبه الموت، بوصفه التَلَف العضوي (إذ يوقظ الخشية من التجزّؤ)، سيرورة عديمة الرحمة ومكّارة يُرغم كل فرد على أن يخضع لها؟ فإذا كانت الغريزة هي التي تقتل، غريزتنا نحن (التي قد تقود على هذا النحو سيرورة التلف نفسه)، فلسنا ضحايا شيء دخيل يقدم على أن يحولّنا إلى نفاية بصوزة مخزية. أضف إلى ذلك أن هذه الغريزة، غريزتنا التي نتماهى معها، قوة كونية، مقتدرة، يمكنها على هذا النحو أن تقدّم لنا قضيباً نرجسياً رائعاً على نمط قضيب اللاكاني أو قضيب المسيحي الذي يصبح «قبول الخصاء» بالنسبة له هو القضيب المنتصر.

ويكوّن ديالكتيك الإيروس-الثاناتوس منظومة مغلقة (لا مفتوحة كما يودّ بعضهم أن تكون)، بالنظر إلى أن كل شيء موجود فيها، حياً أو ميتاً، أو ميتاً جزئياً وحياً جزئياً، ولكل ظاهرة جوانب يمكننا اعتبارها تنتمي إلى أحد منحدري الديالكتيك المعنيّ. وهكذا فإنه لا يمكن أن يوجد شيء لا يُفهم بواسطة هذه التخطيطية المريحة وسيقدّم ديالكتيكٌ صالح في كل مكان جواباً عن كل الأسئلة التي ستظلّ دون حلّ مع ذلك، بالنظر إلى أن الجواب محض فكري، ذلك أن منظومة الإحالة التي ينتمي إليها الجواب تنهل معاييرها من مسلّمتها الخاصة وتدور حول محورها الخاص. وسيجد بعض معمّمي المعارف الفرويديين الماركسيين والمناورين السياسيين، على هذا النحو، تخطيطية سطحية مريحة استعمالها غير الهجومي، ولكنه ذو الوقع في النفس، سيؤسّسهم محلّلين نفسيين وهو يقدّم لهم في الوقت نفسه منظوراً من التباعد الكامل عن معاش التحليل وعن كل تقصّ عميق للاشعورهم. وهذا الوهم الذي يجلب الأمن يستند إلى أدب مزدهر بجانب التحليل وحول التحليل، مكوّناً ضرباً من الجُفاء الذي يجازف بسدّ الدرب إلى الأبد نحو بحث تحليل نفسي أصيل.

II

«ليس ثمة إنسان يحب الغير كما يحب نفسه ولا يعظّم شأن مثيله كما يعظّم شأنه ولا يمكن أن يدرك الفكر شيئاً أعظم من ذاته».

بلاك

يرتكز فرضنا، كما أكّدنا ذلك للتوّ، على المسلّمة لحالة ابتهاجية سابقة على الولادة، مصدر كل نُسخ النرجسية؛ ولهذا النسخ، المختلفة جداً في مظاهرها غالباً، قاسم مشترك يحيل دائماً إلى هذا الأصل السابق على الولادة[1].

ويبدو أن الصلة بين الحالة السابقة على الولادة والنرجسية مألوفة لفكر فرويد؛ حتى ولو أنه لا يصوغ هذه الصلة صياغة صريحة، فإنه يبدو أنه حين يتكلّم على «النرجسية الجنينية» («السيكولوجيا الجماعية وتحليل الأنا») وعلى «نرجسية

---

(1) نقدنا بعضهم لاستخدامنا مصطلح «النرجسية» للدلالة على كيانات متباينة لاتدخل في الإطار الكلاسيكي الذي يحدّده هذا المفهوم. وكنا سنحسن صنعاً ـ كأن يقولون ـ لو اخترنا مصطلحاً أكثر ملاءمة من الناحية العلمية. والحال أننا نفكّر في الاحتفاظ بهذا المصطلح الذي بان مثمراً حتى الآن، ولو أن ما يشتمل عليه يظلّ ضبابياً، إذ يفلت من تعريف دقيق، وغير مستقرّ في صيرورته؛ أليس مصير كل مفهوم أن يتطوّر وفق ديناميكه الخاص؟ أما التسمية بالمعنى الصحيح للكلمة، فذلك تفصيل غير ذي أهمية: فعلم الكهرباء لم يعان قط من أنه يحمل اسم راتنج (إلكترون).

الخلية الإنتاشية» فيما بعد (في «ماوراء مبدأ اللذة») يجد نفسه قريباً كل القرب من هذه الصياغة[2].

وتنشد هذه الصياغة على هذا النحو حالة أولية لامتمايزة تُعزى إلى الأنا مع ذلك، في حين أن المفهوم الفرويدي لـ«الأنا» لا ينطبق إلا على تكوين ذي أصل نزاعي، وبالتالي أكثر تأخراً من الناحية الزمنية، إلا إذا تبنّينا مفهوم الأنا المستقلّة لها رْتمان، وذلك أمر ينطوي على بعض المحاذير[3]. فليس إذن ممكناً إلا أن يكون المقصود عاملاً نرجسياً أوّلياً، كذلك في كتاب فودرْن («سيكولوجيا الأنا والذهانات») الذي يرى أن «الأنا موجودة منذ البدء، ذلك أننا يمكننا أن نلاحظ

(2) يفترض فرويد من جهة أخرى («في الأنا أو الهو، سيّان،») وجود «طاقة قادرة على الانتقال ويمكنها، بوصفها حيادية في ذاتها، أن تنضاف إلى ميل جنسي أو تخريبي متمايز من ناحية الكيف وتزويد شحنته الطاقية الكلية. وهذه الطاقة التي تنعش الأنا والهو، طاقة طليقة وقادرة على الانتقال، مصدرها احتياطي الليبيدو والنرجسي، أي أنها تمثّل ليبيدو (إيروس) زالت عنه الصفة الجنسية».

ويبدو أن فرويد مع ذلك يقبل في هذه الفقرة، مع أنه يظلّ في الوقت نفسه داخل إطار الثنائية الغريزية، قبولاً ضمن بعض الحدود بوجود «قوة ثالثة» قد تكون النرجسية. وتحتوي هذه الفقرة مفهوم طاقة حيادية (نرجسية طليقة، بمعزل عن الجنسية والعدوانية) يمكنها أن تنضاف إلى ميل جنسي أو تخريبي، وذلك ما يمكننا التعبير عنه، في المصطلحات النرجسية، بـ«التوظيف النرجسي للجنسية» (توظيف واندماج) أو المكوّنة السادية ـ الشرجية. وتحتوي أيضاً إلماعاً إلى السمة المستقلّة للنرجسية بالقياس على القوى الدافعية بالمعنى الصحيح للعبارة.

ويعتبر و. أ. غرين («علاقات بالموضوع مبكّرة») أن النرجسية«تحدث ضمن الرحم حصراً».

وفي رأي بينغ ماك لوجيلان ومارْبورغ («دراسة علم النفس التحليلي للطفل»، XIV)، أن النرجسية «حالة منتشرة ولا متمايزة تشحن أجزاء من العضوية شتّى»، وذلك أمر يفترض وجود نرجسية أوّلية، تماماً قبل أن يكون ممكناً تصوّر منظور سيكولوجي. ويذكر فرويد، الذي يتكلّم على «وجود عناصر ليبيدية في «غرائز الأنا»، هذه الحالة الأولية (في «من أجل إدخال النرجسية») وكأنها urzustand («أي حالة بدئية»): «الليبيدو النرجسي حالة بدئية ... إنها ليست إلا مموّهة بفعل «الإصدارات» الليبيدية الأكثر تأخّراً من الناحية الزمنية وتظلّ خلف هذه الإصدارات محفوظة» («ثلاث محاولات»).

(3) قبول مفهوم «الأنا المستقلة» يرفع في رأينا، عن نظرية التحليل النفسي، عبر نفي النشوء النزاعي للأنا، كل الديالكتيك الدافعي البدئي، واللاشعور في معناه، معنى الأعماق السحيقة، ويُدخل ميلاً (كما يحدث في الواقع) إلى الدراسة الحصرية والسطحية لـ«وظائف الأنا». والحال أن قبول هذا الاتجاه إنما الابتعاد عن الفرويدية والنكوص صوب السيكولوجيا الأكاديمية.

ضرباً من عاطفة الأنا دون محتوى»، عاطفة «تجعل الإحساس الأكثر أولية بالطبيعة الحيّة دائماً». ويتكلّم فودرن أيضاً على «طمأنينة سليمة» للدلالة على حالة من الابتهاج في **حدّها الأدنى** إذا صحّ القول وصفها جوف وصاندلر أيضاً («بعض المشكلات المفاهيمية» في «**العلاج النفسي للطفل الصغير**، 1967) اللذين يفترضان لدى الطفل ذلك البحث عن «حالة مثالية من الطمأنينة». أضف إلى ذلك أن جوف وصاندلر يشعران بالردْب الذي يجد نفسه مفهوم النرجسية الكلاسيكية فيه ويودّان أن «يحدّدا النرجسية مجدّداً بعبارات غير غريزية»، وذلك أنهما لاحظا، وذلك أمر رئيسي، أن «الحالات التي تنتمي إلى النرجسية لا تحدّدها الغرائز وحدها ولا يمكننا فهمها بعبارات ضربٍ من توزيع افتراضي لشحنات الطاقة»[4].

ويعيش الجنين ـ كما ذكّرنا بذلك عدة مرات ـ حالة من الابتهاج تكوّن ضرباً من الاتّزان الحيوي، دون حاجات، ذلك أن هذه الحاجات مشبعة بصورة آلية، ولا تتكوّن بوصفها حاجات؛ وبالنظر إلى السمة الطفيلية لحالات أيْضه (استقلاب)، فإنه لا يعرف الرغبة ولا الإشباع المرتبط بزوال التوتّر، ولكنه يعرف توازناً كاملاً؛ ولا يكوّن هذا التوازن مصدر الغبطة فحسب، ولكنه بوسعه أن يقدّم الحامل لبعض الإعدادات التي تظهر بالتالي كحالات نرجسية متميّزة، مهما قلّ ماتكون معيشةً على نمط «صرف»، أي لا اضطراب فيها ولا تُضفى عليها الصفة النرجسية.

ونحن نستأنف دراسة ما يوجد من نرجسي على نحو نموذجي في بعض التصرّفات التي لا تفرض سمتها النرجسية نفسها دفعةً واحدة على الملاحظ، لأن الفصل بين ما ينتمي إلى المكوّنة النرجسية وما هو ذي سمة دافعية أمر عسير، فالأول يظهر على حالات أقل صَخَباً وأقلّ بروزاً من الثاني. فالتصرفات الإنسانية مشبعة مع ذلك بالنرجسية على نحو عميق بقدر ما هو غير مدرك: وإذا كان فرويد قد قارن اللاشعور بالجزء المغمور من الجبل الجليدي العائم (جزء يكوّن تسعة

(4) مع أن نهج هذين المؤلفين، على خلاف نهجنا، يفضي إلى الانضمام إلى مفهوم «الأنا المستقلة».

أعشار حجمه الكلي)، فإن بوسعنا أن نذكّر في موضوع النرجسية بالغابة التي يتعذّر على المرء أن يراها بسبب الأشجار.

ويتيح تصورّ حالة الابتهاج السابقة على الولادة كما ننظر إليها أن نستنبط السمات النرجسية، كما تبدو لنا في الواقع، والشروط ذاتها، شروط الحالة السابقة على الولادة.

ذكرنا من قبلُ القوة الكلية السحرية، والبحث عن الاستقلال واعتبار الذات (على صورة إيجابية أو سلبية) بوصفها خصائص الفرد النرجسي. والحال أن الجنين، في الواقع، ذو قوة كلية وسيادة (في عالمه الذي لايتميّز بالنسبة له من العالم بالإطلاق؛ إنه مستقلّ، لايعرف شيئاً آخر غير نفسه(*) (كل المصطلحات السيكولوجية التي نستخدمها، كالذكرى والمعرفة، إلخ، ينبغي بالطبع أن توضع في سياقها، مع أننا نجهل خصائص السجلّ المقابل الخاص به). أما الشعور بـ **قيمته**، فإنه يقابل على وجه الاحتمال **عبئاً زائداً**، أي ضرباً من التضخّم النرجسي الذي يتبنين بالتالي بوصفه ضرباً من جنون العظمة الذي يتّصف بأنه التعبير الطبيعي تماماً عن هذا التضخّم النرجسي (ونحن نكتشف النظير الهوسي الصغير لهذا الجنون، جنون العظمة، لدى السوداوي، علامة معكوسة تعبّر عن حركة وجدانية معكوسة). فالقيمة مفهوم أساس في فهم النرجسية؛ وليس المقصود قيمة تعبّر عن تقدير موضوعي يمكنه أن يخضع للمعايرة، بل المقصود، بالعكس على وجه الدقة، القيمة في ذاتها، القيمة الجوهرية، دون أي حامل وغير المرتبطة بأي مزية أو أهلية، فالجنين لايعرف أياً منهما: «إنني من هو موجود»؛ ففي كل منا يعيش نرجسي يريد أن يكون محبوباً لذاته وليس لمزاياه، لصفاته، التي يمكنه مع ذلك (بالإضافة) أن يكون فخوراً بها. ونحن نصادف على الغالب، في ممارستنا التحليلية، نرجسيين يريدون أن يكونوا محبوبين **على الرغم** من عيوبهم ويلجأون، بحسب تعبير جرْمين غويي («عصاب الهجْر»)، «إلى الاختبار للحصول على الدليل». والحقيقة أن البحث عن الحب على هذه الحال، أي الحاجة إلى الإسهام

(*)- يتساءل المرء: ما التعديل الذي كان بوسع المؤلف أن يُدخله على نظريته لو أنه كتبها بعد الكشوف الحديثة لحالة الجنين؟ «م».

النرجسي الخارجي، هو الآن علامة اضطراب التوازن النرجسي، ذلك أن النرجسية «النقيّة» ذات توازن كامل مع ذاتها وليست بحاجة إلى هذا الإسهام؛ والمقصود بالطبع آلية نرجسية على نحو نموذجي ينبغي أن نميّزها من البحث التناسلي عن الموضوع، بحث يجري في السجلّ الدافعي.

ولكل فرد نزوع طبيعي لتقدير ذاته تقديراً عالياً، أو أن ينتقص من قيمته على نمط مازوخي، وذلك أمر يتّصف بأنه عكس النرجسية؛ وهذا النقص في الموضوعية إزاء الذات، الذي نعرف من جهة أخرى مظاهره العيادية ذات السمة المعكوسة بمعزل عن المازوخية، ليس مَرَضياً على الإطلاق وإن كان هاذياً في مبدأه، ذلك أنه يكوّن بالنسبة للفرد ضرورة حيوية؛ وهو، من جهة أخرى، ذو انتشار كلّي.

ونحن نكتشف آثار الهذيان «الفيزيولوجي»، إذا كان بوسعنا أن نقول ذلك، في الاعتقاد بـ **الخلود**؛ والواقع أن هذا الاعتقاد موجود إلى حدّ معين، بمعزل عن الديانات التي أُضفت عليه الصفة المفهومية وعن المظاهر الخارجية من الإسقاط النرجسي، لدى كل فرد، ولن تكون الحياة ممكنة لولاه؛ ويظهر هذا الاعتقاد على نحو عميق جداً، ويفلت من الإدراك الواعي، وبوسعه أن يكون موجوداً مع اقتناع عقلي مناقض. والحال أن هذا الهذيان إرث جنيني، ذلك أن الجنين خالد، فالزمن غير موجود بالنسبة له. وإليه إنما ندين أيضاً بالإحساس بـ **المناعة** («أنا، لاشيء يمكنه أن يحدث لي»)، إحساس يمكنه، لدى بعض الناس، أن يتّخذ أشكالاً خطرة لهم وللمجتمع معاً؛ فالجنين منيع في الواقع، في مأمن من الحوادث التي، حتى وإن حدثت ـ بعد أن تخترق هذه الوسادة التي تخمد الذبذبات، أي الأم ـ تصطدم على وجه الاحتمال بآلية كبت أولي ـ ذات أصل نرجسي أيضاً ـ نجدها مجدّداً لدى الراشد. ولكن عاطفة المناعة ترتبط على وجه الخصوص بانعدام وجود الزمن الجنيني كما أوضحنا للتوّ فيما سبق.

وترجع عاطفة **اللامتناهي** أخيراً، مع كل توسّعاتها الصوفية الكونية وذات

النزعة الروحية (كذلك العاطفة الإقيانوسية الشهيرة التي يرتبط اسمها من جهة أخرى، ارتباطاً مباشراً بالماء الأمنيوتي)، إلى إعداد لهذا المعطى البيولوجي الأساسي، الحياة الجنينية. ويلاحظ فازارلي، الذي يتكلّم على الانفعال الفني، أن «هذه الظاهرة تفسَّر بوصفها ضرباً من السموّ، وحضور انفعال من ماهية روحية. ولكننا لا نكفّ على وجه الاحتمال عن أن نحدّد موقعنا في النظام الفيزيائي (محادثات أجراها جـ. ل. فيريّه، دار نشر بيير بلْفون)[5].

كنا قد قلنا إن النرجسية كانت موجودة في الفرد منذ وجوده وكان من الضروري لنفهم فهماً مرْضياً نموّ الطفل (والراشد) النفسي الفيزيولوجي أن نجري فصلاً بين الأنا بمعناها الفرويدي (بوصفها وكالة مركزية من التنسيق أو بوصفها مرجعاً) وبين العامل النرجسي أو الذات soi (وتلك لفظة لا ينبغي أن تختلط بالتسمية المماثلة التي يدلّ بها بعض مترجمي فرويد على الهو. فماذا تقابل الذات وما هي أصول الواقع النفسي التي تشتمل عليها؟

يعيش الجنين في بعض الشروط التي عرضنا للتوّ بعض خصائصها ذات الدلالة المرتبطة بنمط وجودي. أما الحامل البيولوجي التي ترتكز عليه، فإنه معطى نهائي، وإذا كان مروره ـ على المستوى الدافعي ـ بمراحل تطوّرية شتّى أمراً ضرورياً، فإن السيرورة الناجمة عن أصله الجنيني ستحتفظ باستمرارية أساسية معيّنة خلال كل نموّه.

من أي شيء مصنوع هذا الحامل البيولوجي؟ إن المقصود بذلك عناصر تكوّن أنا المستقبل، ولكنها عناصر لا يمكنها أن تؤلّف، في المرحلة الجنينية، سوى قاع غريزي بدئي لاممايز، وبالتالي غير نزاعي. وهذا القاع يحتوي مع

(5) لسنا على وفاق تام مع فرانسيس باش هنا («انطلاقاً من فرويد»، بيّو، باريس)، ذلك أننا نحرص على أن لا يفلت من التحليل أي «بقيّة»، ولو كانت «الفضيلة، والجمال، والحقيقة، والفرد الفريد والحر». فلماذا يكون المحلّل أكثر جبناً من تين الذي يرى أن الرذيلة والفضيلة نتاجان كالسكر والخلّ؟ فنحن نغلق أمامنا، إذا منعنا أنفسنا عن تحليل الجمال، باب المعرفة الجمالية ودراسة التصعيد، باباً شرّعه فرويد وآخرون. وما الشأن بالنسبة للحقيقة؟ أبو سعنا الزعم أنها علمية إذا تركناها بمعزل عن استقصاءاتنا؟

ذلك، على صورة رشيم، الدوافع كما ستظهر فيما بعد وبوسعنا، دون احتمال الخطأ، أن نحدّد هويتها (مع فرويد) أنها الجنسية من جهة، والعدوانية أو غرائز الأنا من جهة أخرى. ويُباح لنا أن نفعل ذلك بمقدار ما يكون بوسعنا أن ندرك هذه الغرائز في ذروة نشاطها خلال ملاحظة الحياة الجنينية، على نحو ليس موضع شك. وهكذا فإن تكاثر الخلايا لدى الجنين نشاط جنسي(6). وتلك سيرورة متسارعة جداً تمثّل مضاعف الشدة بالقياس على ما لدى الوليد وما لدى الطفل فيما بعد على وجه الخصوص. أما **العدوانية**، فإنها تتجلّى بالأيض (الاستقلاب) ـ ذي الفاعلية المفرطة أيضاً في العمر الجنيني ـ الذي يستعمل المادة التي تضعها مضيفته (الأم) تحت تصرّفه، والاثنان (الأم والجنين) في حالة من الاختلاط مع ذلك. وليس الأمر ينطوي بالطبع على أن نعزو إلى الجنين قصداً ما (عدواناً أو شيئاً آخر)، فذلك سيكون غير مقبول ونحن نذكّر مع ذلك، بهذه المناسبة، أن الهضم الذي ينطوي على أطوار شتى هو النموذج الأصلي البدئي، في رأينا (انظر مقالنا الذي يتناول العلاقة الشرجية بالموضوع)، للعدوانية في مظاهرها الخام؛ فجني الطاقة وإتقان الأيْض الهضمي يُظهران الدافع إذا صحّ القول، الذي يمتدّ من الهضم إلى الجملة العضلية، والجملة السمعية، إلخ.

هذا التصورّ، تصور العدوانية، يسهل البرهان عليه، من الحياة العيادية، أكثر من البرهان على غريزة الموت(7)، ولا سيّما أنه يُتاح لنا، من خلال تحققات عديدة، أن نستنبط الثنائي النقيضي «شرجية ـ نرجسية» الذي تنطوي دراسته على فائدة كشفية مؤكّدة.

فلدينا إذن هنا بداءات أنا المستقبل، على الأقل من المنظور الذي نحدّد فيه موقعنا. ولكن ما هو مكان النرجسية في هذا السياق؟ فلْنفحص أول الأمر أسلوب العمل الوظائفي للغرائز البدئية. وقد ذكّرنا أن الجنين كان **طفيلياً**، وأن الغرائز الخام (أو مايقوم مقامها في هذه الحالة من اللاتمايز) تعمل عملها الوظائفي في إطار

(6) غريناكر يعتبر النرجسية، في «صدمة النموّ والشخصية» أنها «مكوّنة النماء الليبيدية».

(7) يستمرّ الوليد بعد كل شيء، استمراراً ليس موضع نقاش، في أن يتغذّى على حساب مادة الأم، ووجود الاندفاعات السادية التي يوجّهها إلى ثدي الأم لا تثير أي شك.

اقتصاد ليس اقتصاده، ذلك أن مضيفته، الأم، هي التي تقدّمه له. وينجم عن ذلك قبل كل شيء أن نشاطاته الغريزية تُمارَس **دون حامل نوعي جسمي**، إذ أن الجنين لا يتغذّى بمجموع أليافه أو أعضائه على سبيل المثال، بل بـ التنافذ، كذلك الطاقة، التي تجعل ما حدّدنا أنه فاعليته الجنسية يعمل عمله الوظائفي، تصله بالدرب نفسه. والحال أن هذا الاقتصاد المستعار ليس وحيد الجانب تماماً فقط، فكل شيء يُمنح الجنين ومجاناً، وذلك أمر كبير الأهمية، ولو كان يبدو أنه غير قادر على تثمينه؛ وتلك خاصّة سنجدها مجدّداً مع ذلك، فيما بعد، لدى ضرب معيّن من النرجسيين الذين يرون أن كل شيء واجب الأداء لهم، كل شيء وفي الحال؛ وهنا أيضاً يؤدّي انعدام الزمن دوره. أضف إلى ذلك أن الجنين لايمارس أي **تنظيم** غريزي، فعبء هذه الآلية يقع على المضيف، الأم(8). وهذه الآليات المنظّمة تعمل عملها الوظائفي بآلية ذاتية كاملة، أقلّه على المستوى الذي تتلقّى فيه العضوية الجنينية نتائجها تلقائياً، ودون عيب من حيث المبدأ. وهذا الوضع لا يمكن أن يفوته إثارة ضرب من الغبطة. وإلى اللذة محض الوظيفية («يقول الله للنور كنْ فيكون النور؛ ويرى الله أن النور كان مناسباً... ، إلخ») يُضاف اللاتمايز الدافعي، الذي يولّد النموذج الأصلي للتناغم العميق، تناغم سيبحث عنه الإنسان بحثاً شغوفاً فيما بعد، تناغم لا يتمايز ـ الحلْقة انغلقت ـ من الحزمة قبل التناسلية المتجمّعة تحت مصطلح **الأولية التناسلية**. والمقصود هذه «الحالة المثالية من الغبطة الوجدانية على نحو تامّ، التي ترافق عادة ذلك العمل الوظائفي المتناغم والمتكامل لكل البنيات البيولوجية والذهنية» (جون وصانْدر). ويحدّد هذان المؤلفان موقع النرجسية الموصوفة على هذا النحو في مرحلة ما بعد الولادة، ولكننا نجدها مجدّداً في المرحلة الجنينية، بالنظر إلى أن الذكريات التي يحتفظ بها الإنسان لها (أرض النعيم، الفردوس، العصر الذهبي، إلخ ...) تحمل بصورة

---

(8) هذا الانتظام في الاقتصاد هو أيضاً مصدر من مصادر الأمن، عامل سيكون بوسعنا تقييمه عندما سيكون علينا أن نلاحظ خوف الطفل أمام دوافعه والصعوبة التي يعانيها أمام إدماج أوهي زيادة في الشحنة الدافعية قياساً على درجة نضجها بهذا الصدد، ونحن نعلم من جهة أخرى تلك الأهمية التي يعزوها فرويد إلى الاتّزان الحيوي في نظريته الليبيدية.

بارزة جداً تلك البصمة المميّزة، بصمة الشروط الحياتية السابقة على الولادة[9]. وتبرهن هذه الذكرى أن الحياة السابقة على الولادة تترك أثراً عميقاً في الطفل الذي يولد، لأنه لا يكفّ عن الحلم بها وإرادة تحقيقها مجدّداً على أنماط مختلفة (انظر «الصورة القضيبية» في هذا الكتاب). وهذا الأثر من البهجة المتصف بجنون العظمة ـ الذي لن تُمحى ذكراه أبداً، ذكرى الانسجام والقوة الكلية ـ سيكوّن بوصفه كذلك **الحلقة النرجسية**، مصدر طاقة نفسية نوعية هي مكتسب مبكّر ونهائي يلبث نشيطاً من الولادة إلى الموت وما بعد الموت ـ وحسبنا أن نضع أنفسنا من أجل ذلك في منظور صوفي. وبوسعنا أن نقول مؤقتاً، إذا أخذنا بالحسبان ماهية النرجسية ولاحظناها كما تبدو في مشتقّاتها، إن النرجسية هي في وقت واحد:

ذكرى حالة ابتهاج ذات امتياز وفريدة.

غبطة ترتبط بهذا الذكرى بوصفها كمالية وقوة كلية.

فخر، بأن المرء عاشها، يرتبط مع ذلك بوهم **الوحدانية** التي كانت واقعية خلال الحياة الجنينية، وذلك موقف من مواقف جنون العظمة يرتبط به مفهوم **القيمة**، المكافىء النفسي للحساسية العامة المقابلة.

علاقة بالموضوع معيّنة، سلبية وإيجابية معاً، «عزلة رائعة» وبحث جارٍ عن علاقات الانصهار، عن علاقة مرآوية، وتلك مفارقة ستستوقفنا فيما بعد.

الرغبة في **إيجاد الفردوس المفقود من جديد** ونبذ هذه الرغبة التي ترغبها الأنا العليا. (هذه الفترات من اللقاءات تعني بالنسبة للإنسان توحّده بالله).

الاندماج الناجم لهذا العامل النرجسي في الحياة الدافعية خلال حركة

---

(9) ما وضع حداً لهذه السعادة الفردوسية للإنسان كان بالفعل، بحسب التوراة ـ ظهور التفاحة، أي ثدي الأم، الذي يرمز على هذا النحو إلى التغيّر الطارىء في أيْضه والأنتقال من نمط من التغذية الآلية إلى نمط يرتبط بثدي الأم يتّخذ بالنسبة للوليد تدريجياً تلك المميزات الخاصة بالصفة ذات العلاقة بالموضوع والخارجية (لا حاجة إلى القول إن هذا الرمز تحدّده عوامل متضافرة ويحتوي ـ بين ما يحتوي ـ الوضع الأوديبي، الإثمية، الخصاء).

تطورية من النضج، وكذلك للتقنيات المختلفة التي تنشد تحقيق فترات اللقاء النرجسي على نمط بديل ومصطنع.

الخيار المبدئي **لاختيار الحلّ النرجسي** وصعوبة إبداله بحلول أخرى أكثر إرضاء من الناحية الاقتصادية (كل رجوع إلى الواقع محتقر ومنبوذ).

مفاهيم «**الخسارة النرجسية**» عندما يخفق العامل النرجسي في ماهيته.

«**الجرح النرجسي**» الذي تفرضه الأنا بواسطة مثال الأنا (النرجسي) الخائب.

«**الإذلال النرجسي**» الذي يكمن في رأي إيدلْبرغ («فصيلة الطب النفسي»، تموز 60») في خجل الأنا من عجزها عن أن تسود سيادة فاعلة ما تلقته تلقّياً منفعلاً، إلخ، إلخ(10).

فالصيرورة النرجسية توجد على هذا النحو مرتبطة بالحياة الغريزية السابقة على الولادة، ولكن خصائصها الأساسية تبدو وكأنها ترجمة الواقع الذي مفاده أن الجنين يجهل التربة التي ينمو فيها جهلاً تاماً، والشروط الموضوعية لتطوّره أيضاً. ويبدو أنه يعيش في كون يملأه وجوده فقط من الناحيتين المادية وجنون العظمة على حدّ سواء. ويحتفظ من هذا الكون ببصمة حاسمة تقدّم له السجلّ الذي تتبنّين فيه خاصيّاته النوعية مشكلّة فيما بعد شكل حالات وحالات انفعالية كعاطفة الوحدانية، وحب الذات، والعلم الكلي، والمنْعة، وجنون العظمة، والقوة

---

(10) فأن يكون الفخر (توظيف ذاتي نرجسي) مشتقّ حساسية عامة بالتضخّم النرجسي دون محتوى ودون حامل، ذلك أمر يبرهن عليه الواقع الذي مفاده أنه ليس له حامل أو محتوى أو بالحري أن أي شيء يمكنه أن يقوم بالنسبة إليه مقام الحامل أو المحتوى. والمرء يمكنه أن يوظّف نرجسياً ما لايمكنه أن يكون فخوراً به من الناحية الموضوعية، ويمكنه بالعكس أن لايكون فخوراً بما يسوّغ توظيفاً نرجسياً من الناحية الموضوعية. فالمهمّ في الواقع إنما هو ذكرى التضخّم النرجسي في الذات، فالمحتوى، غير ذي البال في ذاته، ليس سوى عقلنته السطحية وغير القابلة للتبادل مع ذلك. والمرء يمكنه أن يكون فخوراً بما هو عليه وبما ليس هو عليه، بما يملكه وبما لا يملكه، أياً كانت الذريعة: فالمثل الأكثر نموذجية هو المثل الذي يقدّمه الرجل الذي عرفناه وكان فخوراً جداً بأنه لم يأكل البطاطا قط.

الكلية، والخلود، والاستقلال الذاتي، إلخ. والحال أن هذه الخصائص جميعها هي صفات الألوهية في الوقت نفسه، وبوسعنا القول **إذا كان الله خلق الإنسان على صورته، فالإنسان خلق الله على صورته السابقة على الولادة**. وبوسعنا في هذه المناسبة، إذا طبّقنا المبدأ التكويني، أن نشير إلى أن الوضع الذي رسمنا للتوّ خطوطه العامة موجوداً أيضاً في سمة النرجسي الذي يعتبر نفسه مآل قمة من الكمال، موجوداً على نحو تلقائي، رافضاً كل بنوّة وحتى كل تسبيب عقلاني. إنه يتغذّى من منابعه الخاصة ويستمدّ قيمته من مجرّد وجوده «بوصفه كذلك».

ويستمرّ الطفل أول الأمر، بعد الولادة، في أن يعيش على النظام النرجسي الأصلي ذاته، المماثل من وجهة النظر الاقتصادية لنظام الحياة السابقة على الولادة؛ والمحافظة على هذه الحالة ييسّرها أول الأمر نوم شبه دائم وييسّرها، كما بيّن فورنْزي في دراسته «مراحل اكتساب الحسّ بالواقع»، جهد المربين في أن يعيدوا حوله أيضاً، خلال بعضٍ من الزمن، إنتاج شروط الوسط الذي أتى منه للتّو. فثمة، من جهة أخرى، مجال للاعتقاد أن الطفل يمكنه على أي حال، بفضل الآلية التي وُصفت باسم «إشباع الرغبة الهلْوسي» وتعمل عملها الوظائفي بوصفها تتمّة طبيعية للحساسية العامة النرجسية السابقة على الولادة (على النحو الذي يحتفظ المخصيّون، خلال بعضٍ من الزمن، بقدراتهم على التزاوج)، أن يحتفظ خلال زمن معيّن بحالته النرجسية ذات الاتزان الحيوي.

ولكن وجود هذه الخديعة محدود، ذلك أن الإحباطات الطارئة بالضرورة لا يفوتها أن تلقي الطفل في صدمة مزدوجة: إن عالمه الابتهاجي يضطرب اضطراباً عميقاً، من جهة، ويجد نفسه من جهة ثانية أمام مهمة توجب عليه أن يبنْين اقتصاده على قاعدة ذات علاقة بالموضوع والدوافع. وقبل أن نقيّم الصعوبات التي تنشأ من هذا التغيّر الأساسي، ينبغي لنا أن نتذكّر الخصائص المختلفة، بل النقيضية، خصائص الاقتصاد النرجسي من جهة والخصائص التي تميّز الاقتصاد الدافعي من جهة أخرى؛ فعليه أن يصبح، من الطفيلي النرجسي الذي كانه، فرداً فاعلاً يحمل، من الآن فصاعداً، على ظهره عبء وجوده (إنه

مطرود من الفردوس وينبغي له أن يؤمّن حاجاته «بعرق جبينه»)؛ أضف إلى ذلك أن عليه أن يستخدم جهازاً (عضويته) ذا وظائف كثيرة، ولكنه جهاز غير مكتمل. وكان يعيش قبل الولادة في ضرب من النعيم المستقرّ والابتهاجي، في حين أن الإثارات تنقضّ عليه الآن وينبغي له أن يجنّد ويطوّر ويصون آليات مختلفة ليكون بوسعه أن يسود الانقلابات التي تطرأ باستمرار وتقوّض توازنه، سيادة تترجّح بين الجيّدة والرديئة.

ولا يتخلّى الطفل الموضوع أمام هذه الصعوبات - إذ ظلّت الظروف هي ما هي عليه - عن مكوّنات اقتصاده النرجسية لهذا السبب، فالانتقال العسير من نظام إلى آخر متعذّر بالنسبة له، ولكنه بحاجة من أجل ذلك إلى أن ينظّم هذا الانتقال، وينبغي أن يساعده المربون الذين يقدّمون له العناصر النرجسية الضرورية من الخارج، تجنّباً لانهيار عالمه النرجسي المستقلّ؛ إنه يقرأ تاكيده النرجسي في عيني أمه؛ تأكيد الواقع الذي مفاده أنه فريد، وأنه موضع الاعتبار لأنه ذو قيمة. والتّيار النرجسي نفسه يقدَّم له من الخارج والداخل، وذلك أمر يتيح له - بالتوازي مع ضرب من التكيّف مع عالمه الجديد - أن يحتفظ في نطاق معيّن بعاطفته، عاطفة القوة الكلية وكماله النرجسي اللذين اضطربا بفعل الأزمة التي عاشها.

أما الدفعة الليبيدية، فإننا نعلم أن الطفل يعاني صعوبة في الاضطلاع بها وأنها تخيفه، وذلك أمر مفهوم إذا فكّرنا بكل العمل من إعادة التبنين الاقتصادي الذي ينبغي للطفل أن يجريه. وتقدّم غريزة الأنا للطفل، في رأي فرويد، تلك الطاقة الضرورية لمكافحة جنسيته، وإذا كانت اندفاعاته الدافعية تحرّضه، فإنه لا يمكنه أن يفلت من وضع يسبّب الصدمة لأنه غير ناضج قياساً على غرائزه وتنقصه مجموعة من الأجهزة المناسبة لإشباعها. إنه متوتّر بسبب انفعالات قوية تخيفه في الوقت نفسه. «شعرت، كتب بودلير يقول، أن في فؤادي عاطفتين متناقضتين: الرعب من الحياة ووجْد الحياة». وسيبحث الطفل إذن، أمام هذا الخوف، عن الاحتفاظ بحالة الابتهاج لديه وعن تدجين دوافعه في هذا الاتجاه؛ إنه سيدمجها في حالة الابتهاج لديه، إذ يضفي عليها الصفة النرجسية، ومن هنا منشأ أهمية الحياة الاستيهامية التي يعيشها. وهكذا فإنه سيستقرّ في نزاع دائم بين دوافعه من جهة

ووجهة النظر النرجسية من جهة أخرى، وسينتهي ـ لكي يستند إليها في هذه المعركة ـ إلى أن يُسقط جزءاً منها على تكوين مناسب ذي رتْبة المرجع، «مثال الأنا»(11).

كان لو أنْدرياس سالومه قد كتب يقول («الصحيفة الفرويدية للو أندرياس سالومه»، مطبعة هوغارث، 1965): «ترافق النرجسية كل راقات تجربتنا وبصورة مستقلّة عنها؛ فليست النرجسية فقط مرحلة غير ناضجة ينبغي تجاوزها، ولكنها هي أيضاً رفيق حياة وتتجدّد دائماً». والواقع أن النرجسية ليست قابلة للتلَف وما يتطوّر إنما هو الأنا التي ينبغي لها، في كل مرحلة من تطورها، أن تتلقّى العلامة المميِّزة للنرجسية حتى تستعيد مكانها ـ معدّلة ـ في الأنا الإجمالية. والدور الذي تؤدّيه النرجسية في هذه الإعادة الدائمة للتبنين دور صامت يكون باعثاً على ضروب من سوء الفهم عندما يقتضي الأمر أن نتعرّفه عليه، ذلك أنه لا يمكنه التأثير إلا عبْر المراجع الأخرى (إذ ينقصه الحامل الجسمي النوعي)، بل إن عليه، حتى يعبّر عن

(11) المجتمع الذي نعيش فيه طوّر ضرباً من حضارة الوفرة بفعل تقدّم تقني ذي إيقاع متسارع إلى حدّ يوجد تفاوت بين سرعة هذا التقدّم وإمكاناتنا لإدماجه؛ فنحن لا نعاني فحسب، صعوبة في قبول الإشباع الدافعي الذي يسهم به الرفاه المادي بفعل التقنية، ولكننا نعاني كفّاً أمام التقنية في ذاتها، بالنظر إلى أنها تنتمي بماهيتها إلى **المكوّنة الليبيدية السادية الشرجية**. والقرينة التي يبدو أنها تؤكد ذلك إنما هي أننا، في نفس الوقت الذي نندّد بمحاذير **مجتمع الاستهلاك** (المسمّى مجتمع الوفرة أول الأمر، ولكن المفارقة كانت صارخة جداً)، نبالغ قصداً في الخطر الذي تنطوي عليه لازمته الطبيعية، **التلوّث**؛ والحال أن هذا الذعر، على الرغم من أن ضرباً من الواقع يسوّغه، غير متناسب بصورة بارزة إلا إذا اعتبرنا ردّ فعل الناس استجابة لاستيهام شرجي نموذجي (التلوّث) يخيفهم خوفاً يجعل المرء يفكر بردّ فعل الناس أمام كل تجديد تقني للسبب نفسه على وجه الاحتمال؛ فلْنتأمل هذه اللجنة الطبية التي كانت تخشى أن يعرّض القطار السائر بسرعة 12 كم في الساعة للخطر كمال المسافرين الذهني والجسمي. فنرجس كان قد انصرف عن غواباته في الحب الجسدي؛ وكان قد رفض البحث العاشق عن الجنسين وبين أشيائه التي رفضها نتكهّن، خلف إلهة الصدى (التي كانت، حسب نسخة بوزانياس، أخته)، أمه التي كانت أيضاً إلهة الماء والغاب مع ذلك. وما كان يفتنه أمام سطح الماء إنما هو ـ خلف وجهه الخاص ـ تلك العودة إلى الماء الأمينيوتي، وذلك نكوص نرجسي عميق. ولكننا يمكننا أن نضيف أيضاً إلى ذلك أنه كان سعيداً خلال تأمّله صورته الخاصة المنعكسة في الماء، إذ أن موته كان مرتبطاً بالهجمات المتكرّرة الجنسية ذات علاقة بالموضوع، جنسية كان يُسقط مصادرها على الخارج.

نفسه، أن يستعير مجموع أدواتها. فالنرجسية تستخدم الليبيدو على هذا النحو، ولكنها متميّزة منه، وهذه الحركة التي تضفي النرجسية والقيمة، حركة الذات، هي التي تشحن الأشياء ليبيدياً والأنا ذاتها أيضاً، وصيرورتها، وأفعالها، وإشباعاتها الدافعية، التي نسميّها **«التوظيف النرجسي»**. إنه تتمّة ضرورية لكل ما يجري داخل الأنا ويكوّن مفتاح نموّ المنظومة الخاصة بالأنا في الاتجاه الإيجابي والسلبي، فالليبيدو يأتي من الهو، والأنا يمكنها على نحو من الأنحاء أن تفيد منه بفضل التوظيف النرجسي. وفي هذا المعنى إنما نفهم هذه الفقرة لـ «الأنا والهو» حيث يتكلّم فرويد على «هذا الجزء من الليبيدو الذي يوجّهه الهو لتوظيف الموضوعات جنسياً، في حين أن الأنا المعزّزة، وهي تترعرع، تحاول أن تستولي على هذا الليبيدو ذي العلاقة بالموضوع، الذي يقدّم نفسه للهو بوصفه موضوعاً».

وهذا هو ما يحدث من جهة أخرى في **العلاج التحليلي**، إذا نظرنا إليه دائماً من الزاوية النرجسية: إن السيرورة التحليلية تتيح للفرد توظيفاً ذاتياً متنامياً، فالأنا يمكن أن يكون بمتناولها كمية من الليبيدو متعاظمة، وذلك أمر يعدّل مواقفها من نزاعاتها ومواقفها بالنسبة إلى الأنا العليا؛ أو نقول بعبارة أخرى إن الأنا تكون تابعة تبعية أقلّ لأناها العليا ولحبّها ويمكنها، بدلاً من أن توظّف هذا المرجع، أن تحب نفسها حباً متنامياً؛ وينتقل ليبيدو الهو إلى الأنا. وتميل هذه السيرورة نحو حالة مثالية تجد الأنا نفسها فيها، إذ دمجت دوافعها ووظّفت محتواها هي، في وضع يماثل في ماهيته تلك الحالة الابتهاجية السابقة على الولادة، إذ تتحقّق هذه الحالة في كل طور من أطوار السيرورة على نمط أكثر تطوّراً. وإذا كنا في هذه الحالة نتكلّم على **كمال نرجسي**، فإننا نريد أن نتكلّم على توليف الدوافع الناجح وعلى النرجسية في إطار الأنا، وتلك حالة تمثّلها العلامة القضيبية («الصورة القضيبية») في اللاشعور.

وهذا الديالكتيك الدائم بين الدافعية والذات النرجسية ـ ديالكتيك ذو جوانب عيادية متنوّعة جداً ويقتضي أن يُدرس دراسة تفصيلية ـ لا ينبغي أن يغرب

عن البال في العلاج التحليلي، كما يذكّر به فان دير والز في تقريره عن النرجسية (**المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**، 1949): «في التأثيرات المتبادلة بين تفسير الواقع والجهد للمحافظة على عاطفة الذات إنما يكمن مجموع مشكلات النرجسية التي نواجهها جميعاً في ممارسة التحليل النفسي». ويتكلّم فودرنْ، نفسه، على عاطفة الأنا، العاطفة ذاتها، التي جعلناها فيما سبق مماثلة للنرجسية، «عاطفة يجعل نقصها الفرد عاجزاً عن التمتّع بأي شيء كان» (عن أن يدمجه نرجسياً) ويستشهد بغوته: «كل الكنوز تحت تصرّفه ولكنه عاجز عن أن يمتلكها». ونحن نذكّر في هذا الموضوع بالدور الحاسم على نحو فريد، الدور المعزوّ إلى المكوّنة السادية الشرجية في سيرورة الإدماج، وذلك أمر يطرح مشكلات شائكة بالنظر إلى النقيضة الأساسية بين العاملين (النرجسية والشرجية).

III

عندما أدخل فرويد مفهوم النرجسية في نظرية التحليل النفسي، ارتكز بصورة أساسية على دراسة النوم، وتوهّم المرض والذهانات؛ وقد يكون مفيداً ـ في رأينا ـ أن نطبّق وجهة نظرنا على فحص هذه الكيانات. فلْنلق أول الأمر نظرة على النوم في ضوء حركة الديالكتيك بين النرجسية والمكوِّنة السادية الشرجية.

فالفرد يسحب، في النوم، ليبيده من العالم المحيط ولكنه أيضاً يسحبه، وعلى وجه الخصوص، من أناه الجسمي بوصفها حاملة المكوِّنة السادية الشرجية التي تجد نفسها موضع الاتهام قبل كل شيء: تتزامن الرغبة في النوم مع فترة الإنهاك الطاقي أو مع الرغبة في الهروب من الواقع. إن **الحركية** تابعة لهذه المكوِّنة ونحن نعلم أن النائم **يغوص في النكوص النرجسي** بعد أن يغلق (ويغلق عينيه في الوقت نفسه) دروب الوصول إلى حركيته.

وينتمي حلم الحالم إلى هذا النكوص النرجسي، ونحن ننظر في الانتقال من الحلم إلى الكابوس (ثم إلى اليقظة) لندرس الديالكتيك بين البعد النرجسي والمكوِّنة الشرجية.

فالحلم تحقيق رغبة، ليس فقط بتطبيق الآليات الحلمية النموذجية للسيرورة الأولية (استخدام الصور، الترميز، الانزياح، التكثيف ...)، ولكنه أيضاً بواقع مفاده أن المسألة ليست مسألة فعل طاقي واقعي يجنّد الحركية، ذلك أن كل شيء يحدث على النمط الاستيهامي. وهذا التفاوت فيما يخصّ المستوى هو الذي يتيح الإشباع (إلى حدّ معيّن ومع التحوّلات المقابلة للرغبة، ذلك أن علينا أن لاننسى الرقابة ونجوعها الجزئي) جرّاء نمط الفاعلية الحلمية. فإقصاء المكوِّنة الشرجية

يشجّع تكوين الاستيهامات، ويجري تكوين الاستيهامات على نمط نرجسي نكوصي: «ليس سوى حلم»، معاينة متساهلة تصبح على الغالب شعورية قليلاً أو كثيراً داخل الحلم، داخله نفسه. والحال أن الأنا، التي تقودها الاستيهامات الجنسية المحارمية التي يتعاظم بروزها ويقلّ تمويهها، تجد نفسها في صراع مع التوتّر الدافعي الذي يجبرها ضغطه الصادر من الأنا العليا على أن تدافع عن نفسها. ويعارض الحالم تدخلّ هذا العنصر الغريب ويودّ أن يحافظ على كمال البعد الحلمي (ولو لم يكن إلا ليكون بمقدوره الاستمرار في النوم، كما يقول فرويد) ويُسقط، لهذا الهدف، على أشكال الحلم، الذي أصبح كابوساً، دافعه المتزايد الضغط الذي يدفع إلى هجر المستوى النرجسي، بالنظر إلى أن الدافع يتجاوز النمط الاستيهامي النرجسي الفموي ويبحث عن تجنيد المرحلة التالية، المرحلة السادية الشرجية، والحركية بالتالي التي يكون كمالها أمر لاغنى عنه للتحقيق الدافعي. وبوسع الحالم أيضاً أن يبحث عن الهروب من دافعه المسقَط الذي يضطهده، بل بوسعه أن يحلم بهذا الهروب، ولكن هذا الهروب، بوصف الحالم مدفوعاً إلى أن يهجر البعد الحلمي بالمعنى الصحيح للعبارة هجراً تدريجياً، يميل ميلاً متعاظماً إلى أن لا يتحقّق على نمط الحلم (نرى الحالم يتقلّب على فراشه ويرسم حركات)، بل على نمط الواقع، مع تجنيد فعلي لحركيته ومحاولة لنطق أصوات تعبّر عن الجهد الذي يبذله الجهاز الصوتي. وضدّ هذه الرغبة ـ بسبب المستوى الذي تقع عليه ـ إنما يدافع الحالم عن نفسه بالكفّ الحركي النموذجي للكابوس، الذي يهاجمه الدافع مع ذلك، دافع يتعزّز على نحو مستمرّ (بفعل المكوِّنة الشرجية، على الرغم من محاولة إسقاطها)، فالحصر المرافق ينبغي أن تقع مسؤوليته على التوتّر الدافعي الذي يزداد تهديده، على انهيار الدفاع بفعل الهروب والنزاع بين الرغبة في البقاء على مستوى الحلم وغزو المكوِّنة الشرجية (وذلك أمر منطقي لأن الحالم يخضع حتى اليقظة، التي لا تلبث أن تحدث، لقانون النكوص النرجسي النوعي الذي ينطوي على ضرب من رفع التوظيف عن الحركية).

وتكون الوجوه المكشّرة والمرعبة التي يراها الحالم في كابوسه إسقاطات شرجيته الخاصة كما تبدو بالضرورة، فالتوظيف النرجسي لهذه المكوّنة كان قد انسحب عنها (رفع التوظيف النرجسي يفضي إلى «إضفاء الشرجية»، وتلك سيرورة وصفناها في دراستنا «انتحار السوداوي»). إن الأنا التي يراها الحالم هي أنا **غريبة**، هذه الأنا المغتربة حاملة دوافعه المنبوذة الممقوتة تصبح مضطهده. ففي الفترة التي يعود إليه جزء منبوذ من أناه و «مُضفى عليه الشرجية»، على شكل مسوخ، وتلك حركة تلغي الإسقاط الذي يحاوله النائم، إنما يستيقظ، ذلك أن التوتّر يصبح غير محتمل.

أما **الفصامي**، فإنه ـ كما نعلم ـ ينكص نكوصاً نرجسياً ذا مستوى خاص. ففي أي شيء يكمن هذا النكوص ولأي شيء يستجيب؟ إن الفصامي سحب ليبيده بحسب النظرية الكلاسيكية، من عالم الموضوع وأناه هي التي تتلقّى هذا الليبيدو، الذي يصبح على هذا النحو ليبيدو نرجسياً (ثانوياً). فأناه إذن مركز شحنة ليبيدية زائدة. فكيف نفهم في هذه الحال شكواه من أنه أُفرغ «وامتُصّ دمه» (سُرقت رجولته وسرق فكره، إلخ)؟

يُنجز الفصامي في الواقع نكوصاً يمضي من «حالة من الأنا» إلى حالة أخرى. والحال أن هذه «الحالات من الأنا» موظّفة من الناحية النرجسية على نمط مختلف، بالنظر إلى الدرجة المختلفة لنضج هذه الحالات من الأنا؛ فالمريض نكص إلى «حالة من الأنا» مبكّرة جداً من تطوّره، تقابل أنا الطفل الصغير ـ تنظيم للأنا مجزأ ومشتّت ـ التي لم تتلقّ بعدُ توظيفاً إجمالياً فيما يخصّ أناه الجسمية. وتتلقّى مبدئياً هذه الأنا **الطفلية** زادها النرجسي **من الخارج** والأم هي التي تحمله إليها. أما أمهات الفصاميين، فإننا نعلم أنهن «لا يحببن أطفالهن على نحو مطلق، غير مشروط، فليس لهن مع أطفالهن سوى علاقة «خارجية» ولا ينفذ إليهن أي انطباع يكون مصدره ما يجري داخل الطفل»[1]. إنهن، بالإجمال، غريبات عنهم. ونفهم في هذه الحالة أن الفصامي الذي ينكص إلى هذه المرحلة يجد نفسه «فارغاً». كلياً فأناه الجسمية الراشدة من الناحية الفيزيولوجية التي تكون مركز إثارة

---

(1) هيل، لويس ب.، «تدخّل العلاج النفسي في الفصام»، مطبعة جامعة شيكاغو، ١٠٥٥.

ليبيدية قوية تجد نفسها ـ جرّاء نكوصها ـ في حال من سحب توظيفها النرجسي قياساً على شحنتها الدافعية، وفي حال من نقص التوظيف النرجسي الذي يجعلها عاجزة عن استقلاب الإثارات التي تصل إليها، فاقتصادها النرجسي كان قد أُضفي عليه النزاع في المرحلة السابقة (مرحلة الموضوع الجزئي والأنا المجزّأة. انظر توشْك «الالة التي تؤثر في الفصاميين»). إنه يعيش هذه الشحنة الليبيدية كأنها غريبة عنه، كأنها خطر على أناه يتجاوز إمكانات اندماج هذه الأنا، وذلك أمر يفضي إلى أزمة حصر شبيهة بالأزمة التي يعانيها الحالم في كابوسه، إلى درجة يحدث له أن يشوّه نفسه جنسياً، معتقداً أن بوسعه أن يوقف على هذا النحو مصدر الإثارة الذي يريد أن يتخلّص منه بأي ثمن (المقصود بالطبع، كما في حالة الكابوس، استيهام أوديبي وقد تسوّل للمرء نفسه أن يفسّر فعل التشويه الذاتي بأنه عقاب؛ والواقع أن أوديبه لا يزعجه بوصفه كذلك؛ إنه يعبّر عنه ويسعى إلى تحقيقه في بعض الأحيان).

ونعلم في أيامنا هذه أن الفصاميين يمكنهم، على عكس الرأي الكلاسيكي، أن يفيدوا من علاج تحليلي في بعض الظروف. ونحن نذكّر، لندرك ما يحدث في هذه الحالات، بالملاحظة الخاصّة بأم الفصامي التي عازها الطفل في فترة معيّنة من حياته عوزاً وظيفياً ـ والفصامي يعاني جرّاء كون نكوصه المرضي يجعله يلحق بـ «حالة الأنا» المقابلة لهذا النقص. والحال أن المعالج، إذا أدرك هذا الوضع في التحويل المضادّ وتدارك هذا النقص بسلوكه، يمكنه أن يساعد المريض على أن يهجر تثبيته.

ونحن سندلي، قبل أن نقفل هذا المدخل، ببعض الملاحظات عن **الإثمية النوعية المرتبطة بالنرجسية**؛ والمقصود بالطبع مجرّدُ محاولة توجّهٍ نعتقد أن من المفيد أن نجعل نصّ سيوران المستمدّ من مقاله «الرغبة في المجد والرعب منه» (N.R.F.، 1963) يسبق هذه المحاولة:

«لو أن كل فرد منا يعترف برغبته الأكثر سريّة، الرغبة التي تُلهم كل مشروعاته وكل أفعاله، لقال «أريد أن أكون موضع مديح». فأي إنسان لن يعقد العزم على ذلك، لأن من المعيب جداً أن يرتكب الإنسان منكراً من نوع الإعلان

عن ضعف يثير الشفقة إلى هذه الدرجة ويسبّب الذلّ بهذا المقدار، ضعف ينبعث عن عاطفة العزلة وانعدام الأمن اللذين يعانيهما المنبوذون والمحظوظون بدرجة متساوية في الشدّة. فليس ثمة شخص واثق مما هو عليه، ولا مما يفعل. ومهما كنا مشبَعين بمزايانا، فإن انشغال البال يقرضنا ولا نطلب، لنتجاوزه، إلا أن نُخدع، إلا أن نتلقّى الاستحسان من أي جهة كانت ومن أي إنسان كان. فالعاهة كلية؛ وإذا بدا الله سليماً منها، فالسبب أنه لم يكن بوسعه، ما إن اكتمل الخلق، أن يتوقّع ضروب المديح بسبب غياب الشهود. فمنحها نفسه في الحقيقة وفي نهاية كل يوم».

ويعبّر هذا النّص عن حالة نفسية قد يبدو لنا مفيداً أن نحصي عناصرها المكوّنة المختلفة: والمقصود بالطبع تعبير عن رغبة لا حدّ لها في التأكيد النرجسي وثمة إلماعات إلى هذه الحالة من التعاسة والمثيرة للشفقة، التي تقتضي هذه الرغبة. ولكن كون المرء تحت رحمة الحب الصادر عن الآخرين أو إضفاء القيمة أمر مهين. وهذه الحاجة تعود في الواقع إلى الصرخات الأولى للطفل المتوحّد والفاقد الأمن الذي يمثّلنا نحن، أصحاب عاهة حقيقيين (ويبين مع ذلك، خلف الشكوى اليائسة لفاقد المعنويات، ذلك التوحّد بالله، ذلك أن المؤلف يعاين في تعاسته أن الله بحاجة أيضاً إلى ضروب المديح وذلك في نهاية كل يوم من أيام الخلْق الستة).

ولكن الأكثر أهمية في هذه الشكوى هو الإثمية الناجمة عن البحث عن ضروب المديح، أي تعبير المرء عن نرجسيته. وليس ثمة جرأة على الاعتراف بها، ذلك أنه أمر آثم ومخجل على وجه الخصوص، والحقيقة أنه خليط من الحياء والإثمية، فالحياء بيّن («ضعفنا») في حين أن الإثمية لا تظهر إلا بصورة غير مباشرة، إذ تبين خلف عقابها (العاهة) ومحاولة الترميم (الاستحسان من حيث يأتي ومن أي كان). وتعلّمنا أيضاً نغمية هذا النص أن النرجسية «النقيّة» لا يمكنها أن تكون سوى تجريد، حالة مثالية، ضرباً من التقريب، ذلك أن الرضيع لا يمكنه أن يعيش عيشاً أبدياً في غبطته النكوصية البدئية، الوحيدة المرْضية من الناحية النرجسية، ويجد نفسه وقد حُكم عليه أن يصطدم بالواقعي آجلاً أو عاجلاً، «مدمّراً ينبغي احتضانه»، أي أن يصطدم بالجرح النرجسي. وهذا هو السبب الذي

من أجله تنطوي النرجسية دائماً على درجة معيّنة من الهذيان «الفيزيولوجي» إذا صحّ القول، على انعدام التناسب بين التقييم الذاتي والواقع: «إنك تاجر، إن كنت تجري وراء الكسْب السهل ـ تقول الحكمة الساخرة اللاتينية ـ تشتري الإنسان بالسعر الذي يساويه وتبيعه بالثمن الذي يقدّره هو نفسه».

وهذا الجرح النرجسي هو الذي، بالطبع، يشقّ الدرب في الوقت نفسه إلى نضج الأنا والدوافع ويتيح للفرد أن يستمتع بإشباعات دافعية ستتيحها له الحياة. ولكن «**النظام الدافعي**» يناوىء «**النظام النرجسي**» في البدء ولا بدّ لعدد معيّن من الشروط أن يتوافر حتى يتوصّل الفرد إلى أن يكتشف على نمط جديد (نمط الدوافع) مكافئاً لحالة الابتهاج السابقة على الولادة (انظر «الوضع التحليلي وسيرورة الشفاء» و «الصورة القضيبية»)، مع أن العداء الأول بين النرجسية والدوافع سيوجد في العديد من الحالات المرضية (انظر حول هذا الموضوع «انتحار السوداوي» على وجهِ الخصوص).

ويكبت الإنسان هذه الانعدام في التناسب وكذلك النرجسية ذاتها بوصفها نزاع، ولكنه لا يفلح في ذلك إلا جزئياً. والحال أن الطرائق التي يطبّقها لتدارك هذا النقص، أيا كانت، تشهد الآن على فتْح جرحه النرجسي. فالإنسان الذي يمضي إعلاء الشأن المثالي لديه من تلقاء ذاته سيظهر على الغالب مصاباً بالضعف العقلي أو ذهانياً وأولئك الذين يبحثون عن الإشباع النرجسي على صورة حب، وجدارة، وإبداع، ومجد، إلخ، يبيّنون الآن بذلك أن نرجسيتهم أُضفيت عليها الإثمية. وثمة مع ذلك درجات، وفروق دقيقة، وإمكانات لاندماج المكوّنات الدافعية التي تساعد الفرد على أن يدمج نرجسيته، فإما أن يُتاح له أن يحبّ نفسه، إذ لا يكترث كثيراً بعدم كماله، وإما أن يُنقص الهامش فعلاً بين أناه ومثاله النرجسي. ولن يفيد التحليل النفسي شيئاً دون ذلك فالافراد الذين يتمدّدون على ديواننا ينضمّون إلينا من بين أولئك الذين يحبون أنفسهم حباً رديئاً من جهة، ولكنهم من جهة أخرى يتمنّون أن يحبوا أنفسهم حباً أفضل وهو يبحثون، في نطاق هذا الهدف، عن أن يتغيّروا، أعني يريدون ـ في منظور اللاشعور ـ أن يبدلّوا أنا أخرى بأناهم، تكون أكثر قبولاً من الناحية النرجسية.

أما وقد قلنا قولنا هذا، فإننا لا نعلم دائماً لماذا يكون النرجسي «سيء السمعة»، لماذا يكون آثماً (المقصود هو الرغبة النرجسية بوصفها كذلك، متحقّقة أو ممكن تحقيقها أم لا)؛ وبوسعنا أن نجيب عن ذلك أننا تحكمنا إلى حدّ معين أنا عليا مسيحية تأمرنا بحب الآخرين وتقصد بذلك ضمناً أن حب الذات عكس حب المثيل، خصمه[2]، كما لو كان المقصود توازناً بين الاثنين، علاقة قوى، كما وصفناها في موضوع العلاقة بالموضوع السادية الشرجية (انظر المقال ذا العلاقة في هذا الكتاب)، وذلك تصورّ منتشر جداً من جهة أخرى. وبوسعنا أن نفترض على هذا النحو أن لدى الناس ميلاً إلى اتّهام النرجسي البيّن (الذي يُسقطون عليه عادة نرجسيتهم الخاصة)، أنه ينتزع من الآخرين، إذ يحبّ نفسه، كمية من الحب مخصّصة لهم ـ ألم يكن نرجس على كل حال قد عوقب بالموت، عاقبته الآلهة بالموت لأنه احتفظ بكل الليبيدو لنفسه، دون أن يترك شيئاً منه لأولئك الذين كانوا يطمحون إلى من يحبهم، وذلك ـ ولنقل عابرين ـ هو التعريف نفسه الذي يطلقه فرويد على النرجسية (انظر على سبيل المثال في «الأنا والهو»: «نرجسية الأنا نرجسية ثانوية **مختلسة** من الأشياء»؛ (إننا نحن الذين نضع الكلمة بالحرف البارز).

والواقع أن هذا الشرح يلبث على مستوى سطحي بما يكفي وذو علاقة ولا شك بضرب من محاولة العقلنة؛ ولا بد لنا أيضاً، لنكشف الدافعيات العميقة للإثمية النرجسية، من أن نعود مرة أخرى إلى الحياة الجنينية. ويجد المرء نفسه هناك في «مكان» ذي امتياز لدراسة سيكولوجيا الأعماق، ملتقى طرق يتصالب فيه درب النكوص النرجسي، والدرب الذي يقود، بفعل الإسقاط النرجسي، إلى مثال الأنا

(2) الكبرياء (تقييم نرجسي مغال، معروض للعيان ومعارض للآخرين) هو الخطيئة القاتلة بالنسبة للمسيحي، الخطيئة التي لا تفوقها خطيئة، ويمكننا أن نؤكد، من حيث المبدأ، أن المسيحية هي الديانة التي تعادي الكبرياء، ديانة الذلّ وهي إذن قائمة على تحريم النرجسية. والواقع أن نرجسية المسيحي تتجنّب هذه الصعوبة الرئيسة وتجعل من هذا الذلّ على وجه الدقّة فضيلة، قضيباً يلوّح به إعلاء الشأن جراء كونك مسيحياً. والحقيقة أن المسيحي يتماهى مع الله («لست أنا الذي يعيش بل الله هو الذي يعيش فيّ»، القديس بولس) ويصبح، بالتناول ـ الاجتياف، الله ذاته.

وهو درب يمكنه أن يفضي إلى الألوهية، والدرب، أخيراً، الذي يقود إلى غشيان المحارم والخصاء.

وعندما أجرى سيوران تقارباً بين الله والإنسان الشره إلى المجد، اهتدى إلى المكافىء السيكولوجي الموجود بين مفهوم الألوهية والرغبة في الإنجاز النرجسي. وبوسع المرء أن يصوغ ذلك بأنحاء مختلفة، إما أن الإنسان يسقط مثاله، مثال الاندماج النرجسي الكامل، وإما أن الإنسان يصبح الله عندما يحقّق كماله النرجسي، وعلى أي حال يكون الإنسان في وقت واحد، أمام مثاله النرجسي، الجنين والموجود المثالي ذا القوة الكلية، بالنظر إلى أن صفات الاثنين متماهية على وجه الدقّة في منظور سيكولوجيا الأعماق كما بيّنا فيما سبق. فللإنجار النرجسي قيمة التأليه بالنسبة للاشعور أياً كانت درجة الكمال الموضوعية، فأوهى إشباع نرجسي يمكنه أن يتّخذ هذه الدلالة في هذا المستوى. والحال أن بلوغ الكمال النرجسي لا يتميّز في اللاشعور من العودة إلى رحم الأم، إذ تنطوي هذه العودة بالضرورة على مضاجعة الأم، فتصبح إذن في الوقت نفسه تحقيق غشيان المحارم؛ وغير مجدٍ في هذا الصدد أن نذكّر هنا بالروابط بين غشيان المحارم والامتيازات الملكية في الزمن الذي كان فيه الملوك آلهة، ولا الشرح الذي قدّمه رانك لدراسة الأسطورة، أسطورة البطل والشخص الإلهي.

وهذه التقاربات ذات دلالة وتلقي ضوءاً معيّناً على تحريم غشيان المحارم وعلى **الصلة بين غشيان المحارم والنرجسية الآثمة**. ولكن لماذا؟

السبب المباشر لهذه الإثمية ينبغي، في رأينا، أن لا يُبحث عنه في ذاته الذي يقتضي أن كل إنجاز نرجسي يختلط معاً، في مستوى معيّن، بالأقنوم المسيحي وبتحقيق الأوديب (ذلك أن من يضاجع أمه يقتل أباه)، بل ينبغي البحث عنه، على العكس، في الواقع الذي مفاده أن هذا التحقيق متعذّر للسبب البسيط جداً أن الرغبة النرجسية تعود إلى حالة نرجسية مبكّرة شبه مطلقة- تقابل من جهة أخرى رغبة في ذاتها («الوجود على هذا الكوكب دون رغبة ولا جسم»، جيمس جونز)،

ولكن المرء مصاب بالصدمة الآن لأنه محبَط وبالتالي أُضفيت عليه الإثمية. فالرغبة الطفولية تولد، في الواقع، في عمر لايمكن لأي مكوّنة قبل تناسلية (وعلى وجه الخصوص سادية شرجية) أن تكون ذات اندماج كاف بفعله لتسليح رغبته إذ تُمنح حاملاً دافعياً: ولو لم يكن الأمر على هذا النحو لما وُجِد الأوديب ولا النرجسية (يقول ديدرو: «لو كان لطفل الثالثة من عمره قوة الراشد، لقتل أباه وضاجع أمه»، ولا حتى السيرورة التطوّرية التي أعطت النوع الإنساني، أقلّه بالمعنى الذي لهذا المصطلح بالنسبة لنا في حضارتنا الراهنة. وعلى هذا النحو إنما يدين الإنسان بإنسانيته وبألوهيته أيضاً إلى صغاره وشقائه الأوّليين. وأي شيء أكثر منطقية من أن الإنسان لايمكنه، مع هذا المعيش الأساسي الذي يلاحقه، أن يعيش إلا إذا حوّل نقطة ضعفه الداخلي إلى خصاء مصدره الخارج وغيّر طبيعة ضعفه الجوهري إلى تحريم خارجي وعقوبة على شططه.

الفصل الأول

محاولة في الوضع التحليلي
وسيرورة الشفاء
(الديناميك)
(I)
مدخل

لا يعلم الإنسان في أي مرتبة يضع نفسه. إنه ضائع بصورة مرئية وقد سقط من مكانه الحقيقي دون أن يكون بوسعه أن يجده مجدّداً. ويبحث عنه في كل مكان بحثاً يرافقه انشغال البال، ودون نجاح، في ظلمات يتعذّر النفاذ إليها.

باسكال

يتيح لنا العنوان الذي يحمله عملنا أن نستبعد دفعة واحدة مشكل الوضع التحليلي في مجموعه، فالمسألة ينبغي أن يعالجها زميلنا الشهير الدكتور دو سوسور. أما موضوعنا، فيبدو للوهلة الأولى أن علينا أن نقدّم تسويغاً لأننا اخترناه. والواقع أننا لا نفصل على وجه العموم دراسة ديناميك الوضع التحليلي عن دراسة الممارسة التحليلية في مجموعها وندرس على نحو منفصل ديناميك العوامل، التي يستخدمها المحلّل خلال عمله، والتحويل، والتفسير، والعقد المختلفة، إلخ.

فمسألة ديناميك تحليلي نوعي ليست مأخوذة بالحسبان ويظلّ مضمراً أن المحلّل يحرّر المحلَّل تلقائياً من عصابه عندما يحلّل، «في مرحلة التحويل»، نزاعاته المختلفة واحداً بعد آخر، إذ أن المريض نفّس نزاعاته «حين فهم في الوقت نفسه سمتها اللاعقلانية والعتيقة».

ويمكننا أن نعتبر هذا التصوّر ضرباً من نظرية «المحتوى التحليلي»[1]، محتوى تاريخي انطلقت طاقته الانفعالية المكبوتة بفعل التفسير بعد تقليص المقاومات، محتوى يعيشه الفرد المحلَّل من جديد ويحلّله المحلّل. وما يبعث مع ذلك على التفكير إنما هو وجود بعض التحليلات التي تبدأ، وتجري، وتنتهي نهاية جيّدة، دون أن تتيح للمحلل تحليل أوهى محتوى أو ما يقارب ذلك. فهناك مرضى يتكلّمون دون أن يكون ممكناً استخدام المادة التي يقدّمونها، وآخرون لا يتكلّمون أبداً. ويُشفى هذان الضربان من المرضى. وبعض المؤلفين يهاجمون النظرية الكلاسيكية (غير المعبّر عنها على نحو شكلي من جهة أخرى) لأنهم حصل لديهم انطباع بارز جداً أن ثمة، بمعزل عن ما جرى تحليله أو ما يمكن تحليله، عاملاً مجهولاً، ولكن تأثيره لايقلّ عن غيره في الوضع التحليلي، عاملاً من المهم توضيحه. ويتكلّم أوبرندورف[2]، على هذا النحو، على «ظاهرات دقيقة لا يمكننا ملاحظتها ولا تحديدها، ظاهرات تنبعث بين المحلّل والمحلَّل».

ويتكلم ب. لوكه[3] على «تأثير تحت أرضي» وعلى «آليات بدائية جداً تتدخّل خلال العلاج التحليلي في الخلفية إذا جاز القول، وراء التجربة كما هي محدّدة بصورة عامة ومعبَّر عنها وصارت شعورية».

(1) لم يتردّد بعض المؤلفين في ترسيخ هذه النظرية نهائياً ويعتقد ل. س. بنْدوز أنه «ربما كان مؤسفاً أن نظرية التحليل النفسي سُمّيت التحليل النفسي ولم تسمّ تحويل- تحليل». (علم النفس التحليلي والعلم التجريبي، في **الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي**، ملحق 1954).

(2) نتائج مرضية لنظرية علم النفس التحليلي، **فصلية علم النفس التحليلي**، 1950.

(3) بصدد عوامل الشفاء غير المعبّر عنها في العلاج التحليلي، **المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**، 1957.

ويعتبر سلفْرْبر[4] أن «الفئة الثانية، من فئتي العناصر التي يعبّر عنها المريض والعناصر التي لا يعبّر عنها، هي ذات الأهمية العلاجية الكبرى» ويلاحظ زيلبورغ[5] تأثير «عناصر لم تكن قط شعورية» في التحليل.

وثمة مؤلفون آخرون يهاجمون التصوّر التاريخي للتحويل، إذ يأخذون بالحسبان قصوره.

ومثال ذلك أن لاغاش مقتنع[6] أن «العلاقة التحليل النفسي نوعية وقيمة أصيلتين، لايمكن إرجاعهما إلى أي تجربة ماضية».

وتجنّد السيرورة التحليلية شيئاً آخر بالإضافة إلى المادة النزاعية وتكتسب بذلك ضرباً من **الاستقلال الذاتي**. ويقول غلوفر[7] «تكمن السيرورة التحليلية في انطلاق وضع دينامي يتبع خطاً متماثلاً على وجه العموم متّخذاً مع ذلك شكلاً فردياً».

والمقصود سيرورة عميقة، نوعية، مستقلّة عن المادة النزاعية وعن علم وصف الأمراض التحليلي. ولكنها مستقلة أيضاً- ضمن نطاق معيّن- عن السير المسرحي للعلاج، فهي سيرورة لايمكنها أن تتنضّد على هذا السير؛ فبعض التحليلات ذات الإعداد الجيّد، الغنيّة جداً بانطلاقات الطاقة الانفعالية المكبوتة، التي تُعاش بقوة في التحليل، لا تُنتج سوى تحسينات واهية، في حين أن تحليلات أخرى، ضعيفة الدينامية جداً وتبدو محكوماً عليها بالإخفاق، تُدهش المحلّل إذا

(4) مفهوم التحويل، **فصلية علم النفس التحليلي**، 1948.

(5) المشكل الانفعالي والدور العلاجي للاستصار، **فصلية علم النفس التحليلي**، 195.

(6) مذهب فرويد ونظرية التحليل، **المؤتمر العالمي للعلاج النفسي**، زيوريخ، 1954.

(7) تقنيات علم النفس التحليلي.

(8) مصدر مذكور سابقاً

جاز القول بتطورّها المرْضي إلى الحد الأقصى ولم يكن ثمة شيء يبشّر بذلك. فكل محلّل يمارس، في بداية مهنته، علاجات يتابع المريض خلالها بدلاً من أن يتقدّمه وذلك على غير هدىً على وجه التقريب؛ وهذه العلاجات تكون ناجعة مع ذلك، بل رائعة في بعض الأحيان. وتسير هذه العلاجات مشية غير منتظمة ولكنها تسير مع ذلك، كما لو أنها كان خاضعة لخطوط قوى، تتقن عند الحاجة تجنّب العقبات. وذلك صحيح من جهة أخرى بالنسبة إلى التحليل على وجه العموم. ويذكّرنا غلوفرْ في الواقع أن المحلّلين النفسيين الأوائل كانو يجهلون عدداً معيّناً من المواقف الاستيهامية، التي كانت قد اكتُشفت فيما بعد، ولم يكن هذا الجهل يحول بينهم مع ذلك وبين تحقيق ضروب ممتازة من الشفاء.

وتجد نظرية التحويل نفسها متورّطة في هذا الخلاف ومنذ أن يحتوي الوضع التحليلي عناصر خارج التحويل (التي لايمكنها أن **تعبّر عن نفسها** في التحويل)، فإن تعديل تصورّ التحويل يفرض نفسه.

وأراد بعض المؤلفين أن يأخذوا بالحسبان «**جوّ التحليل النفسي**» **بوصفه عاملاً دينامياً في التحليل**. فألحّ برنْغ[9]، على هذا النحو، على التمييز الذي ينبغي أن يُقام بين التحويل بمعناه الصحيح و«الجوّ التحليلي»، إذ عزا التغيّرات التحليلية بالمعنى الحقيقي للكلمة إلى هذا الجو التحليلي. أما سيْلفرْبرْ[10]، فإنه أدخل المفهوم الخاصّ بتعدّد التحويلات، معارضاً على هذا النحو مفهوم التحويل بوصفه إطاراً عاماً وحيداً للسيرورة التحليلية. وتُطلق فيلّيس غريناكرْ في المعنى نفسه مصطلح **التحويل الأساسي**، المرتكز في رأيها على العلاقة أم- طفل، تحويل أمومي قبل أوديبي، وتعتقد أن بوسعها أن تدّخر له دلالة التحويل الواسعة

(9) تصورّ قسر التكرار، فصلية علم النفس التحليلي، 1943

(10) مصدر مذكور سابقاً.

والحصْرية دائماً، إذ يحتفظ هذا التحويل على هذا النحو بهيمنته المطلقة على وجه التقريب في الوضع التحليلي.

والخطوة الحاسمة في اتّجاه فصل بارز بين ما هو تحويلي وما هو غير تحويلي في الوضع التحليلي كان بودوان[11] قد خطاها. ويذكّر هذا المؤلف بالحالات التي «لا يوجد فيها، إذا فحصناها فحصاً جيداً، تكرار حقيقي، ولا تحويل بالتالي، لأن المعيش المقابل لم يكن الفرد قد عاشه حقاً». ويميّز في مكان آخر[12] بين **تحويل التحليل وعلاقة التحليل**[13]، «إذ أن الأول بمعناه الدقيق ضرب من إعادة إنتاج معيش، والثانية علاقة أصيلة، فكل منهما متناسب عكسياً مع الآخر إذا صحّ القول».

وتقودنا «علاقة التحليل» لدى بودوان إلى تصوّر للوضع التحليلي الذي ننظر إليه بوصفه مستقلاً عن التحويل. فالحالات «دون محتوى» التي ألمعنا إليها فيما سبق (وكذلك الحالات الأخرى) تتطوّر قبل كل شيء تبعاً لـ **الوضع التحليلي** الذي كانت اختبارية جيّدة النوع، تستند إلى تجربة نصف قرن، قد وضعت مرتكزاته التقنية الأساسية. وهذا الوضع يُطلق **السيرورة التحليلية**. وهذه السيرورة تحرّك، من جهتها وبديناميتها الخاصّة، سيرورات التكوين اللاشعوري للاستيهامات وآليات التحويل. ونحن سنبحث في توضيح القوى التي تقدّم لهذا الديناميك حامله الطاقي، إذ أن هذه السيرورة مزدوجة وخطوط القوة، خطوطها، متوازية. وستكون دراستنا متمحورة على **النرجسية** بوصفها عامل طاقة أساسي للسيرورة التحليلية لاستخلاص التآزر بين النرجسية والعلاقة بالموضوع في الوقت نفسه،

(11) التحويل والإسقاط في الوضع التحليلي، المؤتمر العالمي للعلاج النفسي، 1954.

(12) إعادة تنشيط الماضي، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 1954.

(13) تحليل «تحويل التحليل»، أي المقاومة، وترك «علاقة التحليل» تفعل فعلها، صيغة جيّدة بالتأكيد، وينبغي أيضاً التعرّف على هذا العامل الثاني وفصله عن العامل الأول جيداً.

وكذلك دور كل منهما في السيرورة موضع البحث. وسنكون مرغمين، خلال دراستنا، على أن نمرّ سريعاً على بعض المفاهيم التحليلية ذات الارتباط المباشر مع ذلك بموضوعنا، وعلى أن نقتحم، اقتحاماً أكثر عمقاً بكثير، بعض الأبواب المفتوحة. وستتجاوز وجهة نظرنا الإطار النفسي المرضي بمعناه الدقيق وسترافقها نظرة ثابتة على العوامل الوراثية والعيادية بالمعنى الأوسع للمصطلح[14].

---

(14) كان فرويد الذي قارب النرجسية بدراسة الخَبَل المبكّر يأخذ الشكل النرجسي النكوصي بالحسبان على وجه الخصوص. ولهذا السبب إنما كان يعتبر النرجسية (من أجل إدخال النرجسية) عقبة في التحليل، وذلك ما هو موجود بالفعل في بعض الحالات التي تظلّ واجبة التحديد؛ أما النرجسية التي نقصدها، فإننا نفكّر بتعريف أكثر بعداً من الناحية الزمنية لفرويد (محاضرات»... 1916- 1917): «تثبيت الليبيدو على وجود الفرد، وجوده نفسه، بوصفها وحدة نفسية وجسمية، وليس على الموضوع».

II

جوانب نرجسية من الوضع التحليلي

كان بيير، الجالس بين العشب، وذراعاه معقودتان حول ركبتيه، ينظر إلى النهر، والخطّ، والطوّافة. وكان ثمة شيء جديد قد حدث له للتوّ: كان قد وجد اللذة في الكلام على ذاته. وكانت ذكرى طفولته تصعد على نحو طبيعي إلى شفتيه، لأن هذه الذكرى لم تكن دون شك سعيدة. ولم يكن مثل هذا التخلّي يمضي دون سخرية: فالكلام على هذا النحو كان سائغاً بالتأكيد، ولكنه كان على وجه الخصوص ممتعاً كونه غير مفهوم، كون الكلام إلى هذا الرجل كالكلام إلى النهر أو الصدى، لأن المهم كان ضجة صوته الخاص. فالكلمات التي كان ينطقها لا تفوز بشيء حين تُسمع. وإذا كان لابدّ لي يوماً من الأيام، كان بيير يفكر، أن يكتشف صديقاً، فذلك إنما سيحدث على هذا النحو. وثمة رجل ألتقيه على سبيل المصادفة، سيصغي إليّ مجاملة. وسأقول له كل ما لن أجرؤ على قوله لأحد قد يعرفني. وسأمضي، عندما أنتهي، آملاً تماماً أن لا أراه مجدّداً أبداً. فكل لقاء جديد لن يمكنه أن يكون سوى مخيّب للأمل لأن كل شيء كان كاملاً من الوهلة الأولى.

جان بلوك ميشيل
الرصيف الأيمن.

يستقرّ معظم المرضى، كما خبرنا وضعهم، استقراراً سريعاً في الوضع التحليلي وهم يتكلّمون كثيراً وبسهولة طوال الجلسات، وذلك خلال مدة معيّنة من التحليل طويلة قليلاً أو كثيراً بحسب الحالات. إنهم يتكلّمون بطلاقة، ويستمدّون

من هذا الصبيب اللفظي لذة حقيقية بقدر ما هي واضحة. ولاحظت أن هؤلاء المرضى- وسنتكلم على المرضى الآخرين فيما بعد- يحافظون على مراسلات متلاحقة مع شركاء دورهُم- في الحقيقة- يقتصر بالدقّة على دور شركاء أو صناديق بريد بين المريض ونفسه. وكان لديّ في التحليل مريض أتى يراني بسبب عُصاب حصر وأعراض توهّم مرض؛ وكان يتكلّم طوال جلسات دون أن تكون مقاطعته ممكنة. وكان هذا المريض، ذو المهنة التي لم تتّصف بأي صفة فكرية، يحافظ عاشقاً على مراسلة محتواها- حتى الذاتي- لم يكن يسوّغ بالتأكيد ما كان يكرّس لها من الاهتمام. وبعض المرضى يكتب يوميات تمثّل لهم ضرباً من التكافؤ مع التحليل. وعولجت لدي امرأة كاتبة كانت تصرّح دون مواربة كما لو أن المسألة كانت مسألة بداهة: «الكتابة أو القدوم إلى التحليل هما شيء واحد».

فاللذة التي يستمدّها هؤلاء الأفراد من التحليل لذة نرجسية دون شك؛ ومصدرها- على شكل مواجهة مع «أناه الثانية»- هو التأمّل النرجسي للذات الذي ينكّب عليه الفرد[1]. أما دور المحلّل، فإنه دور المرآة بحسب مقارنة فرويد الكلاسيكية، المقارنة التي لم تفقد شيئاً من قيمتها. وينبغي لهذه المرآة، حتى يكون بوسعها أن تؤدّي وظيفتها، أن تظلّ محض وظيفة، دون حامل مادي، وغير مرئية[2] (المحلّل وراء المحلَّل)، ذلك أن حضور موضوع على غير هذا النحو ربما يطرد المحلَّل من الموقف النرجسي، وهو موقفه. فهو، في الوضع

---

(1) «المكافئات» (في عداد مكافئات كثيرة أخرى) النرجسيان اللذان تكلّمنا عليهما للتوّ، أعني كتابة يوميات أو المحافظة على مراسلة تبالغ في تقدير الذات (égotisme: لفظة استخدمها النرجسي الكبير، ستاندال للدلالة على الدراسة التحليلية التي يقوم بها كاتب لشخصيته هو) هما صنيعة المراهقة، العمر النرجسي على نحو واضح (رانك).

(2) حوَت عيادتي مريضاً كان يجهل، بعد سنتين من التحليل، شكل المقعد الذي أستخدمه؛ إنه لم يكن، خلاصة القول، يراني قطّ. ولم يكن الوضع التحليلي قط بالنسبة له، على الرغم من حضوري، يهمل حقاً سمته النرجسية.

التحليلي، وحيد، دون أن يكون مع ذلك وحيداً بصورة تامّة؛ إنه موقف يحتوي بالقوة موقفاً آخر، موقف العلاقة بالموضوع. وسيكون ممكناً أن تقوم هذه العلاقة تدريجياً، إذ تمرّ بالأطوار المختلفة لنضجه. وستستقرّ استقراراً بطيئاً ولقاء صعوبات ينبغي للمحلّل أن يتعلّم مواجهتها. فالوضع التحليلي موقف وسيط، وهذه هي خاصيّته الوحيدة (بالقياس على العلاجات النفسية الأخرى و«التحليلات النفسية» المنحرفة) التي تميّزه[3].

وثمة ملاحظة أخرى ندلي بها جميعنامفادها اتجاه نوعي للمريض في نهاية الجلسات، وبخاصة أولى الجلسات الأولى. فالمريض يلقي، عندما ينهض من الديوان، نظرة مبهمة حوله، ويبدو فاقد التوجّه، متردّداً، وكما لو أن دواراً خفيفاً أصابه. ويترنّح بعضهم، ويمرّرون يدهم على جبهتهم كشخص يعاني الحاجة إلى تجميع أفكاره. وهذا الفقدان للتوجّه ليس مكانياً فقط؛ وينقصهم أيضاً مفهوم الزمن ويقولون وهم ينهضون: «عجباً، هل انقضت الساعة؟ كنت سأقسم أن ذلك لم يدم إلا بعض دقائق». كل ذلك مستقلّ على الإطلاق عن محتوى الجلسة التي تتعبهم كثيراً، ولكن **بصورة بعدية** فقط. «هذا يهزّني برعب، قالت إحدى المريضات، إنني مستعدّة لأن أتقيّأ؛ ولا أقول لك مع ذلك إلا أموراً قلتها لآخرين دون أن يكون ذلك قد أزعجني على الإطلاق». وما أن مرّت هذا الأزمة الصغيرة حتى كانت قد مضت على أحسن ما يرام، مبتهجة، عائدة إلى منزلها وهي تتسكّع، مشترية أشياء جميلة. وكانت أخرى (امرأة أيضاً، فالحادث لدى الرجال أقلّ بروزاً على نحو واضح، ولا يكاد يبين في بعض الأحيان) قد قالت لي: «إنني، بعد

(3) إنه موقف نرجس المتأمل نفسه في الماء، مع - في الخلفية كالمحلّل النفسي - آلهة الصدى (مرآة أيضاً) كما يمثلها رسّامو بومبيه على سبيل المثال، الذين احتفظ متحف نابل بروائعهم.

الجلسة، قتيل، خائرة القوى، منهكة»، وهذا الانطباع كان ذا علاقة بضيق حقيقي؛ ووجب عليها مرةً أن تدخل مقهى لتتناول مرطّباً، وسألها الصبي الذي قدّم لها الطلب: «ألست على ما يرام، أيتها الآنسة؟».

وهذا الإحساس يستشعره المرضى **بعد** الجلسة التي تسير بالحري في حال من الغبطة[4]، ويصوغونه صياغة مختلفة وفق الحالات: «كان لديّ إحساس غريب كما لو أن عظامي كانت ترتجف» أو «ذلك كما لو أنني شربت الخمر» أو «كنت كما لو أني تغيّرت، فالهواء يدخل في رئتيّ دخولاً أفضل».

وكان مريض، لم أره سوى مرة واحدة، مصاب بتوهّم المرض، ذي أساس من هذيان الذهان الهذاني (Paranoia)[5]، قد أظهر هذا **التناذر، تناذر نهاية الجلسة**، بحدّة خاصة جداً. وحين نهض من الديوان (جعلته ينهض بعد ما يقارب ربع الساعة) بدأ يتعثّر، وكاد ينهار في مكانه، ووجب عليّ أن أمسكه وأجرّه تماماً حتى غرفة الانتظار. ولم يستطع أن يعبر الباب إلا بعد عشر دقائق ليغوص في سيّارة أجرة كانت مارّة. فنظرتُه خلال هذه الدقائق العشر لا تعبّر عن أي ألم، ولم يكن المرء يتبيّن فيها على العكس سوى هذه البلادة الشهوانية على نحو مبهم التي تُلاحظ على الأقنعة المتخثّرة لدى بعض المصابين بالاغتراب العقلي.

ونحن نرى أن الظاهرة موضوع بحثنا من طبيعة واحدة سواء لدى العصابيين التحويليين أو **النرجسيين** وفق المصطلح الفرويدي الأخير، الذي أهمله الأطباء النفسيون قليلاً أو كثيراً، الدالّ على أولئك الذي نسمّيهم «الذهانيين» دون صفة.

---

(4) لاغاش (المذهب الفرويدي ونظرية التحويل، **المؤتمر العالمي للعلاج النفسي**، زوريخ، 1954) يتكلّم على «الابتهاج مع عاطفة جديدة من الحرية الداخلية والقدرة على الإنجاز»، وذلك ما له بعضٌ من الصدى النرجسي، ولكنه يعزوهُ إلى التحويل.

(5) جعلت المريض يتمدّد على الديوان بَعد استجواب من أقصر الاستجوابات، نظراً إلى أنه كان قد أُرسل إليّ مع تشخيص لعصاب لا يتّصف بالخطر.

فالفارق فارق كمي على وجه الحصر، كما كان فرويد قد لاحظه لدى «الأفراد السليمين والعصابيين». والحقيقة أن الأمر في الحالتين أمر «**نكوص نرجسي**[6]».

والنكوص في أثناء العلاج التحليلي مفهوم كلاسيكي، إذ يتوجّه المريض صوب ماضيه ليعيش مجدداً نزاعاته الأوديبية وقبل الأوديبية. وهكذا يربط هذا التصور ذلك النكوص بالعلاقة بالموضوع (الأوديبي وقبل الأوديبي)، في حين أننا رأينا للتو أن المريض يشغل موقعاً نرجسياً، أقلّه في الطور والوضع التحليلي الذي نظرنا فيه فيما سبق. فالنكوص الذي يصفه التصورّ الكلاسيكي نكوص ذو علاقة بالموضوع ونزاعي؛ ويهمل أنصار هذه القضية، على هذا النحو، عامل الغبطة (الابتهاج)[7]، العامل الواضح مع ذلك، بل الساطع بكل ما له من فينومينولوجيا مرافقة، إذ أن كل ذلك نرجسي على نحو نموذجي[8]، وبالتالي غير ذي علاقة بموضوع وغير نزاعي.

---

(6) سنتكلّم مع ذلك، لأسباب من النَسَق العملي وحتى لا نُحدث لبساً، على وضع، على حالة أو علاقة أيضاً أو صلة نرجسية، نظراً إلى أن الأمر أمر تحليل، ونحتفظ بمصطلح نكوص نرجسي، مبدئياً، للحالات الخطيرة، للذهانيين.

(7) أو يُعزى عندئذ، على وجه العموم، إلى «التحويل»، وهو مصطلح اتّسع معناه في رأينا اتساعاً تعسفياً (الواقع أن التحويل ينطوي على وجود نزاع ذي علاقة بالموضوع، «يُحوَّل» من موضوع إلى آخر)، إنه «خادم حقيقي لفعل كل شيء» في النظرية التحليلية، مفهوم يدخل فيه «كل ما يحدث بين المحلّل والمحلَّل؛ وذلك يعادل القول، من الناحية العملية، «كل ما يجري في التحليل».

(8) تستغرب السيدة إيدا ماكالبين، في مقالها (نموّ التحويل، **فصلية علم النفس التحليلي**، 1950)، من أن يكون بمقدور التحويل أن يتّخذ في الوضع التحليلي تلك الحدّة التي نعرفها عنه وأن يكون اعتباره ظاهرة عامة أمراً ممكناً. وفي رأيها أن «النكوص التحويلي يحرّض عليه المحلّل والوضع التحليلي الذي ينمو فيه نمواً يتدرّج ببطء، إلخ». فالتحويل الحقيقي ينمو في الواقع نمواً تدريجياً ببطء، **في حين أن الظاهرات النرجسية المعنيّة تحدث مباشرة في الجلسة الأولى: ذلك هو ما يميّزها**. إنه نكوص نرجسي نوعي، ليس خاصاً بالتحويل الذي لا يتأسّس إلا فيما بعد، بل خاص بالوضع التحليلي بوصفه كذلك.

واللذة النرجسية التي يشعر بها المريض خلال الجلسة مع «تناذر نهاية الجلسة» يمكننا أن نقارنها باللذة الجنسية مع التعب والنكوص المرافقين. وتلك هي بالتأكيد، في راق معيّن من راقات الشعور، دلالتها، بين دلالات أخرى، بالنظر إلى أنها تبدو محدّدة تحديداً متضافر العناصر غنياً. إنها مع ذلك، في الوضع التحليلي كما ننظر إليه في هذه الفقرة، نرجسية على نحو نموذجي، وبالتالي لا تنتمي منطقياً إلى التحويل.

وتبين هذه «الحالة النرجسية» التي يمكننا أن نكشف، مهما قلّ ما نفكّر فيها، عن مظاهرها الأكثر تنوّعاً(9)، في بداية التحليل، قبل أن يقوم التحويل بزمن طويل نسبياً وعلى عكس التحويل الذي يمكنه بالحري، في هذا الطور من التحليل على وجه الخصوص، أن يكوّن مانعاً(10)، إذ يبين أنه **الحركة الأولى** من السيرورة التحليلية. والابتهاج الذي يواكب الوضع التحليلي هو الذي يتيح النفوذ البطيء، الانفرادي، السطحيّ أول الأمر(11) ثم الأكثر بروزاً، لعناصر **أوديبية**(12) إلى الشعور. ويؤثّر الابتهاج النرجسي إذ يرفع كفّ المريض كالكحول، ويلغي

---

(9) يحدث في بعض الأحيان أن المريض يعكف في الجلسة على استيهام لاشعوري، استيهام الاستمناء، بل على فعل استمنائي لاشعوري قليلاً أو كثيراً على شكل مباشر أو على شكل «مكافىء»، وأنه يُسقط ذلك على المحلّل قائلاً: «إنك تمارس الاستمناء»، على سبيل المثال. وقد يحدث مع ذلك أن المريض يكون، عندما يجرؤ على التعبير عن هذا الإسقاط، في مرحلة متقدّمة من التحليل وأن الإسقاط يُستخدم في الوقت نفسه لإلغاء المكوّنة العدوانية التي يحتويها أيضاً فعل الاستمناء، مكوّنة قد تكون في هذه اللحظة قريبة من الشعور كل القرب.

(10) «ميل إلى تفعيل نزاعاته بدلاً من أن يتذكّرها»، ، ذلك مصدر «مقاومة التحويل».

(11) المقاومة تكون موجودة دائماً لكبح الحركة.

(12) ذلك مايبرهن، نقول عابرين، على أن النكوص لا يتّصف بأي صفة تحويلية؛ هذا التحويل في بداية التحليل (بوفه، «العلاج- النموذج»)، يذكر و. رايخ (الذي ينفي كل سمة من الأصالة للمظاهر الإيجابية في التحويل ببداية التحليل»)، وهذه «الشهور العسلية» التحليلية تفسَّر على وجه العموم أنها تحليل أمومي قبل تناسلي (انظر على سبيل المثال فيلّيس غريناكر، (الصدمة، النموّ والشخصية)، في حين أن «المحتوى» الواقعي، إذا جاز القول، لهذا «التحويل» محتوى أوديبي بصورة بارزة عادةً، بحيث أن هذا الأمر، كما نعلم، كان قد أُنزل منزلة القاعدة: «نبدأ بالتحليل السطحي، الأوديبي، إلخ». ويفهم المرضى أنفسهم أهمية العنصر النرجسي بالقياس على الأوديب وكانت هستيرية ذكيّة جداً قد قالت لي: «يبدو لي أنني أحبك حباً متنامياً. ولا أعرف مع ذلك شيئاً عنك، ولا أحبك إلا بالنسبة لنفسي (أنت لطيف، فهيم، إلخ). إن نفسي هي التي أحب إذن من خلالك». وبوسعنا أن نلاحظ في هذا الصدد أننا- إذ ننظر إلى الموضوع من هذه الزاوية- نجد كثيراً من النرجسية في الحب نفسه. وهذا أمر مؤكد وثمة كثير من المؤلفين يتبنّون هذا الرأي. انظر على سبيل المثال «التحويل والحب»، (فصلية علم النفس التحليلي، ١٩٤٩)، لجيلكيز وبرغله.

الرقابة[13][14]. وهذه العناصر الأوديبية تبدو أنها تذوب في الخلفية النرجسية وتكتسب خصائصها من كونها ينقصها القوام.

فالموضوعات في هذه المرحلة هي بالحري أشباح وتحليل الأوديب في بداية العلاج لا يكوّن على وجه العموم- إلا في بعض الحالات الاستثنائية- سوى عمل تحضيري. والأوديب يُحلَّل تحليلاً ناجعاً بالانطلاق من مرحلة التحليل التي يكون قد اغتنى فيها هذا التحليل بالإسهامات قبل الأوديبية. ويذكر ألكسندر (علم النفس التحليلي لكل الشخصية) حالات استطاع فيها تحليل سطحي، أوديبي على وجه الحصر، أن يفضي إلى نتائج مرْضية؛ وكان الأمر ذا علاقة «بصدمات راهنة» في رأي المؤلف، حيث كان يكفي مجرّد توضيح. وبوسعنا أيضاً أن نتساءل في بعض الأحيان إن كنا لا نحلّل النزاعات قبل الأوديبية تحليلاً غير مباشر، عندما نحلّل الأوديب على ما يبدو.

كان فرويد يقول إن التحليل ينبغي له أن يجري تحت تأثير الإحباط وإن المريض لا ينبغي له أن يستمدّ لذة من الوضع التحليلي. ومن المؤكد أن المريض، منظوراً إليه من زاوية الأوديب، محبَط خلال التحليل، من البداية إلى النهاية. ولكنه من وجهة النظر النرجسية، وجهة نظره في المرحلة المأخوذة بالحسبان، ليس محبطاً على الإطلاق[15]. وهذه اللذة النرجسية التي يستمدّها المريض من

---

(13) وهذا الابتهاج، من جهة أخرى، يحتفظ بنوعيته، بتمام «مشروعيته» ذات العلاقة بسيرورة من النضج موازية قليلاً أو كثيراً، سيرورة العلاقة بالموضوع. ولهذا السبب فإن إرادة قلب السيرورة لا جدوى منه، وذلك لا يمكنه إلا أن يسبّب خسائر (التحليل بالتخدير أو النوم المغناطيسي). فالنوم المغناطيسي انصهار نرجسي يُثار بصورة مصطنعة بمعزل عن النضج التناسلي وتكوين الأنا. أما التحليل بالتخدير، فإنه نكوص مصطنع أيضاً يتّخذ موقعاً خارج التطوّر السوي نفسه.

(14) ينبغي بالطبع أن نسهر على أن لا يصبح هذا النكوص النرجسي (بحسب الأشكال التي يتّخذها) نكوصاً مرضياً، ولو من وجهة النظر التحليلية (التثبيت النرجسي).

(15) ثمة معاينة مماثلة بعض الشيء، مع أنها يُنظر إليها من زاوية العلاقة بالموضوع والتحويل، هي معاينة ب. لوكه (**فيما يتعلّق بعوامل الشفاء غير المعبّر عنها في العلاج التحليلي**) الذي يتكلّم على «علاقة إنسانية محبطة فيما يخصّ العلاقات بالموضوع المتطوّرة نسبياً ولكنها المانحة على مستوى أوليّ إلى الحد الأقصى». (إننا نحن الذين نضع العبارة بالحرف البارز).

الوضع التحليلي هي الشرط نفسه للاستقرار المتين، استقرار الوضع التحليلي، ولنجاح العلاج، فمصير الاثنين مرتبط من الآن فصاعداً. ولا ينبغي لهذه اللذة أن تكون مرفوضة بالنسبة للمحلّل، إلا إذا أصبح واضحاً، في نهاية زمن معيّن، أن النكوص يظلّ دائماً في المستوى نفسه وأن المريض يستقرّ فيه استقراراً دائماً ويتعهّده بالرعاية، إذ يمارس «الفن للفن» إذا صحّ القول؛ كذلك توجد أوضاع ينبغي للمحلّل أن يكون حذراً فيها، إذ يمكن أن تكون لدى المريض أسباب لأن يديم هذا الوضع[16]، أسباب لن يُكشف عنها الحجاب إلا فيما بعد. وفيما يخص تسرّب عناصر أوديبية إلى الشعور، فإن هذا التسرّب يمكنه أن يكون مبكّراً، بل مترافقاً مع النكوص النرجسي. ونحن ذكّرنا بسمتها آنفاً: وهكذا سنحت لنا الفرصة لتسجيل بعض أحلام مرضانا **الأوديبية** التي تحتوي بالإضافة إلى ذلك كل كوكبتها النراعية وهذا يحدث أحياناً في الجلسة الأولى من العلاج. ويقتضي تحليل يستوفي الشروط عندئذ بعض السنين غالباً. ونجد في هذه الأحلام، إذا فحصناها، تفصيلاً صغيراً يشهد على حضور مكوّنة نرجسية قوية. وهكذا تحمل إلينا مصابةٌ كبيرة بالهستيريا (مع دفاعات وسواسية) في الجلسة الأولى هذا الحلم: «إنني في سريري، ويجلس أبي ومدبّرة المنزل (الأم) في زاوية من السقف ينظّفانها بفرشاة سوداء كبيرة؛ أشعر أنني فاقدة الصبر عندما يلقي إليّ الفرشاة أبي». وتضيف مستخدمةً جملة الملك- الشمس وذلك ما تلاحظه فوراً: **أخيراً! وجب عليّ أن أنتظر** (القوة الكلية النرجسية).

والتحويل الأكثر أوديبية من الناحية التاريخية يمكنه أن يبين أنه علاقة نرجسية: «أحبك لأن لك عينين زرقاوين كأبي؛ والحقيقة أنني أنا التي عيناها زرقاوان. عينا والدي كانا سوداوين». فـ«التحويل» الذي كان يُقارن بالحب أعمى أكثر كثيراً من الحب، **إنه شبه هاذٍ** وكان فرويد من قبل يستغرب الأوضاع المضحكة من المحلَّل إلى المحلّل التي يمكنها أن تنجم عنه. فغياب «حس الواقع» يبيّن أيضاً

(16) «العمل الوظائفي للأنا غير ممكن تصورّه دون نرجسية» (نَبْرُغ) والسيرورة التحليلية التي أحد أهدافها أن تطهّر الأنا، بحاجة إلى النرجسية أكثر أيضاً.

أننا في نكوص عميق تحكمه السيرورة الأولية، مبدأ اللذة، وأنه لا يوجد أي شي **محوّل**، أي لا يوجد نزاع ذو علاقة بالموضوع.

وليس من قبيل المصادفة أن تكون التقنية التحليلية، الأكثر رصانة وحيادية من كل العلاجات النفسية وتقنيات العلاج بصورة عامة، هي التقنية التي تشجّع أكثر من غيرها على توظيفات المرضى النرجسية. فهؤلاء يجدون في الواقع، في موقف المحلّل الذي لا يسبّب لهم إزعاجاً، ولا يتدخّل أبداً، ذلك الشرط المثالي لتفتّحهم النرجسي. فالمريض يُجري **تحويلاً**(17) على طبيبه، طبيب الأسنان أو القلب، ذلك أن الأمر في هذه الحال أمر علاقة حقيقية، علاقة بموضوع. والوضع التحليلي، خلال التحليل، هو الذي يوظّف أول الأمر وهذا التوظيف سيقاوم كل تقلّبات التحويل ذي العلاقة بالموضوع، الذي سيستقرّ فيما بعد مع المحلّل(18). أضف إلى ذلك أن هذا التوظيف سيكون شديداً، والأهمية التي يتّخذها في حياة المريض محلّله سترفع القناع عن المصدر البدئي العتيق لتوظيفه. وليس ثمة طريقة طبيّة يمكنها، سوى التحليل، أن تتّخذ- بين الطرائق الطبية- قيمة ضرب من **التلقين**، من **الهداية**، من **الفداء** أو **الحب الأول**. إن المريض هو الذي لا يختار محلّله فحسب، بل يختار التحليل على وجه الخصوص بوصفه كذلك ولا ينبغي لنرجسيته أن تكون مغبونة في هذا الاختيار السلبي أو الإيجابي. ونحن نعلم أننا لا

(17) بيّن فرويد أن التحويل ظاهرة مشتركة وأن الإنسان يحوّل في الحياة دائماً وفي كل مكان (قسْر التكرار).

(18) في حالة «التحويل السلبي»، يكون لدى المحلّل حركة عدائية من الانتقاص التحقيري لقيمة المحلّل، ولكنها حركة عدائية ضدّ المحلّل بوصفه موضوعاً، فالوضع التحليلي سيظّل بمأمن من هذه الحركة وسيظّل موظّفاً على نحو إيجابي. وهكذا فإن المريض، إذا كان يهرب لأنه لن يستطيع أن يتحمّل إثميته إزاء المحلّل بوصفه موضوعاً، سيبحث عن محلل آخر. بل سيمضي لدى عدة محللين، واحد بعد الآخر، شأنه شأن هؤلاء المرضى الذين يحتاجون إلى الاحتفاظ بنكوصهم النرجسي بالخضوع إلى العلاج ولكنهم يغيّرون الطبيب دائماً لأنهم عاجزون عن أن يصونوا علاقة مستقرّة بموضوع.

يمكننا أن نحلّل إلا من يرضى بالتحليل بكل طواعية والمحلّل الذي يكون أكثر «بروزاً» من الناحية الموضوعية يمكنه أن يخفق (ويخفق مع ذلك على الأغلب) إذا كان مفروضاً على المحلَّل.

والمحلَّل هو الذي يوجّه التحليل لأنه هو الذي ينظّم السير إذ يفتح أبواب لاشعوره ليترك المادة تخرج، وهو الذي يسهّل ويحضّر التفسيرات وينجز الاكتشافات أحياناً. ويقصّ جونز كيف أن فرويد اكتشف قانون الترابطات الحرّة بفضل مريض من مرضاه: وإذ كان فرويد يتأهب لمقاطعته ليضع تفسيراً، فإن المريض صاح: «لا تقاطعني».

أما اختيار المحلّل، فالمريض هو الذي يختاره؛ إنه اختيار يمكنه أن يكون له أهمية خاصّة جداً في حالة تحليل تعليمي على سبيل المثال. وقد يكون لدى المريض فكرة ثابتة تماماً عن هذا الموضوع قبل أن يعرف المحلّل. أينبغي لنا أن نتكلّم في هذه الحالة عن «تحويل عن بُعد»؟ كلا بالتأكيد. وما يمكننا قوله في هذه الحالة إنما هو أن المحلَّل يمنح المحلّل، في عداد آخرين، **حكماً مسبقاً مناسباً** يقضي أن يصبح هذا المحلّل المعيّن محلله وأنه، من الآن فصاعداً، سيضفي عليه قيمة عالية ويزوّده بتوظيف نرجسي قويّ. وسيكون محلّله هو الأفضل وسيبقى الأفضل مهما فعل. وسيفسّر كل ما يفعل محلّله وما لا يفعل، وما يقول وما لا يقول، تفسيراً مناسباً، **كما لو أن الأمر خاص به**. والحقيقة أن الأمر خاص به، نظراً إلى أن التوظيف نرجسي. وعلى النحو النرجسي نفسه إنما يوظّف الطفل أباه من جهة أخرى، أباه الذي **يعزو إليه قوته الكلية النرجسية الخاصّة** (فرويد) المفقودة، إذيسترجعها على هذا النحو نفسه. (وذلك يذكّر بصيغة العاشق النرجسية: «معه (أو معها) سيكون كل شيء ممكناً» وبصيغة الوالد: «سينجح طفلي حيث أخفقت»).

ويحبّ النرجسيّ نفسه لأنه يحصل على لذة من ذاته ولأنه قويّ كل القوة وفريد. إنه سيجد مجدّداً كل هذه العواطف بواسطة محلّله، لا بالتماهي (التوحّد) معه، فالتماهي يشكّل جزءاً من سيرورة أخرى، سيرورة العلاقة بالموضوع، بل بأن

يسقط على المحلّل **أناه المثالية**. وإذا «كان المحلّل يدرك باستمرار ضرباً من الاشتراك في الطبيعة بينه وبين المحلّل» (بوفه: «العلاج- النموذج»)، فإن ذلك لا يمكنه أن يكون سوى نتيجة إسقاطه. أما الطبيعة المعنيّة، فلا يمكنها أن تكون سوى طبيعته هو: فدور المحلّل شبيه بدور الكاهن، وسيط (مرآة) بين الفرد وإسقاطه النرجسي الخاص الذي تُضفى عليه المثالية، المعظَّم والممجَّد، أو الممقوت، المرفوض وموضع التشنيع وفق الحالات. ودور المحلّل دور جائز من الناحية النظرية، على الرغم من المظاهر، وذلك أمر لا يناقض على الإطلاق هذا الدور الهائل الذي يبدو أنه يؤدّيه في التحليل. فالمؤمن يعيش تماماً في الظلّ والتبعية الكلية لمن (الله أو الشيطان) لا يكون سوى إسقاط أناه المثالية الخاصة وإسقاط قوته الكلية[19].

قال نَخْت، في مقاله (« تقنية التحليل النفسي»)، إن «مفعول إعادة الاطمئنان ناجم عن ما يتّصف به هذا المفعول أكثر مما هو ناجم عن ما يقوله المحلّل». فالمحلل لن يمكنه في المنظور الذي نباشر تفصيله، وهو مجرّد انعكاس المحلّل، أن يكون إلا ما يكونه المحلّل أو ما يريده المحلّل أن يكون. إن المحلّل لا يعرف المحلّل مع ذلك وليس عليه أن يعرفه بوصفه كذلك. فكيف يمكنه أن يحتفظ على نحو آخر بإسقاطاته سواء أكانت استكمالية أو مضفية الصفة المثالية، أم مشبَعة بالعداء الذهاني الهذائي (بارانويا) على وجه التقريب: والمحلّل حامل دوافع المريض ودفاعاته وهو ليس سوى ذلك. فعندما يكافح المريض ضد الدافع، يصبح المحلّل بالنسبة له حاجزاً يُسقط عليه أناه العليا القاسية؛ وعندما يرغب في أن يستسلم لدافعه، يصبح المحلّل «متسامحاً»، بل غاوياً. وكان لديّ تحت التحليل

---

(19) العصابي يحتاج إلى هذا الإسقاط النرجسي وأنّا فرويد استطاعت في مقالها («المدى الواسع للتحليل النفسي)، صحيفة رابطة التحليل النفسي الأمريكية، تشرين الأول، أكتوبر، 1954) أن تعاين المفعول المسبّب للحصر بصورة مرعبة، مفعول ظهور النظام الهتلري على مرضاها الذين أصبح المحلّل -الإله بالنسبة لهم منبوذاً شقياً على نحو مفاجيء. والحقيقة أن«إيمان» بعض مرضاها لم يتزعزع ولو قليلاً واستمرّ أحدهم يعتبره قوياً قوة هتلر بل أقوى منه ومن الحكومة الانغليزية سويّة. وكان هذا المريض موظفاً.

شاب منحرف قال لي: «دكتور، أتيت إليك لأنني شارب خمر، لاعب قمار، لواطي وقوّاد، ولكنني أودّ أن أتغيّر». وبعد بضع جلسات من بداية التحليل، قال لي: «أنت تعلم، دكتور، أنني الآن لم عد ألعب، ولا أشرب، وأحيا حياة مختلفة كلياً، **كما قلت لي**». والحال أنني لم أقل له شيئاً بالطبع، أقلّه ليس بهذا المعنى. وفسّر مريض آخر كل حركاتي (الحقيقية أو المزعومة) في اتجّاه نرجسي شبه هاذٍ. فكلّ ما كنت أفعل كان مرتبطاً بعلاجه على نحوٍ من الأنحاء، حركات كنت أحسبها بدقّة ومهارة، كانت دائماً لصالحه. أما التحويل السلبي، فإن المحلّل يفسّر بانتظام كل شيء على نمط ذهاني هذائي (بارانويا) إذا صحّ القول، وذلك إسقاط ينبغي تصحيحه بانتظام، أعني تفسيره بوصفه كذلك.

ونرجسية المحلّل يقظة دائماً ولا ينبغي أن تُغبن حين نناقشه أو ننتقده؛ إنه سيرتكس، وإن لم يُظهر ذلك، بإنتاج استيهامات سادية لاشعورية جديدة تزيد إثميته. وحرية المريض النرجسية ينبغي أن تكون كاملة بمعنى **أنه ينبغي أن يكون وحده الطرف الفاعل دائماً**. فليس للمحلّل وجود خاص بالقياس على المحلَّل. وليس عليه أن يكون طيّباً أو سيئاً. وليس عليه أن يكون ذا **وجود**(20). فإذا كان يباشر حياته في التحليل لحسابه الخاص، فلن يكون بوسعه إلا أن يعوق تكوين الاستيهامات الحرّ لدى المحلَّل، كما الراشد يعوق الأطفال في لعبهم، أولئك الأطفال الذي يعيشون أيضاً في عالم نرجسي. فليس في التحليل شيء من الحوار، والمقصود على الأكثر حوار ذاتي ذو صوتين، أحدهما يتكلّم والآخر يردّد الصدى، يكرّر، يركّز، يفسّر تفسيراً صحيحاً: إنه مرآة لا كدر فيها(21)(22).

(20) المقصود بذلك- بالطبع- مثال يصعب بلوغه، إذ أن هذه الصعوبة من طبيعة ضدّتحويلية. وستكون بعض الاستثناءات على هذه القاعدة موضع النظر مع ذلك فيما بعد.

(21) نحن نفهم أيضاً، بما أن السيرورة التي تربط المحلَّل بالمحلل، لماذا ينبغي للمحلّل أن لا يكون مصاباً بعاهة مرئية جداً، وجودها الواقعي قد يعوق إسقاطات المحلَّل. فالمرآة، أي المحلّل، في يد المحلَّل ينبغي لها أن ترضي المحلَّل برؤية كماله ينعكس في المرآة؛ ويرى المحلَّل في المحلّل، الذي تشوّهه عاهة، خصاءه الخاصّ. والحال أن كل السيرورة ليست إلا وسيلة له لإلغاء خصائه.

(22) هذه المرآة التحليلية يمكنها أيضاً أن تُقارن بعدسة لامّة يوجد المحلَّل في النقطة المحورية منها. والمحلّل- الذي لا يلين- يضع المحلَّل في مواجهة نفسه كلما حاول الإفلات.

إن حادثاً يحدث في عدد من التحليلات، حادثاً سنذكّر به، يستمدّ جذوره من هذا المصدر النرجسي: إنني أفكّر بهؤلاء المرضى الذين يُجرون بصورة مباشرة «تحويلاً» يتّصف كثيراً بالغبطة، بل الحماسة. وتجري هذه التحليلات بحيوية، فالمريض يمضي من الافتتان الإعجابي إلى الوجْد، إنه سعيد، راض، ويجعل العلاج حَدَثَ حياته المركزي. ثم يعلن فجأة يوماً من الأيام، بعد بضعة أسابيع من التحليل، أنه شفُي، أكثر من شفُي، ويُطلع المحلّل على نيّته ترك التحليل. وتلك لحظة صعبة تضع موضع الاختبار مهارة التصرّف لدى المحلّل إزاء هذا التعقيد، وهو الشفاء، الذي يُعزى إلى التحويل. والمفارقة في الأمر أن الاندفاع إلى الهروب من التحليل يُعزى أيضاً إلى التحويل (الخوف من التحويل). والواقع أن هذه الأزمة تمرّ وتُخلي مكانها لوضع تحليلي مختلف جداً، إذ أن المريض يُظهر سلوكاً متغيّراً بصورة محسوسة. فماذا حدث إذن؟

إن المريض استقرّ دفعة واحدة في حالة نوعية، مصدر انفعالات نرجسية مرْضية جداً. وهذا «الابتهاج» يتيح له أن يتغلّب على بعض من ضروب الكفّ، ولكنه لا يتغلّب على المقاومة التي تظلّ سليمة، غير ممسوسة. والدليل على ذلك أن التفسيرات التي يقدّمها المحلّل في هذه الفترة لا تسبّب أي تغيير بنيوي. فالمريض الذي يفسّر إحساساته ذات العلاقة بالغبْطة، وتلك حالة يمكننا أن نقارنها- مع الاحتفاظ بكل الأبعاد- بالحالة الهوسية، مقتنع مع ذلك أنه شفي. والواقع- كما نعلم- أنه شفاء نرجسي مزعوم، ذو علاقة بهذا الرضى النرجسي العتيق الذي يسعى الطفل إلى تحقيقه على نمط هلوسي ويبحث عنه المحلّل في العلاج كما سنذكّر بذلك فيما بعد. **إن أصالة العلاج التحليلي الفرويدي**، كما نعلم، **يكمن على وجه الدقّة في رفض رعاية هذا الوهم، وهم القوة الكلية النرجسية، وقيادة المريض على العكس إلى أن ينمّي علاقة أكثر تطوّراً، علاقة العلاقة بالموضوع**. ذلك إنما هو ما يقصده التحليل النفسي على وجه الدقّة.

ولا يتلقّى المريض من المحلّل بالإجمال، في هذه الحالة من الابتهاج، سوى إمكان مفاده أن يرى نفسه فيه ويستمد لذة من الوضع التحليلي الذي يتيحها له (وضع يحتوي مع ذلك- على صورة رشيم- عناصر التطوّر العلاجي). فالفرد يأخذ

بالحسبان في لحظة معيّنة أن خلف هذا الوضع غير النزاعي (السابق على ثنائية المشاعر) يوجد الوضع التحليلي الذي يجعله ينزلق ببطء صوب موقع آخر يبدأ، موقع العلاقة بالموضوع. وهذا الموقع يخيفه وهذا الخوف هو الذي يدفعه ويرغمه أحياناً على ترك العلاج. وما كان قد حدث حتى الآن إنما هو، على وجه الإجمال، ضرب من اللعب، في حين أنه سينبغي له الآن أن ينخرط في الوضع التحليلي ويبدأ التحليل، فالموقفان مختلفان كل الاختلاف. فلبعضهم الحق إذن، بمعنى من المعاني، عندما يقولون إنه يخشى التحويل؛ والخطأ في الأمر إنما هو ربط هذا الهروب بـ **ازدياد شدّة** هذا الخوف. والواقع أن **بداية** التحويل هو المخيف، فالحالة السابقة تقع خارج التحويل. ونقول عابرين، ذلك ما يبيّن أن النرجسية، بين هذين العاملين، هي التي تغذّي الوضع التحليلي من وجهة نظر الطاقة، في حين أن التحويل يضع نفسه في خدمة المقاومة («تحويل المقاومة[23]»).

وتتيح النرجسية للمحلّل وتدفعه إلى أن يحقّق مع المحلَّل صورة مزدوجة لذاته (مرآة). وذلك ما فسّره بعضهم على وجه الاحتمال أنه «ميل إلى التحويل[24]» أو «الشغف بالتحويل»، في حين أن العلاقة التحويلية، الأكثر تأخّراً من الناحية الزمنية، ينبغي أن ترتبط بـ «العلاقة بالموضوع». والواقع أن المقصود سيرورة سطحية بصورة أساسية، غير ذات قوام وعابرة[25]، ولن تتغيّر - لأسباب سنعرضها فيما بعد- إلا في التحليل. فالنرجسي باحث دائم عن مرآة وينقضّ على كل إمكان جديد للإشباع النرجسي لأنه على وجه الدقّة يودّ أن يتجاوز

(23) وصف بالان، في مقال نشرته **المجلة العالمية 1935**، مقطعاً تحليلياً مماثلاً على وجه التقريب ولكنه يحدث صوب نهاية التحليل، استخلص منه نتائج مختلفة عن نتائجنا. ولكنه أكّد أيضاً تلك النغمية النرجسية التي تميّز المشهد المعنيّ.

(24) الميل إلى التحويل، ننْبرْغ (التحويل والواقع، **صحيفة علم النفس التحليلي العالمية**، 1951).

(25) نحن نتكلّم على السيرورة بصورة عامة؛ فالنرجسية تتجاوز الإطار النفسي المرضي وتتبع الفرد من الولادة إلى الموت.

هذا الموقع (إلا إذا كان المريض نرجسياً منحرفاً أو ناكصاً كلياً) ويقيم علاقة بالموضوع، علاقة لا يشعر أنه قادر على أن يقيمها. وبما أن النرجسية تكوّن بداية السيرورة وفتيلة ما يلي، فإنها تبدأ وتبدأ أيضاً من جديد ودائماً، دون أن تكون قادرة على أن تتطورّ إلى ما يتجاوز حداً معيّناً. وعندما نتكلّم على التوحّد (التماهي)، ينبغي أن نأخذ بالحسبان أن ثمة ضروباً مختلفة من التوحّدات، بل التوحدات المزعومة. والعلاقة المزعومة للنرجسي ضرب من هذه الضروب. وذلك يُرى جيداً لدى النرجسيين الكبار (فنانين، رجال سياسة، إلخ) الذي يرتبطون ارتباطاً سهلاً جداً بأيّ كان، دون أوهى ألفة مع الشخص المعنيّ، شريطة أن يقدّم الشخص لهم إمكان الإشباع النرجسي الذي يحتاجونه باستمرار. وهذه الصلات سطحية بصورة أساسية مع ذلك؛ فليس ثمة علاقة بموضوع، فالنرجسي لا يحبّ، بل يذعن للحب.

ذلك هو ما يحدث في الوضع التحليلي النرجسي؛ فالمحلّل يغوص، ببداية العلاج، في نشوة نرجسية وسيتظاهر، لتثبيت موقعه بالنسبة إلى المحلّل، بالتوحّد على نحو من الأنحاء، هدفه من وراء ذلك فقط أن يطمئن على نِعَم المحلّل. وليس بوسعه مع ذلك أن يكون على نحو مختلف، بالنظر إلى أن المحلّل يجهل كل شيء عن المحلّل من الناحية الموضوعية، باستثناء بعض المحلّلين التعليميين، وذلك أمر يكوّن على وجه الدقّة محذوراً ويطرح مشكلاً(26).

---

(26) إذا كان «المريض يدرك باستمرار ضرباً من الاشتراك في الطبيعة بينه وبين المحلّل» (بوفه: «العلاج- النموذج»)، فإن ذلك لا يمكنه إذن أن يكون سوى إدراك هلوسي إسقاطي هاذٍ. وهذا المؤلف الذي يضع هذا الموقف في نهاية العلاج ويجعله تابعاً للشفاء («الاثنان يتكلّمان عندئذ لغة واحدة ويصبح المحلّل «هذا الموضوع الطيّب» الذي تكون ملكيته الدائمة نقطة انطلاق ضرورية لتطورّ الأنا، بل عليّ أن أقول لنموّ الأنا») يبدو متناقضاً لأنه يجعله في الوقت نفسه نقطة انطلاق لتطورّ الأنا (نموّ الأنا) ويعتبره من جهة أخرى أنه الأساسي في السيرورة التحليلية.

III

النرجسية والأوديب

كان لديّ تحت التحليل رجل عمره 45 سنة أتاني لصعوبات في الطباع ولعجز جنسي. وكان المقصود في الواقع **رهاب العجز**. والحقيقة أن هذا المريض كان قادراً على أن يقيم علاقات جنسية وأن يجدّدها بالمناسبة خمس مرات متتالية خلال فترة واحدة، فترة ما بعد الظهر، وذلك أمر- في سنّه- جدير بأن يلفت الانتباه. والذريعة في مجيئه يستشيرني قدّمتها له زيارة لمومس كان قد ذهب لرؤيتها بهدف «أن يكون على بيّنة من أمره» وكان عاجزاً بالفعل. وينتمي جان في الواقع، كما تكهّنتم دون شك، إلى هذه الفئة من الدون جوانيين الذين يخشون، خشية كبيرة، أن يفقدوا رجولتهم، وينبغي لهم أن يطبّقوا دليل العكس ليفلتوا من الحصر على هذا النحو.

ولتحليل جان حق في أن نعيره اهتمامنا، لسببين على وجه الخصوص:

1- كان جان يعيش أوديبه بحدّة كبيرة في الحياة كما في التحليل. ويتذكّر أنه «أغوى» أخواته الأكبر عمراً منه بقليل وهو بين الثانية والثالثة من عمره على وجه التقريب، إذ يبتكر الألعاب الجنسية الأكثر تنوّعاً معهن. وكان ينام، بوصفه الابن الوحيد، مع أمه ولم يكن السأم يصيبه من اللعب بثدييها على الرغم من نهي الأب.

وكان يضمر حقداً عنيفاً لأبيه، حقداً يتقاسمه من جهة أخرى مع أخواته الثلاث وأمه. وأعلن الأطفال أن الأب مجنون وأنه «حيوان ضار» ينبغي خصاؤه وفق القرار الذي اتّخذه المجلس الصغير برئاسة جان بوصفه الذكر. وأصبح جان منذ المراهقة رئيس الأسرة وتحمّل مسؤولياتها في حياة أبيه الذي مات فجأة بعد بضع سنين. وأصبح جان رجلاً حازماً، يتحمّل المسؤوليات، سيّد نفسه، يفرض نفسه على من ينبغي أن يوجّههم. ويتوارى مع ذلك في الفترة الأخيرة، معتكفاً عن طيب خاطر في دور المستشار السرّي، دور ينجح جان- بصورة مفارقة- في إبرازه. وأتاحت له ظروف سياسية خاصة (جان أصله بلقاني) أن يبرهن على مزايا مادية ومعنوية، إذ أنقذ نفسه من أوضاع محفوفة بالمخاطر بمهارة وشجاعة، وبتقانٍ أيضاً، إذ اضطلع عن طيب خاطر بالدور الأبوي، دور الدفاع عن حقوق الضعفاء وحاميها. إنه يعيش حالياً، بعد أن ترمّل مرتين، مع ابن له في الخامسة من عمره، في المنطقة الباريسية حيث يشارك في إدارة مشروع تجاري. ويربي ابنه تربية هي خليط من السلطة والحب، صيغة نجوعها ظاهر. وكان جان مع ذلك قلقاً مع النساء، عاجزاً في بعض الأحيان، إلا في الحالة التي يضعه مباشرة على سجيته ذلك المظهر اليقيني الصادر عن شريكته، مظهر تعلّق عميق، مطلق و**مجرّد عن الغرض على وجه الخصوص**.

ونحن نرى أن سلوك جان في مجموعه يدلّ، مع أنه يتّصف ببعض العيوب، على ضرب من النضج الأوديبي، ولكنه يُبرزهُ ويلفت الانتباه إليه. وفي مظهره شيء من التخثّر، من جهة أخرى، كما لو أنه كان يراقب نفسه باستمرار. ويمكننا أن نقول، بالإجمال، إنه يعيش أوديباً كاذباً كما لو أنه يدافع عن نفسه ضد الأوديب الحقيقي. ولكن ثمة شيئاً آخر.

2- يسعى جان إلى أن يبلغ في حياته مثالاً أخلاقياً وجمالياً على وجه الخصوص وأناه المثالية أكثر اتّصافاً بأنها أنا متعة بقدر ما تتّصف أناه العليا أنها غير متشدّدة. وهو فخور أيضاً بهذا المثال بقدر ما هو فخور بنجاحاته، وإنجازاته، وأسلوب حياته ومظهره الذي يُعنى به عناية بذوق صائب جداً. وجان نرجسي جداً وهذا إنما هو عقدة مشكله ذاتها. إن جان كان «الصغير الأخير» لأب عنيف جداً وقويّ، والأثير الذي كان موضع دلال ولكن أخواته الثلاث لم يكنّ ينوين مع ذلك التضحية بحقوقهن، حقوق البكر. وعاش جان حانقاً أنه الصغير وليس له رغبة سوى أن يكبر. ولم يكن هدفه أن يحتلّ مكان أبيه، ذلك أمر كان ناجزاً إذا جاز القول. فأمه كانت تكره الأب، إذ تقيم مع ابنها المعبود علاقة شبه آثمة، تتعرّى أمامه وتجعله يساعدها في زينتها الصميمية. وكانت تحتفظ به في سريرها وتعانقه عناقاً محموماً. واستطاع الصبي، بوصفه واثقاً من حب أمه، أن يقاوم أباه الذي كان يجلده على الغالب بعنف ولكنه لم يحصل منه قطّ أن يطلب العفو. وعندما أصبح راشداً، كانت الأوضاع الأوديبية تجذب انتباهه على وجه الخصوص وكان يبدو في علاقات من هذا النوع قوياً تماماً إذا توافرت بعض الظروف المرْضية لنرجسيته. وأخرج في التحليل بسرعة نسبية استيهاماته التي غرضها أن يجامع أمه أو أخواته. وكانت هذه الاستيهامات نفسها ترافق الجماع والعادة السرّية، في حين أن أحلامه الجنسية كانت نادرة، أضف إلى ذلك أنها كانت تنتهي بانتظام حالما تبلغ الإثارة درجة معيّنة، دنيا إلى حدّ كاف مع ذلك. فكان إذن ذا سلوك مفارق. والعادة في الواقع أن الأحلام تتيح إشباعات لايمكنها أن تتجاوز، في حالة اليقظة، عتبة التحريم، في حين الأمر كان العكس بالنسبة له. وكان واضحاً أن صعوبات جان غير صادرة عن الأوديب مباشرة، بل صادرة عن شيء أكثر عمقاً وأكثر كبتاً يحتلّ راقات لاشعوره المحجوزة عادةً للأوديب، إذا جاز لنا القول. أضف إلى

ذلك أن المادّة التحليلية كانت تشهد على درجة مرْضية جداً من نضج «غرائزه الجزئية» قبل التناسلية.

وبوسعنا أن نطرح على أنفسنا سؤالين:

1- إذا كان الأوديب قد حدث تجاوزه، فلماذا كان يعيشه وبهذه الشدّة على وجه الخصوص؟

2- ماذا كان موجوداً في أصل اضطراباته؟

كان جان، كما رأينا، نرجسياً ولا يخشى، شأنه شأن كثير من أمثاله، العجز الجنسي في ذاته، عجزاً كان ممكناً لضرب من المكوّنة الجنسية المثلية وكره المرأة اللاشعوري أن يجعلاه راغباً فيه، بل يخشى **الفشل الذريع**، الجرح النرجسي «أي مظهر سيكون مظهري؟» (الأطباء الذين يقولون لمن يأتي لاستشارتهم في العجز الجنسي: «إنك تخاف العجز الجنسي، لهذا السبب إنما أنت عاجز» ليسوا على خطأ تماماً).

تكلّمنا للتوّ على مكوّنة جنسية مثلية وكره النساء. وكانت أم جان، كما رأينا، قد «أغوته». أيمكنه أن يكون، بوصفه محبطاً بفعل الموضوع، قد أصبح نرجسياً ليحل محلّه، كما هي الحال- كلاسيكياً- لدى فئة معينة من الجنسيين المثليين؟ لم يكن جان جنسياً مثلياً، ولا علاقته مع أمه كانت ثنائية المشاعر أكثر مما يُرى لدى أي عصابي متوسط. وكانت نرجسيته **مصدر** المكوّنة الجنسية المثلية وكذلك نزاعه الأمومي، نرجسية موجودة قبلهما وذات أصل مختلف؛ والمادة التحليلية التي يقدّمها جان بيّنت بوضوح أن **سبب جرحه النرجسي عجزه عن بلوغ النشوة الجنسية في الطفولة**. إن ابتساراً نرجسياً شجّعه جوّ مفرط في الحماية صادر عن وسط أنثوي على وجه الحصر تقريباً، حيث الأب كان يبدو دخيلاً بالنسبة إلى كل أعضاء الأسرة الآخرين، كما شجّعه اختلاط كلّي، لم يكن قد اصطدم **بحواجز**

غشيان المحارم، بل بعدم الكفاية العضوية على إمكان تحقيقه. فمشكل جان لم يكن «أيمكنني أن أفعل ذلك أم لا؟» (عاملاً خارجياً)، ولكنه «هل أنا قادر على ذلك أم لا» (عامل طاقة). وبما أن الجواب كان بالنفي، فإن جرحاً نرجسياً كان سينجم عن ذلك[1].

وكان هذا الجرح النرجسي هو الذي لم يكن لأنا جان بدٌّ من أن تحكم عليه أنه لا يُحتمل، فعانى كل عبء الكبت ومن **أجل صيانة هذا الكبت إنما كان يكثّفه ويتذرّع بالوضع الأوديبي.** وكان ذلك كما لو قيل: «إنني قويّ، والمانع الوحيد الذي يمنعني من الإشباع هو الأب، وبالتالي مانع خارجي؛ فليس لي في الأمر يد، إنها قوة قاهرة، ولكن كمالي النرجسي يجد نفسه مصاناً». والمسألة، عندما بلغ سن الرشد، ما كان لها أن تكون مطروحة، ولكن لاشعوره كان قد احتفظ بهذه الصدمة النرجسية، ربما على نحو مبكّر جداً، وكان يدافع عن نفسه ضدّ هذه الصدمة النرجسية بكبتها وبعيش النزاع الأوديبي مجدّداً على نمط فكري.

ويجعلنا الأوديب، بوصفه دفاعاً فكرياً ضد الجرح النرجسي، نفكّر بكافكا الذي كتب إلى أبيه («رسالة للأب») رسالة صريحة، مباشرة تعبّر عن تمرّده المستسلم على نمط فكري بقدر ما هو صارخ؛ والمشكل الحقيقي لكافكا الذي جنّد هذا الدفاع عبثاً ضدّه، هو مع ذلك، كما يبيّن التحليل حتى السطحي

(1) حالة الذين تكلّم عليهم فرويد، أولئك الذين لايمكنهم أن يحبوا من يرغبون فيه ولا أن يرغبوا في من يحبّونه، يمكن أن نفسّرها، في رأينا، في ضوء ما سبق؛ والواقع أن المرء يفهم، إذا كان الفرد يجد نفسه في مواجهة من يحب، أي أن يكون جاهزاً لتكوين ثنائي نرجسي معه، إذ يُسقط عليه أناه المثالية، أن بوسع هذا الفرد أن يكون على وجه الخصوص مذعوراً بفعل منظور إخفاق، أي جرح نرجسي، وذلك أمر يضع كل شيء موضع التساؤل. وإذا كانت شريكته، على العكس، لامبالية به من الناحية الوجدانية، فإن هذا الاحتمال لا يزعجه إلا بقدر أقل بكثير أو لا يزعجه على الإطلاق.

لمؤلفاته، عجزه الأساسي الذي يتجاوز الجنسي («التحوّل») ويحدّد الوضع الإنساني إذا جاز القول («الدعوى»)، «القصر»، إلخ). ففكرة استعمال عقدة أوديب في هذه الشروط تفرض نفسها.

إليكم الآن حالة شبيهة من **الرهاب** ليست أقلّ فائدة من ناحية المعارف التي تقدّمها. إن أشيل رجل بطل رياضي ذو بنية جسمية جميلة؛ انتهى أشيل، بعد بداية واعية في الأعمال العقارية، إلى أن يعاني سلسلة من الخسائر عزاها إلى سوء الحظ، ووجد نفسه على هذا النحو في فترة التحليل على حافّة الإفلاس. وكان الرهاب يمنعه من أن يمضي وحيداً في السيارة أو أن يكون في مقصورة قطار مغلقة. فبوسعنا إذن أن نتكلّم على مركّب من رهاب الخلاء ورهاب الأماكن المغلقة. وكان هذا العَرَض يدهشه، لاسيّما أنه كان، من جهة أخرى، جريئاً ومتهوّراً: كان بطلاً من أبطال المقاومة في سجلّه مآثر ذات بأس يفوق الوصف.

وما يثير الدهشة في حالته أيضاً إنما هو النمط الصريح، الوقح الذي به قارب الأوديب في الحياة والتحليل على حدّ سواء. وكان دائماً، في طفولته ثم في مراهقته، يعارض أباه معارضة صريحة، ويعارض كل ما يمثّل سلطة. والمادة التحويلية التي أسهم بها بعد بضعة أشهر من التحليل عدوانية على نحو صريح، محتقِرة وتحقيرية فيما يتعلّق بي، دون أن يرافقها مع ذلك نغمية الذهان الهذائي (بارانويا) الإسقاطية. وفي الحياة، أشيل أب أسرة رائع ولأطفاله علاقات رائعة معه.

كان الأب، الذي مات وعمر أشيل واحد وعشرون عاماً، رجلاً مهيباً، متحفّظاً وقاسياً. وكان «يحبّ الخصام». ونجح أشيل، الابن الوحيد المدلّل من أمه، أن يوجّه، وهو في الرابعة عشرة من عمره، انفعالاته الأوديبية صوب أخته، التي تكبره بثلاث سنوات، ففضّ بكارتها مباشرة.

وزيجتا أشيل نسختان طبق الأصل عن علاقاته بأمه وأخته: غازل، عندما كان فتى، بنتاً، إيليز، ولكنه قبل أن يصمّم على أن يطلب يدها، تزوّجت من رجل آخر متقدّم في السن كان يشتهيها منذ زمن طويل نسمّيه هنري. وكان هنرى صديقاً لأب أشيل، ويُعتبر ضرباً من العم له. وتزوّج أشيل فيما بعد صبيّة أخرى أصغر عمراً من الأولى، شارلوت. ولم يكن زواجهما سعيداً، ووقع الطلاق بينهما. وحدث أن كان قدر زواج إيليز مماثلاً فتزوّجها أشيل في زواجه الثاني، إذ انتزعها على هذا النحو من هنري (بديل الأب) الذي استرجع شارلوت. وأدرك أشيل هذه المرة أنه كان قد حقّق حلمه القديم، وأن زواجه الأول (من بديلة أخته) كان سيئاً، غير مؤات منذ البداية.

وتبدو نرجسية أشيل مختلفة بعض الاختلاف عن نرجسية جان. إن أشيل استمدّ دائماً إشباعات نرجسية كبيرة من مهارته (يمارس الرسم الزيتي) ومن قوته. فهو رياضيّ ناجز وتميّز في كل المجالات التي راق له أن يجرّبها. وشغفه الكبير هو القارب الشراعي مع ذلك، وكل أوقات فراغه مخصّصة له، وكل شيء تابع له، وبوسعنا القول بعبارة واحدة إنه وظّف شحنة ليبيدية كبيرة في هذه الفاعلية. أضف إلى ذلك أن هذا التوظيف نرجسي على نحو بارز نظراً إلى أنه لا يتميّز، كما تبيّن أحلامه وكل المادة التحليلية، من قاربه، الذي يتيح له أن ينهل من ذاته لذة كاملة وقوة كلية. والمقصود هو التوظيف النرجسي لعضوه الذكري الذي يمثّله قاربه تمثيلاً رمزياً.

وفيما يخصّ رهابه، فإنه ذو خاصيّة أساسية تبيّن أن خشيته التي يعانيها هي خشية الجرح النرجسي كما في حالة جان. وإذا كان أشيل يخاف السفر في القطار، فذلك لأنه لا يمكنه أن يغادر القطار - وهنا تتدخّل العقلنة - «حين يحدث على سبيل المثال حادث». ، ذلك هو ما يقوله المصابون برهاب الأماكن المغلقة كلاسيكياً. ولكن خشيته من عبور جسر أكثر تعقيداً بصورة لا يُستهان بها. ويبدأ هذا الخوف حين يدلف في الجسر وتزداد شدّته إلى أن يصبح في ذروته القصوى وسط الجسر. فالنقطة المتساوية البعد بين الانطلاق والوصول ذات علاقة بفترة الحصر الأكبر. كذلك إذا ابتعد قاربه عن المرفأ، فان حصراً يستولي عليه إلى أن يصل إلى النقطة

التي تكون متساوية البعد بين مرفأ الانطلاق ومرفأ الوصول، فالحصر يتناقص بالتالي. وبيّن التحليل أن هذا المنحنى: ازدياد التوتّر، نقطة الذروة في الحصر والهبوط التدريجي، كان يقابل التوتر الجنسي على وجه الدقّة بعد **انتقال مخطّط الطاقة من الفعل الجنسي إلى فعل محرّك**(2).

أما الحَصَر، فإنه ليس تابعاً للصلة الجنسية بوصفها كذلك، بل تابع للتوتّر

---

(2) هذا الانتقال يشرح لماذا يرتبط رهابه بفعل محرك بالمعنى الدقيق للكلمة. فالإثارة الجنسية العبثية والإحباط الجنسي لدى الطفل هما، في رأينا، موجودان في زمن مبكّر جداً. والفترة التي يلاحظ انطلاقاً منها محللو الأطفال تلك الانتصابات لدى الطفل الذكر ويتكلّمون على إثارة جنسية، فترة تقع في مرحلة مبكّرة أكثر فأكثر وهي بالتأكيد سابقة على عمر الأشهر الستة. وهذا العجز الطفولي العضوي يظلّ على وجه الاحتمال مقترناً بعجز الطفل عن الانتقال في المكان(والاثنان خليقان بأن يسببّا جرحاً نرجسياً). والجهود التي يبذلها الطفل في هذا الاتّجاه تصبح مرئية في فترة معيّنة، أكثر تطوّراً من وجهة النظر العصبية العضلية، وذلك لا يعني أن عجزه الحركي لم يكن يضغط عليه قبل هذه الفترة، بل على العكس. أليس أحد الأحلام الأكثر شيوعاً هو على وجه الدقّة «حلم العجز»، ذكرى عمل ينبغي إنجازه، عمل يظلّ المرء أمامه مشلولاً بصورة مؤلمة؟ ولا يميّز الطفل فيما بعد بين العجزين، شأنه شأن الراشد الذي تستخدم لغته كلمة عجز بالمعنيين، وكما هي الحالة أيضاً بالنسبة لكلمة انتقال. ويستخدم التعبير الحلمي عن الجنسية، وكذلك اللغة، مجموعة من الصور متنوّعة جداً وغنيّة جداً مستمدّة من مجال النقل. إن ذلك ليس تمويهاً بقدر ما هو نكوص.

ويخشى تيودور أن تظهر ظهوراً مفاجئاً على الشاشة «صور فتيات الجدار» الباديات في المستوى الأول، مغريات وطويلات القامة. ويستولي عليه الحصر، فيهرب أو يغمض عينيه. وهذه اللوحة– الطفل الصغير في مواجهة أمه العملاقة– يجعلنا نفكّر مباشرة، بالطبع، في الأوديب. ونحن نتساءل مع ذلك لماذا لا تزعج على الإطلاق رؤية النساء، المرتديات لباسهن، والاتصالُ بهن هذا الفرد، تيودور، الذي يكون مقداماً وفعّالاً، شريطة أن تظهر له النساء في ظروف تتيح له التعوّد على حضورهن؟ ويجيبنا تحليله: إن ما يخشاه تيودور ليس النساء، بل المتعة المدمّرة– وغير المتناسبة مع وسائله– لإثارته الجنسية الخاصة التي يُسقطها (ليتخلّص منها) على المرأة وتعود إليه مضاعفة عشرة أضعاف (عملاقة) كما لو أن السطح الواسع الأرجاء، الملوّن واللامع، يعكسها. إنه يتكلّم على «إثارة لا تذوب ومؤلمة».

أضف إلى ذلك أنه يستمدّ، عندما يهرب من الرؤية موضوع البحث، أو من ملامسة صبيّة فائقة الجمال يخيفه إغراؤها المفاجيء، من هذا الابتعاد المادي لذة حقيقية بالإضافة إلى الارتياح؛ فالسيادة النرجسية الشبقية انتقلت على هذا النحو، بأسلوب تراجيدي كوميدي بعض الشيء، على عنصر محرك وعلى مكافئه السادي السالب.

المؤلم الذي وجب على الطفل أن يعانيه، حين تزداد إثارته الجنسية إلى درجتها القصوى دون أن يكون بمقدوره بلوغ الاسترخاء المرغوب، أي الإشباع الجنسي. وتكمن فائدة أن ينوب الفعل المحرك مناب الفعل الجنسي في واقع مفاده أن الفعل المحرك يستجيب لتنفيس كل منحنى الإثارة، نظراً إلى أن نقطة الذروة ليس لها من الناحية النظرية أي مدّة زمنية وتليها حركة التناقص. وذلك ما يفسّر بالمناسبة لماذا لا يعبر رهابيّنا الجسور كذلك- أما الإبحار، فإن هذا الرهابي لا يبحث عنه فحسب، ولكنه يستمدّ منه لذّة كبيرة جداً، وهو أمر مفهوم جداً لأن الأمر ذو علاقة بضرب من الإنابة، وهذه الصدمة الواضحة التي يعيشها المريض مجدّداً في أزمته، أزمة الحصر، يبدو أنه كان قد استشعرها بحدّة كبيرة، إذ أثارت ضرباً كبيراً من الشقاء بحيث آثر أن ينقلها أولاً ثم يقنّعها بواسطة الصدمة الأوديبية التي يسهل تحمّلها سهولة أكبر بكثير لأسباب أوضحناها بمناسبة حالة جان.

وإذا كان اختيارنا وقع على حالتين من الرهاب، فالسبب أن الآلية التي كنا قد أردنا توضيحها تبدو بيّنة على نحو خاص في هاتين الحالتين؛ ولم يكن علينا أيضاً أن نتوقّف عند أمر مفاده أن الحالتين حالتا رجلين. ودون أن يتخذ الجرح النرجسي لدى النساء نفس الشكل، ذلك أنهن ليس لديهن «الفشل الذريع» نفسه الذي يُخشى، فإنه لديهن أعمق بكثير أيضاً وأشدّ كبتاً، في حين أن تمويهه بواسطة الأوديب أقل يسراً لأسباب سنراها فيما بعد. وتكلّمت السيدة غروت(3) على الجرح النرجسي بمناسبة كلامها على المازوخية النسائية. ويبدو لنا أن انعكاسات الجرح النرجسي على تطوّر الحياة النفسية الأنثوية أكثر أهمية بما لايقاس وتسود هذه الحياة النسائية إذا جاز القول؛ وحسبنا أن نفكّر في الرغبة في عضو الذكر وعقدة الخصاء.

إنننا رأينا فيما يتعلّق بجان كيف أن الحب «المجرّد من الغرض» لدى

(3) المجلة العالمية، 1936، «الحصر، والندم، وتعذيب النفس»، تبدو في بعض الحالات أسهل تحمّلاً من اعتراف المرء بقصوره الخاصّ. فالاستيهام: «أخذ عضو الذكر خاصتّي لأنني كنت أمارس الاستنماء أسهل قبولاً على أنا البنت الصغيرة من الامتثال التالي: «لم يكن لي قطّ عضو ذكر ولن يكون لي عضو ذكر أبداً».

شريكته كان ذا أهمية له. ألا نرى الهواجس النرجسية نفسها تنتشر انتشاراً واسعاً لدى النساء اللواتي يرتجفن دائماً لأنهن غير محبوبات لذاتهن؟

أما فيما يخصّ الأوديب المستخدم دفاعاً عن النرجسية، فإن النساء لا يمكنهن أن يستخدمن هذه الآلية بالسهولة نفسها التي يستخدمها الرجال(4)، وذلك ما يحفزهن أكثر صوب المازوخية(5)، لاسيمّا أنهن يتحمّلن إثمية خصاء الأب تحمّلاً أشد صعوبة من الرجال بكثير، إذ يفلح هؤلاء في أن يتملكوا الرجولة الأبوية امتلاكاً **واقعياً**، ولكنهن لا يفلحن في ذلك. إنهن سيوظّفن على العكس جسمهن كله وما يقوم بالنسبة لهن مقام عضو الذكر (فونيشلْ) ويبحثن عن أن يرمّمن، فضلاً عن ذلك، نرجسيتهن بـ «إسهامات نرجسية» تأتيهن من الخارج أو بوسائل أخرى أيضاً لا يمكننا أن نتوسّع فيها هنا. وهذا الموقف يشرح أن المرأة تريد قبل كل شيء أن تكون محبوبة وأن حبها يكون دائماً متلوّناً بالنرجسية تلوّناً قوياً.

إننا رأينا أن النرجسية كانت دائماً مختلطة على نحو صميمي بالمكوّنات الأخرى التناسلية وقبل التناسلية وأن الإحباط، أياً كان الحال الذي يظهر فيه، موسوم في زاويته بلونية نرجسية. وهكذا يقول الأوديبي في أعماقه: «لماذا هو وليس أنا؟» وخلف الإحباط الفموي نسمع لوماً مراً: «يفعل ذلك لي!». أما المكوّنة الشرجية، الضرورية للإنجاز بصورة منطقية، فالإحباط على هذا النمط يظهر، بالطبع، بالارتكاسات الأعنف، إذ يحرّر على هذا النحو قوة انفجارية مفرطة تؤمّن للفرد إشباعات نرجسية متناسبة معها. وتجد العدوانية، والسادية، والكبْر، والاستعرائية، والجنسية المثلية، ولذائذ الإفرازات البرازية، نفسها مجتمعة في هذه الأضمومة التي تودّ النرجسية الشرجية كثيراً أن «تدسّها وسط الكرة الأرضية لتفجّر كل شيء». وهي تفلح في ذلك على وجه التقريب.

(4) «خصاني أبي ولكني لست مخصياً بالطبيعة» ثم: «تغلبت على أبي، فلست مخصياً إذن».

(5) «سأستعيد عضوي الذكري المفقود إذ أُخصى» (=جذْب عضو الذكر). انظر ب. غرنْبرجر، رسم أولّي لنظرية نفسية دينامية للمازوخية، **مجلّة التحليل النفسي الفرنسية**، 1954.

IV

الصدمة النرجسية

«قـدمـتُ إلـى الـعـالـم مـع جـرح عـمـيـق؛ ذلـكـم كل ما أحمل من متاع».

كافكا،
طبيب الريف.

رأينا للتوّ أن الجرح النرجسي- الذي لا تتحمّله الأنا- يجنّد بعض آليات الدفاع، مستخدماً التمويه الأوديبي على سبيل المثال. فالنرجسية، في التصوّر الفرويدي، لا تمثّل حب الفرد ذاته فحسب، ولكنها تمثّل أيضاً عاطفة **القوة الكلية**[6]. ويعيش الطفل، في بداية حياته في وهم قوته الكلية النرجسية، الذي تؤكّده ظروف الحياة التي يعيشها الرضيع، ظروف تعيد إنتاج شروط الحياة السابقة على الولادة في نطاق الممكن، بفضل الأشخاص الذي يوكل إليهم أمر العناية به؛ ويمدّد الطفل هذا الوضع بعاطفة الإشباع الهلوسي لرغباته، كما نعلم، أقلّه خلال زمن معيّن. وبنى فورنزي[7] ضرباً كاملاً من علم النفس المرضي على الطرق

---

(6) «ما هو غير مألوف إنما هو ولا ريب نصر النرجسية الذي تُظهره المناعة الظافرة للأنا (فرويد، هذه الدعابة)، أو: «كل إزعاج لأنانية الطفل غير المحدودة جريمة غبن بحق صاحب الجلالة» (فرويد، علم الأحلام).

(7) درجات التطوّر لحسّ الواقع.

المختلفة التي يرى الطفل نفسه مرغماً على استخدامها ليصون وهمه، وهم القوة الكلية.

وسيصطدم الطفل مع ذلك، عاجلاً أو آجلاً، بـ «الواقع الخشن الذي ينبغي له احتضانه»، وذلك سيعني تقويض هذا الوهم. وسيستجيب بحركة مزدوجة لهذا التهديد لنرجسيته: عليه اللجوء من جهة إلى الكبت، وسيبحث من جهة ثانية (فرويد) عن استعادة هذه القوة الكلية إذ يعزوها إلى أبويه، وإلى أبيه قبل كل شيء[8]، وهو، بهذه الطريقة الملتوية، سيشارك فيها كما لو أنه كان يمتلكها هو ذاته. ثم سيجري الإسقاط ذاته على صور ذهنية أبوية أُضفيت عليها المثالية، بل مؤلّهة (على نمط ثنائي المشاعر مع ذلك)، مع كل الشحنة الليبيدية النرجسية التي ينطوي عليها ذلك. ولكن الجرح النرجسي سيستمرّ ينزف في ملاذ الكبت وسيولّد ارتكاسات دفاع متنوّعة. وتتكلّم جانّ لامبْل دو غوت[9] على الجرح النرجسي الذي يُحدثه الإحساس بالعجز وتُلفت الانتباه إلى المظهر الليبيدي لهذه الرغبة في القوة الكلية إذ تقارنها بـ «إرادة القوة»، تصوّر أدلري تنقصه هذه المكوّنة النرجسية النموذجية.

ويعتبر جيكلز وبرْغلَر[10] استمناء الطفل استجابة منه للفطام، وذلك يكوّن، في رأيهما، دليلاً على ميل أنا الطفل إلى إنكار الموضوع، إلى رفض العلاقة بالموضوع إلا بتردّد، بهدف أن يعيد إحلال وضع القوة الكلية النرجسية المفقود مكان هذه العلاقة.

---

(8) «الأسطورة الأسرية» الأوديبية يمكننا بسهولة أن نُفهم إذا نُظر إليها من هذه الزاوية: الطفل الذي يخيّب أبواه أمله لأنهما لا يملكان هذه القوة الكلية التي يريد المشاركة فيها، يمنح نفسه أبوين استيهاميين (ملكاً، بطلاً) قوتهما الكلية ليست موضع شك.

(9) في نموّ الأنا والأنا العليا، مقال في الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، 1947.

(10) مصدر مذكور آنفاً.

ويعتقد سلْفربِرْ أن «العصابي يعاني صعوبة متنامية في مراقبة القوى الخارجية ويجهل الوسائل التي قد تتيحها له. وسيكتسب على هذا النحو ذلك الاقتناع اللاشعوري أن الخطأ في ذلك خطأه وأنه، بالتالي، **أدنى من الآخرين**. وهذا المؤلف نفسه يعتبر التحويل «مظهراً أبدياً من تمرّد الإنسان على الواقع واستقراره العنيد في عدم النضج؛ والتطوّر السويّ يرغم الإنسان على الانتقال من القوة الكلية الطفالية إلى العلاقة بالموضوع، في حين أنه، في التحويل، يلغي هذا الانتقال ويسعى إلى أن يصنعه مجدّداً في الاتجاه المعاكس». فالمقصود إذن ضرب من المحاولة لأن يجد القوة الكلية الطفالية في التحليل مجدّداً ويرمّم على هذا النحو وضعاً صدْمياً أساسياً (جرحاً نرجسياً).

فأن يسعى الفرد إلى أن يستعيد القوة الكلية النرجسية في التحليل أمر تبرهن عليه دراسة نَنْبرغ(11) التي أنجزها في موضوع الرغبة في الشفاء(12)، دراسة متمحورة على البحث في محتوى الرغبة اللاشعوري الذي قاد المرضى إلى التحليل. فاكتشف أن تحليل هذه الرغبة يفضي دائماً إلى رغبة نرجسية على صورة أو أخرى. ووجد على هذا النحو أن من كان يأتي، على سبيل المثال، إلى المعالجة ليتخلّص من عواطف الضعف لديه، والحصر وأعراضه الخاصة بتوهّم المرض، كان يبحث- على مستوى أعمق- عن «استعادة العاطفة السحرية، عاطفة القوة الكلية، مع عودة الحياة إلى الطور من التطور الذي يحسّ الطفل باندفاع قوي إلى أن «يتعجّله»، ومع جنون عظمة هاذ، (نكوص نرجسي). هذه الرغبة النرجسية يمكنها أن تمضي بصورة بارزة **عكس «الرغبة في الشفاء»** عندما يكون المقصود رغبة طفالية في الإشباعات النكوصية، التي يضرب نَنْبرع أمثلة رائعة عليها من أكثر الأمثلة بلاغة. فثمة صبيّة من مرضاه كانت قد أتت بقصد التحليل مقتنعة «أنه سيكون بوسعها، ما إن ينتهي العلاج، أن تحلّ كل مشكلاتها بيسر، تصنع أي شيء من أي شيء، ولم يعد ينبغي لها أبداً أن تقع تحت التأثير، تأثير إرادة الآخرين، إلخ».

---

(11) إرادة الشفاء، مقال في الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، 1926.

(12) الذي كان فرويد يقول عنه (دراسة في السيرة الذاتية): «إن التحويل يحلّ في ذهن المريض، على نحو مبكّر جداً، محل الرغبة في الشفاء».

ومن المسلّم به على وجه العموم أن النساء يبحثن في التحليل عن عضو ذكر- شأنهن من جهة أخرى شأن الرجال أيضاً- عضو الذكر الذي يرمز ، في عداد أمور أخرى، إلى هذه القوة الكلية النرجسية على وجه الدقة. والبحث في التحليل ينصبّ، على وجه العموم، على ردم الحفرة الموجودة بين رغبة المرء النرجسية وبين الواقع. ويتوقّع المريض كل شيء من التحليل. وتتكلم ميليتا شميدْ برغ(13) على هذا «النموذج من المرضى الذين يصبح التحليل بالنسبة لهم ديانة جديدة إذا جاز القول. وأياً كان السبب الذي قادهم إلى التحليل، فإنهم لن يعلنوا رضاهم أبداً عن تصفية أعراضهم أو تحسنّها، ولا أي نتيجة علاجية محسوسة. إنهم يعتقدون أنهم لن يكابدوا «ما إن يجري تحليلهم بكامله» أي صعوبة في الحياة، ولا أي خيبة أمل، ولن يعرفوا الحَصَر ولا تبكيت الضمير، وهم واثقون، فضلاً عن ذلك، أنهم سيُظهرون قدرات فنيّة وفكرية بارزة، وربما سيكشفون عن عبقرية. أضف إلى ذلك أنهم سيعيشون في نعيم، متوازن تماماً، أحراراً كإنسان أعلى خالين من أوهى عرض عصابي، ومن أي عيب في الطبع أو عادة سيئة».

ومارك شلَمْبرْجَرْ(14) هو الذي يتكلّم، في عداد المؤلفين الفرنسيين، على «التحويل النرجسي»؛ فلا يصبح المرضى متشيّعين متحمّسين للتحليل النفسي فحسب، بل يعانون شيئاً يشبه ضرباً من التجربة الصوفية. دينهم التحليل النفسي: إنه حلّ محلّ أناهم المثالية ويقودهم برمتّهم ... »

وعلّمتنا التجربة أن علينا، إزاء بعض المرضى(15)، أن نعدل في بعض الظروف عن اتجاهنا، اتجاه الحياد المطلق، إذ نمنحهم على هذا النحو منحة إذا صحّ القول، منحة هم بحاجة إليها. وهذه المنحة ينبغي ، فضلاً عن ذلك، أن

---

(13) بعد التحليل، مقال في فصلية علم النفس التحليلي، 1988.

(14) مدخل إلى دراسة التحويل في التحليل النفسي، مقال في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 1952

(15) ب. غرانْبرجر، مدخل إلى ندوة موضوعها التفسير قبل التناسلي، مقال في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 1953.

تُمنح المحلَّل منحاً تلقائياً، **أي دون أن يطالب المرضى بها وأن تُمنح في فترة لا يتوقّعون أن تُمنح خلالها**. ذلك أن المرضى يسعون على وجه العموم إلى إثارة هذه الظروف (إذ يطرحون أسئلة، ويلحّون على أن ينالوا بعض التفسيرات على سبيل المثال) وفي هذه الحالات لا ينبغي لنا، مبدئياً، أن نقدّم إليهم إشباعاً، إلا في بعض الأوضاع التي تثير حصر المريض على وجه الخصوص. ولهذه **المنح التلقائية** قيمة دينامية كبيرة جداً وتؤدّي دوراً كبير الأهمية في المرحلة الأولى من التحليل الذي يجري تحت تأثير النرجسية، ولكنها ذات مفعول عكسي إذا كانت استجابة لطلب صاغه المحلَّل (لن نتناول بالمعالجة هذا المفعول المهدّىء، المؤقت جداً مع ذلك، الذي يفضي في نهاية المطاف إلى تفاقم حَصَر المحلَّل، كذلك حصر المحلّل المبتدىء، حصر ضد التحويل، هذا لمحلّل المبتدىء الذي يعيش، عيشاً ترافقه الإثمية، صمته الخاص كأنه ضرب من الإحباط الذي يفرضه المريض).

ونحن نصادف في الحياة أيضاً بعض الأفراد **الذين يريدون إشباعاً دون أن يكون عليهم أن يعبّروا عن رغباتهم**. وإذا كانوا مرغمين على التعبير عن رغباتهم (إنهم لا يفلحون على الأغلب مع ذلك)، فإنهم يشعرون بجرح سببه أنهم لم يكونوا موضع كشف، والإحباط يمسّ «نرجسيتهم» قبل كل شيء. أما الإشباع، فإنهم لا يقبلونه- إن لم يرفضوه صراحة- إلا متذمّرين، وبالرجاء، مثيرين على هذا النحو ضرباً من ترميم الجرح النرجسي الذي كان قد سبّب لهم ويجعلون شريكهم يحسّ على أي حال أنهم لا يُعتبرون مشبَعين على الإطلاق.

ونحن نصف عادةً هؤلاء الأفراد أنهم ناكصون فمويون، لأسباب سلبية على وجه الخصوص. والحال أن وضع «الطفل قرب أمه» لا يستجيب لوصفنا على الإطلاق. وهذا الوضع- كما بيّنت ميلاني كلاين في كتابها (**التحليل النفسي للأطفال**)- يسبّب الصدمة له بانتظام، حتى ولو أنه يعيش في شروط مثلى. فالطفل **يظهر** دائماً «حالة الحاجة»، **يطلب** الإشباع، وعندما لا يطلبه، ليس ثمة مجال، يبدو لي، لإشباعه. بل إن التسبيب الدائم للصدمات هو الضروري له- دون تجاوز

بعض الحدود في الاتجاهين بالطبع- أي الأمر الذي لا غنى عنه لمصلحة نضجه الدافعي. والحال أن ما يبحث عنه هؤلاء الأفراد بواسطة «المنحة التلقائية» **إنما هو إشباع غير نزاعي على نمط منفعل، وُهب على نحو مباشر وكلّي حين لم تكن الرغبة موضع تعبير بل ولا محسوسة على الأغلب أنها رغبة**. وهذا الشكل من الإشباع(16) ذو علاقة بانبعاث **القوة الكلية النرجسية**، بالنكوص النرجسي العميق. إنه نسخة من نكوص الجنين الذي يحافظ، إلا في حال حادث مرضي، على إشباع لحاجاته آلي قبل أن تظهر هذه الحاجات بوصفها حاجات. ويمكننا أن نستنبط من ذلك أن الأمر هو بالفعل محاولة لإدامة هذا النمط من المنحة التي تختلف- كما رأينا للتوّ- اختلافاً بارزاً في خصائصها الأساسية عن الإشباع الفموي.

«التحليل- كان فرويد يقول- ينبغي أن يجري تحت تأثير الإحباط». فما المقصود بالإحباط في التحليل؟ إنه الملازم للوضع التحليلي نفسه، نظراً إلى أن التحليل إحباط دافعي في اتّجاه العلاقة بالموضوع، أقله موضوعياً ومن وجهة نظر الملاحظ. ذلك أن الفرد ذاته غير قادر، على الرغم من رغباته السريعة الزوال، على علاقة بالموضوع كاملة، مرْضية من ناحية الطاقة، وهو لهذا السبب يتلّقى العلاج. والعلاج هو الذي سيعلّمه، شيئاً فشيئاً، أن يستجيب للإحباط استجابة ملائمة وأن يصبح قادراً على هذه العلاقة بالموضوع التي تبلغ نضجها.

وإذا سلّمنا أن النكوص النرجسي مصدر الطاقة في الوضع التحليلي، فلماذا ينبغي للمحلّل أن يحترم قاعدة الحياد أو يعدل عنها- إذا اقتضى الوضع هذا العدول- ويقدّم منحة للمحلّل على النمط النكوصي الذي أوضحناه للتوّ؟ السبب أن المحلّل يكون، حين يستجيب للطلب الذي يصوغه المريض، قد ترك مستوى

---

(16) لا تخلط بين هذا الإشباع والإشباع «السحري»، فمصطلح «سحر» ينطوي على ضرب من التقنية، وبالتالي اندفاع حركي فاعل مع أنه نكوصي وغير متكيّف، تقنية خاصة بالإعراب عن الرغبة وإشباعها على حدّ سواء.

العلاقة النرجسية- إما في اتجاه وإما في اتجاه آخر- ودخل في أبعاد العلاقة بالموضوع، تلك العلاقة التي يعجز المريض على وجه الدقة أن يضطلع بها، مع أنه يطالب بها في الوقت نفسه. ويكون المحلّل إذن أحبط المريض، بدلاً من تقديم منحة له، ولكن في اتجاه يعاكس العلاج. وإذا، على العكس، رفض المحلّل أو منع أي شيء عن المحلّل منعاً قطعياً، فإنه يبادر بعلاقة بالموضوع معه، إذ يدخل على هذا النحو في لعبة المريض. إنه يحبطه وهو يقدّم له منحة في الوقت نفسه. فالنكوص النرجسي ينبغي المحافظة عليه لهدفٍ واحد فقط هو أن يتجاوزه المريض حتى يكون بوسعه أن يستمدّ منه الطاقة الضرورية لإقامة علاقة بالموضوع. وهذه الاندفاعة ينبغي مع ذلك أن تغذّيها مصادر المريض نفسه، إذ لا ينبغي للمحلّل أن يكون مخدوعاً بالفكرة التي مفادها أنه يمكنه، هو نفسه، أن يقدّم للمريض هذه الطاقة. ويحدث هذا التكامل شيئاً فشيئاً. وإذا تدخّل المحلّل لتسريع هذه السيرورة، فإنه يبطئها بالفعل؛ ويستقرّ تثبيت سادي مازوخي مع وعدٍ مؤكد بضرب من عصاب التحويل مجهد وشاقّ على وجه الخصوص، دون أنْ نتكلّم على منظور لتحليل يصعب جداً تحديده، بل تحليل لا ينتهي.

وليس صمت المحلّل في الحقيقة، مهما كان في الظاهر غير مستساغ للمحلّل، يسبّب الصدمة أبداً، إلا في بعض الحالات الاستثنائية وهي من جهة أخرى حالات حدّية. ويظلّ المحلّل في الواقع، في حال صمته، على التربة النرجسية **غير النزاعية بالتحديد**. والتدخّلات التأويلية، البنّاءة مبدئياً وفي الظاهر، يمكنها أن تبين في غير أوانها تماماً بكل معاني المصطلح. أما ضروب الرفض أو الممنوعات بالمعنى الدقيق للكلمة أو التي يستشعرها المريض أنها كذلك، والأمران سيّان، فإنها لن تلقي المحلّل فحسب في نزاع **فعلي** مع المحلّل، نزاع لن يكون إذن تحليله ممكناً، بل سيكون لها، بالنسبة له، قيمة «الخصاء» بكل النتائج التي ينطوي عليها ذلك من وجهة النظر العلاجية.

فكل إحباط حقيقي سيطرد ثنائي التحليل إذن من الفردوس النرجسي، إلا الإحباط الذي يفرضه المريض نفسه على نفسه ليعود إليه عندما، على سبيل

المثال، تلقي العلاقة بالموضوع، التي تُضفي عليها الإثمية، ظلّها على بداية التحليل، بوصفها تستبق المستقبل. واقتطاع بعض الدقائق من مدة الجلسة المتعارف عليها، على سبيل المثال، يمكنها أن تكوّن إحباطاً جدّياً واستطعنا أن نلاحظ أزمةِ حصر حقيقية، عاقبة إعلانٍ قبل مدة قصيرة جداً عن الذهاب في عطلة.

والإحباط المحسوس به أنه إحباط في التحليل هو الذي يصيب الوضع النرجسي للمريض الذي يعيشه بوصفه كذلك بالنسبة للمحلّل ويصيب هذا الوضع وحده، كما رأينا للتوّ؛ فالتداخل بين رغبة المريض النرجسية واتجاه المحلّل الواقعي سيجعل التحليل ينحرف، إذ يُعطى لهذا التحليل بروزاً هو بروز العلاقة بالموضوع، علاقة سمتها ومحتواها يمكنهما أن تكونا بعيدتين بعداً كبيراً عن المستوى الذي هو مستوى العلاقة التحليلية الراهنة.

وهكذا فإن المحلّل إذا عبّر، على سبيل المثال، عن الرغبة النرجسية النموذجية في أن يكون محبوباً من المحلّل على نمط جنسي غيري أو جنسي مثْلي، فليس ثمة أي محذور في أن تُحلَّل هذه الرغبة، بل على العكس. ولكن أن **يُعرب** المحلّل للمريض عن أنه يتعذّر عليه أن يمنحه هذا الإشباع، فإنه يكون قد نقل الوضع إلى المستوى الواقعي مع **التحريم المرافق** لهذا الإشباع، وبما أن هذه الرغبة **تمثّل** الهدف النرجسي نفسه الذي يلاحقه المحلّل في التحليل، فإن نتائج هذا التحريم يمكنها أن تكون ذات عواقب يتعذّر ترميمها على وجه التقريب.

أما وقد قلنا قولنا هذا، فإن الاتجاه الحيادي بمغالاة، الصلب والمتخثّر منذ بداية التحليل، يمكنه أن ينطوي أيضاً على مخاطر، ذلك أنه يكوّن إحباطاً نرجسياً واقعياً يمكن أن يحمل التحليل كله آثاره. أما عن الوفرة النرجسية للمحلل، فإنها يمكنها أن تكون معيقة بالقدر نفسه إن لم يكن أكثر، ذلك أن المحلّل يقبل أيضاً علاقة بالموضوع مازوخية قبولاً أكثر سهولة من الإغواء. فبين «الحياد المطلق» للمحلّل و«المنحة التلقائية» بالمناسبة، ثمة مشكل حقيقي من «تقدير الجرعة» يطرح نفسه، نودّ أن نمنحه قاعدة علمية حقيقية، دون أن نتخلّى لذلك عن «الفطنة» والحدس اللذين يظلان، بالطبع، ضروريين.

V
«الإسهام النرجسي»

من الضروري أن نفهم أننا **نمنح** المريض **مِنَحاً** في التحليل، فكلّ تفسير (بمعزل عن محتواه وسمته، صائب أو خاطىء) هو **منحة** قبل كل شيء، ويبيّن المريض ذلك جيداً لأنه يبدو شديد الرغبة فيه ويطلبه، دون أن يأخذ بالحسبان دائماً محتواه. إنه أمر كبير الأهمية ونحن نعلم جيداً أن علينا، في طور معيّن من التحليل وفي بعض الأوضاع التحليلية، أن نعتكف في الصمت ونتخلّى عن تقديم التفسيرات، ولو كانت الأكثر وضوحاً والأكثر دلالة. فما دلالة هذه المنحة وما دلالة هذا الرفض؟ ما هما في الحقيقة؟ ومتى نمنح أو نرفض وضمن أي مدى؟ وينبغي أن نشير أيضاً إلى أن المحلّل لا يمنح منحاً تلقائياً أبداً، فشخصه غير متورّط في هذا الفعل الذي لا يصبح أبداً تبادلاً حقيقياً. إنه يلعب دائماً **لعبته** لا لعبة المريض. وحتى عندما يُقاد المحلّل إلى الكلام على نفسه، فإنه لا يفعل ذلك إلا بالنسبة للمادة التي يسهم بها المريض في إطار الوضع التحليلي. ويظلّ على هذا النحو ضرباً حقيقياً من التجريد.

رأينا أن الجنين يعيش في حالة من النكوص النرجسي للإشباع التلقائي، حالة سابقة على ثنائية المشاعر بالتعريف لأنها غير نزاعية. ويظلّ الطفل بعد الولادة في وضع مماثل على وجه التقريب، إذ تساعده الظروف الخارجية والإشباع الهلوسي. ويوقف هذا الوضع، وقفاً مفاجئاً أم غير مفاجىء، إخفاقُ نرجسيته، وتلك صدمة يشقّ عليه أن يتحمّلها. والكبت وحده يتيح له أن يتجاوز

هذا الجرح النرجسي تجاوزاً غير كامل مع ذلك. وماذا نفعل لنيسّر له تجاوز هذه المرحلة الصعبة؟ في حين أنه من قبلُ لم يكن يشكّل سوى واحد مع مصدره في الإشباع، إذ يمنح نفسه اللذة على هذا النحو (وكلمة نعيم تناسب أكثر)، يساعده محيطه على أن يعيد تكوين هذه الوحدة النرجسية بحبه، أعني أن **إشباعاً نرجسياً قادماً من الخارج الآن** يحلّ محلها بوصفه انعكاساً نرجسياً لذاته. فالمقصود إذن «إسهام نرجسي». وسيدلف الطفل أيضاً، في الوقت نفسه، في سيرورة ستتيح له، فضلاً عن ذلك، أن يتكيّف مع ظرفه الجديد (نظراً إلى أنه أصبح حاوياً بعد أن كان محتوى) ويعيد تنظيم اقتصاده الدافعي على قاعدة أخرى، قاعدة السيادة على الموضوع.

وليس ثمة داع لأن نستأنف هنا مسألة العلاقة بالموضوع على نحو شامل؛ فهذه المسألة نوقشت كثيراً والمناظرة ازدادت ظلاماً في رأينا بفعل الخطأ الذي يرتكبه بعضهم حين يريدون تنضيد المستويين التحليلي والبيولوجي. والحال أن هذين المستويين مختلفان في الماهية ويبدوان منتميين إلى بعدين مختلفين. فتُناقش، على سبيل المثال، تلك المرحلة التي يصبح فيها الطفل قادراً على أن يقيم علاقات بالموضوعات. وهذه المرحلة تابعة بالتأكيد، قبل كل شيء، لسيرورة من النضج العصبي البيولوجي، ولكنها تابعة فقط في الحالة (المثالية) التي تكون السيرورة الموازية الأكثر تعقيداً وحساسية إلى الحدّ الأقصى، سيرورة النضج الوجداني قد حدثت دون أي تعقيد. والحال أن أولئك الذين يأتون لرؤيتنا هم، بالتعريف، أولئك الذين لم يستطيعوا، من جهة، أن يفلتوا من هذه التعقيدات، وهم الذين، من جهة أخرى، أكملوا منذ زمن طويل، بوصفهم راشدين، نضجهم العصبي البيولوجي بالمعنى الصحيح للمصطلح، باستثناء بعض الحالات التي لاتزال تعاني مشكلات نضج في الجملتين العصبية البيولوجية والوجدانية.

وما نحرص على لفت النظر إليه إنما هو أهمية النكوص النرجسي، نكوص ذي علاقة في حياة الطفل بالمرحلة التي تبدو على وجه الدقّة أنها طور بديل بين

فقدان النرجسية السابقة على الولادة و«الاكتساب الواقعي لما ينبغي أن يعوّض هذه الخسارة، أي السيادة على الموضوعات. وتمثُل هذه المرحلة من حيث الشكل بين الغلمة الذاتية والمراحل قبل التناسلية. وهي في الواقع تتجاوزها لأنها تستمدّ أصلها من الحياة السابقة على الولادة[17] وتدوم، كما كان فرويد قد بيّن جيداً، كل الحياة[18].

والعصابي هو من لم يحدث نموّه الوجداني على نحو مرْض ومن **يبدأ مجدّداً** هذا التطوّر أمامنا على ديوان التحليل النفسي[19]. إننا رأينا آنفاً أنه يبدأ أول الأمر بأن يمارس نكوصاً نرجسياً[20]، ولكنه يشرع، شيئاً فشيئاً، في إظهار رغبات ضعيفة في الخروج من هذا النكوص جزئياً ويباشر علاقة جديدة بالمحلّل، علاقة بموضوع. وإرادة تحقيق هذا الاتجاه الجديد على حساب الاتجاه الأول يعني بالنسبة له إحباطاً يتحمله بصعوبة، لاسيّما أن إقامة العلاقة الجديدة تضعه في صراع مع بعض الصعوبات التي لايمكنه- هذه المرة- أن يفلت منها. وهذا التخلّي عن النكوص مندرج في الوضع التحليلي (تكرار سيرورة النموّ النفسي) من جهة، وأصبح من جهة ثانية أكثر صعوبة بفعل هذا الإحباط الدائم، العلاج التحليلي. إن هذا الوضع المثير للصدمة يماثل الوضع الذي وصفناه للتوّلدى الطفل وما **يمنحه المحلّل مريضاً من المرضى إنما هو «الإسهام النرجسي» نفسه الآتي من الخارج الذي يساعد المحلّل على تحمّل هذا الوضع المثير للصدمة.**

ولن يكمن **الإسهام النرجسي** فقط في التفسيرات والحياد الرحيم، بل في خلق جوّ ملائم على وجه الخصوص (وحدة نرجسية من اثنين) والمحافظة عليه.

(17) «الطفل يولد في حالة نرجسية أولى»، فرويد (**محاضرات**، إلخ، 1916- 1917).

(18) «التنظيم النرجسي لن يكون مهجوراً أبداً هجراً كاملاً»، فرويد، **الطوطم والتابو**.

(19) انظر، فيما يخصّ موضوع المفهوم «البداية مجدّداً»، بالان، «الهدف النهائي لعلاج التحليل النفسي»، **المجلّة العالمية لعلم النفس التحليلي**، 1935.

(20) يمكننا القول، على المستوى النفسي البيولوجي، إن المحلّل يمتصّ المحلّل امتصاصاً مستمراً، هذا المحلّل الذي يستمرّ مع ذلك باقياً؛ وذلك وضع يماثل وضع الجنين بالنسبة لأمه.

اهتمام ورعاية شاملين وعند كل محنة، مع إمكان تكوين استيهامات غير محدودة دون أن نتكلّم على الحرية التي يتمتّع بها المحلّل في العلاج وعلى حصانته، فهذه الحرية الكمونية والاستيهامية هي الشكل الوحيد من الحرية التي يمكنها أن تناسب النرجستي. ولهذا الإسهام النرجسي ذي المصدر **الخارجي** علاقة بالسمة اللاشخصية للمنحة موضع البحث، منحة لاتصدر عن الموضوع، ولكنها تمضي نحو الفرد، **كما لو أنها آتية من ذاته، تماماً كما كان الأمر في الحالة الجنينية**. فالمحلّل ظلّ الفرد المحلَّل، ظلّه غير المرئي، وهذا الفرد موجود وحده في هذه اللحظة، إذ أن المحلّل ليس سوى رسم أولّي غير شخصي، ضرب من الاستيهام[21]. فتاريخ العلاقة بالموضوع الذي سيبدأ مع ذلك هو تاريخ العلاج، تاريخه نفسه، ولكن مصدر السيرورة الطاقي سيكون النكوص النرجسي، الماثل في التحليل دائماً، على نحوٍ أو على آخر.

ونحن نجد أنفسنا على هذا النحو نملك معطيات أساسية يمكنها أن تتيح لنا أن تؤلف منحنى سلوك المعالج، فيما يخصّ الإحباط والمنحة على الأقل، فعلى محور السينات والعينات من هذا المنحنى يمثل، من جهة، **التوازن النرجسي**، النسبي دائماً بالطبع، لأن المقصود عصابي، وتمثل، من جهة أخرى، «درجة

---

(21) - إنه ضرب من الاستيهام بالفعل، إذا صحّ القول، بالنسبة لبعض المرضى الذين سيعيشون كل السيرورة التحليلية على صورة استيهامات لاشعورية، دون أن يكون المحلّل مسوقاً إلى إحباطهم أو الإنعام عليهم على نحو آخر، إذ يجري التحليل كله على وجه التقريب تحت عتبة إمكان الإدراك.

العلاقة بالموضوع»، منظور إليها من زاوية التطور قبل التناسلي، إذ أن هذين العاملين متكاملان واتجاههما متعارض[22].

والرغبة في هذه المنحة النرجسية يمكنها أن تكون ملحة على نحو مخيف، شديد، وغير ممكن تحليلها بالتعريف، أي أن تفسيراً تاريخياً تحويلياً لا يمكنه أن يقوم مقامها. ويمكننا، إذا أحبطنا المريض، أن نشجّع إعادة تنشيط «مكوّنة الموت النرجسية» التي يمكنها تماماً، في الحالات القصوى، أن تؤدي بالمريض إلى الموت بفعل مرض طارىء، حادث، انتحار، إلخ، إلا إذا أدرك المحلّل حالة الاستعجال التي ينبغي تداركها، وذلك أمر هو من السهولة بحيث تكفي، على وجه العموم، حركة صغيرة جداً. ويمكننا أن نقيم موازياً بين هذا الوضع ووضع الرّضع الذين يربّون دون حب، أي دون إسهام نرجسي، ويموتون بسبب ذلك. إنه ضرب حقيقي من **متلازمة الاستشفاء التحليلية**، لكي نستخدم مصطلح ر. سبيتز [23][*].

---

(22) - إننا نسمح لأنفسنا، إذ نستبق عملاً نذرناه لموضوع التوازن النرجسي، برسم الخطوط العامة لضرب من تصور للنرجسية بوصفها دافعاً مستقلاً مع مكوّنة استمتاعية (حب الذات) ومكوّنة مميتة (السيادة على الموضوع، العدوانية، القوة الكلية) تُسمّى على هذا النحو لأنها يمكنها أن تولّد بعض التغيرات المرضية، النفسية الصرفة أو النفسية الجسمية، التي تفضي، في الحالات الخطيرة، إلى الموت. وهذا التصور للنرجسية يتمفصل مع المقطع الذي يعرّف فيه فرويد (مصدر مذكور سابقاً) أنها المرحلة «التي تكون فيها الطاقات النفسية ليست متمايزة بعد، (أي لايوجد بعدُ توتّر بين الدوافع الجنسية وغرائز الأنا)». وتجد هذه الدوافع نفسها متداخلة وفي الحالة الخام على وجه التقريب، نظراً إلى أن سبيل اندماجها الملائم ينبغي أن يمرّ بالعلاقة بالموضوع (والعكس بالعكس).

ويبدو هذا التصور للنرجسية، للوهلة الأولى، أنه يكرّر الثنائي الفرويدي إيروس - ثاناتوس. ولكن لايبدو، من جهة، أن فرويد فكّر في هذا التقسيم الثنائي داخل النرجسية. ونحن، من جهة أخرى، نعزو إلى المكوّنة المميتة مكاناً جيّد التحديد ومتموضعاً في سيرورة النضج قبل التناسلي، وذلك ما يعيد وضع هذه المكوّنة النرجسية في إطار عيادي محدّد جيداً.

(23) - **متلازمة الاستشفاء** (Hospitalisme). **دراسة تحليلية للأطفال**، 1945.

(*) - المقصود بمتلازمة الاستشفاء: مجموعة من المفعولات المضادّة، الجسدية والنفسية الناجمة عن إقامة طويلة في المشفى. وهي متلازمة لاحظها سبيتز لدى الرضّع الذين فُصلوا عن أمهاتهم (وكل بديل لها) لمدة كبيرة خلال السنة الأولى من الحياة. إنها مظهر من مظاهر **الاكتئاب الاعتمادي** «م».

VI
«الاتحاد النرجسي»

إذا ألححنا على أصل الإسهام النرجسي، فذلك لكي نلفت النظر إلى أن المسألة مسألة علاقة نوعية أو بالحري لم يكن ثمة علاقة على الإطلاق، فالأنا تترعرع في البداية آلياً، إذ أنها لاتعرف حدوداً بين نفسها وبين العالم المحيط، والاثنان لايشكّلان سوى واحد[٢٤]. إن العالم فيها، وهي العالم أيضاً، وهذا العالم يعكسها على نمط نرجسي. وليس الطفل في هذا الطور من تطوّره مركز الكون، إنه هو هذا الكون نفسه. وتضمينه ما لا يكون هو نفسه ليس إذن إلا زمناً نظرياً في هذه المرحلة. فالمقصود اختلاط حقيقي ذات – موضوع: «الاتحاد النرجسي». ويتكلّم بوفه[25]، في موضوع الصلة بين المحلّل والمحلَّل، على «اتحّاد في الجوهر»، وهو مصطلح يؤكّد أيضاً، على نحو أكثر، انصهار اثنين، اثنين لم يعد لهما إذن وجود معاً، إذ ذاب الموضوع في الذات ذوباناً تاماً.

والأصل النرجسي للوضع التحليلي يستند إليه بيترام لوفن[26] الذي يعارضه

(24) – يتكلّم نبرغ (مصدر مذكور سابقاً) على ميل الأنا إلى أن تمدّ حدودها تحت حماية التحويل الإيجابي، أي تحالفها مع المعالج. ويبدو لنا أن هذا الاتّساع، اتساع الأنا، الآلي وغير النزاعي يُمارس على حساب المعالج في شروط وضّحناها للتوّ، إذ يفضي إلى امتصاصه بوصفه صورة ذهنية مثالية نرجسية، فالأنا لا تغترب، إنها تتمدّد. انظر أيضاً دراسات رائعة لفودرن في «حدود الأنا».

(25) – الأنا في العصاب الوسواسي.

(26) – سيكولوجيا الحلم والوضع التحليلي، مقال في فصلية علم النفس التحليلي، 1955. (إذا كان التحليل قد خرج من التنويم المغناطيسي تاريخياً، فوجب عليه أن يتخلّى عنه وينتهي إلى ماهو نقيضه على وجه التقريب كما رأينا للتوّ. وهذا التغيّر ينعكس في الانقلاب الفجائي الذي أجراه فرويد عندما كفّ عن «التأثير مباشرة في المريض وتوارى بوصفه موضوعاً، منسحباً من حقل الرؤية لديه. واستطاع المريض على هذا النحو أن يغوص في تكوين الاستيهامات النرجسية الحرّ.

على نحو واضح بـ **الحلم**. ويعتبر الترابط الحر بين الأفكار بديلاً للنوم على سبيل المثال، ومن المؤكد أن النوم والوضع التحليلي يتشابهان على نحو من الأنحاء، ولكن ما يربط بينهما ليس فقط وضع الاضطجاع[27] بالتأكيد. فالمريض لاينام بسهولة في التحليل فحسب، ولكنه - وهنا يكمن الجانب الإيجابي من هذه المقارنة - لايروي على الغالب شيئاً إلا وهو نصف نائم، ويستعيد التحليل إذا جاز القول خارج الجلسات **ويصنع جلسات حقيقية**، إنه ينجز الجلسة «المثالية» على هذا النحو، إذ يؤلّف بين النكوص النرجسي وغياب المحلّل (بداية علاقة بالموضوع). والمحلّل موجود بالطبع على صيغة معيّنة مع ذلك، ولكن «حضوره» تحكمه فقط مع ذلك قوة المريض الكلية النرجسية، بمنأى من كل مفاجأة. ويقرّبنا الحلم، من جهة أخرى، من هذا الاتحاد النرجسي الأساسي وهو اتحاد الجنين مع أمه، اقتراباً يرد على الغالب بقلم بعض المؤلفين الذين انكبّوا على هذه المسألة[28].

وتكتب إيديث جاكوبسون[29] في موضوع مريضة من مريضاتها: «استيهاماتها في التحويل كانت تعكس إضفاء المثالية على محلّلتها واتحادها الصميمي مع هذا المحلّلة **ألتي أصبحت الجزء الأكبر أهمية من ذاتها**[30]».

ويصف ليون غرانبرغ[31] ذلك الاتجاه الذي كان لدى مريض من مرضاه إلى إنجاز وحدة معه على قاعدة قدرة نرجسية مطلقة.

---

(27) - هذا التقارب السطحي مصدر خطر يرتكبه بعضهم عندما يريدون الإكثار من الشروح «العقلانية» والمتّصفة بالحس السليم وتأخذ بالحسبان على هذا النحو مفعول الشفاء في التحليل. ويتوصل بعضهم إلى «حلّ التوتّر» المرَضي لوضع الاضطجاع. والحال أن المحلّل في حال من التوتر الأقصى، ولو أن المفعولات المباشرة لهذا التوتر تقنعها اللذة النرجسية المرافقة ولاتظهر إلا فيما بعد، كما رأينا ذلك للتوّ، والمحلّل يرى أوهى حركة من حركات المحلّل، يترصّد أوهى حركاته، ولاينسى مطلقاً أي شيء مما قاله، ولاشيء يفلت منه. أيمكنه أن يكون قادراً على ذلك في حالة من الاسترخاء؟

(28) - إننا نفكّر بالطبع قبل كل شيء بمؤلّف أوتو رانك الكلاسيكي، مع أنه موضع منازعة جداً، صدمة الولادة.

(29) - مشكلات التحويل مع المكتئبات، صحيفة الرابطة الأمريكية لعلم النفس التحليلي، 1954.

(30) - نحن الذين نصبع الجملة بالحرف البارز.

(31) - القدرة المطلقة، السحر، وفقدان الشخصية في التحويل، مؤتمر جنيف، 1955.

ويوجد في رأي ليوستون[32] صورة قصوى من عصاب التحويل «حيث المعالج يجد نفسه مختلطاً بذات المريض، إنه هو نفسه من كل وجهات النظر». وهذا الانصهار نرجسي صرف: «ينبغي للمعالج أن يكون ذا قدرة مطلقة، وعلم كلّي، إلهاً، والحال أن كلا المعالج والمريض جزء من الآخر في الواقع»[33]. وهذا الاتحاد سيكون نقطة انطلاق لسيرورتي النضج، سيرورة السيادة على الموضوع الخارجي بالنسبة للأنا وسيرورة العلاقة بالموضوع النرجسية[34]. وهذا اللبس ذات - موضوع، الظاهرة النرجسية على نحو نموذجي، ينبغي أن تُميّز من التوحّد (التماهي)؛ فثمة في التوحد، في الواقع، **وجود معاً**؛ إن الفرد يحتفظ بالموضوع على نحو دائم بوصفه نمط هذا التوحّد، أما الموضوع فإنه يُستبدخل بوصفه موضوعاً، بعد سيرورة معقّدة من الاجتياف والاندماج.

وثمة بعض المحلّلين النفسيين الذين اعتمدوا اللبس النرجسي ذات - موضوع ليستخدموه ركيزة في بعض الأوضاع التحليلية، ونحن نعرف على هذا النحو «مضطرب الطبع» الذي عالجه و. رايخ، شخصاً قاوم كل المحاولات العلاجية إلى أن استطاع المؤلف أن يوقفه حين **قلّده** بكل ما كان يفعل. ويبدو أن الطريقة مصممّة حالياً في علاج الفصاميين[35][36].

(32) - المدى الواسع لعلم النفس التحليلي، **صحيفة الرابطة الأمريكية لعلم النفس التحليلي**، 1954.

(33) - أ. ستيرن، بحث تحليلي في مجموعة حدّية من الأعصبة وعلاجها، **فصلية علم النفس التحليلي**، 1988.

(34) - **تحليل الطبع**.

(35) - روزن، **التحليل المباشر**.

(36) - «الاتحاد»، بالنسبة للحب، نرجسي على نحو نموذجي (ذكّر بعضهم من قبل أن المؤمن ينبغي أن يبتلع القربان دون أن يعضّه، فليس ثمة توحّد بالموضوع بل اتحاد نرجسي). إن من يُباح له بالسر والعاشق لا يؤدّيان الدور نفسه. والنساء النرجسيات يبحن بأسرارهن عن طيب خاطر إلى الأشخاص الذين يوكل إليهم أمر العناية بأجسامهن (غلمة ذاتية). ويُباح بالسر دون تحويل، دون الأخذ بالحسبان على الإطلاق شخص من يُوجّه إليه الحديث. وبعض الناس يتكلّمون إلى كلابهم أو إلى شخص (نرجسية تتصّف أكثر فأكثر أنها مباشرة). ويمكن للمرء في أمريكا أن يقرع جرس باب لـ«مصغٍ» مهني، ويقص إليه ما يشاء خلال نصف ساعة ثم يمضي. فالحب، كما التحويل، ينطوي على أسرار نكتمها على الشريك، فالعلاقة بالموضوع الإيجابية أو السلبية مع موضوع خارجي بالنسبة للأنا تولّد الحذر.

و «الاتحاد النرجسي» يمكن أن يستخدمه المريض - بالطبع - لأهداف المقاومة، في اتجاه عيادي أكثر وضوحاً ممّا لدلالة النكوص النرجسي العامة. وثمة مريض في صراع مع عدوانيته بحيث لايجرؤ على الخروج منها، إذ يؤخّر على هذا النحو تطوّره ذا العلاقة بالموضوع، رأى في منامه الحلم التالي:

«نمت تحت جرس ذي أوكسجين، موصول بك، فنحن نكوّن وحدة مطلقة». وأتاحت الترابطات بين الأفكار، المستمدّة من المجال المهني (المريض ممرّض)، كذلك كونه انخدع لمصلحتي حين دفع لي مقابل المعالجة، أن تبيّن له كل العدوانية التي كان يخفيها حلمه(37).

والاتجاه نحو شيء، كما في المرحلة النرجسية، إنما هو نيله، فيصبح الاتحاد النرجسي مصدراً دائماً لتوسّع الذات، مع كل الغبطة التي ينطوي عليها ذلك (ابتهاج)، وبما أن المحلّل يُسقط في الوقت ذاته الكلية على الطبيب، فإن تضمين هذه الصورة الذهنية المثالية في ذاته سيمنحه هذا الإحساس بتنامي قواه، الذي نعرفه جيداً. وسيتيح له هذا الإحساس أن يتحرّر على سبيل المثال من بعض الصلات المازوخية التي لن يكون بحاجة إليها. وسيتأثر بذلك سلوكه على وجه العموم وسنجمع شهادات عديدة في هذا الموضوع. ومفعول هذا الوضع يكون أكثر وضوحاً بمقدار ما يحصل في ظلّ نظام من الإحباط الدافعي، إحباط يبدو أنه يشجّع في الوقت نفسه على النضج النرجسي الذي يحدث على مستوى أكثر عمقاً، ويبدو أن المريض يدرك وجود هذا الارتباط المتبادل. وهذا الوضع سيتغيّر تدريجياً إلى أن يتيح نضج أنا الفرد للفرد أن يمتحن قدرته بصورة متعاظمة الجرأة في مجال العلاقة بالموضوع.

(37) - الاتحاد النرجسي بين الفرد **أناه الثانية** يمكنه أن يكون أفضل سبراً مما هو عليه، بواسطة أسطورة المثّل، وتلك مسألة أثارها أوتو رانك. ويسهم رانك بمادة ذات أهمية ليبيّن كم يحرص الإنسان على امتلاك ظلّه، ظلّ فقدانه يعني خصاء حقيقياً له. وهذا الدور يؤدّيه، في التحليل، إما المعالج أو الوضع التحليلي بوصفه كذلك. فالفرد يمكنه، كما رأينا للتوّ في فقرة سابقة، أن يعيش مجدّداً نزاعاً ذا علاقة بالموضوع، في التحويل، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بتوظيفه الإيجابي النرجسي لأناه المثالية، الذي يمثّله الوضع التحليلي.

ويمكننا أن نحاول نقل الأساسي ممّا قيل للتوّ إلى منظور ميلاني كلاين:
بوسعنا القول، وقد اعتبرنا الجرح النرجسي أصل العصاب، إن النزاع لدى الطفل يتحرك بين قوته الكلية النرجسية والواقع. وقبل أن يصطدم الطفل بالصدمة التي يكوّنها انهيار هذه القوة الكلية، يسلك سبيل التضمين النرجسي للدافع في ذاته، وفي أناه فيما بعد، كذلك الحامل الماديّ لهذا الدافع، حامل لا وجود له بعدُ بوصفه موضوعاً. وهذا التوسّع للأنا يؤمّن لها إشباعاً نرجسياً مثالياً.

وما إن يحدث الجرح النرجسي حتى يسعى الطفل إلى ترميمه، إذ يُسقط الدافع المعنّي، أو يستخرجه بالحري، وهذا الدافع مرتبط بالصورة الذهنية المثالية لحامله المادي (ذلك مايصبح الموضوع) وللمكوّنة الطاقية النرجسية فضلاً عن ذلك. وهذه المكوّنة سيكون لها، جرّاء الإحباط، شحنة سادية، وذلك مايصبغ الصورة الذهنية المثالية المركبة الناجمة عنها بلوين مرعب.

وهذا الإسقاط ذو علاقة بـ:

- **الوضع نظير الذهاني الهذائي** (بارنويا) لدى ميلاني كلاين. وبما أن الطفل سيحتفظ من على نحو مواز بالصورة الذهنية المثالية الاستيهامية المرتبطة بالموضوع المناسب، الموضوع الطيّب، فإن الخوف من فقدانه (نظراً إلى أن الإشباع الجنسي محبط) سيفضي إلى
- **الوضع الاكتئابي** لدى المؤلفة نفسها.

VII

«البُرء» النرجسي والأنا العليا

لفتْ النظر إلى أهمية هذه العلاقة القديمة وشبه البيولوجية، الاتحاد النرجسي بين المحلّل والمحلَّل، إنما هو أن نضفي على التحليل وضعاً مختلفاً من حيث الكيف عن وضع الطرائق الأخرى للطب النفسي والطب؛ فالنكوص النرجسي يؤدي دوراً معيّناً في كل العلاجات، ولكن مايختلف بصورة أساسية في التحليل إنما هو صيغة التزام المريض بالوضع العلاجي، والمسار الذي سيسلكه المريض في الوضع التحليلي سيتخذ وجهاً ومظهراً مختلفين، وسيتقدّم في بُعد آخر ويفضي على وجه الخصوص إلى إنجازات تتجاوز الإطار العيادي بالمعنى الصحيح، وله أهمية أساسية للفرد بوصفه فرداً، فكل هذه الوقائع تنتمي إلى الطريقة وحدها وتكوّن خاصيّتها الحصرية.

وتبيّن لنا التجربة أول الأمر أن ثمة هامشاً كبيراً جداً بين عدد الحالات التي يمكنها الإفادة من التحليل وعدد الحالات التي لجأت إليه فعلاً. إن اصطفاء يجري، اصطفاء يفلت من ملاحظتنا مع ذلك ولا نرى سوى نتائجه. وعلّمتنا الممارسة، فضلاً عن ذلك، أن المسألة لا تنحصر فقط في عامل اجتماعي أو اقتصادي، كما يمكن أن يعتقد بعض الناس. وعلى الرغم من التماثل المطلق في وصف الأمراض، تبحث فئة معيّنة من المرضى عن التحليل، في حين أن فئة

أخرى، أكبر عدداً بكثير، لا تقبله أبداً. أضف إلى ذلك أنه يتعذر علينا تحليل أحد دون رضاه، ولا يمكننا معالجته إن لم يعالج نفسه. ولا يدخل التحليل من يريد، ولا، بالطبع، من لا يريد، أو من نريد أن يدخل. وهذا الأخير سيتيح لنا، عند الضرورة، سبراً سطحياً ولكن دون تغيير بنيوي، ولا شفاء. يقال بعبارات التحويل: لابدّ لك أول الأمر، حتى تقبل التحويل على المحلل والتغيرات الناجمة عنه، من أن يكون بمقدورك وأن تريد إحداث «تحويل» على الطريقة ذاتها.

وكون المرء محلّلاً أمر يجعل منه موجوداً متميزاً في المجتمع، على الأقل في نطاق معيّن. وتلك أيضاً هي حال المحلل خلال مدة علاجه وبعد علاجه في بعض الأحيان (علاج ربما لم يكن قد اكتمل وفق القواعد). فأن ننتقد المحلّلين والمحلَّلين على ذلك، وأن يدافع بعض المحلّلين عن أنفسهم بعنف، هذا أمر لا يغيّر شيئاً من الوقائع. أما وقد قلنا قولنا هذا، فإن بوسعنا أن نكون محلّلين وأن نخضع للتحليل كما نفعل شيئاً آخر، وتحديد الظاهرة التي نشير إليها تحديداً جيداً أمر غير يسير، ذلك أننا نواجه شيئاً لا يمكننا معرفته إلا بالتجربة المباشرة التي لا تستسلم للتقنين.

وهناك خاصيّة أخرى تمضي في الاتّجاه نفسه هي الانتقال المتواتر من فئة المحلَّلين إلى فئة المحلّلين والعكس بالعكس، لأن هؤلاء المحلّلين ينبغي لهم أن يكونوا، بصورة ملزمة، قد خضعوا للتحليل قبل أن يمارسوا مهنتهم. والفارق، فيما يخصّ هذا الأمر الأخير، بارز بين تكوين المحلّلين وتكوين الأطباء الاختصاصيين الآخرين.

وتتغيّر الأمراض لأن الشروط البيولوجية للأفراد، كما شروط العوامل المسبّبة للأمراض، خاضعة لتعديلات مستمرة. أما العصاب، فإنه يتغيّر أيضاً، كان «السلَف» من المحلّلين يعالجون على وجه الخصوص، الوساوس، والهستيريات، والرهابات، في حين أننا نرى بالتأكيد حالات أقلّ من الرهاب،

والأشكال الكلاسيكية من عصاب الوسواس أصبحت أكثر ندرة وأما مايخصّ «الهستيريا العظيمة»، فإنها لم تعد سوى ذكرى. أضف إلى ذلك أن بنية الأعصبة تختلف من جماعة إلى أخرى وليس الأمر مجرد مسألة وصفٍ للأمراض كما يعتقد بعضهم(38). إنني أعلم أن المسألة أكثر تعقيداً بكثير وأن دور العديد من العوامل الأخرى ينبغي التفكير فيه، كما الأمر من جهة أخرى بالنسبة لعلم الأمراض العام؛ فبعض الأمراض تتغيّر، وتنشأ أمراض أخرى أو تزول وليس ثمة شخص ينكر أهمية الحوادث غير البيولوجية في هذه التغيّرات. أما الأعصبة، فإن هناك كلاماً، على سبيل المثال، على تغيّر الأخلاق الجنسية، وبالتالي تعديل في الأنا العليا. والحال أن الأنا العليا تتغيّر تبعاً للتنوّع الذي تُبديه الجماعات المختلفة فيما يخص بنيتها الأخلاقية، والسياسية، والجمالية، والاجتماعية، إلخ، أي **ثقافتها**. أما السيرورة الثقافية، فإنها تجري - كما كان فرويد(39) يقول، **فوق** التطوّر الفردي. إنها عامل ينبغي التفكير فيه على نحو منفصل، لاسيما أنه يبدو ذا أهمية حاسمة من وجهة النظر التي هي وجهة نظرنا.

رأينا الأهمية التي تمثّلها في تطور الطفل صدمة فقدان القوة الكلية النرجسية. وأضفنا أن الطفل يحتفظ، وهو يكبت هذه الصدمة، بالذكرى المرّة لهذا **العار** وسيبحث عن تعويضه، عن إلغائه. وبوسعنا أن نعتبر كل مظاهر الحضارة(40) تشكيلة من مختلف المحاولات التي يقوم بها الإنسان لتحقيق هذا **البُرء النرجسي**. وهذا يشقّ لنا دروباً فسيحة إلى التطوّرات الواسعة، ولكنها التي تجعلنا نخرج عن

(38) - من المعلوم أن للأعصبة الأمريكية مظهراً مختلفاً عن أعصبتنا، وقد أبديت ملاحظة مماثلة حين حللّت بعض الأفراد الألمان. وما أدهشني مع ذلك أكثر من غيره إنما هو أنني وجدت، في تحليلاتي لأفراد من هونغارية، مادة تشبه كثيراً تلك التي تحتويها الحالات التي رواها فورنزي الذي كان يمارس التحليل النفسي في بودابست. وهذه الملاحظة العيادية مضى عليها أكثر من ربع قرن وهي مختلفة عن ما تقدّمه لنا تحليلات مواطنينا على سبيل المثال.

(39) - عسر في الحضارة.

(40) - إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية معيّنة وأهملنا الزوايا الأخرى، فكل شيء يمدّ جذوره في اللاشعور وكل شيء في اللاشعور تحدّده عوامل متضافرة.

إطارنا. فعلينا إذن أن نهمل هذه الأشكال من «البرء النرجسي» باستثناء شكل واحد، غير ناجح مع ذلك، هو العصاب في رأينا[41][42]. ونقول غير ناجح، ذلك أنه يمكنه أن ينجح والعصابيون المشخّصون والمصنفون جيداً بوصفهم عصابيين يمكنهم على نحو جيد جداً أن يرفضوا التحليل لهذا السبب نفسه[43]. ولا ينبغي لنا أن ننسى، في الواقع، أن عَرَضاً واحداً من الأعراض ليس، كما نعلم جيداً، عصاباً ولا يبدأ العصاب إلا عندما يكفّ العرض عن أن يعمل عمله الوظائفي جيداً.

فلدينا على هذا النحو هستيريون وموسوسون، على سبيل المثال، في حالة صحية جيدة جداً أو جيدة نسبياً[44]. وعلينا أن نحتفظ بمصطلح «عصابي» للهستيريين أو الموسوسين الذين يعانون من حالتهم. ويتوجّه أولئك الذين يكونون عصابيين بهذا المعنى، توجّهاً على وجه العموم، إلى طرائق أخرى أول الأمر، ومحاولات كثيرة للبرء النرجسي، ولكنهم يتصفون بصفة مشتركة أنهم يرتكزون دفعة واحدة على علاقة بالموضوع وهم محكوم عليهم بالفشل إذن بصورة منطقية. ولن يأتي المريض إلى التحليل - وليس دائماً - إلا بعد أن يستنفد هذه الطرائق، أي أنه سيحاول برءاً نرجسياً مختلفاً على نحو أساسي[45]. والمقاومات التي يبديها ستكون صادرة عن أمر مفاده أن العلاج - **كما أعلمه لاشعوره** - يُفترض أنه يفضي

(41) - ب. لوكه (مصدر مذكور سابقاً): التجربة التحليلية لن تكون سوى محاولة من المحاولات العلائقية الكثيرة التي تقوم بها الأنا العصابية للخروج من النزاع مع الصور الذهنية المثالية.

(42) - كان فرويد يعتبر التحليل النفسي، أي قبول الفرد أن يوجّهه اللاشعور، جرحاً من كبريات الجروح النرجسية المفروضة على الإنسانية، أما العصابي، فإنه، يبدو لنا، أنه تمكّن على نحو جيد جداً أن يحوّل هذا الإذلال إلى عكسه، أي يقلب الوضع على حساب المحلّل الذي يعاني ردّ الفعل.

(43) - وينبغي جيداً أن نحذر في هذه الحالات من فرض التحليل عليهم، ذلك أنه يمكننا أن نمضي في اتجاه إخفاقات جدّية جداً.

(44) - والمقصود إما «برء نرجسي» هستيري، أعني استعادة جسمية للقوة الكلية على المستوى النكوصي، وإما استعادة وسواسية للقوة الكلية نفسها بالانتقال؛ ففي الحالة الأولى سيكون الرجحان للعنصر النكوصي الفموي (مكوّنة اللذة)، وفي الأخرى، العنصر الشرجي (المكونة المميتة).

(45) - الموقف السلبي للمحلّل هو الآن ضمان في ذاته ضد الجرح النرجسي المحتمل. والواقع أن السلبية تحمي، على نحو مفارق، من خطر الجرح النرجسي. «إذا تركت المبادرة للآخرين، للآخر، فإن ملاحظة عجزي لن يمكنها أن تكون مفاجأة مؤلمة بالنسبة لي».

إلى الشفاء هذه المرة نفسها (رغبة في عدم الشفاء)، وإن المريض سيكون مدفوعاً إلى هذا الحدّ الأقصى من المقاومة، وأن عليه أن يضطلع بمسؤولية معركة شاقّة مآلها سينفتح على تعديلات هامّة وأساسية في بنيته. ونقول بعبارة أخرى إن عليه أن يتخلّى، إذ يتخلّى عن العصاب، عن البُرء النرجسي الذي يمثلّه هذا العصاب، ولو أنه يؤدّي وظيفته أداء سيئاً، يَصرّ ويُؤلم، وأن يختار دفاعاً نرجسياً جديداً، مليئاً بالمخاطر، غنياً بما فيه من مجهولات ومختلفاً كل الاختلاف من وجهة نظر الطاقة. فالمريض يجد نفسه إذن أمام مفترق طرق حقيقي، أمام إحراج، سيكون متفاقماً أيضاً بفعل عامل آخر ينضاف إليه ليعقّد الوضع تعقيداً فريداً(46): الأنا العليا.

وبوسع العصابي، بمعزل عن هذين الدفاعين (العصاب والتحليل، لأن التحليل، حالياً، ليس سوى دفاع وليس سوى ذلك)، أن يجرّب دفاعات أخرى مع قليل أو كثير من السعادة وفق الإمكانات، فالمتانة النسبية الأناه، وذهنيته تبعاً لوسطه(47)، لن تكونا إلا على سبيل الدفاع النرجسي المساعد على وجه التقريب: وقد يكون المقصود محاولات في اتجاه تصعيد، فاعلية ثانوية، نكوصاً منحرفاً، تكوين قشرة مدرّعة للطبع، انزياح السيادة على الموضوع، والحب، صوفيات مختلفة، مخدّرات، لعباً. ويجد نفسه، على الأغلب مع ذلك، منزعجاً على نحو فريد في هذا الاختيار وفي تحقيق هذا الاختيار. فهو اختيار خاضع لعامل ذي أهمية كبيرة يحكم هذه الحركة، ونحن نقصد الكلام على **الأنا العليا**. وسيكون العصابي، الذي يبحث عن تعويض جرحه، ملزماً بفعل أناه العليا أن يختار ويؤلّف دفاعاته النرجسية خاضعاً لمقتضيات هذه الأنا العليا. والحال أن دفاعه المألوف إذا كان لايعمل عمله الوظائفي جيداً، فالسبب على وجه الدقّة نزاع مع الأنا العليا(48) وهو

---

(46) - مقاومة التحليل تجد نفسها مسوّغة إلى حدّ كبير من وجهة نظر المريض، وذلك يتيح أيضاً على نحو أفضل أن نفهم طبيعة الاصطفاء، الذي يفضي إلى فصل بارز بين العصابيين الذين يقبلون التحليل وأولئك الذين يرفضونه.

(47) - هنا إنما يدخل العامل الثقافي بالحساب.

(48) - الدفاع - كالعَرَض - ينبغي أن يجمع الصدمة النرجسية وترميمها.

إذ يختار دفاعاً جديداً ينطوي على تبنّي أنا عليا جديدة، فإنه سيعبّر عن تمرّد على أناه العليا القديمة[49] التي يجد نفسه في نزاع معها[50].

وحتى يباشر العصابي تحليلاً، ينبغي له الآن أن يكون في البدء متيناً بصورة نسبية ولديه إرادة جيّدة التصميم ذات متانة معيّنة[51][52]. والعصابي يجد نفسه

(49) - يبدو لنا أن فرويد عندما يتكلّم على ميل الفرد إلى الاحتفاظ بأوضاعه الليبيدية التي لايريد أن يبادل بها أشياء أخرى، ولو أنها تكون مرضية أكثر، ينبغي أن نفهمه بالمعنى المستمد من الأنا العليا.

(50) - الأنا العليا، في الحياة الزوجية للعصابيين، صورة ذهنية مثالية مركبة، يمثّلها الزوج، ودخول التحليل سيتجلى إذن على الغالب بتفصيل مفاجىء وعنيف لنزاع سببه الأنا العليا، كامن، والمريض سيجرؤ في الواقع، مستنداً إلى أناه العليا الجديدة، على أن يواجه أناه العليا القديمة.

ولهذه المسألة أهميتها في الحياة الزوجية. فالنساء غيورات على الغالب، ليس فقط من صداقات أزواجهن، بل من اهتماماتهم وشواغلهم الأثيرة. والمقصود هنا نزاع بين الأنا العليا للرجل وللمرأة، فأنا العليا لدى الرجل تحتوي عناصر ليست موجودة في الأنا العليا لدى المرأة. وليس الرجل غيوراً مع ذلك - على وجه العموم - من الأنا العليا النسوية وذلك مايبيّن أن غيرة المرأة تخفي رغبة في معارضة وأن المرأة تودّ، على نحو لاشعوري، أن تقايض أناها العليا بالأنا العليا للرجل، أنا عليا حاملها البدئي هو عضو الذكر (ميلاني كلاين).

وعندما يوجد صراع عنيف بين اثنتين من الأنا العليا، توجد ثنائية المشاعر على وجه العموم. وفي علاقة متوازنة، كل واحد من الزوجين يحتفظ بأناه العليا ودفاعه النرجسي يحدث دون خوف، ودون أن يثير غضب الشريك.

(51) - عطوبة المريض يمكنها أن تظهر إما بعجزه عن الخروج من نكوصه الطفالي، وإما - على العكس - بحاجته إلى أن يتمسك بعلاقة بالموضوع زائفة دون إمكان هجرها إلى نكوص نرجسي صريح كنكوص العلاج. ورأيت على هذا النحو مواجهة، مرتين، صبيّة تدافع عن نفسها ضد التحليل بالإكثار من موضوعات كانت، مبدئياً، تقتضي أن تُناقش خارج الوضع التحليلي. وجعلتها تتمدّد على الديوان مع ذلك، ولم يمنعها هذا الأمر من الاستمرار. وثمة تغيّر حدث مع ذلك حين أعلنت القاعدة الأساسية. فهذه الصبية ذات اللسان الطليق والمفعمة بالثقة بالذات رأيتها من لحظة إلى أخرى عاجزة عجزاً مطلقاً عن أن تلفظ مقطعاً. وكانت نهاية الجلسة بعد ربع ساعة. ونهضت ثم لم أرها مرة ثانية قط. إنها، دون ريب، لم تستطع أن تضطلع بالحرية النرجسية التي كان يؤمّنها الظرف النوعي للعلاج، والالتزام باستخدام حريتها النرجسية مع كل منظور التحرّر الدافعي الذي ينطوي عليه.

(52) - نقول الأنا تماماً، ولكن دون أن نمنح هذا الكيان دلالة ميتاسيكولوجية على وجه الدقّة، بالنظر إلى أن أنا العصابي - كما أنا الطفل - تجد نفسها في حال من التبنين التام، ويوجد مع ذلك شكل للأنا مختلف من الناحية الوظيفية ومبكّر، شكل نرجسي قبل كل شيء، إنه الذات. وفي رأي بعض المؤلفين، لوشا على سبيل المثال (ملاحظات عن العلاقات الأولى بالموضوع، نشرة النشاطات، رقم 26)، أن الفرد يجد نفسه إذا جاز القول معلّقاً، قبل أن يكون ذا أنا ناجزة، في الهواء ولا يمكنه أن يعيش إلا بواسطة الموضوع، وتلك فكرة لا مأخذ عليها من الناحية العلمية، ولكنها ينبغي مع ذلك أن تكتمل بالواقع البيولوجي.

دائماً في نزاع مع أناه العليا، ولكن من هنا إلى أن «ينشب الصراع» ثمة فارق، وذلك يتطلّب من جانب الأنا بعضاً من الجرأة الإضافية. ولهذا السبب، فإن التحليل ليس بمتناول كل الناس، ويدوم زمناً طويلاً على وجه التقريب، فسيره تعوقه المقاومة، أي الأنا العليا القديمة. ولهذا السبب أيضاً يخفق في بعض الأحيان. فـ «المعركة مع الملاك» تتطلّب روح القرار وثقة نرجسية بالذات على وجه الخصوص. والصراع ناشب على هذا النحو ومن تجرأ على إشعاله سيستمر فيه حتى النصر. وثمة نفايات مع ذلك، أعني ضروباً من الهجر، و «الالتزام» بالتحليل، إن لم يكن آنياً، يطرح بعض المشكلات ويتطلّب تقنية دقيقة. وثمة ممرّ عسير سيكون ممرّ «عصاب التحويل» عندما تكون المبارزة في ذروتها. وفي أثناء ذلك يقوم المحلّل مقام الممثل لهذه الأنا العليا الجديدة (إذ ترأس السيرورة التي يرتسم في نهايتها الحلّ الجديد للترميم النرجسي)[53] وسيتلقّى كل الشحنة الليبيدية التي ينطوي عليها

(53) – إنه السبب الحقيقي لـ تبعية المريض لمحلّله، وذلك هو ما يلومه عليه محيطه إذ يعتبرها عدم أمانة، بل عصياناً، وهو أمر يطابق الواقع؛ والحقيقة أن المريض سينجز، عندما يدخل في التحليل وبالتالي يتبنى أنا عليا جديدة، قطيعة مع الأنا القديمة التي انتهت أناوات أعضاء الأسرة الآخرين إلى أن تحقق معها وجوداً مشتركاً عصابياً، ولكنه تسوية مؤقتة مع ذلك. والحال أن هذا التوازن المؤقت، الذي كانت مراعاته بعناية كبرى أمراً واجباً، وجد نفسه موضع تساؤل بفعل القرار المفاجىء الذي اتخذه المريض. وارتكاس محيط المحلل، الإيجابي في الظاهر، ثنائي المشاعر جداً على الدوام. إنه يحتوي الغيرة بالتأكيد. ويقاوم المحلّل مع ذلك، ألم يوظف كل شيء في هذا المشروع المحفوف بالمخاطر؟ وإذا سبق له أن كان بحاجة إلى دعم كلي، فإن ذلك هو الآن، ولهذا السبب أيضاً سيكثر من مظاهر الولاء لمحلّله، بوصفه ممثلاً وتشخيصاً على نحو من الأنحاء لأناه العليا، التي هي التحليل.

إسقاط أنا المحلِّل المثالية النرجسية عليه والإنجاز الاستيهامي اللاشعوري كما لو أنه استباق لرغبات هذا المحلل الدافعية(54)(55).

لاحظنا آنفا عابرين كم كان يوصى بالامتناع عن تحمّل المسؤولية في

---

(54) – الأمراض، أقلها الأمراض ذات الأصل النزاعي، ونحن نعلم أن العامل النفسي موجود في كل مكان على نحو أو على آخر، تناظر النرجسية بالمقلوب (التشدّد مع المكونة المدمرة غير المندمجة) وسيكون المريض أيضاً، حين يبحث في كل طريقة جديدة، ولدى كل معالج جديد، عن دفاع نرجسي جديد، مسوقاً إلى أن يولّي طبيبه أو علاجه بالحري منصب الأنا العليا. والحال أن العلاقة بالموضوع، بوصفها ستكون حقيقية، مع أنها – بالطبع – عصابية، ثنائية المشاعر وسادية مازوخية، ستسلك سبيلاً مختلفاً جداً عن توظيف المحلّل وستنتكس عاجلاً أو آجلاً. ويفلح المريض مع ذلك، في بعض الأحيان، في تكوين «ثنائي» مستقر مع طبيبه، فاتجاهات الاثنين متكاملة، ولكن هذه العلاقة ينبغي أن تدوم مدى الحياة.

انظر المقال المفيد لبالان، الطبيب، مريضه والمرض، المبضع، ٢ نيسان (أبريل) 1955، مترجم في مجلة التحليل النفسي الفرنسية.

(55) – ألمعنا للتو فيما سبق إلماماً للعامل الثقافي الخاص ببنية الأناوات العليا الفردية، إذ تتلقى هذه البنية التأثيرات الأخلاقية، الجمالية، السياسية، الخ، لوسطها. وندرك على هذا النحو تعقيد الأنا العليا الأقصى وبالتالي تعقيد الدفاعات النرجسية المشروطة بها. ويعني التحليل، من وجهة النظر هذه، تعديلاً عميقاً في الشخصية، تعديلاً بنيوياً هو، على الرغم من المظاهر، صنيعة المحلل نفسه حصراً. ويأتي محتوى الأنا العليا الجديد أيضاً من المحلل، إذ يحرّر تدريجياً تطوّر دافعياً كاملاً كان متوقفاً فيه، كما في حكاية «الحسناء ذات الغابة النائمة». وذلك يتحقق مع المحلّل بوصفه حفّازاً، وسيطاً في الإسقاطات، والوضع التحليلي مصدر طاقة. والاتجاهات التأويلية لدى بعض المدارس المسماة تحليلية نفسية تكوّن كثيراً من الاضطرابات لسيرورة داخلية بالتعريف، تزيّف سيرها وتوقفه:

اليونغية تفضي في مرحلة معيّنة من التحليل إلى توجيه المريض نحو دفاعات غير تحليلية، يموّهها العلاج على وجه الدقة، والمقصود تصعيد صوفي مزيّف ومن ماهية دينية، تصعيد ينبغي المحافظة عليه طوال الحياة كلها وسيجمّد، حتى مع استخدام الطاقة المقتبسة من التحليل بوصفها عكازاً، جزءاً كبيراً من ليبيدو المريض.

أما الأدلرية، فإنها دفاع نرجسي معروف، مستخدم على نحو منهجي: سيستقبل المصاب بالصدمة النرجسية استقبالاً بسرور، نظرية ضرب من البروز العضوي، سيستجيب لها بـ«الاحتجاج الرجولي». وإذا كان المقصود دونية عضوية ولادية، عرضية، وبالتالي خارجية وتُعزى إلى العالم خارج الأنا، فإن النواة النرجسية للشخصية يمكنها أن تشعر أنها في مأمن. إن كل شيء مقبول شريطة أن لا تُمس الصدمة الأساسية، ضياع القوة الكلية. ويميل المحللون وبعض المحللين بسهولة إلى أن يحمّلوا الآباء مسؤولية كل شيء على سبيل المثال، ولاسيما أن ذلك أمر صحيح جزئياً. ولكن كل المرضى يشغلهم شاغل دائم ومباشر في مواجهة الطبيب هو أن يوضّحوا ويجدوا بمساعدته، وضد رأيه في بعض الأحيان، ذلك الحادث المحدّد، الواقع الفريد الخارجي الذي أقدم فجأة يثير الاضطراب المعنّي.

الحالات التي يكون فيها الفرد، مع أنه عصابي من الناحية الموضوعية (الأعراض ظاهرة)، معارضاً للتحليل؛ إن في حوزته، بالفعل، دفاعاً نرجسياً راضياً عنه نسبياً ومفروضاً عليه من الأنا العليا[56]. فليست المسألة إذن مسألة مقايضتها بأنا عليا أخرى، لأن ذلك يعادل رفض الأنا العليا نفسها[57]. وإذا ألححنا، فإن بوسعنا إما أن نلقي المريض في تحليل لانهاية له، وإما أن نسبّب تفاقم حالته، وتعقيدات جسمية نفسية على سبيل المثال. وبوسعنا على أية حال أن نتنبأ بيقين أن الشفاء سيصبح إشكالياً أكثر فأكثر. فالعلاقات بين التحليل، بوصفه دفاعاً نرجسياً، وبين دفاعات المريض الأخرى المماثلة ستكون موضوعاً دراستُه مفيدة. أما العصاب، فإن المريض يهمل على الأغلب جزءاً من أعراضه مباشرة، كما لو أنه لم يكن بحاجة إليها بوصفه **اختار مبدئياً حلاً آخر** (التحليل). ويرفع الحصار في بعض الأحيان عن بعض فاعليات التصعيد أو يجري اختياراً بين عدد منها إذ يُطلق في الوقت نفسه مادة تحليلُها يمكنه أن يكون ذا قيمة علمية كبيرة الفائدة. فالفرد يمكنه أن يوحّد استخدام دفاعات مختلفة، ويحلّ أحدها محل الآخر، ويرتّبها، الخ. وبوسعنا غالباً أن نلاحظ خلال حياة بعض من المرضى استنزافاً متتالياً لدفاعات نرجسية مختلفة: حب، تصعيد فاشل، ثم إدمان على المخدّرات، ونكوص نرجسي هاذ أخيراً. والتقدّم يمضي في اتجاه إيجابي، في تحليل يُقاد قيادة

(56) – إننا نمسّ هنا، في رأينا، ماهية ظاهرة المقاومة، ماهيتها نفسها.

(57) – الجمهور معادٍ بصراحة دائماً للتحليل النفسي أو ثنائي المشاعر تجاهه. والواقع أن التحليل دفاع نرجسي، شأنه على سبيل المثال شأن إيديولوجيا، أو صوفية، أو دين. والحال أننا نعلم أن الناس حريصون على أن يحافظوا على «قناعاتهم» سليمة إذ يقتضون احترامها. وهم يحمونها قلقين من كل مسّ ممكن، إذ لايمكن أن يمسّها أي حجاج موضوعي، وذلك مايفضي أحيانا إلى أوضاع متناقضة، يدافعون عنها دفاعاً أعنف. فالارتكاسات التي تثيرها هذه المحاولات تمضي من العدوانية العنيفة إلى الحصر والذعر وتنطلق حتى ولو بسبب فروق زهيدة بين الاثنتين المتنافستين من الأنا العليا. («نرجسية الفروق الصغيرة»). والحقيقة أن الأنا العليا القديمة إله غيور، لايحتمل مشاركة، أحد وهو كتلة واحدة؛ وبما أنها على هذا النحو، فإن أوهى رغبة في تعديلها تعرّض وجودها إلى الخطر، ومن هنا منشأ ارتكاسها العنيف. («إن كانت أنا عليا غير أناي العليا يمكنها أن تكون حقيقية، فمعنى ذلك إذن أن أناي العليا باطلة»).

صحيحة، والعلاج يمكنه أن يعزّز دفاعاً نرجسياً مرْضياً نسبياً على حساب دفاع آخر يكون أقل اتصافاً بأنه مرضٍ. وهكذا فأننا إذا جعلنا، ونحن نتوقّع توقعاً أفضل، مدمناً على المخدّرات هستيرياً وحولّنا اكتئاباً سوداوياً إلى مازوخية، فإننا نكون قد ربحنا الشوط(58).

واعتبار التحليل **دفاعاً نرجسياً متوافقاً مع الأنا العليا** يتيح لنا أن ندرك معنى بعض المواقف الخاصة.

ومن المؤكد أن على المحلِّل أن **يؤمن** بالتحليل، مع أن ذلك يمكنه أن يثير استياء رجال العلم الذين هم نحن. وهذا اللفظ - التحليل - لايستخدمه مقابل لاشيء كلّ الذي يتكلمون على التحليل النفسي، باستثناء المحلّلين أنفسهم بالطبع. وليس على المحلِّل أن يؤمن بالتحليل فحسب، بل عليه أن يُظهر موافقته عليه - ولا تفوته مناسبة ليفعل ذلك. وهذا الاتجاه ذو علاقة على وجه الاحتمال بالحاجة إلى أن يبين أنه تبنى أناه العليا وأنه تبنّاها على نحو حصري (وحدانية).

وأولئك الذي يخضعون لتحليل ثان يشعرون بالحاجة إلى أن يغتابوا محللهم القديم (إذ يقارنونه بالمحلل الحالي الذي يتملّقونه) ليبيّنوا أنهم نبذوا جيداً أناهم العليا المتبنية على نحو آخر، التي كان يمثّلها المحلّل الأول، وحتى لايكون ثمة التباس (سيكولوجيا التوبة والهداية). وسيقبل المحلل الثاني، وبخاصة إذا كان مبتدئاً والآخر «خبيراً» هذا المديح عن طيب خاطر، مديحاً يكون ثنائي المشاعر دائماً وينبغي أن يُحلّل بعناية(59).

وأولئك الذين يرفضون التحليل يرفضونه يصخَب بعض الأحيان، إذ

(58) - دور هذا الدفاع الجديد النرجسي، أي التحليل، يبدو، في بعض التحليلات، مطموساً ومؤقتاً، والواقع أنه يكفي في بعض الأحيان أن تُحلّ بعض النوى النزاعية السطحية نسبياً، التي عرقلت العمل الوظائفي للدفاع النرجسي **المألوف** لدى المريض، حتى يكون ممكناً لهذا الدفاع أن يستمر من الآن فصاعداً في إنجاز عمله دون تعقيدات كبيرة.

(59) - سنرى فيما بعد أن المحلِّل يعاني إثمية نوعية إزاء محلله جراء الشفاء. ذلك ما يجعله، مهما كانت معالجة المحلل إياه صائبة وناجعة، لايجرؤ على أن يقبل الشفاء منه، فيهجره ويجعل محللاً آخر يعلن صحة العلاج، محللاً لايشعر إزاءه على الإطلاق أنه مدين له بفضل وليس لديه أي هاجس إذن.

يشتمون من يقترحه عليهم وتحمرّ وجوههم حالما يتكلّم أحد على التحليل، **ولو أنه يقصد أشخاصاً آخرين**. وهذه المقاومة العنيفة، وهي مقاومة لامسوّغ لها هذه المرة بوصفها كذلك، هي برهان أيضاً: فالفرد يبيّن على هذا النحو لأناه العليا الراهنة أنه يظلّ وفيّاً لها ولن ينصرف عنها إذا جاز القول. وهذا العنف يشي من جهة أخرى، وفي الوقت نفسه، بالرغبة (العنيفة أيضاً) في أن ينصرف عنها، ومن المعلوم أن أولئك الذين ينبذون التحليل بعنف مماثل هم بحاجة كبيرة إليه على وجه الضبط.

وخوف بعض الفنانين من فقدان إلهامهم في التحليل ذو علاقة بهذه الإثمية نفسها إزاء أناهم العليا إذ يقسمون لها يمين الولاء. ولكن ينبغي ألا يغرب عن البال أن المقصود أناهم العليا الخاصة التي جرى إسقاطها وليست أنا المحلل العليا التي يجهلونها وينبغي أن تظلّ مجهولة كما رأينا للتوّ. وينبغي للمحلل المرآة أن يظل جاهزاً كل الجاهزية ليتلقى إسقاطات المحلل **النرجسية** وأن يظلّ دون محتوى لهذه الغاية. ولهذا السبب، فإن المرآة لا ينبغي لها أن تعكس أي صورة أخرى والمحلل ينبغي له أن يمتنع على النحو الأشد صرامة عن أن يتدخّل تدخلاً شخصياً في الوضع التحليلي، إذ يعرض أفكاره، وينطق بآرائه، وينحاز انحيازاً شخصياً ومباشراً[60].

هذا الدور للمحلل مؤقّت بالتعريف. ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان ينبغي أن يكون المحلَّل في التحليل دائماً، ومن حسن الحظ أن الوضع يمضي مترجّحاً في مرحلة معيّنة وسير العلاج سيتّخذ اتجاهاً آخر. وعلى هذا النحو على الأقلّ إنما تجري الأمور في التحليل الفرويدي وفي التحليل الفرويدي فقط. وهذا الانعطاف - مع نتائجه - سيكوّن، آملين، موضوع عمل لاحق.

(60) - ليس الأمر تدخلاً شخصياً من المحلل إذا أكمل أو شرح المادة التي يسهم بها **المحلَّل** أو عبّر (بتحفظ) عن موافقته أو عن موقف الشك لديه (بتحفظ أكبر أيضاً، وإذا يسّر نجاح حركة بدأها المحلّل خَجِلاً أو كبحها على العكس).

VIII

خلاصة

ليس بوسعنا أن نستمدّ من هذا العمل إلا نتائج مؤقتة. فالظروف أرغمتنا على ألا نعرض سوى الجزء الأول منه، وهو غير كامل. وسنقتصر إذن على بعض الأفكار باتجاه مجموع الملاحظات السابقة:

1) - التحليل سيرورة مستقلة لها تطورّها الخاص، الذي ينزع، إذا جاز القول، إلى نهايته الطبيعية. ويسير هذا التطور تحت الأرضي على مستوى مختلف عن تطور التحليل بالمعنى الصحيح للكلمة، ولا يمكننا تنضيده عليه، ويفلت من التشخيص والتفسير. ومع أن قصدنا كان عرض سيره كله، من البداية حتى النهاية، فإن علينا أن نقتصر على وصف العامل الدينامي الذي يقدّم للسيرورة، في رأينا، قوتها الدافعة وهي:

2) - **العنصر النرجسي** - يقتضي تعريف دقيق لهذا المفهوم، كما نفهمه، دراسة أكثر تعمقّاً تتجاوز إطارنا. فاكتفينا بالرجوع، في أثناء الطريق، إلى بعض الفقرات من كتابات فرويد، وضعناها بوصفها معالم، مرتكزين بالنسبة للباقي على دلالات هذا المصطلح التي يعزوها المحلّلون إليه على وجه العموم، وكذلك على المعنى الذي تطلقه اللغة الدارجة على مكافئه المسمّى «حب الذات» تسمية عاميّة. ويجد المحلّل نفسه في الوضع التحليلي **موضوعاً بمواجهة نفسه** - بواسطة المحلّل - في الشروط الخاصة التي تشجّع على نكوص نرجسي مراقب يحمل في

ذاته وجوداً بالقوة لكل تطورّ نوعي. وهذا النكوص النرجسي يُطلق السيرورة التحليلية وسيقدّم الليبيدو المتحررّ على هذا النحو إلى الوضع التحليلي طاقته الدينامية طوال مدّته.

3) - المسألة التي تطرح نفسها طرحاً طبيعياً هي اندماج التصورّ النرجسي للوضع التحليلي في نظرية الدوافع. وكنا قد ألمعنا فيما سبق إلى سيرورة موازية، إذ أن السيرورة السطحية تسير على مستوى المادة التحليلية التي يطلقها المريض، في حين أن السيرورة الطاقية الخفيّة معنيّة بمستوى أكثر عمقاً. والحال أن هذه الحركة الموازية، بوصفها كذلك، لايمكنها أن تُدرس إلا في الجزء الثاني من هذا العمل. وهذه الموازاة تحكم بمعنى معيّن العلاقة بين الدوافع بمعناها الصحيح والنرجسية. فالحياة الدافعية في مظاهرها الكثيرة ترتكز على العامل النرجسي الذي يوجّهها، وهي التعبير عن هذا العامل ووسيلة عمله معاً، فالأولية تنتمي إليه إذن. والحاجة: «عليّ أن أحقّق إشباعي» ليست مزوّدة بأي بروز نفسي إلا لأن الفرد يريد في الوقت نفسه أن يشعر أنه مستقلّ، **قادر** على أن يحقّق إشباعه **ويستحقّ** هذا الإشباع. فتأكيد هذه الحرية الدافعية يمكنها أن تتّخذ أهمية كبيرة بحيث أن **إمكان** تحقيق الفرد إشباعه يكفي دون أن يشعر هذا الفرد بالحاجة إلى أن **يحقّق** رغبته. إن «القدرة على الفعل» هي الأساسية و«الفعل» لا يستخدم على الغالب إلا لتقديم الدليل على هذه القدرة.

4) - إقامة الدليل أكثر ضرورة للإنسان بمقدار ما يكون مرغماً، على نحو مبكّر جداً، على أن يدرك أنه عاجز عن أن يحقّق إشباعه على الصيغة التي تعنيه وأن هذا العجز هو وضعه نفسه، **الوضع الإنساني**. وينطلق الإنسان، الذي لايقبل هذا الوضع على الإطلاق (المحافظة على وهم القوة الكلية التي وُلد معه تبدو له أكثر أهمية من الإشباع الدافعي بالمعنى الصحيح لهذا الإشباع)، باحثاً عن الدروب والوسائل التي تتيح له أن يغزو هذه القوة الكلية الوهمية مجدداً ويحافظ بالتالي على هذا لوهم. وسيكون الأساسي بالنسبة له، من الآن فصاعداً، أن ينجح على نحو أو على آخر، أي أن يحقّق **استرداد كماله النرجسي**.

5) – النموّ السوي، بالنسبة للموقع الذي يشغله الإنسان في مواجهة نزاعه النرجسي، يقود من الإشباع الهلوسي إلى السيادة على الموضوع الذي يتصف أنه الحلّ له، حلّ تحكمه السيرورة الثانوية، أي معنى الوقائع. وهذا التطور يمكنه أن يضطرب، وفي هذه الحال يلجأ الإنسان إلى بعض آليات التعويض التي تتيح له، مع قليل أو كثير من السعادة، أن يفلت من هذا الوضع المثير للقلق.

وستفضي بعض هذه الآليات – الفاشلة – إلى العصاب. ويكمن النجوع النوعي للتحليل في واقع مفاده أنه يتيح للعصابي أن يصنع تطوره الذي رسمنا خطوطه العامة فيما سبق صنعاً جديداً، في شروط ملائمة. وسيُطلق الوضع التحليلي تلك الدفعة التي تنشد الترميم النرجسي، إذ تجعله ينحرف تدريجياً وبالتوازي باتجاه السيادة على الموضوع. وستكون هذه الحركة المزدوجة موضع الدراسة فيما بعد، وبوسعنا القول مع ذلك، إذ نستبق ما سيأتي، إن المقصود – كما تظنون – سيرورة معقدة، فالحركتان في ارتباط متبادل، مع أنهما تتداخلان في بعض الأحيان، لتفضيا إلى حالة من النضج يمكننا تحديدها أنها «إضفاء صفة الموضوع» على النرجسية» أو «إضفاء صفة النرجسية» على العلاقة بالموضوع، (أعتذر عن استخدام هذين المصطلحين المولّدين البشعين لعدم وجود الأفضل)، وتلك حالة دراستها ستستوقفنا في الزمان والمكان المناسبين. ويكون الإنسان على هذا النحو قد حقّق الانتقال من حالة لانزاعية بدئية (إشباع هلوسي) إلى حالة لانزاعية متطورة، متكيّفة مع الواقع. ويكون قد حقّق على هذا النحو تجاوزه الخاص بعد أن بنى مجدّداً، خطوة فخطوة، أناه العليا النرجسية الأصلية التي اغتنت بعناصر العلاقة بالموضوع وتكيّفت مع هذه العلاقة.

6) – الوضع التحليلي يعني إذن بالنسبة للمريض

آ) – إنجازاً دافعياً هلوسياً «بالاستباق».

ب) – تكويناً جديداً للأنا العليا (التحليل)، فالتكوين القديم (العصاب) بان

غير كافٍ، والوهم النرجسي، وهم القوة الكلية للمريض (مكوّنة عتيقة سادية للأنا العليا) وكذلك رغبته النرجسية في الكمال (الأنا المثالية) وجدا في التحليل إنجازهما.

جـ) - ضرباً من زوال إضفاء النزاع، بفعل المحافظة على القوة الكلية النرجسية، أزال الحالة النزاعية.

هـ) - هذا فيما يخصّ موضوعنا الأساسي، أعني إقامة العلاقة التحليلية والعامل الدينامي الذي يوجّه تطوّرها، تطوراً سيفضي إلى:

د) - التكيّف مع الواقع بغزوه، وهذا التكوين نفسه للأنا العليا يصل إلى مرحلة النضج. وهذه السيرورة التي لاتكون على الإطلاق متناغمة ومستمرّة، ستمرّ بالطبع بتطور ذي تعقيد كبير. ولهذا السبب فإن هذا العمل ليس، في نهاية المطاف، سوى مجرّد مدخل ولم نستطع بالإجمال إلا أن نطرح المشكل على نحو مبسّط بعض الشيء مع ذلك.

الفصل الثاني

تمهيدات لدراسة موقع النرجسية[1] في بنية الجهاز النفسي

إذا نظرنا إلى النرجسية من زاوية نظرية المراجع النفسية، فان بوسعنا إرجاعها إلى بعض الصيغ ذات البساطة المدهشة، كالصيغة التالية على سبيل المثال: الفرد في التحليل يقايض **أناه العليا القديمة** العصابية بأنا عليا أكثر مرونة وتكيّفاً، وتتعذر أناه وتصبح قادرة على دمج دوافعه: «ماكان **الهو** سيكون الأنا».

وبدا لي، خلال دراسة الوضع التحليلي، أن القيمة الكشفية لهذه الصيغة تكسب كثيراً حين نكملها بتأسيس ضرب من التصور لـ **النرجسية**. وبوسعنا، إذا رفعنا، إن جاز القول، هذه النرجسية إلى مرتبة مرجع نفسي مستقل، أن نقترب أكثر من حلّ بعض المشكلات الرئيسة في علم النفس السوي والمرضي، حلّ لايتيحه إطار التقسيم الثلاثي الكلاسيكي المستخدم عادة.

ومن المؤسف أنني لست قادراً على أن أقيم برهاناً واسعاً بالقدر الذي يقتضيه الموضوع، بسبب الزمن الضيّق لمحاضرة، فحديثي لهذا اليوم، الأقل إغراءً بكثير والأكثر اتصافاً على نحو فريد بأنه محدود، سيكون إذن عرض هذا التصور لموقعية

(1) – محاضرة أُلقيت في رابطة التحليل النفسي بباريس، 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 1957. نُشرت في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، عدد ايار – حزيران (مايو – يونيو) 1958.

الجهاز النفسي في التحليل النفسي في إطار بعض الملاحظات عن العلاج التحليلي ذاته، وهذا الموضوع مألوف لمن أراد أن يطّلع على تقريري الذي يعالج الموضوع نفسه، وسأحاول أن أنظمه بحيث أتجنب الأقوال المكرّرة ما أمكن.

ويبدو العلاج التحليلي أنه يجري تحت مظلّة الأنا كلياً. والعصاب نفسه الذي يرغم الفرد على اللجوء إليه يظهر بوصفه مرض الأنا[2]. والعلاج يمكننا اعتباره مشروعاً لإصلاح أنا قاصرة، غير ناضجة، ينبغي لها أن تتلقّى ضرباً من إعادة التبنين تجعلها أكثر أهلية لتقوم بالمهمات المترتبة عليها، وإعادة التبنين هذه ينبغي أن تبدأ جدّياً على الأقل في نهاية العلاج، إن لم تكن قد اكتملت.

والخط العام للعلاج يمكننا تنضيده، كما نرى، على خط تطوّر الأنا، خط مستقيم ولكنه يمكنه أن يصبح متعرّجاً على نحو خاصّ؛ فالسيرورة تستطيل بفعل واقع، من وقائع أخرى، مفاده ما اتفقنا على تسميته **المقاومة** (أُهمل كل العوامل الأخرى التي تؤثر في سيرها، وبخاصة مشكل النضج الدافعي). والحال أن المقاومة لهذا العمل، شأنها شأن الكبت الذي يسعى التحليل إلى إلغائه، من صنع الأنا أيضاً. وتبدو الأنا للوهلة الأولى أنها تشجّع العمل التحليلي لتعارضه فيما بعد. ويصف فرويد[3] هذا الانقلاب، انقلاب الأنا، وصفاً يرافقه، كما يقال، ضرب من الدهشة الساخطة ونحن نفهمه.

ويعزو فرويد هذا التحولّ العكسي الفجائي، تحولّ الأنا، إلى ظهور التحويل السلبي الذي يثير معارضة المريض لاكتشاف المقاومات، كما يشجّع التحويل

---

(2) - «العصاب» : يقول فرويد، قائم على احتجاج الأنا على مقتضيات الوظيفة الجنسية (**بعض النتائج النفسية**، إلخ)، أو «الأعصبة هي، كما نعلم، أمراض الأنا» (**المختصر في التحليل النفسي**).

(3) - «لكن هذا هو ما يحدث: تكفّ الأنا بجدية قليلة أو كثيرة، خلال الانشغال بالمقاومات، عن الامتثال للعرف الذي يُبنى عليه التحليل. وتعارض الأنا جهودنا لمساعدة الهو معارضة شديدة، ولا تحترم قاعدة التحليل النفسي الأساسية، ولا تدع أبداً فسائل أخرى من المكبوت تنبعث، إلخ» (**تحليل منته وتحليل لا ينتهي**).

الإيجابي انطلاق المادة اللاشعورية نفسها. والحال أننا نعلم أن التحويل الإيجابي يوقف التحليل على الغالب أكثر مما يوقفه التحويل السلبي وأن التفسيرات التي تقدّم في هذا الاتجاه تلقى مقاومات كثيرة وأن «مقاومة التحويل» عزُلت، فالتحويل بمجموعه يتيح للمريض ضرباً من الهروب من التحليل على صورة «إفراغ للرغبات المكبوتة» حقيقي تحويلي، إذا جاز القول. وأخيراً نلاحظ أكثر فأكثر على الغالب ذلك العون الثمين الذي يقدّمه إلى العمل التحليلي تحليلُ هذا التحويل السلبي على وجه الدقة، الذي كان فرويد يعتبره مصدر المقاومة ذاته (دون أن نتكلّم على الفائدة الكبيرة لبعض التنفيسات الصامتة التي تجري في ضرب من الفراغ - مع أنها زاخرة بالاستيهامات اللاشعورية - والتي يتكيّف بها الفرد، على وجه الدقّة، ليتجنّب التحويل ذا العلاقة بالموضوع وكل مشتقاته).

وشرح فرويد اتجاه الأنا المفارق بانقسام هذه الأنا ويعتقد ستيربا (الذي أستشهد به وفق ماذكره فونيشل)[4] «أن التفسير يعمل عمله خلال ضرب من انشطار الأنا إلى جزء رشيد يمارس الحكم وجزء آخر يعيش تجربة». وهذا التقسيم الثنائي للأنا يمكنه أن يُتصورَّ عند الاقتضاء لو لم نكن مرغمين على أن نعترف بوجود جزء ثالث للأنا أو أنه يفرض نفسه بوصفه كذلك، بمعزل عن جزأي الأنا هذين، ذي رتبة ومستوى مساوٍ من وجهة النظر النفسية ويمثّل وظائف هي وظائفه على نحو نموذجي، ولفاعليته في السيرورة أهمية ذات دلالة. والحال أن سمات هذا العضو النفسي ليست السمات التي تُعزى إلى الأنا عادةً. إن له تبنيناً أقل تطوراً بكثير، وحيد الاتجاه كثيراً ومجاله السيرورة الأولية فقط. فهو جسم غريب إذن بالنسبة إلى باقي الأنا، أضف إلى ذلك أن دوره في السيرورة العلاجية يبدو رئيساً؛ فالمبادرة نفسها إلى العلاج، كذلك الاندفاع الذي ينفذ إليه نفوذاً عميقاً، يبدوان في الواقع أنهما ينتميان إلى هذا الجزء الثالث وحده. ينبغي إذن أن يُعزل هذا العامل من الأنا بمعناها

(4) - نظرية الأعصبة في التحليل النفسي.

الصحيح، عامل **يعمل في اتجاه المقاومة**. والأنا، وكالة ذات تنظيم عالي المستوى تقوم بمهماتها الأساسية الكثيرة، تضع كل منابعها في خدمة العمل الذي يقوّض فاعلية المحلل. والمقصود هو الأنا بمجموعها، فتصبح نظرية التقسيم الثنائي، منظور إليها من هذه الزاوية، غير ذات سند. وهكذا اعتقد ستيربا أنه يتجنّب الصعوبة حين يتكلم على ضرب من إنابة أنا المحلل (أنا مستوردة على وجه التقريب) مناب جزء من أنا الفرد (جزء أُضفي عليه النزاع). وهذا الوضع يصعب مع ذلك الدفاع عنه أيضاً، وكان من جهة أخرى موضع انتقاد عنيف ولايمكنه إلا أن يكون مرفوضاً: فليس ثمة أنا - بديلة ، في التحليل على الأقل؛ أو أن أمر التحليل لايستحق عندئذ كل هذا العناء.

تكلّمت على «الابتهاج» في تقريري الذي ذكرته أنفاً[5]. وحاولت أن أبرهن أن «الابتهاج» في الوضع التحليلي ذو علاقة بالنكوص النرجسي الفموي وهو، بصفته كذلك، يسبق ظهور التحويل التاريخي، تحويل تاريخي ذي علاقة بالموضوع وبالتالي ثنائي المشاعر، في حين أن النكوص النرجسي سابق على ثنائية المشاعر. وقد ألححت على ضرورة فصل الاثنين، ولو أن بعض العناصر الطليعية من التحويل التاريخي، ولكنها غير موظفة بوصفها كذلك، تزيّف اللوحة المتناغمة للنكوص النرجسي. وهذا الابتهاج، إحساس ممتع إلى حد كبير، لا يمكنه أن يكون إلا حالة نرجسية دون موضوع للسبب البسيط الذي مفاده أن الفرد لو كان قادراً على علاقة بالموضوع مانحة بقدر ما هو هذا الابتهاج، لما كان بحاجة كبيرة إلى التحليل شأنه شأن الكحوليين والمدمنين الآخرين الحقيقيين على المخدرات (بالنسبة للكحولي على سبيل المثال، شرابه يكون معاً ابتهاجاً وموضوعاً طيباً يؤمّن الابتهاج له). وأكدت أيضاً أن العنصر الابتهاجي، حتى ولو أن بعض التحليلات لا تسير كما

(5) - محاولة في الوضع التحليلي وسيرورة الشفاء، تقرير مقدّم إلى مؤتمر المحللين النفسيين بالألسن الرومانية.

وصفت، موجود دائماً على نحو أو على آخر، ولو أن ستارةً من سادية مازوخية صاخبة، أُضفيت عليها الإثمية بشدة، تحجبه في بعض الأحيان. فالبداية النرجسية للتحليل شائعة جداً على أي حال واستطاع فرويد أن يتكلم بحق على «شهر عسل تحليلي»، مع الإشارة إلى التحويل بالطبع.

وبوسعي الآن أن أسمح لنفسي أن أكون أكثر جزماً في موضوع الأهمية الطاقية للنكوص النرجسي في التحليل. إنني أفكر ببعض التحليلات التي تدوم سنين، وخلالها **حلّل التحويل بكل صيغة تحليلاً بعمق**، دون نتيجة. والمقصود تحليلات **مفروضة تمضي بالتالي عكس اتجاه نرجسية الأفراد دفعة واحدة**. ولا يفلح هؤلاء المرضى أبداً في تجاوز حصرهم وهم يذهبون إلى الجلسات وليس بوسعهم أبداً أن يستسلموا للنكوص النرجسي في الوضع التحليلي. ولهذا السبب تقاوم أنا هؤلاء المرضى طوال العلاج ولا يطرأ عليها أوهى تغيير بنيوي إيجابي (بل أقول إن وضعها يتدهور، ربما بتأثير التفسيرات المستمرّة، التي لايمكن أن تستجيب لها أنا المريض إلا بتعزيز مقاومتها). وليس ثمة سوى ثقافته في التحليل النفسي، ثقافة تخرج نامية من هذا الاختبار إلى حدّ يضلّل محيطه، ولو أنه محيط تحليلي.

ولا يتردّد فودرنْ(6)، إذ يتكلّم على «النكوص إلى تكوين أنا قديمة متّجهة نرجسياً نحو اللذة»، في أن يُدخل الوضع التحليلي في هذه «التشويهات المرضية والفيزيولوجية للاقتصاد الليبيدي (نوم، حلم، **تحليل نفسي**، **وجْد**) التي يمكنها أن تجدّد استمرارية هذ الميل»: إنني أنا الذي أضع المصطلحين بالحرف البارز لأبيّن القرابة بين التحليل النفسي والوجد في رأي هذا المؤلف، كذلك بين الحلم والنوم المعروفة سمتهما النكوصية منذ صدور كتاب فرويد **علم الأحلام**. ويرافق هذا الابتهاج على وجه الخصوص بعض الأطوار من التحليل ويُدخله بعضهم عادةً في التحويل الإيجابي، إذ يتكلّمون على ضرب من جوّ الغبطة الخاصة به. وعلى أي

(6) - سيكولوجيا الأنا والأعصبة.

حال، تحدث الظاهرات «الابتهاجية» نفسها خلال بعض «الاستبصارات»(*) التي يعزلها بعض المؤلفين باسم استبصارات «انفعالية». والمقصود هو الإحساس نفسه بالقوة المثيرة للحماس، أو الهناء الطارىء، الحادّ، الظافر والابتهاجي. وهذا الاستبصار لا يمكن أن يستشعره بوصفه كذلك إلا الأنا. وقد رأينا للتو أن هذا النصر المثير للحماسة أُحرز على ضحيّة هي الأنا أيضاً. والسؤال المطروح: **كيف نفهم اغتباط الأنا لهزيمتها الخاصة؟**

II

قبل أن يكون بمقدورنا الإجابة عن السؤال، علينا أن نستعيد فينومينولوجيا العلاج أو جلسة التحليل بالحري. إنني حاولت أن أبيّن خلال تقريري المخصّص لهذه المسألة بعض الجوانب الانفعالية النوعية للجلسة ولاسيما **تناذر نهاية الجلسة**. وهذه الجوانب الانفعالية تدلّ على اندماج التحليل في السيرورة التحليلية النوعية، وسنحت لي الفرصة آنفاً أن ألفت النظر إلى أمر مفاده أن هذا الاندماج لايمكنه أن يُعزى إلى التحويل التاريخي، ذلك أن هذا التحويل يمكنه تماماً، على الرغم من أنه جيّد التأسيس ومحلّل حسب الأصول، أن يفضي إلى نتيجة سلبية على الإطلاق، وهذا الاندماج يحوّل حياة المريض إذا صحّ القول في اتجاه نرجسي، فالتحليل يصبح الحدث الرئيسي لحياته، ولكنه سيعيش الوضع التحليلي هو نفسه على وجه الخصوص بوصفه عالمه، وهو مركزه[1].

(*) – استبصار مقابل لكلمة «Insight» «م».

(1) – يأتي المحلّل غالباً إلى الجلسة بعد العطلة الكبيرة، أي بعد انقطاع شهرين إلى ثلاثة أشهر، كما لو أن أي شيء لم يكن قد حدث و «يتابع» من النقطة الدقيقة التي كفّ عندها عن الكلام. فثمة مع ذلك شيء آخر خلف هذا السلوك الذي يمكننا وصفه بالسلوك الوسواسي. والواضح أن المريض لا يشك لحظة في أن المحلّل يستجيب آلياً وبصورة تناظر تصرّفه، إذ يشكّل جزءاً من هذا العالم النرجسي لاثنين، عالم لايتأثر بالانقطاع.

ونحن نعلم أن الاستيهام الأكثر رواجاً لدى المحلّل هو أن يكون الوجيد تحت المعالجة وأقول تماماً تحت المعالجة، فالتبنين الأوديبي لهذا الاستيهام ليس سوى ثانوي وذو علاقة بالبنية الفوقية ذات العلاقة بالموضوع التي تنضاف إليه، كما يحدث ذلك من جهة أخرى في الحياة. وإذا كان المريض يسلك سلوكاً مختلفاً، فذلك أيضاً جرّاء هذا المظهر المزدوج للوضع التحليلي، المصنوع من النكوص النرجسي والمقاومة التي تفضي إلى أوضاع تبدو مفارقة، إذ أن المريض يعارض جلسته معارضة عنيفة (توقّف كلّي) ولا تفوته جلسته مع ذلك على الإطلاق. والمقاومة يمكنها أن تصبح أقوى من جهة أخرى (والمريض تفوته جلساته)، بل مطلقة، وليس علينا أن ننسى أن الغالبية العظمى من العصابيين («الذين يعانون مشاكل في العلاقة بالموضوع») لا يمكنهم أبداً أن يخضعوا لعلاج تحليلي لأسباب تعود إلى بنيتهم كما سنرى فيما بعد[2].

وعلى أي حال، من يذكر التحويل يذكر التفسير التاريخي أو على الأقل انبعاث وضع معيش ومضفى عليه النزاع «في التحويل». والحال أننا نعلم أن حالة المريض تتحسّن على الغالب في بداية تحليل، دون أي تفسير، ولا أي تنفيس يمكننا اعتباره تصفية لهذا النزاع، إذ لا يطرأ على أنا المحلّل بالتالي أي تعديل؛ ونرى بعض أعراضها تختفي، وهذا يحدُث خلال بعض الأسابيع أو بعض الجلسات فقط، بل بعد محادثة أولى وحيدة. أليس الكلام في هذه الحالات على هذا النوع

(2) - أعتقد أن أولئك الذين يستندون إلى علاقة الأم - الطفل ليشرحوا هذا الوضع التحليلي الأساسي يبنون موقفهم على خطأ مصطلحي خاص بالعلاقة بالموضوع. فالاتحاد النرجسي يجري بالطبع مع الأم أو مع جزء منها بالحري، ولكن أياً منهما لا يمكنه أن يُسمّى موضوعاً في هذه المرحلة، ذلك أنه لا توجد حدود، كما بيّن فرويد وآخرون غيره، بين الذات وما سيصبح موضوعاً، وبالتالي لا يوجد فارق في الماهية، إلا في مرحلة متأخرة جداً. والمادة التحويلية، من جهة أخرى، هي في هذه المرحلة، كما قلت، أوديبية بصورة نموذجية والتباين كبير جداً، على أي حال، بين الغبطة الصافية لهذه الحالة والجوّ المأساوي من الإحباط الذي لا يفوته أن يسرّب النزاع الأمومي الثنائي المشاعر جداً على الدوام والمثير للمرض إلى حد أقصى.

من «المعالجة» ضرباً من الاكتفاء بالكلمات؟ نحن نعلم في الواقع أن أي معالجة من هذا النوع لن تُحدث هذا المفعول إلا إذا كان المقصود تقنية علاجية تحتوي على وجه الدقة، في نطاق معيّن وعلى نحو أو آخر، ذلك العنصر الذي أرغب في توضيحه، عاملاً خاصاً للحصول من جهة أخرى على التحسينات المؤقتة والسطحية نفسها. وإذا فحصنا طبيعة الأمراض التي «تُشفى» أو تتحسّن بسهولة خلال علاج تحليلي ما أوشك أن يبدأ ودون أي عمل تحليلي بالمعنى الصحيح للكلمة، فإننا نلاحظ أن المقصود قبل كل شيء فئتان من الأعراض:

– إما تحوّلات جسمية شتّى: اضطرابات هضمية، اكتئابات، بعض الضروب من الحصر، إلخ، تنتمي إذن إلى **القطاع الفموي** أو ذات علاقة بجانب من جوانب عَرَض يختص بالمكوّنة الفموية لهذا العرض وينبغي عزله عن الباقي.

– وإما بعض الأعراض ذات القاعدة التي تتشكّل من **مكوّنة نرجسية قوية**، كبعض الآلام الموضعية على سبيل المثال، فالحصر والألم يضعفان منذ الاتصالات التحليلية الأولى[3].

والابتهاج نفسه، أخيراً، نرجسي على نحو نموذجي: إن الفرد يشعر أنه مركز اهتمام المحلّل بوصفه تحميه وتدعمه حالته الجديدة، حالة «المطّلع» على سر[4]. إنه

(3) – من المألوف أن نعتبر أن الأعراض الهستيرية تزول بسرعة على الغالب (على عكس الأعراض الوسواسية). وهذا أمر يمكننا شرحه بمقدار ما تدخل الهستيريا في الأمراض ذات الغلبة الفموية كما سنحت لي الفرصة لتوضيحها في مقالي: «النزاع الفموي والهستيريا» (مكتوب عام 1952 ومنشور في مجلة التحليل النفسي الفرنسية عام 1953 وكذلك في نشرة الرابطة البلجيكية). وأسعدني سعادة متجدّدة أن أرى نتائجي تروج، إذ تبنّاها مؤلفون مختلفون.

(4) – ذلك ما سيتيح له – بالمناسبة – أن يتّخذ مواقف جديدة من أعضاء محيطه، مواقف ألمعت إليها وأنا أتكلّم على «الأنا العليا التحليلية» (مصدر مذكور سابقاً)، وهذه المواقف هشّة على نحو نسبي مع ذلك، فهي ليست مبنيّة على قاعدة دافعية واقعية، وهذا سيأتي فيما بعد ولن يكون المقصود أيضاً سوى رغبات ضعيفة يدعمها الابتهاج النرجسي فقط.

يشعر بالقوة، بالقدرة، وأنه ذو قيمة متنامية وينتظر من التحليل تنامي هذه القيمة، تنامياً أكبر أيضاً»[5].

وليست هذه المظاهر بالطبع حقيقية ولا تعبّر إلا عن مفعول النكوص النرجسي، أو المزيج بالحري، **النرجسي الفموي**. وللنكوص الفموي العميق

---

(5) - إيميري: «أقدمت على التحليل النفسي لأنني سأكون أقوى من الآخرين. سأحصل على ما ليس لدى الآخرين. سأكون قادراً على أن أقوم بأعمال هائلة». وقال مريض آخر (**أشيل** موضع البحث في تقريري): «لا أكابد الحاجة إلى أن أتكلم لأنني أجد أن انطباعي شاف. عيناي تنغلقان، ويضعف نظري، وتنقص حدّة الرؤية لديّ دون أن أغلق عينيّ (يجري المريض نكوصاً نرجسياً أمامي). إنه استرخاء، راحة عظيمة. فالألم زال (ألم في الكتف الأيمن). وهذه الظاهرة المرئية تلفت النظر. وبوسعي أن ألغي هذا الانطباع برفّة جفن...

«ليس ذلك من جهة أخرى سوى حماقات. قل لي أن انصاع، أطرد الانطباع لأنني أراه سخيفاً، غير معقول. ذلك أمر يريحني راحة كبيرة مع ذلك. **قفزت فرحاً** أول أمس وأنا أغادرك. كنت على أحسن ما يرام. فالكلام يوقف الانطباع. والراحة تضعف قدراتي (نكوص بالنسبة للحركية). والكلام يزعزع كل شيء. راحة تامّة. نيرفانا. فهل أنت الذي أوحيت لي بهذه الكلمة (أهو استدخال أم إسقاط)؟ والانطباع، إنك أنت الذي أثرته أيضاً. وكانت الجلسة تجعلني عصبياً في البداية. أما الآن، فأنني أودّ البقاء. إنني أراك بهيئة ناسك هندي، فلديك سائل سحري. ماذا تستطيع أن تفعل بالنسبة لي؟ إنني أريد أن أعرفك معرفة أوسع».

في الجلسة التالية:

«كان لديّ انطباع أمس، وأنا أخرج من هنا، أنني «منتفخ». ولكن ذلك يبدو لي سحرياً. وبما أنني ديكارتي... أحسنتُ صنعاً بالأمس أكثر من العادة. قلت كل ما كنت أفكر فيه. **إنني أخاف مع ذلك أن أنخدع**. وأصبحت مثابراً. كلمة «تنويم مغناطيسي». إن عينيّ هنا دامعتان. لماذا؟ لو أن بمقدوري أن أعيد إنتاج إحساس الأمس، ذلك أمر يروقني. وخلاصة القول، أوحي لنفسي إيحاءً ذاتياً أنك تشجّع وبوسعي على هذا النحو أن أشفى. إنني تلميذ مطيع في دفتر الملاحظات.

«لا، كل هذا سخيف. ولكن بما أن ما لديّ ضرب من العبث، فلماذا لا تشفيني العبثية؟».

«راحة، إنني على ما يرام جسمياً، بل إنني على ما يرام بإفراط، غبطة حقيقية، ومع ذلك أدخّن كثيراً على الدوام».

«راحة في المنطقة القلبية عندما أتركك. إنني في حالة من الإثارة، كل يوم على وجه التقريب. ولماذا لا أكون؟ إذا شفيت. لديّ من الثقة أكثر ما كان لديّ بالأمس. وكل شيء يسير جيداً على وجه العموم. ومع ذلك، لا أتكلم إليك إلا على التعاسة، لا على السعادة. «الانطباع» لم يعد. إنه انطباع دماغي، كرداء الكاهن. أأنا الذي أحدثه أم هو موجود؟ هذا سخف، ولكنه موجود، خدَر.

«عندما أنهي تحليلي، سيتضاعف قدري. دكتور، هل «انطباعي» سوي؟ للأسلوب الذي أتركك به شيء من الاصطناع (إنني أنسلّ انسلالاً)».

(فسّرت إثمية شفائه).

المريض: «هذا صحيح. أشعر بتبكيت الضمير. وقد يحدث لي في الجلسة أن أعتبر أن هذا يكفي وأحدث فراغاً ذهنياً في نفسي».

دائماً، من جهة أخرى، خلفية نرجسية، تنشد، بفضل الإشباعات الدافعية، إعادة الحالة السابقة على الصدمة النرجسية، سعادة ما قبل «الخطيئة»، أي قبل العلاقة بالموضوع. فالسمة السابقة على العلاقة بالموضوع، وبالتالي السابقة على ثنائية المشاعر، هي التي تمنح الوضع التحليلي قوته، إذ تقدّم له طاقته، كما سنحت لي الفرصة لأؤكد ذلك في مكان آخر. ولا أودّ بالطبع أن أولّد انطباعاً بجهل العوامل الأخرى المؤثّرة في الوضع التحليلي، وكوني لا أعالجها، لأن ذلك يجعلني أخرج عن موضوعي، لايعني أنني لا آخذها بالحسبان. وثمة مع ذلك أمر ليس بمقدوري أن أتجنّبه هنا - تجنباً لترك المسألة نفسها معلّقة باستمرار - وسأذكر بإيجاز تلك الخطوط الكبرى - في رأيي - للتطورّ اللاحق، تطور الوضع التحليلي. وبعبارة أخرى، سأحاول أن أهتدي إلى النقطة التي يتمفصل النكوص النرجسي فيها مع حركة موازية مبدئياً، ولكنها لا توشك أن ترتسم في بداية التحليل وتتّضح كلما تقدّم العلاج، أريد أن أتكلّم على العلاقة بالموضوع.

وأسمح لنفسي أن أذكّر هنا بعملي السابق حيث عرضت على نحو أكثر تفصيلاً وضع كلّ من المحلّل والمحلَّل في «الاتحاد النرجسي» (ضرب من **الحقل النرجسي** الذي يحدّدهما كلاهما)، حيث يكون المحلّل انعكاس المحلَّل أو صداه، فالوضع **متناظر**: «أتكلّم إليك لتتكلّم إليّ»، كان أحد مرضاي يقول لي. وكان أحدهم الآخر يقول إنه يراني جالساً على طرف مقعدي، لأن مشكله الأساسي كان يكمن في عجزه عن الجلوس صراحة على شيء، فسيادته على الوضع، شأنها شأن سيادته على ما يملك، تظل دائماً معلّقة. وليس المقصود هنا ضرباً من الإسقاط، بل هو التباس حقيقي بين الذات والموضوع، يقابله - كما يبدو لي - ذلك الوضع النرجسي للطفل الذي يدمج العالم المحيط في نفسه دمجاً آلياً. وهذا الوضع يمكنه، شريطة أن يشجّعه محيط الطفل، أن يستطيل خلال زمن، لا سيما أنه الرحم، إذا جاز القول، لوضع مماثل ولكنه أكثر تأخراً من الناحية الزمنية، وضع

الطفل الباحث عن استرجاع قوته الكلية النرجسية المفقودة (فرويد) بواسطة الصورة الذهنية المثالية الأبوية، بفعل التوحّد بها هذه المرة. ولكن التضمين ينبغي له عاجلاً أو آجلاً أن يتوقّف عن أن يكون آلياً، ذلك أن الإحباطات الدافعية الحتمية، وأي «إشباع هلوسي» لم يعد يمكنه أن يلغي هذه الاحباطات، سترغم الطفل على الاعتراف بالموضوعات بوصفها موضوعات، أي أنها محبطة وبالتالي هي **غير الذات**(6). وتلك ستكون نقطة انطلاق سيرورة طويلة ومعقدة لا يمكنني هنا إلا أن أرسم خطوطها العامة.

فإذا أخذنا الحالة الأكثر شيوعاً حيث المحلّل يتكلّم، فإنه يشبع قبل كل شيء نرجسيته بصيغة من أكثر الصيغ مباشرة (فخّ حقيقي، بالمناسبة، حيث إغراء اللذة النرجسية يرفع الرقابة ضمن نطاق معيّن، ويسهّل خروج مشتقّات المادة المكبوتة) ولو لم يكن إلا بتوظيف كلامه، وتلك وظيفة لا نجهل إمكاناتها الكبيرة في التوظيف النرجسي وثمة وظيفة نرجسية **مناظرة** هي توظيف كلام الشريك، كلام هذه الصدى، أي المحلل (إضفاء المثالية على صوت المحلّل تُفتقد بندرة في هذا الطور من العلاج). فهذا الصوت وكل حضور المحلّل سيختلطان بدورهما بالصورة الذهنية المثالية ذات المحيط غير الواضح المعالم قليلاً أو كثيراً، الصورة الذهنية المثالية التي يمثّلانها وهي انعكاس الصورة المقابلة للمحلِّل، انعكاسها نفسها، صورة تشمل الكلّ من الناحية النرجسية(7). وسيتّجه هذا الميل إلى التضمين أيضاً، شأنه شأن كل رغبة ضعيفة، نحو نضج دافعي متعاظم الكمال (نضج قبل تناسلي وتناسلي) وسيصطدم بالتالي بإحباطات متنامية الأهمية، لاسيّما أن الحركة المرسومة هنا ستُنعش سلسلة التعاقبات التاريخية المماثلة، إذ تُطلق على هذا النحو كل التعقيدات التي لا يسعنا أن نفصّل فيها، تعقيدات ما نسميّه التحويل.

(6) - فورنزي: درجات التطور لمعنى الواقع.

(7) - ثمة حركات مماثلة تسهل ملاحظتها في الحياة على مستوى آخر بالطبع: فكرّ بالإنسان المملّ الذي يمسك زرّ صدريتك ولا يتركك أو - في سجلّ آخر بالجاذبية شبه المادية، ويمكنها أن تصبح محفوفة بالخطر، تلك التي يمارسها صنم نرجسي على الجمهور، جمهور يُسقط عليه أناه المثالية.

هذه الحركة، كما أصفها هنا، ليست بالطبع إلا خلاصة موجزة جداً من سيرورة أقل اتصافاً بأنها وحيدة الاتجاه بكثير. ونحن نعلم في الواقع أن الفرد يحاول أن يطيل وضع البدء وأن ثمة هنا فخاً ينبغي تجنّبه. فإذا دخل المحلّل في الواقع لعبة المحلَّل النرجسية، وأشبع رغباته الضعيفة في التضمين النرجسي، مجيباً عن أسئلته على سبيل المثال، فإنه يجازف في أن يرى الوضع التحليلي يتأبّد أو - وذلك ماهو أسوأ - يغذّ السير، في بعض الحالات، نحو نكوص نرجسي مرضي. والمهم إنما هو **الإحباط**[8] الذي يفرضه المحلّل هنا على المحلَّل، إذ يطرده على هذا النحو من فردوسه النرجسي، إحباط سيستجيب له المحلّل بتنمية الحصر[9]. ويجد نفسه في الواقع، جراء الإحباط، أمام ضرورة الاعتراف بالموضوع بوصفه موضوعاً ويباشر العلاقة بالموضوع التي يخيفه جانبها العدواني الفموي. (هذا الملتقى بين النرجسية (**طفل مدلّل**) والإحباط (**طفل محبط**) مرئي في كل مكان من التحليل ومبدأه مندرج في ماهية الوضع التحليلي نفسها؛ فالمحلَّل يمكنه، من جهة، أن يقول كل شيء (ولن يكون موضع نقد أبداً، ولكن قوله سيكون موضع تفسير وبالتالي مفهوماً، مفهوماً إذن مغفوراً له)، وهو، من جهة ثانية، لا يمكنه إلا أن يقول كل شيء. والمحلّل حرّ، من جهة، في أن يتكلّم، وهذه الحرية محدودة على وجه الدقة، من جهة أخرى، بالزمن المخصّص له، إلخ). ويجد نفسه على باب بعد جديد من أبعاد حياته النفسية، الاتصال بالواقع الذي يوقظ قرب حدوثه في نفسه عدداً كبيراً من الاستيهامات التي أتقن كبتها حتى الآن، إذ يعيشها مع ذلك على صيغة لاشعورية معيّنة، فكل وضعه سيُضفى عليه النزاع جرّاء كونه هجر مجال النرجسية السابقة على الموضوع وعلى ثنائية المشاعر. ويبدأ رتل انبعاث النزاعات، والإثمية، والحصر، وعصاب التحويل بعبارة أخرى.

وبوسعنا الآن أن نختصر التطوّر نفسه إذا نظرنا إليه من زاوية جانبه العيادي؛

(8) - إحباط هناك مجال من جهة أخرى لتعديل قسوته في بعض الأحيان وفق عدد معيّن من المعطيات التي ينبغي للمحلّل أن يقدرها باستمرار، على نحو حدسي بالحري من جهة أخرى.

(9) - في الفولكلور والأدب نجد الحصر النرجسي ذاته مجدّداً، الموصوف أنه خوف الفرد من أن يفقد ظلّه.

إننا رأينا للتو ّأن فئة الأعراض التي تزول أو تتحسّن لتخلي مكانها للغبطة هي فئة القطاع الفموي. ولهذه الفميّة نغمية خاصة تذكّر ببعض الحالات المرضية ولكنها تذكّر أيضاً بالحب وحالات وجد ذات أصل مختلف. فنحن في مجال الهناء النرجسي السابق على ثنائية المشاعر، في ذروة سيرورة أولية. و«الشفاء» الحاصل هو، من جهة أخرى، من هذه الطبيعة مع لوين نرجسي بارز جداً: «أشعر أنني شفيت، كل شيء على ما يرام، إنني أكفي نفسي بنفسي من الآن فصاعداً، **ولم أعد بحاجة إليك**». ولن يدوم، بالطبع، كل ذلك زمناً طويلاً، أقلّه بهذه الصيغة من الصفاء البهيج، مع أن المكوّنة النرجسية ستكون دائماً، في نطاق معيّن، حاضرة حتى نهاية العلاج، بل بعد العلاج[10]، ولكننا نمرّ مروراً سريعاً على تقلّباتها حتى نجد مجدّداً الفرد في التحليل، حين تباشر الغيوم تراكمها على رأسه، وحين سيرى أعراضه تبدو من جديد ويحتلّ الحصر مكان الغبطة[11]. وينتقل المريض من مملكة النرجسية إلى مملكة العلاقة بالموضوع، مع إضفاء النزاع على وضعه ومع المهمّة العسيرة في شنّ معركة على مختلف الجبهات ليخرج منه.

وهذا التطوّر يجري في بعض الأحيان مع ذلك بكثير كثير من التحفّظ، إذ أن نضج العلاقة بالموضوع يتلاحق في الظلّ إذا جاز القول، بمعونة استيهامات لاشعورية. فالمرضى على أي حال يشعرون قليلاً أو كثيراً بما يحدث وأتذكر أحدهم الذي كان يقول: «لحسن الحظ، مرّ يومان عليّ دون تحليل، واستطعت بهذا الشكل أن أهضم ما حدث خلال الجلسة الأخيرة». والحال أنه، خلال الجلسة المعنيّة، قضى وقته على الديوان دون أن يفتح فمه مرة واحدة، وفي مرات أخرى، يجعل وضعٌ سابق على العلاقة بالموضوع، ومضفى عليه الإثمية إضفاء شديداً،

(10) - فرويد: «لكننا لا نعتقد أن كلية الليبيدو يمكنها أبداً أن توظّف الموضوعات. فثمة كمية معينة من الليبيدو تحتفظ بها الأنا دائماً، وستظلّ كمية معيّنة من النرجسية موجودة، على الرغم من حب للموضوع نام إلى أقصى حدّ».

(11) - بهذه المناسبة يمكننا العودة إلى التحويل وطرح السؤال التالي: إذا كانت الغبطة فعل التحويل، كيف يحدث أن بعض الأعراض تراجعت ولكن ليس بعضها الآخر وأن الفئتين تظلان دائماً محدّدتين على النحو نفسه؟

هذا الالتزام بالتحليل أمراً تتعاظم صعوبته، بل إشكالياً بصورة كلية وحتى مستبعداً بصراحة، أضف إلى ذلك أن علينا ألا ننسى الكثير من الأفراد الذين يعارضون التحليل على النحو الأكثر قطعية.

III

أجد نفسي، إن صحّ القول، مرغماً، وقد وصلت إلى هذه النقطة، أن أسهم بشيء من التوضيح في تعريف هذا المفهوم الذي أستخدمه باستمرار، أي النرجسية. وليست مهمة سهلة مع ذلك. وبوسع المرء، في الواقع، أن يكتب دراسة عسيرة وكبيرة الحجم لتطوّر هذا المفهوم لدى فرويد، لمعنى تعريفاته المختلفة، لروابط هذه التعريفات بنظرية الليبيدو، ونظريات المراجع النفسية، إلخ. وذلك جلب إلينا، من الناحية العملية، ضرباً حقيقياً من الفوضى التي يشقّ كثيراً على المرء أن يهتدي إلى طريقه فيها، وبيّن لنا ش. ش. هارْت كيف أن مفهوم النرجسية يشتمل على تناقضات ويجعل تعريفاً وحيد الاتجاه أمراً شبه متعذّر[1][2].

(1) - ملاحظة 1971: يدافع المؤلف الياباني كيشيدا شو (أطروحة ستراسبورغ، 1966) عن تصوّر قريب من تصورنا ويقترح مصطلح (narcido) للدلالة على النرجسية من حيث هي عامل طاقي.

(2) - التوازن النرجسي، مقال في **الصحيفة العالمية للتحليل النفسي**، 1947 (مترجم في تقرير فان درْ والز، **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، 1949) «عندما نصف بالصفة النرجسية في أدب التحليل النفسي حالات وظاهرات مختلف بعضها عن بعض اختلاف النوم، والطفل المشغول بمصّ إبهامه، والصبيّة المشعّة أمام مرآتها، تباشر زينتها، والعالم الذي فتنه منحه جائزة نوبل، نتمنّى جيّداً تعريفاً أكثر وضوحاً لهذا المفهوم. وكل هذه الظاهرات يمكننا إرجاعها إلى مصدر مشترك، ولكنها تظلّ في حقيقة الأمر أشياء مختلفة على نحو بارز. . . فالتصعيد الأكثر تصعيداً، ومثله النكوص الذهاني إلى الحدّ الأقصى، يُقال عنهما نرجسيان. وتُعتبر النرجسية في بعض الحالات، مسؤولة عن زيادة القوة الرجولية، وفي حالة أخرى، مسؤولة عن نقصانها على العكس، ونجد النرجسية مجدداً في البرودة الجنسية لدى المرأة كما في جاذبيتها. ويُفترض أنها قادرة على أن تحيّد الميول التخريبية، وتصبح في الوقت نفسه مصدر حصر للأنا. إنها إجراء دفاع ضدّ الجنسية المثلية، والجنسيون المثليون نرجسيون مع ذلك على وجه الخصوص. ويكمن النوم في سحب الليبيدو والأرق مع ذلك تسرّب نرجسية تُعزّز حتى تزداد. وتُستخدم النرجسية لشرح عطالة استطالت، وهي القوة المحرّكة للطموح في الوقت نفسه».

وثمة في هذا الفوضى مع ذلك قاع إيجابي على نحو عجيب. ويدرك المرء في الواقع، وهو يدرس مواقف فرويد المختلفة من النرجسية، أن ضرباً من الاقتناع الصميمي كان يبعث فيه النشاط، اقتناع مفاده أن النرجسية لا يمكنها أن تكون منغلقة في تعريفات مقيّدة، وأن المقصود، على الرغم من ضروب عدم الوضوح، والدلالات ذات المعاني المتعدّدة، بل التناقضات الداخلية، إطارٌ مرن ولكنه مضمون، بعدٌ نوعي للحياة النفسية، يغطي واقعاً مؤكداً وينتظر أن يُكتشف.

وهذا البعد يتجاوز المنظومة الدافعية، قاعدة النظرية الفرويدية، وذلك أمر يتيح لي أن أذكّر هنا بملاحظة مماثلة أبديتها في موضوع المازوخية[3]، كيان مرضي جعلها بعضهم على الغالب قريبة من النرجسية دون توضيح الرابط الذي يربطها. وأخيراً، ما رآه فرويد أيضاً إنما هو السمة شبه البيولوجية للنرجسية لأنه يتكلّم على نرجسية النطفة، كما يتكلّم على نرجسية الجنين[4].

أما وقد قلنا هذا، فإن نقص تعريف للنرجسية واضحٍ عائقٌ قويّ بالنسبة لكل سيكولوجيا الأنا ويتجلّى في ضعف للنظرية مقابل. وهكذا[5] فإن «كلمة الأنا في كتابات فرويد مستخدمه بمعنى مؤسّسة نفسية، إما بمعنى جزء من الشخصية (الأنا الجسمية على سبيل المثال)، وإما بوصفها تشتمل على الشخصية الإجمالية. ويستمرّ فرويد، حتى بعد أن صاغ مفهوم الأنا بوصفها تنظيماً بنيوياً («الأنا والهو»)، في الكلام على الأنا، في بعض المناسبات، أنها كلية الشخص».

ويبدو لي أن مصدر الالتباس الذي يثقل على مفهوم النرجسية ومفهوم الأنا على حدّ سواء يكمن في أمر مفاده أن المفهوم الأول (النرجسية) صفة من صفات مفهوم الأنا ويختلط به إذا صحّ القول. ويتكلّم فرويد[6] على هذا النحو، على

(3) - رسم أولي لنظرية نفسية دينامية للمازوخية، **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، 1964.

(4) - **الكفّ، العَرَض والحَصَر**.

(5) - هارتمان، كريس لوونشتاين، وظيفة نظرية التحليل النفسي، فصل في **الدوافع، الحالات الوجدانية، السلوك**.

(6) - **الدعابة**.

«نرجسية تحافظ محافظة ظافرة على مناعة الأنا» وفي مكان آخر[7] يبحث في القوة الكلية النرجسية بوصفها «علامة تشي بوجود صاحبة الجلالة الأنا». وبوسع المرء أن يتابع نتائج هذا الالتباس نفسه حتى دراسة الأنا العليا ومثال الأنا، حيث تصبح أيضاً هذه النتائج أكثر بروزاً. وهذا يتكلّم فرويد[8] على الأنا العليا (يسميّها أول الأمر مثال الأنا) بوصفها المرجع النفسي الذي تكمن مهمته في «تأمين الإشباع النرجسي بواسطة الأنا المثالية». وفي مكان آخر أيضاً[9]، يعدّد وظائف مثال الأنا كـ «الملاحظة الذاتية، الوجدان الأخلاقي، رقابة الأحلام. أضف إلى ذلك أن مثال الأنا سيكون العامل الرئيسي للكبت. وكنا نقول إنه كان إرث النرجسية الأولية التي تقدّم للأنا الطفالية منحتها». فنقد هذا اللبس بين الأنا العليا والأنا المثالية يفرض نفسه. وكان عدة مولفين قد صاغوه من قبلُ، ولكني أجازف بالابتعاد عن موضوعي إذا عرضته وبتكرار المداخلات التي عُرضت من قبلُ في هذا الاتجاه، مداخلات عددها يمضي متصاعداً. فسأكّرر إذن بالحري صيغة وجيزة، كما تبين في مادة قدّمها أحد مرضاي، مادة تتيح لنا أن نهتدي للفارق الأساسي بين الأنا العليا والنرجسية: **الأنا العليا إنما هي التوراة، ولكن النرجسية إنما هي الله ذو القوة الكلية.**

وسنبيّن واحداً من عدد التعريفات التي أطلقها فرويد على النرجسية، التعريف الأول، الذي يجعل من النرجسية انحرافاً وتعريفاً آخر (في **محاضرات**، إلخ) يعتبرها «متمّماً ليبيدياً للأنانية». ومن المؤكد أن التعريفين يغطّي كل منهما جانباً من جوانب النرجسية وهما صحيحان معاً إذا جاز القول. وهذه السمة المزدوجة ستطلّب مع ذلك - يبدو لي - أن تُوضّح. وبوسعنا أن نذكّر - وذلك ما يبيّن لنا في الوقت نفسه أننا لسنا أمام مشكل سهل الحلّ - بالنقيضة: دافع جنسي فيزيولوجي - حب. فالنرجسية، بوصفها توظيفاً غلمياً للأنا، لن تستوقفنا حالياً. وسأحاول

(7) - الشاعر وهذا الاستيهام.

(8) - النرجسية: مدخل.

(9) - سيكولوجيا الجماهير وتحليل الأنا.

بالعكس أن أوضّح ما أفهم بالنرجسية الأخرى التي يمكننا تسميتها مؤقتاً وبالتماثل مع المازوخية: **النرجسية المعنوية**، مع أنه لا يمكن أن يكون المقصود بهذه الصورة سوى ضرب من التجريد أو بالحري من الإنشاء، فللمكوّنة الليبيدية دائماً دور تؤدّيه كما سنرى فيما بعد.

و«النرجسية المعنوية» ينبغي لنا أن نفهمها، في رأيي، أنها **إحالة غريزة المحافظة على البقاء إلى جانب نفسي فردي على وجه الدّقة من الفرد بوصفه فرداً**. وهذه التوضيحات القليلة تجعلنا نغوص إلى حدّ لا يُستهان به في اللبس، ذلك أننا نجد أنفسنا في الواقع أمام شيء ذي علاقة وثيقة بالغريزة من جهة، ومن جهة ثانية بتكوين نفسي فردي يبدو أنه ينطبق على الأنا[10].

والحال أن ما أفهمه من مصطلح نرجسية هو، على الرغم من سمته ذات العلاقة بالأنا، متبنين كغريزة، ذلك أنه موجود منذ الولادة، بل قبل الولادة، في حين أن الأنا اكتساب أكثر تأخراً من الناحية الزمنية. وتبدو النرجسية جاهزة الصنع، في حين أن الأنا ينبغي لها أن تمرّ بنضج شاقّ، طويل مكتمل نادراً، إذ تحتفظ دائماً بسمة معيّنة من سرعة العطب وتفقد بسهولة كبيرة تلاحمها ووحدتها. فالنرجسية مطلقة وقوية في مقتضياتها قوة غريزة، في حين أن الأنا، بالتعريف، تكوين **مناسب**

(10) - مفهوم الأنا، كما يُستخدم أيامنا هذه في التحليل النفسي على وجه الخصوص («منظومة نفسية بالتقابل مع منظومات أخرى للشخص الخاص»)، هارتمان، تعليقات على نظرية علم النفس التحليلي للأنا، في **دراسة علم النفس التحليلي للأطفال**، (المجلّد الخامس)، يجعل موضوعاً قديماً جداً من موضوعات النقاش أمراً حالياً: الواقع أن من «المتعذر، في رأي فرويد، أن نفترض أن وحدة شبيهة بالأنا يمكنها أن تكون موجودة منذ البداية في الفرد: فالأنا ينبغي لها أن تنمو» (فودرن، **سيكولوجيا الأنا والذهانات**)، في حين أن فودرن يؤكد «أن الإحساس بالأنا موجود منذ البداية» ومن المؤكد أن أنا أولية، قديمة، موجودة دائماً. وحاول بعضهم حلّ المشكل، إذ تكلّموا على «نواة أنا» (غلوفر)، وذلك أمر يقابل الواقع فيما يخص تطور الركائز الدافعية للأنا، أو على «أنا مستقلة» (هارتمان)، وذلك ما ينبغي أن يجعل جزءاً من الأنا غير خاضع للنضج الدافعي. وحاول بعضهم على نحو أحدث أن يعرضوا مفهوم «الذات» («الذات» هي الشخص الخاص للفرد بالتقابل مع الموضوع»، هارتمان، مصدر مذكور سابقاً). ويميّز هارتمان «الأنا» من «الذات» والشخصية. وموقفه يدلّ على تقدّم يلفت النظر لأنه يعرّف النرجسية (التي يجدها في المنظومات النفسية الثلاث) أنها توظيف ليبيدي للذات وليس للأنا.

وكمالها نفسه مرتبط بمرونتها وقابليتها للتكيّف. وهذه النرجسية تتجاوز المظاهر الدافعية في الوقت الذي توجد وراءها، كما لو أنها (أي النرجسية) كانت دافعيتها العميقة وسببها الأول (ذكّرت في مكان آخر[11] أن «الحياة الدافعية في مظاهرها المتعددة ترتكز على عامل نرجسي يوجهّها، إنها التعبير عنه ووسيلة عمله في آن واحد، فالأولية تنتمي إليه إذن. فهذه الحاجة «عليّ أن أُشبع نفسي» ليست مزوّدة ببروز نفسي إلا لأن الفرد يريد في الوقت نفسه أن يشعر أنه مستقلّ، إذ يمكنه أن يشبع نفسه ويستحقّ هذا الإشباع. وتأكيد هذه الحرية الدافعية يمكنه أن يتّخذ درجة كبيرة من الأهمية بحيث أن **إمكان** إشباع الفرد نفسه يكفي دون أن يكابد هذا الفرد حاجة **تحقيق** رغبته («القدرة على الفعل» هي الأساسية و «الفعل» لا يُستخدم إلا لتقديم الدليل عليها»).

وهذا أمر ظاهر في الوضع الأوديبي الأكثر بساطة: يرغب الطفل في أن يفعل كأبيه ولكنه يرغب على وجه الخصوص في أن يفعل **أفضل** منه، ويرغب في أن يتجاوزه وذلك إنما هو الأوديب الحقيقي، فالفعل كالأب يعني، من زاوية معيّنة، أن يخضع له (أوديب المعكوس). وأخيراً، عندما سيحقّق رغبته الأوديبية في الحلم، سيتوحّد بـ **ملك** (ممثّل القوة الكلية النرجسية) لا بأبيه كما هو.

والنرجسية، التي تمثّلها الأنا وتوجهها، يمكنها تماماً، مع أنها تدعم الفاعلية الدافعية، أن تعارض الأنا. وحسبنا أن ننظر حولنا لندرك إلى أي حدّ تفقد مصالح الفرد الأفضل صياغة كل أهميتها أمام الرغبة في إشباع حاجة نرجسية، ونقول بعبارة أخرى إن الفرد يمكنه أن يفقد كل شيء حتى لا «يفقد ماء الوجه»، أي أن يحتفظ باعتبار الذات، إذ يشبع على هذا النحو نرجسيته.

---

(11) - مصدر مذكور سابقاً.

فالنرجسية موجودة من البداية حتى النهاية[12]، مبثوث فيها ولا يمكننا التغاضي عنها، والتسويات التي تقبلها مع الأنا ليست سوى سطحية وجزئية، إذ لا تمسّ كمالها العميق ولا تشوّهها في ماهيتها.

وفيما يخصّ اللذة النرجسية، فإننا نمّس مسألة الليبيدو والاقتصاد الليبيدي، فصل واسع ينبغي أن تطرأ عليه تعديلات كبيرة لا يمكنني أن أباشرها هنا. وأذكّر مع ذلك بفرويد[13] الذي يعتبر أن الأنا تخزن كل الليبيدو في البداية، وتلك حالة يسمّيها باسم «النرجسية الأولية المطلقة». فكل الليبيدو إذن نرجسي في البداية، وذلك ما يطابق الموقف الذي أعرضه هنا، معتبراً أن النرجسية موجودة من قبلُ، في حين أن الأنا بوصفها كذلك ليست موجودة بعد. والليبيدو قوة شبه بيولوجية كما هي النرجسية. فثمة شيء مؤكّد هو أن اللذة، أو الليبيدو النرجسي الذي لم يتحوّل بفعل استعمال الدوافع له، نغمية تختلف اختلافاً أساسياً وإلى ذلك إنما أُشير عندما أتكلم على اللذة أو الليبيدو النرجسي أو الابتهاج، إذ أجعلها مقابلة لليبيدو الدافعي الذي يُضفي عليه النزاع[14].

فالمقصود إذن لذة نرجسية ذات نغمية **فريدة في نوعها**، لذة يصعب تحديدها، ربما بسبب سمعتها قبل الشفوية واستقلالها – النسبي مع ذلك – عن البنيات التحتية الدافعية. إن اللغة والفكر يرتكزان على البنية التحتية نفسها التي تغيب هنا. فالمقصود إذن ضرب من الهناء الذي لا يوصف، من الغبطة المانحة على وجه الخصوص، التي يبدو قبل كل شيء أنها تعبّر عن إحساس بوجود يتّسع

(12) – فكرة الخلود والرغبة فيه مرتبطتان بالنرجسية المعنوية، فالإنسان عاجز عن أن يقبل إمكان ألا يوجد دائماً وحتى ألا يكون قد وُجد دائماً (ألبس بالان). وإذا كان يخاف الأرواح، فذلك لأنه مقتنع – بفعل الإسقاط النرجسي – أن قوتها الكلية باقية حيّة. والإنسان يولد ويموت نرجسياً ويجد، إذ يستطيل في اللانهاية، تعويضاً نرجسياً كبيراً عن القِصَر البائس للحياة التي تمرّ تحت تأثير مبدأ الواقع، بقدر ضعيف جداً مع ذلك.

(13) – الموجز في التحليل النفسي.

(14) – تفضي اللذة النرجسية أيضاً إلى إضفاء النزاع خلال نضجها لأنها تمرّ بسيرورة النضج نفسها (المكوّنتان قبل التناسلية والتناسلية) التي يمرّ بها ليبيدو العلاقة بالموضوع، ولكننا ينبغي لنا هنا أيضاً أن نمتنع عن الدخول في التفصيلات، فالارتكاسات المتبادلة بين النرجسية والدوافع والأنا، الخاصة بالاقتصاد الليبيدي، هي أيضاً ينبغي دراستها.

إلى اللانهاية[15] وتؤمّن للفرد معاً ضرباً من انطباع الاستقلال الذاتي والعظمة المطلقة (النرجسي واحد مع العالم، إذ أن أناه غير الموجودة بعدُ لا تضع له حداً)، فالفرد يحسّ في الوقت نفسه بعمل وظائفي عضوي، تلقائي مثالي. وهذا الإحساس يبدو جيداً جداً أنه أكثر إشباعاً من اللذات التي يسعى إلى أن يستمدّها من الوظائف قبل التناسلية، لذات تبتغي التعويض، في اقتصاده الليبيدي، عن هذا الهناء النرجسي الذي لايوصف، هناء زرعت الصدمة الأولية فيه اضطراباً وكأنها كبتته في مرحلة معيّنة من وجوده. وسيظلّ الكبت مع ذلك سطحياً وذكرى «الفردوس المفقود» لن تكفّ عن التسلّط عليه خلال وجوده كله، ولا سيّما أن نرجسية الفرد تعامل هذه اللذات «البديلة» دائماً باحتقار الأرستوقراطي لفرد من عامة الشعب.

فثمة إذن فارق أساسي بين اللذة النرجسية واللذة الدافعية، أعني بين النرجسية والهو، مع أن الأولى يمكنها تماماً أن تلجأ إلى الحامل الليبيدي الذي يقدّمه الهو، من أجل الإشباع المباشر والإضافي، إذا جاز القول، لغاياتها النرجسية الخاصة.

وبعض جوانب النرجسية، كما وصفتها للتوّ، يمكنها أن تختلط بما وصفه فرويد باسم مثال الأنا أو الأنا المثالية، وتختلط بالأنا العليا في الوقت نفسه. وهذا التكوين، أي مثال الأنا، من أصل تاريخي مع ذلك، فيما يخصّ محتواه وليس له إلا وجه واحد متّجه نحو الأنا، فالوجه الآخر متجه نحو الإشباع النرجسي.

أما الأنا، فنحن نعلم أنها تخضع لتطوّر طويل وأخضع فورنزي[16] - الذي سنحت لي مناسبة من قبل للتذكير به - كل هذا التطوّر، وكل علم النفس السويّ والمرضي في الوقت نفسه، إلى الأساليب المختلفة التي ستكون الأنا مسوقة إلى أن تستخدمها لتؤمّن للقوة الكلية النرجسية بقاءها. والأنا لا يمكننا على أي حال،

---

(15) - «العاطفة الإقيانوسية» لرومان رولان موجودة، وكان مع ذلك مندهشاً حين علم أن الإقيانوس المعنيّ يرجع إلى بعض العشرات من السنتيمترات المكعبة من السائل الأمينيوسي.

(16) - درجات التطوّر لمعنى الواقع.

بوصفها تنظيماً نفسياً للتنسيق والتوليف قبل كل شيء وذا مهمّات [17] محدّدة جيداً، أن نضمّ إليها مناطق تختلف عن منطقتها من الناحية السيكولوجية اختلافاً أساسياً في الماهية. ولن يحول أفضل اندماج للنرجسية بالأنا دون بقاء هذه النرجسية بوصفها كذلك، أقلّه على صيغة معيّنة. ولهذا السبب ينبغي للنرجسية، في رأيي، أن يعترف بها أنها عامل مستقل في الموقعية الفرويدية للجهاز النفسي وأن ترقى إلى رتبة المرجع النفسي شأنها شأن الهو والأنا العليا والأنا. ونحن ندرك، إذا منحنا النرجسية رتبتها بوصفها مرجعاً، أن هذا الفَرَض، فرض عمل، جدير بأن يساعدنا على حلّ كثير من الصعوبات ويُخرجنا من كثير من الردوب.

وسأزوّد المرجع النرجسي، في سبيل استعمال أكثر سهولة لهذا التصوّر، باسم متلائم مع وجهة النظر البنيوية التي أنطلق منها. وعلى الرغم من أن المصطلح الانغليزي «Self» مستخدم في أدب التحليل النفسي الأنغلوساكسوني الحديث بمعنى مختلف دالّ على الشخصية الإجمالية، فإنني أقترح مقابله الفرنسي «Le soi» (الذات)، ذلك أنه يبدو لي صالحاً للدلالة على هذا الجزء من الشخصية الذي يُدخله بعضهم في الأنا عادةً وينبغي أن يكون، في رأيي، مفصولاً عنها.

IV

بوسعنا، بعد هذا الانعطاف الطويل والمزوّد بهذه التوضيحات الخاصة بالنرجسية والأنا، أن نحاول الإجابة عن السؤال الذي كنا قد طرحناه على أنفسنا: كيف نفهم ابتهاج الأنا بإخفاقها الخاص؟

لفتّ النظر آنفاً في مناسبة أخرى إلى واقع مفاده أن قرار المحلّل الذي يباشر علاجاً يستجيب، على مستوى معيّن من لاشعوره، لرغبته في أن يسترجع، بواسطة هذه الوسيلة التي لم يسبق لها مثيل أيضاً، وسيلة التحليل النفسي بالنسبة له، قوته الكلية النرجسية، كما كانت قبل الصدمة الأولية، وأنه سيوظّف التحليل كما يوظّف

(17) أكثرها أهمية، في رأي إدْواردو ويز (**الأساسيات في علم النفس الدينامي**): «السيادة، الإدماج، الربط والفكر.».

الهدف النرجسي المقابل. وأذكّر بهذه المناسبة بالأجزاء من تحليل إيميري وأشيل التي دوّنتها للتو في واحدة من الفقرات السابقة.

ورأينا أيضاً أن العصاب كان محاولة (مخفقة) لهذا الاسترجاع النرجسي، إذ أن آليات الدفاع فشلت في مهمتها. والحال أنني أسمح لنفسي أن أذكّر بالتمييز الذي أجريته بين العصاب ذي العلاقة بالموضوع والعصاب القابل للتحليل وأن ألفت النظر الى أن في العصاب القابل للتحليل أيضاً شيئاً آخر: إرادة جعل هذا الوضع سليماً بالتحليل. ومن المحتمل أن رفض العلاج التحليلي (أو العجز عن تحقيقه، والأمران سيّان) شأنه شأن قبوله، وكون المرء سهل المنال بالنسبة للسيرورة التحليلية أو متعذّر تحليله، أمران متعلّقان، جزئياً على الأقلّ، بدرجة معيّنة، إيجابية أو سلبية، من التوظيف النرجسي لآليات الدفاع والأنا ذاتها، بالصيغة قبل التناسلية لهذا التوظيف، ومتانته بالنسبة إلى مراجع الجهاز النفسي الخ. بل يمكن أن تستهوي المرء إقامة تناسب أمثل، بواسطة معامل مختلفة حسب الحالات، لهذه التوظيفات، يقابل حالة مثالية إذ جاز القول، وأن يرسي على هذا النحو، قواعد اصطفاء علمي حقاً، مستقلّ عن المعايير لقوة الأنا وضعفها، وعن التشخيص ووصف الأمراض الطبي والطبي النفسي. ولا يسعني أن أدخل هنا في كل التفصيلات، ولكن ثمة أمر مؤكد: آليات الدفاع تستخدمها الأنا [1] بل تكوّن جزءاً لا يتجزأ من هذه الأنا. والأنا الخاضعة لتغيّرات مستمرة، إذ تقدّم كل حالة محتوى لحالة مختلفة عن سابقتها، أقول إن هذه الأنا لا تتغيّر فعلاً إلا مع آلياتها، آليات الدفاع، وذلك أمر يكوّن هدف التحليل من جهة أخرى. والحال أن هذه الحركة يوجّهها على وجه الدقّة عامل مستقل وهذا العامل المستقل لا يمكنه أن يكون الأنا نفسها. فالأنا لا يمكنها أن تكون في وقت واحد ذاتاً وموضوعاً؛ إنها، في العلاقة بالموضوع، ذات بالنسبة الى الموضوع، فالنرجسية علاقة بالموضوع معكوسة.

وثمة نموذج معيّن من الحلم يحلم بانتظام كل المحلّلين وهو حلم التحويل، ذلك أن موضوعه هو المحلّل والعلاج التحليلي نفسه. فالمحلّل يجد نفسه على سبيل المثال لدى خيّاط يفصّل له ثوباً جيداً أو لدى مهندس معماري

(1) ـ انظر أنّا فرويد، **الأنا وآليات الدفاع**.

يناقش معه تغيّرات سريرته أو بناء بيت. فالبدلة والشقّة تعني التحليل، والانسان المعنيّ هو المحلّل بالطبع، ويبدو لي أن هذه الأحلام يمكنها تماماً، إذا نظرنا إليها من زاوية معيّنة، أن تؤخذ حرفياً دون أن تؤخذ التحديدات المتضافرة بالحسبان بالطبع[2].

وبوسعنا أن نستأنف هنا تعريف العصابي في التحليل؛ ورأينا للتوّ أن آلياته الدفاعية كانت تعمل عملها الوظائفي بصورة رديئة وأن العصابي، فضلاً عن ذلك، كان قد قرّر علاجاً لهذا الوضع، وهو أمر يفصله على نحو حاسم عمّن يتعذّر تحليلهم، وهم عصابيون يرفضون هذه الإمكانات في التغيير المتوافرة لهم، مع أنهم يتأوّهون ويتذمّرون. إنهم يريدون **الشفاء** تماماً بالعقاقير، بمعجزة، بأي تدخّل خارجي، بما في ذلك العملية الجراحية إذا لزم الأمر، ولكنهم لا يريدون أن **يتغيّروا**. فالعصابي القابل للتحليل يتولّى إجراء هذا التغيير، وذلك موقف ثوري بمعنى من المعاني، يتطلّب موهبة القرار، كذلك بعض الميزات النوعية التي تنعكس مفعولاتها عليه وعلى محيطه. ويفهم المرء بالمناسبة أن يوظّف المحلّل، الصديق الذي يساعده في مشروعه المحفوف بالمخاطر، مشروع يمكننا أن نقارنه بتحوّل أو بتقمّص[3]. ويمكننا أيضاً أن نفهم أن بوسع المحلّل أن يقتضي **بدلة** على قدّه – وله الحق – وألا يكتفي بضرب من الترقيع أو اللباس المستعمل، اللباس المستعمل للمحلّل نفسه، ولا بلباس موحّد الشكل على وجه الخصوص.

ونعلم أن **العصابي** نرجسي لا يحب نفسه، **يرفض أناه على نحوٍ من الأنحاء**؛ والحال أن العصابي الذي يعاني من العلاقة بالموضوع سيستمرّ في أن

---

(2) أحد مرضاي الذي يصارع مقاومة ضارية على وجه الخصوص هجر التحليل أو بالحري لم يستأنفه بعد الانقطاع الطويل في العطلة الصيفية. ثم قرّر مع ذلك أن يستأنفه. وقصّ عليّ كابوساً في الجلسة الأولى من عودته الى التحليل، إنه كان يركض باستمرار بين شقتين سكنيتين، إحداهما قديمة والأخرى حديثة جداً، وإذ كان يستقرّ تارة في واحدة وطوراً في الأخرى دون أن تكون لديه القدرة على أن يقرر اختيار واحدة منهما. وكأن يفكر أيضاً في تحديث القديمة، ولكنه كان يأسف بمرارة أن يتخلى عن الأخرى، إلخ. واكتشفنا، خلف هذه الدلالة، تشعبات، بينها تشعبات نحو مشكلات أوديبية وتوحّد، ولكنها لا تعنينا هنا.

(3) يمكننا، من هذا الجانب، أن نفهم التحويل الإيجابي وفق الصيغة التالية: «أحبك لأنك تساعدني»، والتحويل السلبي أيضاً: «أكرهك، لا أريد مساعدتك، لا أريد أن أتغيّر، الأمر لا يعنيك، إلخ.».

يتحمّل سيطرة أناه غير الناضجة والعصابي القابل للتحليل هو وحده الذي يمكنه أن يتّخذ القرار الذي يفرض نفسه: **الأنا فشلت في مهمتها، والأنا ستُستبدل**. وقبل أن نذهب إلى ما هو أبعد، لدينا الآن هنا، بمتناولنا، أسلوب بسيط جداً في النظر إلى سلوك الأنا في هذه القضية، أي في المقاومة. فالأنا محافظة وسكونية ذلك أن رباطها وتلاحمها يأتيانها من المكوّنة الشرجية الطاقية، فهي إذن تحافظ على أوضاعها المكتسبة وتستخدم لهذا الهدف- كما رأينا فيما سبق- كل الحيل والمكائد القادرة عليها، وكل مثابرتها، ومهارتها في الفصل وديالكتيكها النوعي (4).

(4) نعلم أن المحلّل ينبغي له أن يحذر من الإجابة بتوضيحات عن أسئلة المحلَّل (كم سيدوم تحليلي؟» أو «على زوال أي عرض يمكننا أن نعتمد على الوجه الأسرع؟»، إلخ) وذلك ليس لأسباب تقنية فحسب، بل لأن كل توضيح يرتكز على المكونّة **الشرجية**، وسلوك المحلّل، وبخاصة في هذه المرحلة (المقصود بداية العلاج)، ينبغي أن يشجع العنصر **الفموي** بالحري. وسيبقى في المبهم، لأنه يتيح على هذا النحو للنكوص النرجسي لدى المحلَّل أن ينمو. والحال أن كل ما يكون تحديداً، توضيحاً، يعوق التحليل الذي يُعاش في هذه المرحلة أنه التحقيق الممكن لرغبة في القوة الكلية. ولهذا السبب لا ينبغي للمحلّل أن يعوق الاستقرار في يالتحليل بمنح حدود لهذه الرغبة بفعل إنذار دقيق بقدر الدقة التي لإنذار الجرّاح. فالمحلَّل يتحمّل بصعوبة، على المستوى اللاشعوري، أن يكون محلّله، أو تحليله، ذو إمكانات محدودة. وللسبب نفسه، لا ينبغي للمحلّل- وهذه العثرة يصعب أن يتجنّبها على وجه الخصوص أولئك الذي تلقّوا تكويناً طويلاً عيادياً في الطب والطب النفسي- أن يُجري «استجواباً حسب الأصول» وإن كان مسوقاً إلى أن يتخلّى مؤقتاً على الأقلّ عن وضع تشخيص شديد الإتقان مع الإفراط في الدقة الذي يمكن أن تكون شرجيته راغبة فيه بقوة (دون الكلام- بالطبع- على الهرطقة التي قد يكونّها إعطاء المريض وصفة طبية على سبيل المثال). فالسؤال الوحيد الذي ينبغي أن نطرحه على أنفسنا يكمن في معرفة مفادها إن كان التحليل ممكناً ومفيداً أم لا. وهذا السؤال نفسه ينبغي أيضاً أن يظلّ مفتوحاً، ذلك أننا كيف نتصوّر تقدّماً تقنياً ونظرياً على حدّ سواء إذا استبعدنا، بمعايير ثابتة، بعض الفئات من المرضى، هم ذاتهم دائماً، استبعاداً منتظماً. فكلما نظّمنا المحادثات الأولى بل المحادثة الأولى وكلّما وجهّنا العلاج بالطريقة المسماة علمية، الغالية على ديكاريتنا، نعزّز الشرجية التي تجد نفسها في هذه اللحظة نفسها تخدم بكليتها المقاومة التي نعززّها في الوقت نفسه. وكل إلماع الى البنية الشرجية في عملنا ينبغي أن نتجنبها: هكذا ينبغي لنا، على سبيل المثال، ألا نوضّح مسؤولية المريض قائلين له على سبيل المثال: «سيتيح لك التحليل أن تباشر هذا العمل وذاك». **علينا أن نعزّز الذات أول الأمر**، فتعزيز الأنا، الأنا الجديدة، ينبغي أن يأتي في المرحلة الثانية، وهذا هو ما يميّز **التحليل النفسي من العلاج النفسي**. فالأنا ستاتيكية وبخاصة عندما تتركّز في التحليل على المقاومة أول الأمر، إنها لا تريد أبداً أن تتجاوز نفسها، وهي ضدّ هذا التجاوز وتخاف هذا التجاوز كما تخاف اللذة؛ إن الذات هي التي تمضي تطلّعاتها في هذا الاتجاه، والأنا تستجيب لها بالحصر. والتدخلات تفوز في هذه اللحظة نفسها وبخاصة إذا كانت مقتضبة، إذ تمسّ الوجدانية ولا تتوجّه إلى الأنا. ولا ينبغي أن يشرح المحلّل، ويفرض، ويعتمد الإقناع. قليل من الرجوع الى الواقع، ودون توضيحات. وإننا أمام نكوص نرجسي فموي، إنه واقع الصور الذهنية المثالية.

إن الأنا، بوصفها حامل المقاومة، يطرأ عليها ضرب من التشوّه العميق؛ فتفقد مرونتها، تنكص على نحو من الأنحاء ولم تعد قطّ مرنة ولا قادرة على التكيّف، إنها تصبح صلبة، ذلك أن **تجمّعاً من عناصرها قبل التناسلية** سيعمل عمله في تصرفاتها. والمكوّنة الشرجية وحدها هي التي تباشر توجيه الأنا، شأنها شأن الحامية التي توجّه وحدها، باستثناء كل عنصر مدني، حصناً محاصراً. فمن يحاصره؟

فالتحليل، وسيلة الشفاء النرجسي، لا يمكن أن يتمنّاه ويحقّقه إلا من يرغب في هذا الشفاء، وبالتالي التغيّر المعنّي. إنها النرجسية التي منحناها للتورّتبة المرجع النفسي، مرجع عمّدناه باسم الذات. ورأينا دور النكوص النرجسي الفموي في التحليل وأسمح لنفسي، بصدد السمة المختلطة لهذا النكوص، أن ألاحظ هنا أن الذات لا يمكنها إلا أن تضمّ، إذا جاز القول، ضرباً من الحليف لها لتتصرّف في سبيل أهدافها الخاصة بما لديه من الطاقة. وهذا الحليف لا يمكنه أن يكون سوى المكوّنة الفموية، المتميزة على وجه الدقّة بالغربة، وعدم الإشباع الدائم الذي لا يرتوي، والبحث عن الجدّة: عناصر دينامية كثيرة تحتاجها الذات. هذا ولا سيّما أن المكوّنة الفموية هي خصم المكوّنة الشرجية. (ونهتدي هنا، بالمناسبة، إلى وضع نزاعي داخل الشخصية سيستوقفنا زمناً أطول عندما تحين المناسبة) (5).

وهكذا ستهجر العناصر الفموية أنا الفرد، إذا جاز القول، وستضع نفسها في

(5) لذات المريض النرجسية إزاء المحلّل، انعكاس نرجسيته الخاصة ومثال الأنا لديه، موقف ثقة وصداقة حادّة. و«تبعيته» للمحلّل يشرحها الوضع الذي يجد نفسه ملتزماً به شرحاً بسهولة، ولكنه لن «يخضع للمحلّل إلا بمقدار ما يرضى المحلّل أن يتابعه في ملاحقة رغباته النرجسية: «الملك عاهل إذا نفّذ ما نريده» (غوته). فالخوف من المحلّل وشيء من الاحترام له سيكون بالحري من صنع الأنا التي تجد نفسها أمام مهمّة (تحقيق الرغبات النرجسية للذات) تتجاوزها. وموقفها من المحلّل سيغوص بجذوره في الخوف من هذه القوة الكلية للذات، عدوّها الذي ترى المحلّل يمثّله ويساعده.

خدمة النرجسية، الذات؛ وستشكّل مع النرجسية وبقيادتها جيشاً، لن يكون له من الجيش إلا الاسم، جيشاً متبنياً على نحو مختلف جداً عن الجيش الأول. وسيشنّ هذا الائتلاف، الذي ستعتبر أركان قيادته المحلل، لسبب وجيه، حليفها الرئيس، حرباً بأسلوبه. والمشاهد الذي سيرى جيشين يتحاربان يمكنه أن ينخدع بسهولة ويتكلّم على انشطار الأنا، عن اثنتين من «الأنا». ولكن شكل الانشطار وسير المعركة سيبيّنان أن المقصود عدوّين بنيتاهما مختلفتان، الأنا والذات، مع أن تمييزهما يكون قد أصبح عسيراً بفعل واقع مفاده أن الاثنتين ينبغي لهما، حتى تتجلّيا وتعبّرا عن نفسيهما، أن تستخدما لغة واحدة، لغة اشتركتا كلتاهما في إعدادها.

وذلك ينبغي أن يجعلنا نفهم لماذا تبدو الأنا مبتهجة بفشلها الخاص. والواقع أن **الذات المحرّضة على التحليل هي التي تبتهج لإخفاق الأنا الناطقة بلسان المقاومة ومنظّمتها**، كلما اندحرت هذه المقاومة أمام التحالف الذي ينتمي إليه المحلل، فالاستبصار نفسه أو مظهره الانفعالي بالحري هو تنفيس هذا الانتصار. وهذا يجعلنا نفهم أيضاً مجموعة كاملة من الظاهرات المفارقة قليلاً أو كثيراً، التي تحدث خلال العلاج. مثال ذلك حالة هذا المريض الذي يقاطع التحليل، فلا ينبس ببنت شفة خلال الجلسة كلها (مقاومة شرجية) ولكنه يبذل أي جهد ليكون بمقدوره متابعة تحليله والوصول الى الجلسات في مواعيدها، يحفزه إلى ذلك ضرب من **الحنين النرجسي الفموي**.

ويتيح لنا هذا الانفصال على هذا النحو، انفصال العوامل الفموية والشرجية المتجمّعة أصلاً في الأنا، أن نفهم السمة المطلقة، من جهة، للمقاومة، والمفارقة في نهاية المطاف، سمة تُعزى إليها، في الجزء الأكبر منها، مدة التحليل الطويلة، بل الإخفاق الجزئي أو الكلي لبعض التحليلات، وكذلك كل الصعوبات التي يصطدم بها سير التحليل في بعض الأحيان؛ ونفهم من جهة أخرى الجو التحليلي ذا

السمة الابتهاجية النرجسية، وشدّة توظيف التحليل والسيرورة التحليلية، وكذلك رجحان العوامل اللاعقلانية والنكوصية، أقلّه على مستوى معيّن وفي بعض المراحل من التحليل.

وفي ضوء هذه المعركة الملحمية إنما يمكننا أيضاً أن نتصوّر أصل **الارتكاس العلاجي السلبي** وكذلك أصل **عصاب التحويل** بوصفه تفاقم فاعلية الأنا، فهذه الأنا المحصورة تستخدم وسائلها الدفاعية على نمط يزداد ضراوة وعنفاً بحيث لم يعد أي شيء يسكّن تأثير العوامل الشرجية التي - في هذه اللحظة نفسها- تكوّن الأنا على نحو شبه شامل، فيما يخصّ على أي حال جزءها المنخرط في المقاومة، أي مجموع آلياتها الدفاعية. وهذا يقودنا إلى أن نأخذ بالحسبان وحدة أخرى من قوات الأنا، أقصد مادة ذات علاقة بالعقد النفسية لها دور كبير تؤدّيه وينبغي توضيحها.

والواقع أن استعادة الحالة النرجسية «الابتهاجية»، شهر العسل النرجسي هذا، لا يمكنها، مع أنها تطبع بطابعها جانباً من الوضع التحليلي واسعاً، بحيث أن مفعولاتها والدفعة التي نقلتها إلى السيرورة تستمرّان الى النهاية، أقول لا يمكنها مع ذلك أن تظلّ خلال زمن طويل كما وصفته للتوّ بهذه الصورة على الأقل، أي بوصفها إنجازاً استيهامياً للشفاء النرجسي، مع أنا متخيلة ذات قوة كلية ليست شيئاً آخر سوى الذات النرجسية، التي يُسقطها المريض على المحلّل، ذلك أنه يتعذّر الاضطلاع بمسؤوليتها لغياب النضج الدافعي المقابل؛ إنها من جهة أخرى، أُضفي عليها الصفة المثالية على نمط نرجسي إضفاء كبيراً بحيث أن الهامش الذي يفصلها عن الواقع يصبح مصدر إحباط مباشرة. أضف إلى ذلك أنها يمكنها أن تفتح الباب إلى نكوص نرجسي مرضي، إذا دامت على نمط شبه هاذٍ إذا صحّ القول؛ والنتائج العيادية الحاصلة على هذا المستوى النكوصي وغير الناضج لا يمكنها أن تستمرّ لأنها مؤقتة وسطحية، والسبب أن التغيّرات البنيوية الحقيقية لا يمكن أن تكون

مطروحة والأنا، الحقيقية، تكون خارج اللعبة أو في معسكر العدوّ بالحري. ورأينا مع ذلك أنها تعمل عملها الوظائفي وحتى على نحو متفاقم (عصاب التحويل)، لا سيّما أن الإحباطات الملازمة للوضع التحليلي والنزاعات التحويلية ترغمها على ذلك.

ويستمر التحليل في هذا الزمن نفسه. وكون التحليل يشكّل سيرورة من النضج الدافعي المرتكز على مجموعة طويلة من الاستدخالات– الإسقاطات التي تجري بواسطة المحلل، الصورة الذهنية المثالية لكل شيء، ومن التفسيرات النزاعية الدينامية، فإنه يلقّن الأنا، أنا الفرد، **أن تدمج نرجسيتها** (وبالعكس: تبادل الأساليب الجيّدة) وبالتالي أن تحبّ نفسها. فدوافعها النرجسية المندمجة على هذا النحو **ستكوّن قاعدة أنا جديدة وسيزول الخوف من دوافعها مع التوظيف النرجسي لهذه الدوافع**. وليست هذه الأنا على الإطلاق مع ذلك ما كانت الذات تتمنّاه لها حين كانت السيرورة التي وجّهتها هذه الذات قد انطلقت. وتعزّزت هذه الأنا في غضون ذلك واغتنت بعناصر الذات، عناصر دجّنتها الأنا ودمجتها. (إن الذات في بداية التحليل هي التي تتعزّز على حساب الأنا، وخلال التحليل، ومع عصاب التحويل بوصفه مفْصلاً، إنما ينعكس الوضع.) أما الهو، فإنه يقدّم للأنا أيضاً مصادر جديدة للطاقة، هذه الأنا التي تستقبل، بعد أن طردت من كنفها الدوافع بسبب «أضرارها»، هذه الدوافع مجدّداً كما يفتح الأب بيته من جديد للطفل الضالّ. وفيما يخصّ الأنا العليا فإن تغيير بنيتها يلي زوال حالة النزاع بصورة آلية. ولن يكون على الذات أمام هذا الوضع سوى أن تصبح، من جهتها، متناغمة مع الأنا على نحو متعاظم، إذ تعترف بالمبادئ التي ترتكز عليها الفاعلية التي زال عنها النزاع (مبدأ الواقع)، وتتعلّم أن تقيّمها دائماً على نحو متنام، ولكن دائماً إلى حدّ معيّن فقط. أما الأنا، فإنها تستعيد، بعد المحنة القاسية التي وجب عليها أن تتجاوزها، زمام حكومة الشخصية الإجمالية، التي كانت مكوّناتها المختلفة قد

جنحت إلى السلم في غضون ذلك واطمأنت إلى حدّ تخلّت ضمن نطاق معيّن عن وجودها الخاص بوصفه كذلك، إذ أتاحت للأنا أن تحقّق التوحيد الأمثل للشخصية. وسيترك هذا التوحيد للمشاركين القدماء في المنزل أن يستمرّوا مع وظائفهم الخاصة التي يشهد تنسيقها المتكيف والناجع وحده على التغيّر الطارئ. وستحرص الذات على أن تنعزل في غرفة تنظّمها هي ولاستعمالها الخاص. فالاستقلال الذاتي الذي أتقنت الذات تنظيمه لنفسها على هذا النحو، سيستمرّ في أن يقدّم للأنا مكوّنتها النرجسية الضرورية دائماً ليسير المنزل سيراً جيداً، منزل إدارته عهدت بها الذات إلى الأنا (6).

ويحيلنا هذا التعداد للمراجع النفسية، المجتمعة تحت إرادة الأنا، إلى سؤال مسسته من قبل مساً عابراً، أقصد أن أتكلم على قوة الأنا وضعفها. ويستحقّ هذا الموضوع الواسع والهامّ أن يعالج معالجة منفصلة مع كل الاهتمام الذي نجد من المناسب أن نوليه إياه. وما أودّ مع ذلك أن ألفت النظر إليه هنا هو الثغرة التي تبدو في كل تعريفات الأنا القوية على سبيل المثال، بسبب غياب ضرب من اندماج مفهوم النرجسية، أي الذات. وليس مجرّد تكامل الدوافع، حتى المتحقّق على مستوى مرتفع والمتكيّف اجتماعياً، من صنع أنا قوية، بل هو بالحري خاصيّة أنا جيّدة التنظيم وواقعية، **شرجية، وسكونية**. وهذه الأنا **ستبحث** عن إشباعاتها الفيزيولوجية الصرفة والبسيطة وستنالها، **دون أن توظّفها نرجسياً**. (أتكلم بالطبع على نرجسية جيّدة النوع، متطورة ومندمجة على المستوى الدافعي). ولن يكون بوسعها أن تجعلها نبيلة إذا جاز القول، وتغنيها على وجه الخصوص، وتحرّرها

(6) يتكلّم فرويد على الأنا- الوزيرة أو الملك الدستوري؛ ويبدو لي أن بوسعنا، إذا أخذنا بالحسبان مراحل من تطوّرها في ضوء ما تقدّم، أن نراها أيضاً قيّماً أو قهرماناً لم يفلح فحسب، بعد مرحلة من الصعوبات، بل النزاعات الخطيرة مع معلمه، في أن يصبح لا غنى عنه، ولكنه أفلح أيضاً في التمتّع بسلطة وسلطان يعترف بهما الجميع.

وتستخدمها لأهدافها النرجسية الخاصة. فسيكولوجيا اللذة تظلّ واجبة التعديل: وإلى مفهوم اللذة = راحة فيزيولوجية، ثمرة اشتراك أنا عليا سادية وأنا ذات غلبة شرجية وسادية مازوخية في الواقع، ينبغي أن نضيف مفهوماً مختلفاً على نحو أساسي، مرتكزاً على تعاون بين النرجسية والهو، فالأولى تسود الثاني مستمّدة منه الاشباعات اللذّية النوعية. إن الأنا القوية تتميّز فقط بالتنسيق الناجح بين الهو والأنا العليا والعالم الخارجي، ولكنها تتميّز أيضاً بالتناغم الكامل بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة، تناغم يتيح التكامل المتبادل بين الأنا والذات.

الفصل الثالث

ملاحظات على الفموية
والعلاقة الفموية بالموضوع(1)

تتيح الدراستان التاليتان، مع أنهما ليستا مرتبطتين في الظاهر بموضوعنا، أن نفهم كيف أن الفموية التي، في تصوّرنا تقيم علاقات وثيقة مع النرجسية، تعارض في ماهيتها الشرجية. فالديالكتيك نرجسية- دوافع، ونرجسية- شرجية على وجه الخصوص، يتّضح على هذا النحو.

I

النمو النفسي الجنسي لدى الفرد يحدث، في المنظور الفرويدي، وفق تعاقب من المراحل. ويكوّن جزء من هذه المراحل ما اتّفق على تسميته قبل التناسلية التي تمتّد من المرحلة الفموية إلى الأوديب. وليست الأطوار مع ذلك محدّدة بوضوح، بل تنتقل تدريجياً من طور إلى آخر وتتداخل. وفي بداية هذه السيرورة، نجد المرحلة الفموية التي تمتدّ، كما هي موصوفة على وجه العموم، على السنة الأولى كلّها وحتى ما بعدها (تسرّع المدرسة الكلاينية هذه الأطوار التي يحكم «الاستمرار التكويني» تعاقبها (2) («نظرية التنشيط»)؛ وسير هذه الأطوار يمكنه أن يبين بفضل الاستيهامات التي تُكتشف في العلاج التحليلي كلّما تقدّم.

(1) محاضرة أُلقيت في رابطة باريس للتحليل النفسي، 22 ـ10ـ1958، نشرتها مجلة التحليل النفسي الفرنسية، 1959، رقم 2.

(2) بيبرْنغ، المدرسة الانغليزية لعلم النفس التحليلي، مقال نشرته فصلية علم النفس التحليلي، 1947.

فالتعبير الأول عن الغُلْمة هو إذن فعل الرضاع وثدي الأم هو الموضوع الأصلي للانفعالات الغلمية لدى الطفل. وهدف الغلمة الفموية هو التحريض المستساغ للمنطقة الفموية المثيرة للغلمة. وتُضاف الى ذلك فيما بعد تلك الرغبة في دمج الموضوعات. فالدافعان يرتبط أحدهما بالآخر مع ذلك وسمة السلوك المقابلة لدى الطفل، الشراهة، تُعتبر على وجه العموم أنها الخاصّة الرئيسة لهذا الطور. ويعتبر فيربْرن (3) مع ذلك أن البحث عن الموضوعات هدف في ذاته، بحثاً سائداً على وجه العموم في كل التطوّر النفسي الفيزيولوجي لدى الفرد، وليس في هذا الطور فقط. وفي رأي هذا المؤلف أن «الليبيدو باحث عن الموضوعات؛ والواقع، يضيف هذا المؤلف، أن مجرد حضور الاندفاعات الفموية ليس كافياً في ذاته لشرح هذا الانجذاب المتعجّل الشديد نحو الموضوع الذي تبيّنه لنا هذه الظاهرات». إنه يعتقد أن «الليبيدو لا يبحث عن اللذة بل عن الموضوع» وذلك يفضي - كما نرى - إلى قلب الأسس التي تقوم عليها نظرية الليبيدو وإلى إعداد علم نفس يصعب علينا أن نتبعه. ومن المؤكد مع ذلك أن هذه الشدّة الفائضة الحدّ، شدة الرغبة الفموية، التي أدهشت فيربْرن موجودة تماماً وتقابل شحنة وجدانية ذات شدّة كبيرة إذا صحّ القول، شحنة ينبغي دراستها. ويلّح مؤلفون آخرون، من جهة أخرى، على هذا الجانب من الفموية الذي «ينظر» إلى الموضوع. وهكذا يشدّد أريكسون (4) على النمط الفموي «الاندماجي» ويتكلّم على «منطقة فموية حسيّة» يسودها هذا الميل إلى الدمج، منطقة تحتوي، في رأي هذا المؤلف، فتْحات الوجه والأعضاء العليا للتغذية. وفي رأي فونيشل (5) أن الإدماج الفموي هو «الارتكاس الأول على الأشياء بصورة عامة وبشير الاستعدادات الجنسية والعدوانية اللاحقة»، وبعبارة أخرى بشير العلاقة بالموضوع.

ويرتكز مفهوم الغلمة الفموية ومفهوم العلاقة بالموضوع الخاصة بهذه

---

(3) دراسات علم النفس التحليلي للشخصية.

(4) الطفولة والمجتمع.

(5) نظرية التحليل النفسي للأعصبة.

المرحلة، أي مفهوم الفموية، كما يندرج حالياً في نظرية التحليل النفسي، على مسلّمتين:

المسلّمة الأولى– الفموية في كل تعبيراتها نسخة من المنطقة البدئية الفموية المثيرة للغلمة ومن وظيفتها الخاصة بها ولها إذن قاعدة تشريحية فيزيولوجية.

المسلّمة الثانية– مظاهرها العيادية لدى الراشد نتائج تثبيت أو نكوص إلى هذه المرحلة. وهذا التثبيت أو هذا النكوص عاقبة بعض الإحباطات أو الصدمات النفسية الفموية التي يُفترض أن الفرد عاناها في الزمن الغابر وينبغي – مبدئياً– أن تكون قد «تحرّرت» خلال التقصّي التحليلي بوصفها عناصر تاريخية معيشة. (يمكنها أن تُستخدم أيضاً نقطة تثبيت خلال الصدمات النفسية الطارئة لاحقاً ومن ماهية مختلفة).

وعلينا أن نلاحظ، بصدد موضوع النقطة الأولى، أي القاعدة التشريحية الفيزيولوجية للفموية، أن النظرية كانت قد خضعت آنفاً لبعض التعديلات. وهكذا فإن الطفل، في رأي إيركْسون [6] «لا يمصّ الموضوعات التي يحوزها ويبتلعها فحسب، ولكنه أيضاً «يمتصّ» بعينيه ما يدخل في حقل رؤيته، يفتح قبضته ويغلقها كما لو أنه يبغي التمسّك بالأشياء بل يبدو أنه يُدخل في نفسه ما يبدو أنه مناسب للمس لديه». أما فونيشلْ، فإنه يصف الاستدخال الفموي الذي يمتدّ إلى المسْك والرؤية والتنفّس وكذلك إلى السمع والامتصاص الجلدي. فنحن نوسّع على هذا النحو توسيعاً متنامياً تلك القاعدة الأصلية التشريحية الفيزيولوجية ونميل إلى تصوّر لهذه القاعدة **وظيفي** أكثر فأكثر. وهذه الوظيفة هي **الاستقبالية الفموية** التي يمكن أن تمارسها كل الأعضاء. وأذكّر بهيلين دوتش [7] التي بيّنت وظيفة الاستقبال للفرج، وهي وظيفة تؤدّي دوراً كبيراً في نمو التناسلية النسائية.

أما المسألة الثانية، أي سببية مظاهر الغلمة الفموية لدى الراشد، فأن أي تغيير

---

(6) مصدر مذكور سابقاً.

(7) سيكولوجيا الوظائف النفسية الأنثوية.

لم يطرأ مع ذلك، ونظرية التثبيت بفعل الإحباط الفموي التاريخي تؤلف دائماً قاعدة نظرية الفموية، فاعدتها نفسها. والحال أن أصالة هذه المادة، كما تنبعث في بعض تحليلات الراشدين، تبين على الغالب، كما سنحت لي الفرصة أن أبيّن في موضوع المازوخية [8]، موضع شك، بل مختلقة على نحو واضح بفعل تقاطع المعلومات، إذ أن هذا التشوّه للذكرى يقابل ضرباً من الإعداد الذي يبدو أن المحلّل بحاجة إليه (فالأم يمكنها، على الرغم من سلوك منعم جداً في الظاهر من الناحية الفموية، أن تسبّب صدمة نفسية للطفل بفعل موقف عصابي قليلاً أو كثيراً خلال أفعال علاقات الأم مع الطفل)، ولكن المسألة في هذه الحالة ليست مسألة إحباط فموي. بل قد يكون المقصود صدمات نفسية أقدم أيضاً، يستشعرها المرء على نحو أعمق، مع أن إمكان تكوين مفاهيمها عسير، كالجرح النرجسي (فقدان القوة الكلية)؛ ويبدو الطفل أو عصابي المستقبل بالحري، على أي حال، أنه يريد الإفادة من فعل التغذية ليبني على هذا الفعل فيما بعد استيهاماً من الإحباط الفموي الذي سيصنع منه على هذا النحو ذلك الحامل المادي، إذا جاز القول، لهذه الجروح الأقدم والأخطر بالنسبة لنرجسيته؛ إنه أسلوب من الانزياح المفيد له في الوقت نفسه قيمة إسقاط. أما الإحباط الفموي الفعلي، فإنه يمكنه بالطبع أن يكون مثيراً للمرض إلى الحدّ الأقصى، بل مشؤوماً للطفل، ولكن الحالة لا تكون على هذه الصورة دائماً؛ والعواقب المرضية لهذا الإحباط تمضي مع ذلك في اتجاه البنيات قبل الذهانية والذهانية، الطبعية والإجرامية، أكثر مما تمضي في اتجاه العصاب بالمعنى الدقيق للكلمة.

والواقع أن التصورّ الصدمي للفموية هو الذي يفسد منظورنا، ذلك أن فينومينولوجيا هذه المرحلة كما نتصورّها فينومينولوجيا مرضية، وذلك أمر يجعل دراسة الظاهرة السويّة أمراً عسيراً.

---

(8) غرانبرْجَرْ، رسم إجمالي لنظرية نفسية دينامية للمازوخية، مقال في مجلة التحليل النفسي الفرنسية، 1954.

وهذا صحيح فيما يخصّ «الشراهة» التي توضع في النقطة المركزية من البنية الفموية؛ والواقع أن ثمة، إلى جانب شراهة فيزيولوجية إذا جاز القول، شراهة ذات شدّة متنامية، متفاقمة ومتوتّرة إلى الحدّ الأقصى، والصيغة الموفّقة التي أدلى بها ب. مارتي، الذي عرّف الفموية أنها «الشراهة والنهم وفقدان الصبر والغيرة»، تأخذ بالحسبان الى حدّ واسع غلبة هذا العامل. وهذه الشراهة بقوتها الكبرى ذات علاقة بإضفاء الإثمية على الدافع الفموي ولها، إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية، قيمة توقّف الوظيفة الفموية، أي الخَلْفة (فقدان الشهيّة المرضي). فكيف نأخذ بالحسبان في كل ذلك ما هو سويّ وما هو مرضي؟ علينا، إذا أردنا أن نعرّف الفموية في ذاتها كما وصفها فرويد في كتابه **ثلاث محاولات في الجنسية**، أن نعزلها بوصفها كذلك قبل كل شيء، أي أن نصفها بوصفها دافعاً جزئياً، مكوّنة قبل تناسلية من التطوّر الجنسي السوي مشتقّاتها تُكتشف قليلاً أو كثيراً في سلوك الراشد إزاء موضوعاته، أي في العلاقة بالموضوع.

II

يلاحظ فرويد، في **ثلاث محاولات في النرجسية**، فيما يتعلق بموضوع المرحلة السادية الشرجية، المرحلة التي تلي المرحلة الفموية إذن، أنها «طور فيه القطبية الجنسية وكذلك الموضوع الغريب يمكن أن يُكشف عنهما الآن». وينجم عن ذلك إذن بصورة ضمنية أنه لا وجود لموضوع بالمعنى الصحيح للكلمة، في رأي فرويد، قبل المرحلة السادية الشرجية وأن المرحلة السابقة، الفموية، هي مرحلة غير ذات موضوع بالتالي. أما أبراهام، فيلاحظ فارقاً في الماهية بين مرحلتين في الفموية، بحيث أنه يقسم المرحلة الفموية، في لوحته لتطوّر الفرد، إلى مرحلة سابقة على ثنائية المشاعر ومرحلة سادية فموية.

وواضحٌ أن ما قاد أبراهام إلى هذا التمييز ملاحظة عناصر ذات ماهية مختلفة داخل مرحلة واحدة. ويمكننا أن نتساءل عندئذ إذا كان وجود عناصر متعارضة بل

متناقضة داخل المرحلة نفسها لا يحول دون أن نستخلص ما يكوّن ماهية الفموية، ماهيتها نفسها. وأعتقد أن إمعان النظر بوضوح، من جهة، في الطور الفموي، الفموية في مجموعها، والتسليم، من جهة أخرى، أننا أمام طور سابق على ثنائية المشاعر ولا موضوع له في ماهيته، أمران لهما فائدة كشفية كبيرة؛ فالعناصر السادية التي تتسرب إليه، بمناسبة بعض الظروف، تنتمي إلى الطور التالي، السادي الشرجي، كما سأحاول أن أبيّن في عمل لاحق؛ وهذه العناصر السادية تختلف، إذا نظرنا إليها من زاوية معينة، اختلافاً كيفياً عن العناصر الفموية، بل متعارضة معها، وهي مناوئة لها على وجه التقريب.

أما **الفموية** بالمعنى الحقيقي للكلمة، فإنه ينبغي، في رأيي، أن نعتبر، لندرك سماتها الأساسية، أنها **تغوص بجذورها**، عبر الراق الدافعي الخاص بهذه المرحلة، **في النرجسية**، وبالتالي في المجال النوعي لهذه النرجسية: الحياة قبل الولادة (1).

والشدة المتفاقمة، شدة «البحث» عن الموضوع، تلك السمة التي لفت النظر إليها فوربْرنْ، ذات علاقة في الواقع، في رأيي، بشحنة نرجسية مفرطة، المكوّنة الأصلية للنرجسية الجنينية التي يستمرّ الطفل في أن يعيشها على نمط متكيّف مع شروطه الحياتية المتغيّرة. (الحادث الفيزيولوجي، أي الولادة، يؤخذ في الواقع اعتباطياً نقطة انطلاق لسيرورة النضج وكون حياة الطفل قبل الولادة لا تبلغها، جزئياً على الأقل، ملاحظتنا المباشرة ليس سبباً يمنعنا من أن نأخذها بالحسبان).

فمفهوم الطور الذي توجد فيه الفموية والنرجسية كأنهما مختلطتان- ولو أنه (أي الطور) لم يكن قد نما كما يستحق أن ينمو- أمر مقبول في رأيي على وجه

---

(1) هذا دون أن نحكم حكماً مسبقاً على الطبيعة الدقيقة لهذه المكوّنة النرجسية؛ وإذا كانت كميّة معيّنة من نرجسية الفرد، المنصهرة في الفموية، تبدو في الواقع ضرورية للبدء بعلاج تحليلي على سبيل المثال والنجاح فيه، فنحن نعلم أيضاً أن ثمة عاملاً نرجسياً سكونياً تكوّن صلابته المطلقة ذلك العائق الرئيس أمام المشروع نفسه.

العموم مع ذلك، دون أن تكون مذكورةً مع ذلك خاصتُه الأساسية، أي وجوده متموضعاً في الحياة السابقة على الولادة واللاحقة بالولادة، وذلك وضع يستمّد منه هذا الطور خاصيّته. ويقول فونيشلْ على هذا النحو في كتابه: «تتعقّد العلاقات الأولى بالموضوع جرّاء أن الأهداف الغلمية المباشرة لا تزال غير متميّزة بوضوح من الهدف النرجسي، هدف المشاركة بعاطفة القوة الكلية.»

ويكوّن التعقيد الذي يصطدم به فونيشل، في الواقع، صعوبة نظرية رئيسة بالنظر إلى أن المقصود نرجسية أوّلية، حالة هي بالتعريف لا موضوع لها. وإذا كانت المرحلة الفموية الصرفة والسابقة على ثنائية المشاعر مشبَعة على نحو مبكّر جداً، نتيجة إحباطات حتمية، ببشائر المرحلة التالية، المرحلة ذات الموضوع والثنائية المشاعر، فإنها تستمرّ على هذا النحو مع ذلك وتبين أنها مصدر طاقة ذو أهمية ولا غنى عنه؛ وستُظهر مشتقّاتها تأثيراً على نمط خاص بها، طوال النضج الدافعي، بقوة فريدة ومتجدّدة دائماً.

ويُدرج الفرد النرجسي في ذاته، كما سنحت لي الفرصة أن أبيّن، ذلك العالم المحيط، «تتمّته» النرجسية إذا جاز القول، الذي يختفي على وجه التقريب داخل حدود الفرد التي تتوسّع بفعل هذا التضمين. وهذا السياق (التضمين)، غير المحدود في المكان (يشكّل الفرد وحدة مع العالم المحيط) ولا في الزمان، ذلك أنه ليس له أنا، جهاز يتيح له أن يقيّم سير السيرورة على نمط شعوري، سير يجري بوصفه كذلك على نمط لاشعوري بالتعريف، ولكن حالته الوجدانية، المشبعة على وجه الخصوص لهذا السبب ذاته، ذات نغمية ابتهاجية. وسيفقد هذا الوضع، النرجسي على نحو صرف، سمته المطلقة عاجلاً أو اجلاً، ولكن حتى عندما ستصبح التتمّة النرجسية موضوعاً متميزاً خلال التطور اللاحق، أي النضج الدافعي، فإن النكوص إلى مرحلة التكافؤ ذات– موضوع سيظهر مجدداً بالمناسبة على مستوى علاقة أكثر تطوّراً. وستستخدمه الأنا، التي ستفيد بمهارة كبيرة من هذا التكافؤ الثنائي ذات– موضوع.

إن برتْرام لوفن[2] يميّز الفموية بما يسميّه «الثالوث الفموي»، أي «الأكل، وكونه مأكولاً، والنوم». وفيما يخص المصطلح الثالث من الثالوث، أي «النوم»، بوسعنا أن نلاحظ أنه إذا كان ينتمي إلى الفموية، في رأي لوفن، فإنه من المجال النرجسي أيضاً، كما حدّده فرويد[3]. أما الثنائي «الأكل- كونه مأكولاً»، فإن بإمكاننا القول إن تصوراً يخلو من الموضوع يتيح تفسير هذه الرغبة المتناقضة في الظاهر. والواقع أن من غير المهم أن نعرف، إذا لم يكن ثمة تمييز بين الذات والموضوع، من يأكل ومن يكون مأكولاً. وبهذا المعنى- أفترض- إنما فهمه من جهة أخرى مارتي وفان[4] اللذان جعلت أعمالهما دراسة قبل التناسلية تتقدّم تقدّماً واقعياً؛ إنهما يقولان عن الفموي: «إنه هو نفسه وهو الآخرون، والآخرون هم هو أيضاً.»[5].

فالطور الفموي ذو علاقة بوضع خليط إذن ويصعب إدراكه بوصفه كذلك، ليس فقط سبب مظاهر موازية قليلاً أو كثيراً تنتمي إلى أطوار أخرى تزيّفه، ولكن لأن الطور ذاته بنية ملتبسة ويرتبط عمله الوظائفي- مع أنه يخلو من الموضوع- بعالم الموضوعات؛ وهذا التناقض يعبّر عنه على وجه الخصوص تعبيراً جيداً مصطلح بالان «وحدة مثنوية».

ويتكلّم فونيشلْ في كتابه على اتحاد الذات والموضوع الذي يجعلهما

---

(2) علم النفس التحليلي للابتهاج.

(3) تتمّة ميتاسيكولوجية لنظرية الحلم.

(4) الحركة في العلاقة بالموضوع.

(5) نحن نعلم أن التناقض في اللاشعور لا وجود له وأن كل عنصر يمكنه أن يعني ضدّه. ووجد فرويد الظاهرة نفسها مجدّداً في الألسنية. والحال أن هذه الخصوصية الألسنية، إذا كانت قد اختفت على وجه العموم من الألسن الحديثة، باقية على وجه الدقّة فيما يخصّ الألفاظ التي تدلّ على ذات (Sujet) -موضوع (Objet)، وهكذا فإن موضوع محاضرتي (Sujet) هو موضوع (Objet) محاضرتي (في اللغات الأجنبية) في الوقت نفسه، وإذا حوّلنا شخصاً إلى موضوع (بمعنى «شيء»)، فإنه يصبح Sujet أي خاضعاً.

«يصبحان الجوهر نفسه» ويشير إلى «الاشتراك السحري للبدائيين، إي إلى الاعتقاد السحري أن الشخص يصبح مشابهاً للشيء الذي أكله؛ وهذا الاندماج يتجاوز المرحلة الفموية مع ذلك، كما أنظر إليها الآن هنا، فالسحر يتموضع أيضاً، من جهة أخرى، على طورين، فموي وشرجي. فما يتميّز به النمط الفموي على وجه الدقّة إنما هو أن الذات لا تمتصّ الموضوع ذلك أنه لا وجود لـ«ذات» و«موضوع» بل خلط بينهما. فستكون الذات كأنها مصنوعة من جزأين يجتمعان في واحد وبينهما تكافؤ وإمكان تبادل، أقلّة بمقدار ما يحتفظ الوضع بسمته السابقة على ثنائية المشاعر، إذ أن إضفاء النزاع وحده يولّد التقابل بالتالي وتحديد الذات- الموضوع، أي الأنا.

والمقصود بالإجمال، في العلاقة الفموية بالموضوع، كما ننظر إليه هنا، علاقة **كامنة** تحتوي، على صورة جنينية، كل التطوّر اللاحق للفرد، ولكن على صورة جنينية فقط. ويشتمل هذا الطور في الحالة الصرفة اشتمالاً بالكمون على الزمن الأول وحده من هذا التطور، ولو أن هذا السياق- بالتثبيت أو النكوص- يباشر الاستمرار في البقاء بل يتعزّز على صيغة مَرَضية. ونقول بعبارة أخرى إن الفموية تحتوي **الحركة صوب الإشباع الدافعي** كما هو والاستعداد لتلقّيه، وهي حركة تنفذ إلى الطور التالي، إلا إذا كان هذا التطور متأخراً وأن الدفعة تظلّ على هذا النحو مثبّتة على مرحلة الرغبة، المرحلة نفسها. ولن يدوم هذا الوضع على نحو سويّ ويحتفظ بفاعليته، وهي فاعلية رئيسة، طوال الحياة، إلا من حيث كونه مكوّنة بنيوية.

فأن نقصد شرح المرحلة الفموية في مجموعها بالوضع التاريخي أم- طفل، إذ يختلط الطفل بأمه، أمر غير كاف بالتأكيد لنفهم تعدّدية جوانبها وماهيتها الخاصّة.

والواقع أن سيرورة الانصهار تجري باستمرار في اتجاهين، من الأم إلى الطفل ومن الطفل إلى الأم، إذ أن هذين الدورين ينعكسان بانتظام، بصورة مستقلّة عن المراجع التاريخية. ومن المؤكد أن علاقة الطفل بالأم، وكذلك علاقة الأم بالطفل، تحتوي جيداً على هذا الوضع الفموي وتبدو- من وجهة نظر الملاحظ

على الأقل ـ أنها تمنحه الأوليّة. والمقصود مع ذلك إلى درجة لا يُستهان بها تكرار سيرورة أقدم وأن الاتحاد بعد الولادي بين الأم والطفل لا ينفك يتكرّر مجدّداً بنسخ متكيّفة مع الوضع الجديد. ويُفترض أن الأم بحبها («إسهام نرجسي») تمحو العار الذي لحق بنرجسية الطفل للتوّ (جرح نرجسي) وتُقدّم له على هذا النحو تعويضاً مكافئاً على وجه التقريب (6).

وقد يحدث، والحال هذه، وذلك ما يقع على الأغلب، أن تبين الأم بوضوح أنها ليست على مستوى مهمتها: إنها هي القاعدة تقريباً في حالات العصاب الأمومي على سبيل المثال، دون أن نتكلّم على أمراض أكثر خطورة. وعمق الجرح النرجسي أو شدة الدفعة النرجسية هما اللذان، في بعض الأحيان، يتجاوزان إمكانات التربية، دون أن نتكلّم على الظرف غير الملائم بصورة خاصّة، حيث يجتمع العاملان ويتعزّزان بالتبادل.

---

(6)- عاطفة القوة الكلية تعبّر عن إحساس الطفل بالإشباع المباشر والكلي لحاجاته (فورنْزي)؛ إن بوسعه أن يعيش هذا الإحساس بصيغة من الصيغ خلال حياته قبل الولادة، ولكنه يمكنه أيضاً أن يتمتّع بشيء يقاربه في الاتحاد النرجسي الكامل بـ«متمّمته» النرجسية، أمه والحال هذه. ويهرب الطفل من كل ما يمكنه أن يذكّره، من قريب أو بعيد، بالجرح النرجسي؛ وكل صدمة نفسية، أو كل إحباط، يعزّزان هذا الجرح النرجسي، ذلك أنهما يضعان القوة الكلية موضع إخفاق. ولكن هذا الإخفاق ليس سوى إخفاق جزئي، منذ أن يكون بوسع الطفل أن يعزو إلى ظروف خارجية بالنسبة له تلك الإحباطات التي يكون هو موضوعها: «فلست أنا العاجز بصورة أساسية، إن أمي (أبي) هي التي تضع العقبات التي تعوق تحقيق رغباتي، ولكنني عندما أصبح كبيراً سأفعل ما أريد.» وهذا التكتيك، الذي يجري إعداده تدريجياً بالطبع، أكثر فائدة له بقدر ما يكون محمولاً على أن يعيش الجرح النرجسي مجدّداً باستمرار (آلية التكرار الذاتية). وسيختار إذن، من أجل هذا التفريغ، اختياراً عن طيب خاطر، تلك الصدمات الفموية بالمعنى الدقيق للمصطلح، التي لا يمكن أن تفوته معاناتها والتي يمكنه أن يثيرها عند الحاجة أو يستثمرها في هذا الاتجاه على الأقلّ. فالجرح النرجسي يغوص بجذوره من جهة أخرى في الراقات القديمة من النفس ويفلت في نطاق معيّن من تكوين المفاهيم أو بالحري من قدرة التعبير عنه، وهو ما يشرح فضلاً عن ذلك لماذا يكون تحليله عسيراً وقليل النجوع نسبياً من وجهة النظر العلاجية.

III

الطور الفموي الذي حاولت أن أصفه للتوّ يمكنه أن يستمرّ ما دام استخدام الآلية التي تعوّض الإحباطات (اشباع الرغبة الهلوسي على سبيل المثال) يظلّ ممكناً. ولكنه يصاب بالاضطراب على نحو مبكّر جداً، إذ أن للفموية ميلاً إلى الانتقال الآلي، إذ جاز القول، إلى الطور التالي، طور الإنجاز الغريزي ذي العلاقة بالمكوّنة الشرجية؛ مع أن مظاهر الفموية التي تقترحها العيادة علينا ليست على وجه التقريب أبداً تعبيرات عن الفموية الصرفة، ولكنها إما مشوبة بعناصر خاصّة بالمراحل الدافعية التالية تختلط بها فتعيبها، وإما أنها تتكوّن من تكوينات ارتكاسية. فعلينا أن نتابع تحوّلات عامل الفموية في تطورّ النضج الدافعي السويّ الإجمالي الذي ظلّ بمنجى من التعقيدات. واستخلاص الخصائص الأساسية للفموية، الفيزيرلوجية إذا جاز القول، ينبغي له بالتالي أن يتيح لنا «أن نجد العناصر الفموية في النسخ العلائقية المختلفة وأن نبني مجدّداً، على نحو آلي، تلك اللوحات العيادية التي تمثّل هذه الأوضاع نفسها حيث للعامل دور يؤدّيه.

تكلمت فيما سبق على الانصهار النرجسي الفموي الذي يتميّز بخلط حقيقي ذات- موضوع، خلط نجد حالته الأكثر إجمالية، والكاريكاتورية إذا جاز القول، لدى الفصامي المقتنع على سبيل المثال أن معالجه يفكّر أفكاره ويعاني انفعالاته أو يقول، حين يختلط بالكون، إن السماء تمطر حين يبول. وهذا الخلط يوجد من جهة أخرى على نمط مختلف، بالطبع، في تحليل حالات الأعصبة الأكثر ابتذالاً ويبدو أنه يتخذّ شكلاً بارزاً على وجه الخصوص لدى الشديدي الحساسية الذين وصفهم بير مارتي (1).

وفي رأي بالان (2) أن «الطفل لا يعرف في بادىء الأمر سوى مواد (غير ذات قوام قليلاً أو كثيراً بالقياس على الأشياء)» يحدوه الأمل القوي في أن يستمرّ مختلطاً

(1) العلاقة بالموضوع لدى المصابين بالحساسية الشديدة.

(2) الذات والموضوع في علم النفس التحليلي، الصحيفة البريطانية للطب النفسي.

معها بودّ». وتدوم هذه العلاقة لدى الفموي الذي يشكّل وحدة حقيقية مع متمّمه، ويظلّ، فعلاً، ملتصقاً به ويرتكس على الانفصال عنه كما يرتكس على ضرب من الاقتلاع، ارتكاساً له سمة الصدمة النفسية الحقيقية الخطيرة؛ إنه يبني بناء جديداً على هذا النحو نمط حياته داخل الرحم حيث يتابع، دائماً بفضل متمّمه الذي كان هو نفسه في الوقت ذاته، وجوداً مستقلاً، شأنه شأن العشّاق الذين يُقال عنهم إنهم يعيشون من الحب والماء العذب. فيكوّن عندئذ عالماً مغلقاً فيما يخصّ حاجاته ومفتوحاً إلى حدّ واسع فيما يخص إمكاناته، إذ يختلط بالعالم، ويجهل الموضوع بوصفه موضوعاً، كما يجهل ميزته الخاصة بوصفه موضوعاً، أناه وبالتالي حدوده(3).

هذه الصيغة العلائقية توجد مع ذلك في كل مقاربات الموضوع الأخرى ونفكر قبل كل شيء-بالطبع- بعلاقة الطفل بأي موضوع كان، لعبته على سبيل المثال. فالطفل يكوّن مع لعبته الأثيرة، وكذلك مع لعبه، اتحاداً نرجسياً حقيقياً، ولن يريد أن يهجرها ولن تُقتلع منه إلا بالقوة، إذ يسبّب هذا الاقتلاع خيبة أمله ودموعه على هذا النحو. والبنت الصغيرة التي تلعب مع لعبتها تكوّن معها مجدّداً ذلك الاتحاد النرجسي نفسه الذي عاشته مع أمها: فعندما تأمر لعبتها ما أمرتها به أمها، تكون معاً هي نفسها وأمها. وأفكّر أيضاً ببعض الأشياء المفضّلة التي ليس بوسع الفرد أن ينفصل عنها ما دامت تبدو أنها تشكّل جزءاً منه. **فالشيء الانتقالي** الذي وصفه وينّيكوت هو، بهذا المعنى، شيء انتقالي بالفعل، ذلك أنه يشمل على خصائص فموية (الطفل يعتبره جزءاً من جسمه) وشرجي (إنه على وجه العموم قذر، ممزّق، مشوّه، يحمل علامة العدوانية لدى الطفل). وينطبق الأمر نفسه على

(3)- جماع الفموي جماع دون جنس إذا صحّ القول- منظور إليه من هذه الزاوية على الأقلّ-، فجانب النشوة من الاستمتاع يتخذ دلالة اتحاد نرجسي بالموضوع («لايؤلفان إلا واحداً»). وللقضيب نفسه، بالنسبة للفموي-كما بالنسبة للاشعور على وجه العموم- دلالة جسر (فورنزي) بين الشريكين يتيح على وجه الدقّة أن يحقّق هذا الاتحاد وكذلك الإحساس بالقوة النرجسية الذي يؤمّنه هذا الاتحاد. و«الاتحاد الصوفي» يتحقّق أيضاً على مستوى سابق على ثنائية المشاعر وعندما «اخترق السهم الذهبي (سهم الملاك) قلب القديسة تيريز ووصفت الإحساسات التي كابدتها وهي إحساسات الجماع، فهم كل الصوفيين معيشها أنه خال من العناصر الجنسية بالمعنى الحقيقي للكلمة.

بعض المهن التي ليست سوى واحد مع الفرد. وتحتوي الصداقات ذات المشاعر الملتهبة بين المراهقين من الجنس المقابل أو الجنس نفسه هذه المكوّنة الفموية التي تجعلهم تماماً **لا ينفصلان** على غرا بعض الضروب من ثنائي التوائم الذين تجري حياتهم على نمط متواز بالإطلاق ويسيرون دائماً معاً يداً بيد. (ولّدت هذه السمة من السلوك النوعي أساطير حقيقية).

كنا قد تكلمنا في بداية هذه الفقرة على المدّة العابرة على نحو نسبي للمرحلة الفموية بالمعنى الحقيقي للمصطلح، التي تميّزها دينامية تميل إلى تجاوزها الخاص بوصفها دافعاً. وتستمرّ الدفعة الفموية مع ذلك في أن تظهر مع فارق مفاده أن الفموية- الدافع ستصبح **فموية- نمطاً علائقياً**، أعني أن الفموي إذا كان يُبدي سلوكاً غلمياً ذا محتوى فموي، فإن الفموية سيطرأ عليها، في فترة معيّنة، تعديلاً كيفياً والفرد سيكون بوسعه تماماً أن ينكبّ على هذه الاهتمامات التي تنتمي إلى مرحلة أخرى، فيما يتعلق بمحتوياتها، دون أن يكون نمطه العلائقي قد تغيّر؛ فالفموية- الدافع أصبحت نمطاً دافعياً، إذ يمكن للمحتوى الدافع والنمط العلائقي الذي يظهر بحسبه أن يكونا مختلفين، بل متعارضين أحدهما مع الآخر.

وثمة مثال على هذا التعارض يثير الدهشة على وجه الخصوص هو حالة المصاب بالإمساك الذي لم يكن يذهب قطّ إلى المرحاض بصورة تلقائية وكان يتجرّع مرة في الأسبوع مسهّلاً شديد المفعول كان يؤمّن له إفراغاً سريعاً وكاملاً خالياً من ذلك الإحساس المستساغ بالراحة الذي يرافق عادةً فعل التغوّط. ولم يكن هذا العرض قد تغيّر، على الرغم من التنظيف طبقة طبقة، مع أنه غير مباشر، للمادة الشرجية، إلى أن استطعنا، يوماً من الأيام، أن ننظر إليه من زاوية الفموية الوظيفية الأساسية، حيث توصّلت، بفضل انطلاق مادة في التحليل ليس بوسعي أن أقصّها هنا، إلى أن أبيّن له أنه لم يكن يمكنه أن ينتظر الزمن الضروري للتغوّط وأنه كان يؤثر التخلّي عنه، نظراً لتعذّر حصوله **على كل شيء وعلى الفور** وفق مقتضى الفمويين المعروف جيداً؛ وكان الابتلاع المتعاقب لمسهّل يؤمّن له مكسباً إضافياً هو زوال إضفاء الإثمية على الفعل، ذلك أن المبادرة قادمة من الخارج (المسهّل)، فالفعل يصبح مشروعاً. وهذا الجانب من المسألة خارج موضوع حديثي الآن مع ذلك.

ويتكلم مارك شلامبْرْجر [4] على فئة معيّنة من المرضى الذين يتّصفون، في رأيي، بهذا التعارض بين الدافع والنمط الفمويين؛ والمقصود شباب يبدو أن لديهم فكرة خاصة عن التحليل تقودهم: إنهم يعتقدون- يُقال- أن التحليل يكمن في صبيب لا ينقطع من البذاءات من بداية الجلسة إلى نهايتها. وليس لهذه المادة بالطبع أية دلالة، إن لم يكن بالنسبة إلى حاجة المريض- الحاجة ذات التحديد المتضافر العناصر من جهة أخرى- لاستخدامها.

ولديّ، أنا نفسي، شاب منحرف أحلّله، كان يرصّع في البداية قوله بكلمات بذيئة ينطقها فجأة، في بعض الفترات، دون أي اقتناع مع ذلك، ودون أن يكون لهذه العناصر أوهى رابط بمجرى سرده. وبمعزل عن محاولة العزل والإلغاء الوسواسي الذي كان ذلك يمثّله، فالمقصود نكوصي فموي بوصفه هروباً أمام فمويته الفعلية التي كان يقاومها مقاومة يائسة. وما كان يعرضه عليّ مكانها إنما هو كلمات فارغة من كل دلالة شرجية واقعية. إذ أن **هذا المحتوى ظلّ عارياً على نحو كامل من كل توظيف خاصّ بهذه المرحلة.**

وهناك مثال على التحويل من نوع المثال الذي ضربته للتوّ يبيّن أن التحويل نفسه يمكنه أن يُعاش على المستوى الفموي على الرغم من المحتوى التحويلي الشرجي على نحو نموذجي؛ إنني أفكر بأحد مرضاي الذي كان قد انكبّ، وهو على الديوان، على غلمية شرجية واضحة جداً كان يشركني فيها دون مواربة؛ ولم يكن الأمر مع ذلك لعبة على نمط ضرب من الاتحاد الفموي كان يستخدمها دفاعاً ضدّ الفموية العميقة «العلائقية» [5].

ويعرض النكوص الفموي علينا أيضاً بعض خصائص **الإحباط الفموي**، كما يستشعرها الفموي، وحتى الإشباع دون صفة، فاتجاه المصاب بالإحباط

(4) مداخلة شخصية.

(5) ليس ثمة في ذلك ما يدهش؛ ألا نرى في مشافي الطب النفسي بعض الفصاميين في حالة من النكوص الأكثر عمقاً، عراة يسترسلون في الضروب الخاصة من تغوّطهم مع ابتسامة ساذجة، بليدة، تعرب عن نكوصهم النرجسي الفموي الكلّي، الخاصة الأساسية للمرض الذي يفتك بهم؟ فالأخذ بالحسبان وحده نمطهم العلائقي النرجسي الفموي يمكنه أن يجعلنا نفهم الدلالة الحقيقية للمادة الشرجية أو الأوديبية في الظاهر، المادة التي يعرضونها لنا دون كفّ؛ وهذه المادة تخلو نهائياً من الأبعاد الخاصة بالمراحل التي يبدو أنها تُحال إليها.

يتحدّد دائماً قبل كل شيء بفمويته. إنني أتكلّم بالطبع على الارتكاس المرضي على الإحباط والفموي المضفى عليه الإثمية. ونحن نعلم أن هذا الفموي يتذمّر دائماً وأن أياً يودّ إشباعه على نحو كامل قد يباشر مهمّة شاقّة. وثمة دائماً هامش كبير قليلاً أو كثيراً بين رغبة الفموي وما يمكنه أن يشبعه، وذلك ما بوسعنا أن نفهمه بسهولة إذا فكرنا أن ذكرى الفردوس المفقود مختلطة برغبته دائماً. ولهذا السبب لا يسلك الفموي سلوك من حُرم من إشباع فقط، ولكنه يسلك سلوك المالك الشرعي لمال هو الأثمن بين كل الأموال، مال كان قد سُلب منه غدراً وبصورة شائنة [6]. ومن المعلوم (وهذا مصدر من المصادر العديدة من سوء التفاهم بين الفموي والشرجي- فألْسْت وفيلانت (*) لا يمكنهما أن يكون أبداً صديقين) أن أي مال أرضي لا يعادل بالنسبة له خسارة تمسّ مثاله النرجسي، مال لا يكاد يمكنه أن يحدّده ولكنه لن يكفّ عن المطالبة به والبحث عنه ذلك أنه **سريع التصديق** جداً (كل شيء ممكن في العالم النرجسي و«لماذا لا يكون الأمر كذلك؟»). إنه **متفائل** أيضاً، شأنه شأن من تلقّى الدليل المحسوس من قبلُ أن موضوع أحلامه ليس خديعة بل موجود تماماً.

وهذا هو ما يجعلنا نفهم أن الصمت، أعني عدم الإجابة عن سؤال يطرحه المحلّل، يمكن ألا يعيشه هذا المحلّل بوصفه إحباطاً وأن هذا الاتجاه، اتجاه المحلّل، يمكنه ألا يسبب صدمة له، إذ يسهّل ذلك بالطبع، في الوقت نفسه، تطوّر دافعه نحو النضج الشرجي. فالباب غير مغلق، وكل شيء ممكن أيضاً. وبوسع تحريم واضح يصدر عن المحلّل، بالعكس، أن يسبب الصدمة لنرجسية المحلّل على نحو محسوس وحاسم في بعض الأحيان.

وهناك خاصيّة أخرى للعلاقة الفموية بالموضوع، خاصيّة يمكنها أن تُستنبَط- كالباقي- من الأساس الدافعي نفسه لهذه البنية، تكمن في سمتها **الضبابية والمطلقة، غير الواضحة وغير المحدودة، معاً**؛ والواقع أن الفموي لا يمكنه، بالنظر إلى أن الموضوع بالنسبة له غير واقعي أبداً (لا يمكنه أن يعضّه وأن ينغلق،

---

(6) إننا نعلم أن حرمان أحد من حقّه الذي تمتّع به دائماً أصعب عليه من حرمانه من التمتّع به؛ فالملكية توقظ التطلع إلى حقوق جديدة، كما يعرف الحكام منذ توكيفيل.

(*)- شخصيتان من مسرحية لموليير «م».

عليه) ولكنه افتراضي، وأن العالم المحيط يشكّل واحداً معه وأن الانفصال بينه وبين العالم يولّد نزاعات، أقول إن الفموي لا يمكنه أن يُدخل الواقع في علاقته، إذ أن الواقع مصنوع من موضوعات واضحة محدّدة يكاد لا يأخذها بالحسبان. إنه يرغب مع ذلك في نعمة كلية («كل شيء أو لا شيء») ومباشرة كما كان قد عرفها في عهد النرجسية قبل الولادية، نمط من الإشباع لا يريد أن يتخلّى عنه. وليس بوسعه، إذ لا ينقصه الموضوع فحسب ولكن ينقصه أيضاً نمط علائقي متكيّف مع السيادة على الموضوع، إلا أن يرفض فكرة تسوية تعني خضوعاً للواقع وتخلياً عن القوة الكلية النرجسية. فالمقاربة الخاصة بالطاقة في عالم الموضوع تجري بالجهاز الحسي الذي تدفعه الحركية، وهي مجال الشرجية؛ فالفموي غير ذرائعي دائماً، بل مصاب بخَلَل الأداء، إذ يحتقر في الوقت نفسه التقنيات الإجرائية التي يستخدمها الشرجي ليفوز بإشباع دوافعه. وكونه عاجزاً عن توظيف الأطوار المتطوّرة التي لا بدّ لها أن تقوده إلى السيادة الواقعية المكتملة على الموضوع، فإنه **يشحن رغبته نفسها بوصفها كذلك بكل لبيبده**، شحناً على نمط مغال، مفرط، ناجم عن هذه الشحنة الزائدة. وتأتي كلمة «لامحدود» على نحو منتظم، بقلم المؤلفين الذين يكتبون عن الفموية! وهكذا تقول السيد غويه [7]: «الشراهة لدى المصابين بعصاب الهجر حَصِرة، لا محدودة، وبالتالي لا ترتوي.» فسمة الفموي المفرطة واللاواقعية وصفها تشيكوف وصفاً رائعاً[8]. إنه يتكلّم على إنسان «متجهّم أبداً، عاجز عن التكيف مع الواقع، ومن أن يستمدّ منه ما يمكنه أن يقدّم، وبه ظمأ له، ظمأ خفيّ، معذّب، لكل ما لا يوجد في هذا العالم ولا يمكنه أن يوجد.» لقد أدرك هنا تشيكوف حقيقة مأساة الفموي، حقيقته ذاتها؛ فما يبحث عنه بحثاً أبدياً، بحثاً عبثياً مُنْهكاً، إنما هو هذا البعد الحيوي حيث لا حدود لنرجسيته ولا عائق أمام رغباته المغالية. وعالمه عالم مفتوح ونمط علاقته تحكمها هذه السمة على وجه الخصوص. إنه يتراجع أمام أوهى إنجاز وتوسّعُه الضمني غير محدود مع ذلك.

(7) عصاب الهجر.

(8) لدى أصدقاء.

IV

يمدّ الطفل، أمام جرحه النرجسي وفي سبيل أن يسترجع على هذا النحو قوته الكلية المفقودة، جسراً استيهامياً أو هلوسياً بين رغبته وإنجازها. وستستمرّ هذه الآلية، على صورة أكثر تكيّفاً، في أن تشكّل جزءاً من حياة الإنسان النفسية على وجه العموم وسيظلّ النمط الفموي نقطة انطلاق لكل إشباع دافعي [1].

وينطلق الإنسان ليغذو موضوعه، شأنه شأن هذا التلميذ الذي لم يكن يتلو درسه إلا انطلاقاً من زاوية معيّنة من الصف. وتبدأ كل الإشباعات الدافعية على نمط فموي هلوسي؛ ونحن نأخذ بالطبع هذا المصطلح الأخير بمعنى ملطّف، معنى الرغبة أو **مشروع منحة**. ونهمل النقاش الفلسفي الخاص بالفعل والفكر؛ ونلاحظ مع ذلك أن الإشباع يبدأ على أي حال بانبعاث الرغبة في الفكر، سواء أكان ثمة صياغة أو تعبير مرافق أم لا. وللدفعة الفموية نحو الموضوع معادلها النفسي في مشروع تجعل الإشباع، أي **الرغبة**. والمرء يعانق قبل أن يحتضن بقوة والرغبة إما أن «تجعل لعاب الإنسان في حالة إفراز» وإما أن تجفّف الفم، وفق الوضع النزاعي

(1) تبيّن بعض أعراف الزواج، التي سقطت قليلاً بفعل مرور الزمن، أن المجتمع يتقى أن يأخذ بالحسبان هذا التعاقب، تعاقب أطوار النضج الدافعي التي ذكرتها للتوّ، وكذلك الصعوبات التي يتضمنّها. وهكذا يبدأ الزواج بالخطوبة حيث الموضوع لا يكون في أول الأمر سوى وعد بموضوع (تُسمّى الخطيبة: «موعودة»)، مشروع، رغبة لا تتجلّى بادئ ذي بدء إلا بإشباعات استيهامية. وتتطوّر هذه العلاقة مع ذلك شيئاً فشيئاً ونبلغ ذروتها في الفعل الجنسي الذي يتزامن مبدئياً مع «ليلة العرس» (الاحتفال بالزواج، الذي يكون هدفه الاساسي زوال إضفاء الأثمية، لا يعنينا هنا). ثم يبدأ «شهر العسل»، مصطلح ذو لوينة فموية أيضاً، وهو مرحلة لضرب من النكوص الفموي المنظّم، يجد الثنائي الشاب نفسه خارج حياة الوقائع وتحيطه بالعناية هيئات محترفة متخصّصة، قوى أمومية وصيّة. وبفضل هذا النكوص، وإذ يأخذه الأزواج الشباب نقطة انطلاق، إنما يُفترض أنهم يتعلّمون مواجهة وضعهم الجديد، وتحمّل مسؤولياتهم المتبادلة، إذ يصبحون أخيراً أهلاً لهذه العلاقة المكتملة بالموضوع التي يُفترض أنها الحياة الجنسية في الزواج. ونحن نعلم من جهة أخرى أن السيرورة لا تفضي دائماً الى كمالها، ذلك أن المؤسّسة إذا كانت تقلّد إذا صحّ القول سير الأطوار، فإن هذا التقلد فعل سحري وليس في سيره شيء يشجّع النضج الدافعي في ماهيته. ونحن نعلم كم من الزواجات تتعثّر وتخفق، ليس بسبب الصعوبات التي يمثّلها تأسيس منزل، بل تخفق عادةً في ليل العرس، بل قبله.

للفرد. وإذا كان بوسع الجماع، الفعل الذي يلخّص في رأي فورنزي التطوّر الليبيدي برمته، أن يُنجَز دون مشاركة فموية فيزيولوجية في الظاهر، فيكفي أوهى خلل في التفريغ الغريزي حتى يُظهر العامل الفموي المموّه وجوده بفضل ضرب من فكّ التشابك الآني في الحزمة قبل التناسلية، التي تجتمع في الجماع تحت ظلّ الأولية التناسلية. وقانون تطوّر الفرد- تطور النوع يؤدي دوراً في كل فعل غريزي (يمثل بين أسلاف الجماع بالتأكيد «الاقتران» الذي يتّصف بأنه ضرب من الافتراس المتبادل) وكل فعل يمرّ في سيرورة النضج التي يمرّ بها الدافع نفسه بوصفه دافعاً.

ويدلف الإنسان فيما بعد في تطوّر يحمله- وهو يمرّ في تعاقب من الأطوار التي لا يعود إلينا أمر دراستها هنا- من الرغبة إلى الإنجاز الأكثر اكتمالاً، إذ تصبح بنية دفعته الحيوية متعاظمة الكثافة، فتكسب بعض البروز، بعداً جديداً إذا جاز القول. أما العصابي، فإنه يتعثّر على معبر من معابر السيرورة، وسيكون الفموي **ميّالاً إلى أن يتوقّف منذ الخطوة الأولى التي يخطوها، أي عند الرغبة أومشروع الإشباع ذاته**؛ وسيصل على الأكثر إلى أن يوظّف هذه المرحلة التمهيدية، كما رأينا للتوّ، بشحنة ليبدية قوية، وتلك طريقة لا تخلو من محاذير، ذلك أنها لا تفتح فحسب حلقة مفرغة تخيّب الأمل بصورة متعاظمة، ولكنها يمكنها أيضاً أن تقود إلى نكوص يزداد عمقاً ومرضي. ويبدو لنا الفموي- شأنه شأن معظم العصابيين مع ذلك- بجانبه الخاص، جانب ضعف الإرادة وفقدانها قبل كل شيء (أذكر هنا بأهمية عدم النضج الدافعي بوصفه مصدر الكفّ ومصدر النمط الدافعي الذي يتيح التزام الفرد، بمعزل عن محتوى رغبته الغريزي؛ فكل الأطفال، أو كلهم على وجه التقريب، يعبّرون عن رغباتهم الأوديبية تعبيراً واضحاً قليلاً أو كثيراً («بابا سيموت وسأتزوج ماما») ويمكنهم أن يفعلوا ذلك لأنهم يفعلونه على نمط فموي سابق على ثنائية المشاعر؛ ذلك أن الكبت لن يطرأ إلا على نحو أكثر تأخراً من الناحية الزمنية، عندما سيبلغ النضج الدافعي مستويات يتعاظم إضفاء الإثمية عليها. وما دام هذا التطوّر يجري في العمر المسمّى العمر الأوديبي، فإنه يمكنه أن يكون تكراراً لحركة حدثت من قبل؛ إنني أشير إلى مدرسة ميلاني كلاين التي تضع الانفعالات الأوديبية

الأولى في عمر مبكّر جداً. (أما الأنا العليا، ووريثة الأوديب، ودلالتها النرجسية، فإنني سأعود إليها في مناسبة أخرى).

وحياة **الحب** لدى الفموي سطحية دائماً من وجهة نظر النضج الدافعي، مع أنها تُعاش على نحو عنيف جداً ولكن على المستوى الوجداني أكثر منها على المستوى الجنسي بالمعنى الحقيقي للمصطلح. وشدّة دفعته تدفعه إما إلى أن يبحث عن إشباع لدى موضوعات متتالية تخيّب أمله دائماً، دون أن يصاب بوهن العزيمة أمله في أن يرى رغبته مشبَعة، وإما أن يظلّ متعلّقاً بالموضوع نفسه، فعلاقته يمكنها أن تصبح أبدية بفضل ضرب من البعد، وستكون هذه العلاقة محتواةً برمتها في انتظار الموضوع (دانْته وبياتريس، بتْرارك ولور). والزيت الذي يصون شعلته تقدّمه للفموي في الواقع نرجسيته ويسقط مثال الأنا لديه على موضوع هو بالحري مرآة متساهلة. أما وسائله الجنسية، فإنها ضعيفة على وجه العموم: «من يغالي في التقبيل لا يحسن أن يحتضن بشدّة»، إلا إذا كانت جنسيته جنسية كاذبة تزداد عنفاً لأسباب نزاعية. وفيما يخصّ تعلّقه المرضي، «التثبيت»، فإنه ينتمي إلى دراسة طور آخر من النمو الليبيدي.

أما عن قدرات التصعيد، فإن الخوف من العمل يشجّع **الاستبطان والحدس الخلاق**، سواء في المجال الروحي، الفنيّ أو العلمي، ولكن الفموي سيكـون معوّقاً فيما يخصّ إنشاء نتاجه ونقله، فهما جانبان يقتضيان بالحري تلك المزايا التي يتمتّع بها الشرجي. والفموي سيكتب ولكن ليضع في درجه، وسيرسم ولكنه لن يبيع لوحاته.

والفموي خيالي ولكن لرغباته ميلاً إلى أن تظلّ في حالة **الرسم الأوّلي**، وستكون إنشاءاته قصوراً في إسبانية وستحتوي دائماً ظلاً من اللاواقعية. وسيعيش السفر على الخارطة أو على الشاشة (أتكلّم على نموذج فموي إجمالي دون أوهى تكيّف) وسيعيش بقراءة قصص الاكتشاف، وسيذوّق وجبة لذيذة بقراءة قوائم الطعام في المطاعم ووصفات المطبخ. وإذا منح نفسه إشباعات تبدو واقعية، فإن

علينا دائماً أن نطرح على أنفسنا السؤال عن قيمة أو درجة النضج لهذا الإشباع بالقياس على توظيف ليبدي منجز ومرْض من وجهة النظر الاقتصادية.

وسيميل الفموي، **من الناحية الاجتماعية**، إلى المذهب الفردي، لا ليفرض نفسه، بل بالحري لينطوي على ذاته وليضع نفسه في مأمن، اللهم إلا إذا تجمّع تجمعاً سلبياً حول بعض الصور الذهنية المثالية القوية، نوع من الأم القضيبية المغذّية، وسيتبنّى هذا الاتجاه لنقص في إمكاناته أن يقيم علاقات ملائمة مع محيطه والمجتمع على وجه العموم، وذلك لن يمنعه من جهة أخرى أن يوظّف هذا السلوك على نمط نرجسي. وسيختار، إذا سيق إلى الاقتراب من جماعة، جماعة المنعزلين وسيكون بسهولة فوضوياً ـ داعية للحرية المطلقة، في الفكر فقط بالطبع ـ وذلك مصدر من سوء التفاهم بينه وبين منافسه، الشرجي، بالنظر إلى أن الحرية تعني بالنسبة له أن يهمل الآخرين كما يكون في مأمن من كل تدخّل غريب، في حين أن الشرجي يفهم من الحرية التصرّف بالآخرين والتسلّط على العالم وفق أسلوبه.

وثمة لبْس مؤكد يكون ضحاياه المؤلفين الذين يرون في مطالبة الفموي خاصّة أساسية من خصائص سلوكه [2]. فالمطالبة الفموية تشكّل جزءاً من آلية معقّدة سيكون علينا أن نعالجها فيما بعد. وبوسعنا مع ذلك أن نلاحظ منذ الآن أن الفموي لا يطالب، إنه يتذمر، والأمران مختلفان. والفموي يعاني مبدئياً صعوبات في صياغة طلب، ولو في الحالات التي يكون خلالها مسوّغاً بصورة كلية، فإما أن المقصود مطالبة ترتكز على حقّ ثابت، وإما أن المقصود هو الزمن الأول المتلائم كل التلاؤم مع إشباع دافعي، كما في موقف الطفل الذي يطالب أبويه بشيء يرغب فيه. ويريد الفموي أن يكون إشباعه بمنحة تلقائية، كما بيّنتُ، بدلاً من أن يكون عليه أن يصوغ ما يطلبه. إنه من جهة أخرى، عاجز أيضاً عن أن يرفض، إذ أنه كريم (كرم بسبب الضعف) بقدر ما هو فقير (عاجز عن أن يتملّك). والواقع أن **العطاء والتلقّي** في سجلّ الفموية، ما دام كل شيء يحدث داخل الانصهار، متكافئان. ونرى على سبيل المثال في التحويل الإيجابي، عندما يبدأ المحلّل في الدفاع ضدّ

(2) انظر على سبيل كارن هورنه، الدروب الجديدة للتحليل النفسي، التي تتكلّم في موضوع المرحلة الفموية على «الأمل في أن يحصل الفموي من الغير على ما يريد».

إضفاء الإثمية على هذا العلاقة الفموية بالمحلّل، علاقة يريد أن يحتفظ بها سابقة على ثنائية المشاعر؛ وسيشعر أنه قد زال عنه الشعور بالإثم إذا تلقّى منحة- جيّدة التعيير- من المحلّل بقدر ما يشعر أنه قد زال عنه هذا الشعور عندما تُتاح له فرصة أن يقدّم منحته لهذا المحلّل.

ولا يعترف الفموي بمبدأ التبادل (وسيحتقر النظام القائم على الخدمات المتبادلة، والتسويات والأعمال على وجه العموم)، ولا بـ **سلالم القيم**، وهو مقتنع كل الاقتناع بالسمة المطلقة لسلمه هو. فما يتلقّاه تلقائياً لا ينبغي أن يكون مكافأة على ما يستحقّ، بل خطوة، نعمة [3]. والمقصود هنا على نحو أساسي الأهمية بالنسبة للفموي الماثلة في أن يظلّ على المستوى الفموي، متجنّباً البعد الشرجي الذي يحكم العلاقات بالموضوع منظوراً إليها من زاوية معنى الواقع.

أما وقد قلنا قولنا هذا، فإن من المهمّ جداً أن نقيّم من الناحية الديالكتيكية إذ صحّ القول كل اتجاه من اتجاهات الفموي كما نقيّم من جهة أخرى اتجاهات الأفراد الذي يتتمون إلى أي بنية أخرى؛ فسمة من السمات يمكنها، في الواقع، ألا تكون سوى دفاع ضدّ سمة مقابلة تنتمي إلى نمط معارض؛ وإذا كان أحد الأفراد يبدو أنه يريد أن يتمسّك تمسكاً قوياً بسمة فموية معيّنة، فذلك لأنه على الغالب لا يمكنه أن يقايضها بسيادة شرجية تنقصه بمرارة كبيرة («العنب حصرم ويصلح للأنذال»).

رأينا أن الفموي غير ذي علاقة بالموضوع بمعنى معيّن وأنه حريص أن يظلّ كذلك وهذا بسبب الخوف من التطورّ اللاحق- على أنماط أخرى- لعلاقته بالموضوع. والحال أنه سيستخدم أحياناً، بما أنه حريص أيضاً على أن ينال إشباعه على مستوى آخر غير مستوى الفموية الصرفة، مكيدة شبيهة بمكيدة المنحرفين ولن يكون بوسعي إلا أن أذكرها هنا عابراً. ويمكننا تسميتها **العلاقة بالموضوع بالتجنّب**، إذ أن ما يتجنّبه الفرد هو الأطوار الهامّة الوسطى، أطوار النضج الدافعي

(3) الاختبار للحصول على الدليل ذو علاقة بحاجة الفموي إلى أن يكون محبوباً لذاته، بمعزل عن مزاياه بل عندما لا يستحق على وجه الخصوص.

الذي يقفز فوقها إذا جاز القول ليفضي مع ذلك إلى الإشباع الغريزي، مع أن هذا الإشباع يكون مشوباً، كما يعتقد المرء تماماً، بما يتضمنّه هذا الأسلوب المتعرّج من عدم النضج. فبعض العصابيين يروون لنا على هذا النحو كم كان يشقّ عليهم- وهم أطفال- أن يطلبوا نقوداً من آبائهم وكانوا يفضّلون كثيراً أن يخدموا أنفسهم بأنفسهم بغضّ النظر عن الغير، أعني أنهم يسرقون. وكلّما كان الآباء يقولون لهم: «ولكن إذا كنت بحاجة إلى النقود فماعليك إلا أن تطلب»، كانوا يحرصون على أن يتزوّدوا بأنفسهم على هذه الصيغة من النظام المباشر، إذا تجرّأت على القول، الأكثر وعورة مع ذاك بما لا يُقاس من الأول والمثقل بالمخاطر المؤكدة. وهذا النمط من الإشباع الذي يعتمد **الاكتفاء الذاتي** (على وجه التقريب) يمكنه دون شك أن يُعتبر فموياً على نحو نموذجي، كما سنرى فيما بعد، ولكنه يحتوي في الوقت نفسه مكوّنة ذات علاقة كاذبة بالموضوع؛ وإذا كان الأب- الموضوع (والأم بالطبع) متجنَّباً في الواقع، فإن الفرد يتوصّل مع ذلك إلى أن هذا الآلية موجودة في أساس عدد من الأفعال الجنْحية التي يرتكبها غير ناضجين من وجهة النظر العلائقية.

V

لدى المؤلفين تصوّرات مختلفة للفموية ومتناقضة. فخصّص برغْلَر[1] على هذا النحو مجموعة من المؤلفات لوصف تصوّره، **الاستقلال الذاتي الفموي**، إذ أن الفرد يمنح نفسه نعماً، في حين أن محلّلين آخرين يلحّون- بالعكس- على «أمل الفموي في الحصول على مايريد، إلخ»[2]. وتتكلّم جرمْين غويّه[3] على المصاب بعصاب الهجر الذي يبحث عن أن يؤمّن لنفسه الحب ويصون الأمن بذلك، في حين أنها تقول في مكان آخر عن النموذج نفسه للمريض إنه يرفض

(1) العصاب الأساسي، على سبيل المثال.

(2) مصدر مذكور سابقاً.

(3) مصدر مذكور سابقاً.

الموضوع» وإن «الكارثة تكمن في مناخه». ويذكّر روزولاتو وودلوشرَ(4)، وهما يلخّصان أبراهام بتصرّف كبير، أن «الفموية تتألف معاً من الرغبة والكرم. . . تدعم التفاؤل الواثق أنهم (الفمويون) سيكونون متألقين واجتماعيين، نافدي الصبر، فأمهم الوصية موجودة دائماً، ولكن أي تشاوم بالمقابل! فالجوع يظهر لديهم بكل جوانبه من الاستفهام، والابتزاز، والبحث، والفضول الفكري، إلخ.»

وقد يظنّ المرء أن هذه التناقضات ليست إلا ظاهريّة فالمؤلفون المعنيّون يتكلّمون تارة على الفموي، وطوراً على آليات الدفاع ضد هذا الدافع (ولْنتذكّر أن الثالوث الشرجي الشهير لفرويد- «الشرجي متقن، شحيح وعنيد»- يؤلف أيضاً خليطاً من الدوافع والتكوّنات الارتكاسية). وسيكون مفيداً مع ذلك أن نأخذ بالحسبان كل عنصر من هذه العناصر المتناقضة، ونفهم علاقاتها ونعيّن لكل منها مكانه في نظرية النضج الدافعي. فأبراهام أدخل، حين أراد أن يأخذ بالحسبان مظهر الفموي المتأخّر النكوصي، ضرباً من التقسيم الفرعي لهذا الطور ولفت النظر إلى الفارق بين الطور المتّصف بثنائية المشاعر والسابق على ثنائية المشاعر. والحال أن التمييز بين هاتين المرحلتين رئيس، إذ يدلّ المصطلح الأول على غياب إضفاء الإثمية، في حين أن التسرّب السادي من الفرع الثاني من التقسيم يُدخل إليه الإثمية على وجه الدقّة. وإذا أردنا أن ندرس الفموية في ذاتها، تحت تأثير ما قبل ثنائية المشاعر الذي يميّزها، فإن الأمر الذي لا غنى عنه إذن هو أن نتفحّصها في الحالة النقيّة إذا جاز القول وأن نفصلها عن الشرجية التي هي خصمها الديالكتيكي ووجودها في بنية الفموية يدلّ على تشوّه ماهيتها(5). وهذا **التهديد بإضفاء الإثمية على الفموية** هو الذي سيتيح لنا أن نفهم ما يمكننا تسميته **مفارقة الفموية**.

(4) التحليل النفسي، المجلد الرابع.

(5)- نحن نعلم أن المحلّل يبحث عن الإفلات من إضفاء النزاع وإضفاء الموضوع على موقفه النكوصي، الخالي من الموضوع والسابق على ثنائية المشاعر، من المحلّل. والحق يُقال إن التنظيم الكلاسيكي التحليلي يبدو أنه يهدف إلى أن يتيح ذلك له، أي أن يُوضع سير هذا التطوّر على المستوى الإسقاطي الاستيهامي؛ فالمحلّل ينسحب من حقل الرؤية للمحلّل، ويظلّ حيادياً، غير شخصي، ويرفض الاتصال على المستوى الإنساني؛ إنه غير موجود إذا جاز القول.

(الخصائص العيادية للفموية التي ألمعت إليها فيما سبق، تعكس بالطبع، إلى درجة لا يُستهان بها، فموية أُضفيت عليها الإثمية، أعني أن عناصر سادية تسربّت إليها، عناصر لا تكاد تكون مندمجة وبالتالي أضفيت عليها الإثمية- تحدّد اتجاه المطالبة؛ فالشراهة المفرطة تؤلف قرينة على إضفاء النزاع والتثبيت على هذه المرحلة ينعكس على صفة المنحة التي ينالها الفموي في هذه الشروط، منحة لا يمكنها أبداً أن تتّخذ شكلاً مكتملاً كل الاكتمال ومرْضياً.

فالفموي الذي أُضفي عليه النزاع، يقتضي ويطالب بمنح على نمط عنيف، مع أنه عاجز عن قبولها في الوقت نفسه، جرّاء فقدان النضج الكافي لعلاقته بالموضوع. ويتدبّر أمره إذن ليمنح نفسه إشباعات بدلاً من الموضوع، إذ يبني مجدّداً بهذا التزوّد، حسب «النظام المستقل»، اكتفاءه الذاتي النرجسي وقوته الكلية في الوقت نفسه. (ونرى بالمناسبة أن تقنيته مختلفة عن تقنية **المازوخي** الذي سيستمر في أن يتوجّه إلى الموضوع ويبحث عن سلامه في عكْس (عكس في الظاهر) علامة إشباعه الغريزي).

فالفموي يمضي على هذا النحو صوب الموضوع، ولكنه بدلاً من أن يقيم علاقته معه، يقتصر على أن يباشر هذه العلاقة التي تفشل. وليس بوسعه أن يحتفظ بالموضوع، إلا إذا تعلّق به، ولكن دون قدرة على توظيفه، وذلك يعني عدم القدرة على الاحتفاظ به. فلماذا هذا الدرْب المسدود؟ رأينا أن كل مشروع أو رغبة في المنحة تنتمي إلى المستوى الفموي أولا، فهي إذن سابقة على ثنائية المشاعر. وهذه المرحلة من العلاقة بالموضوع لا يمكنها إذن أن تنطوي على أي محذور، والصعوبة لا يمكنها على هذا النحو أن تنجم إلا من جرّاء التوقّف أمام الرغبات الضعيفة في الإنجاز، رغبات تنتمي بالعكس إلى المرحلة الشرجية، التي تُضفى عليها الإثمية وتكون مصدراً ممكناً للكفّ. وهذا يشرح أن الماضي التاريخي للفموي خالٍ على الغالب من الصدمات النفسية التي تمسّ الطور الأول قبل التناسلي. فالفموي طفل مدلّل بالحري فاتته على وجه الدقة كمية مثلى من الإحباطات أو الصدمات النفسية الفموية ليكون بمقدوره أن يكتسب جوابه عن هذه الإحباطات ويمتّنه- شأنها شأن الإحباطات الأخرى- ، أعني مكوّنة شرجية،

مندمجة زال عنها إضفاء الإثمية. واعتاد عادة سيئة، عادة الحصول على إشباعاته شبه آلية على النمط النرجسي الفموي. ولم يستطع أن يستدخل الحزم والقوة ولا الحب أيضاً. فحصل على «الإسهام النرجسي» الخاص به، ولكنه لم يحصل على «الاسهام الشرجي». وجعله الإحباط عدوانياً (مطالباته تتّخذ بسهولة مسحة ذهانية هذائية)، ولكنها **عدوانية «فموية»** نوعية أيضاً. فليست موجّهة في الحقيقة ضد الموضوع ولكنها تعبير عن حالة وجدانية. إن لها قيمة مجرّد التفريغ، شبيهة بالغيظ العاجز للطفل الذي يخبط الأرض برجليه، ولكن عدوانيته تبلغ المحيط بالانعكاس فقط. وسيستخدم أي وسيلة بمتناوله، دون تمييز، ولا يمكنه أن يتّخذ أي إجراء متكيّف مع ترميم ملائم لإحباطه المعنيّ. وستبيّن حالته الوجدانية المضطربة والانفجارية أنه لا يتّصف بصفة السيادة على نفسه ولا على الآخرين.

وإذا طبّقنا الطريقة التي تكمن في تنضيد أطوار النضج الدافعي على مراحل العلاج التحليلي المختلفة، فإن بوسعنا أن نعاين أن ثمة قرابة وثيقة بين الفموي الذي يرغب ويتراجع في الوقت نفسه أمام رغبته وبين المحلّل الذي يبحث عن إقامة علاقة بالموضوع مع المحلّل، ويطالب بها على نمط عنيف ويريد في الوقت نفسه أن يتجنبّها بأي ثمن، فالعائق ناجم في الحالين عن فقدان التكامل للمكوّنة الشرجية(6)(7).

فالعصابيون ومرضى الأمراض النفسية الجسيمة بصورة عامة يتصرّفون تصرّف الفمويين الذين يطلبون الشفاء ويرفضونه في الوقت نفسه؛ ونحن نعرف هؤلاء المرضى الذي يمضون لاستشارة الأطباء ويلقون الوصفات الطبية في سلّة المهملات، يشترون العقاقير ولكنهم لا يستخدمونها قطّ ويرفضون الشفاء على أي

(6) الحالة النموذجية- في التحليل- هي حالة هؤلاء المرضى الذين يصنعون باستمرار استيهامات عن المحلّل في كل مكان. إنه يمرّ غير مرئي بالنسبة لهم مع ذلك في الفترة الدقيقة التي سيكون- لمرة واحدة- حاضراً بالفعل فيها، خلال لقاء بالمصادفة على سبيل المثال في الشارع أو في مكان آخر. ومن المعلوم كم يخشى المحلّلون في بعض الفترات من التحليل كل اتصال شخصي بالمحلّل، مع أنهم يبحثون عن هذا الاتصال بالطبع.

(7) غرانبرجر، تمهيدات لدراسة موقعية للنرجسية، مقال في **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، 1958.

حال. إنهم يدورون على كل الأطباء، باحثين عن علاج لأمراضهم، ويستجيب المعالج لالتماسهم، ولكنهم عاجزون عن قبول هذه الهبة، أي الشفاء. ولا يمكنهم أن يقيموا علاقة ناجعة مع هذا الموضوع، ويحافظون على خيارهم، بوصفهم اختاروا هذا الموضوع الآخر، المرض. فتقنية العلاج تظلّ على هذا النحو، أياً كانت، غير فعّالة. وطريقة التحليل النفسي هي وحدها التي ترغم المريض (ينبغي مع ذلك أن يقبلها المريض) على الخروج من هذه الحلقة البغيضة. فالمحلّل يتلقّى المريض، ولكنه لا يمنحه شيئاً دفعة واحدة ولا يعده بشيء. إنه، على العكس، إذ يدعوه إلى أن يتكلّم، يحمله على أن يباشر **منح نفسه**، إذ يجعله ملتزماً على هذا النحو بأن يرمّم الصدمة على نمط فموي، وأن يبدأ إذن من البداية إذا جاز القول، وذلك مشروع أقلّ سهولة، ونحن نعلم ذلك جيداً، مما يُعتقد للوهلة الأولى، مشروع يعجز عنه بعض البنْيات عجزاً مطلقاً. فالمريض يتعلّم على هذا النحو – من خلال هذا الانعكاس النرجسي للذات، أي المحلّل في التحويل – أن يقبل نفسه ويحب نفسه، ويقيم وينمّي في الوقت نفسه علاقاته مع نفسه ومع الآخرين. وسيشجّع الإطار الملائم للوضع التحليلي سير السيرورة ويجعلها تبلغ نضجاً دافعياً مرْضياً على المستوى الموقعي، الدينامي والاقتصادي.

الفصل الرابع

دراسة في العلاقة الشرجية بالموضوع(1)

مقدّمة

هدف هذا العمل الحالي أن يستنبط مفهوم العلاقة الشرجية بالموضوع، متّبعين الطريقة **التكوينية** لا الطريقة الوصفية.

وتتمحور محاولتي على توضيح شكل من التوظيف النوعي، خاصّ بالمرحلة الشرجية ومختلف في ماهيته عن نمط التوظيف الخاص بالمراحل الدافعية الأخرى. ويرتبط تكوين «بنية شرجية» بهذا النمط النوعي من التوظيف تظهر مفعولاته في النضج الدافعي من وجهة النظر الثلاثية الاقتصادية والموقعية والدينامية.

والمنظور الذي أرى فيه المشكل هو منظور التقابل فموي- شرجي، وبالتالي منظور **قبل تناسلية** ذات دينامية ديالكتيكية. وفي نقطة المحرق من هذا المنظور نجد مجدّداً مفهوم النرجسية. وأعتقد أن هذا المنظور يشجّع تصوّراً ذا اتجاه غير تاريخي؛ ويبدو لي مؤكداً في الواقع أن علينا الميل إلى استخدام المفاهيم التي يمكنها أن تستند إلى علم للوراثة، مستقلّ عن العوامل التاريخية. وهذه العوامل نستخدمها بنجاح في تقنيتنا التحليلية، ولكنها ليست سوى أدوات نجوعها يستند إلى وجود مسبق لطاقات كامنة ذات أصل وراثي.

(1) محاضرة ألقيت في رابطة باريس للتحليل النفسي، 1959، نشرت في **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، 1960، رقم 2.

I

جمعت في عمل سابق (1) بعض الأفكار المجزّأة عن الفموية. وكنت قد حاولت أن أوضّح فيه الخاصّة الأساسية للعالم النرجسي الفموي: **إنه مفتوح ودون حدود**. فكل فاعلية الرضيع، في هذه المرحلة، تقلّد نمطاً واحداً؛ إن فاعليته الاجتيافية ليست من جهة محدودة إلا بإمكاناته في التوظيف الليبيدي وفاعليته الإفرازية، من جهة أخرى، خاضعة للنمط نفسه: منتجاته الغائطية تسيل سيلاناً منفعلاً (2). إنه تفريغ فيزيولوجي ومصدر المنحة التي يمثّلها بالنسبة للطفل يحتفظ أيضاً بالنمط المميّز للطور النرجسي الفموي. **والعدوانية** نفسها التي يوقظها إحباط الطفل في هذه المرحلة تنهج نهج هذه التخطيطية النرجسية الفموية نفسها. إنها توتّر **يسيل** ولا يصدم ما يوجد في طريقه إلا بالانعكاس. وتجلب العدوانية ضرباً من الراحة، ولكن بضرب من استنزاف الطاقة النوعي مفعوله لا يمكنه أن يكون سوى مؤقّت.

وظهور المرحلة الشرجية يغيّر هذه الحالة من الأمور تغييراً جذرياً. ويتكلّم فرويد، حين يصف الغلمة الشرجية، على الطفل الذي «يحتجز برازه ليحوز لذة أكبر عندما يطرده». ولم يكن فرويد بالتالي هو الذي درس وحده الغلمة الشرجية، بل كان مؤلفون آخرون قد درسوها، كسادْجر، فورنْزي، بريل، وأبراهام على وجه

(1) ملاحظات عن الفموية والعلاقة الفموية بالموضوع، **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، العدد 3-4-1959.

(2) البراز والسلوك التغوّطي لدى بعض المصابين بالنكوص العميق، والمدلّلين، وبعض المصابين بالخَبَل المبكّر، يشبهان شبهاً غريباً براز الرضيع وسلوكه التغوّطي. وينبغي لبعض الإسهالات أن تُفهم أنها هجر الشرجية بالنكوص. وهكذا يتخلّى الخائف عن احتجاز مواده البرازية ويسلك كما لو أن صارّاته- على غرار صارّات الرضيع- محرومة من الحركيّة النوعية، ونقول بعبارة أخرى محرومة من سيادة عليها.

الخصوص. ويبدو لي مع ذلك أن دراسة العلاقة الشرجية بالموضوع ينبغي أن تأخذ عامل **الاحتجاز** نقطة انطلاق لها. وهذا التفصيل، الضعيف الأهمية في الظاهر، هو الذي يوجد- كما نعلم- في أساس السيادة الشرجية والحركية. فالروابط بين المرحلة الشرجية والحركية كان مارتي وفان قد عرضاها [3].

وسنرى أن قاعدة الطاقة لكل حركة دافعية هي المكوّنة الشرجية وأن على الطفل أن يدمجها في الزمن المنشود وفي ظروف ملائمة حتى يهيء على هذا النحو سياداته المتتابعة على أنماط متطوّرة أكثر فأكثر. إنه، عادةً، يبنيَ على هذا النحو قواعد قدراته على السيادة كما لو أنه يلعب وسيُتاح لنا إمكان أن ندرس فيما بعد ذيول إضفاء النزاع على هذه السيرورة.

فالطفل الذي لفتنا النظر للتوّ إلى عجزه الحركي خلال المرحلة الفموية، ليس محروماً من لذة ذات صفة نوعية فحسب، ولكنه مطعون في كماله النرجسي. والحال أنه سيجد في جسمه، خلال فترة التعزيز لجهاز الحركة لديه وبخاصة لعضلاته المخطّطة وصارّاته، ما به يعوّض هذا النقص. والمقصود قبل كل شيء لذة يمنح نفسه إياها عندما يكتشف أن ضغط جدار القسم النهائي من جهازه الهضمي على المواد **الصلبة** كثيراً أو قليلاً، مواد تكوّن قرصه الغائطي، يؤمّن له إحساساً مستساغاً. واكتشاف هذه اللذة يُكبت فيما بعد- لأسباب عليّ أن أستبقي فحصها لمناسبة لاحقة- وستبقى وحدها- مع ذلك- لذة الإفراغ بالمعنى الدقيق للكلمة: فالغلمة الشرجية لا تتوهج خارج منطقه محدّدة كل التحديد (جزء من الجهاز الهضمي) واللذة الشرجية، على خلاف اللذة الفموية، تنهل خصائصها على وجه الدقّة من واقع مفاده أن هذه المنطقة **مغلقة**. ولن يتعلّم الطفل على هذا النحو السيادة على ما يوجد داخل هذه المنطقة فحسب، ولكنه سيتعلّم أيضاً أن يعترف بالتباين بين شكلين يتقابلان، والإيضاحات المادية التي تحدّد كل واحد منهما بالنسبة

(3) تقرير عن دور الحركية في العلاقة بالموضوع..

للآخر، إلخ. وهذه المعطيات تكوّن أسس **الواقع** الذي يكتسب معناه على هذا النحو. فاللذة الشرجية حاصلة على نمط مستقلّ، بالنظر إلى أن «الطفل يكتشف- كما يقول ناخْت- أن بوسعه أن يجد بعض اللذائذ في نفسه ومن أجل نفسه، دون تدخّل من أمه [4]. ويضع على هذا النحو نهاية لـ **التبعية** الإلزامية إلى وسطه، نصيب الفموي كما رأينا للتوّ، جرحٍ نرجسي تتيح الشرجية للطفل أن يتجاوزه. فيستقرّ لحسابه الخاصّ، إذا جاز القول، وهذه المرة نفسها ضدّ الوسط الذي تحمّل بمشقةٍ أن يخضع إليه حتى الآن، وذلك ما يكوّن انقلاباً حقيقياً للوضع.

فللطفل الآن موضوع [5] إذن، موضوع منفصل عن نفسه بصفته ذاتاً بل في الحالة الراهنة- موضوع يقابله (هذا الانفصال كان من قبلُ قد ارتسم مع ذلك نحو نهاية المرحلة السابقة، المرحلة الفموية، ولكنه ارتسم فقط ولم يكتمل). فالفرد يمتلك لهذا السبب جهازاً، مصدر اللذة والسيادة، كما يمتلك مادة قابلة للتعامل، ضرورية للعملية المعنيّة. إنني أتذكّر امرأة صبيّة كانت قد قدمت للعلاج من البرودة الجنسية؛ واستطاعت أن تكتسب حساسيتها الجنسية تدريجياً خلال العلاج وحظيت للمرة الأولى بالراحة الناجمة عن هزّة الجماع عندما حدث المشهد التالي: إنها اكتشفت خلال اقترابات جنسية مع شريكها أنها كانت تمارس، عندما تضغط وتحتجز العضو الذكري لشريكها بين فخذيها، سيادة على العضو المعنّي وعلى الرجل برمّته. وكان هذا لإحساس، في الجماع الذي تلا، قد تحوّل إلى الفرج: «كنتُ أسيطر عليه، تقول، كما يمسك المرء رجلاً بتلابيبه»، وذلك أمر ذكّرها بالتغوّط (حلقة الصارّة المحيطة بالقرص البرازي والضاغطة عليه). ونحن نشهد هنا **في الوضع النهائي**، إذا

---

(4) المظاهر العيادية للعدوانية، **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، تموز- أيلول (يوليو- سبتمبر)، 1948.

(5) في هذه المرحلة الشرجية، يمكن الكشف الآن عن القطبية الجنسية وكذلك عن الموضوع الغريب، فرويد، **ثلاث محاولات في الجنسية**.

جاز القول، اتّساع السيادة الشرجية على الجملة العضلية على نمط أصلُه الغلمي-الشرجي يمكننا أأن نتعرّفه بوضوح. فموضوع السيادة موضوع برازي وهذا الأصل يبدو دائماً على الأنماط الأكثر اختلافاً، سواء كان المقصود هو الجسم برمته، جسم الفرد أو جسم الموضوع، جسم الموضوع الجزئي، أو جسم أي مكّون من الوسط الذي يوظّفه الفرد. وهذا الأصل البعيد للموضوع المتكوّن بوصفه كذلك هو الذي يجعل وجود المكوّنة الشرجية إلزامياً في كل علاقة بالموضوع، مكوّنة موجودة في القاعدة الطاقية للعلاقة بالموضوع. فالموضوع البرازي نرجسي وخارج الذات معاً(6). ويوظّفه الطفل توظيفاً نرجسياً بوصفه جزءاً من جسمه ويستمرّ هذا التوظيف استمراراً طبيعياً تماماً حين ينفصل البراز عن الجسم، وذلك يقابل على وجه الدقّة سيرورة التوظيف الليبيدي للموضوع انطلاقاً من الليبدو النرجسي. وسيستمد الطفل من فصل العالم إلى جزأين: خارج الصارّة وداخل الصارة، منفعة نرجسية كبيرة. وإذ أصاب الخزي طفل المرحلة الفموية بسبب إخفاقاته الإحباطية وأُضفي عليه النزاع بفعل الإخفاقات نفسها، فإن غيظه العاجز لم يكن بوسعه في الواقع إلا أن يزداد اشتداداً. والطفل يمكنه الآن، بفضل هذا التقسيم الثنائي، أن ينقذ شرفه النرجسي، إذ يضع خارجه (إسقاط) كلّ ما هو مصدر خيبة الأمل النرجسية ويحتفظ في نفسه ويوظّف إيجابياً كل ما هو مصدر اللذة وما يكون مرضياً من الناحية النرجسية. فالموضوع البرازي، على هذا النحو، هدية وقيمة من جهة، وسلاح عدواني من جهة أخرى. إنه في آن واحد حامل التوظيف الليبيدي (غلمة شرجية) ورمز لكل ما هو سيّء، خطِر أو بغيض. ويعترف الطفل أن ما هو جيد هو خاص به (وبالعكس) وما لا يكون خاصاً به أو ما لا يمكنه توظيفه سيصبح الآخر والقذر في آن واحد (مريض من مرضى أبراهام كان يقول: «كل ما لا يكون أنا

(6) فرويد، في «تحولات الدوافع»، مجلة التحليل النفسي الفرنسية، 1928: «التغوّط يضع الطفل أمام اختياره الأول بين اتجاه نرجسي واتجاه للموضوع»؛ وكذلك أبراهام الذي يتكلّم على «جسر بين النرجسية بالمعنى الدقيق للكلمة وحب الموضوع».

قذر»). فالاجتيافات والإسقاطات المستقبلية، كذلك الحركة المعقّدة من المستخرجات والمستدخلات والمستخرجات من جديد، المتتالية، ستضاعف عدد الأوضاع الديالكتيكية المشتقّة من هذه القسمة الثنائية، إلى ما لا نهاية له. وهذه القسمة الثنائية مرتبطة بالتأكيد بتكوين الانا العليا. وستكون هذه القسمة حاضرة دائماً في توظيف الموضوع **نفسه** عندما سنسميها **ثنائية المشاعر**(7).

II

تكمن الخاصّة الأساسية للعلاقة الشرجية بالموضوع في السيادة على الموضوع، سيادة تكسب الفرد استرجاع هذا الكمال النرجسي الذي كان باستمرار، كما رأينا للتوّ، موضوع هجوم في المرحلة السابقة. فالفموي يبحث عن **الوحدانية والاستقلال النرجسي**؛ والشرجي سيفعل مثله، إذ يميل إلى تحقيقهما بوسائل أخرى، ما دام صحيحاً أن النرجسية تعبر، دون تغيّر في ماهيتها، كل المراحل الدافعية، إذ تستخدم الأنماط المختلفة التي تضعها الأطوار المتعاقبة تحت تصرّفها (فورنْزي). وإذا كان الفموي يسعى إلى بلوغ هدفه إذ يجتاف مكوّنات وسطه التي وظّفها، فهذه تصبح على هذا النحو أجزاء لا تتجزأ من نفسه، فإن الشرجي يطرح نفسه في مواجهة موضوعه وسيكتسب أو سيغزو بالحري وحدانيته واستقلاله، **بالنسبة إلى هذا الموضوع**، وبالتعارض معه على وجه التقريب. إنه يُدخل على هذا النحو بينه وبين موضوعه مسافة تحدّده بالنسبة إلى الموضوع، وذلك مفهوم يجهله الفموي جهلاً كلياً. وهذا الوضع يتضمّن في الوقت نفسه إدخال عامل طاقة كمي يضع الفرد الشرجي **أعلى** من الموضوع الذي لا

---

(7) اتّبع بعض المؤلفين (وآسف لأنني لم أستطع أن أجد المراجع) أثر الأصل البرازي للناس حتى في التوراة والميثولوجيا. وبحسب الأسطورة الإغريقية، ولَد دوكاليون وبيراً الإنسانية (بعد الطوفان) إذ ألقيا خلفهما حصىً، وذلك ما يكرّر حركة التغوّط نفسها. والرجل في التوراة مصنوع من الطمي (مادة برازية) ورفيقته مصنوعة، فضلاً عن ذلك، من جزء من جسمه، وذلك ما له علاقة بالبراز أيضاً، جزء من الجسم ينفصل عنه. ولا يميّز اللاحور بين البراز والطفل وعضو الذكر، أجزاء من الجسم متكافئة أيضاً.

يوصف البتّة بصفة الذات (*) (قاعدة كل تمييز، سلّم قيم، تراتب وتنظيم مستقبليين). وهذا الوضع الطاقي أساس عاطفة **الأمن** ويظهر في بعض الأحيان بتعبيره النموذجي، الضحك الصاخب الظافر الصادر عن الطفل الذي يلعب بهواء معدته وأمعائه أو الضحك الصاخب والظافر الصادر عن الراشد، المنطلق بفعل مزْحة قذرة توقظ وتثير غلمته الشرجية وسيادته الشرجية («أفعل ما أريد وبمقدوري أن أفعل كل شيء، ولا أحد يمكنه أن يمنعني من ذلك»). فالطفل الذي تعلّق بموضوعه على النمط الشرجي يستقرّ في الحياة استقراراً متيناً؛ وحركة الطاقة ينبغي لها مع ذلك أن تغتني بالتوظيف الليبيدي المقابل (غلمة شرجية). وهذا التشابك، تشابك مظهري الشرجية وتكاملهما سيضع الطفل في مأمن من النكوصات الخطيرة وسيتيح له بلوغ الأطوار اللاحقة من تطوّره الدافعي دون تعقيد. أما المنحرف **السادي**، فإننا نعلم أن سيادته على الموضوع، التي يمارسها على نمط من الأنماط، تكفي لتطلق سيرورة تفضي على هذا النحو إلى هزّة جماع بصورة مباشرة وآلية على وجه التقريب. ونحن نعرف من جهة أخرى حالات تُحدث فيها ممارسة الحركية وحدها في بعض الشروط، أي القوة الأكثر مباشرة والأكثر أولية للشرجية، أعني للتغوّط، تلك النتيجة نفسها [1]. ويبيّن كل هذا أن صفة الموضوع أو **ماهيته** الخاصتيّن به لا أهمية كبيرة لهما في العلاقة الشرجية بالموضوع (وفي ذلك يكمن مصدر من مصادر الإثمية التي ترتبط في حضارتنا بهذه المكوّنة الدافعية). فالموضوعات ليست إلا حوامل بعض الوظائف وقابلة للتبادل. والمهم إنما هو **العلاقة الطاقية** بين الذات والموضوع، فإقامة هذه العلاقة يمكنها وحدها أن تكفي للإشعاع الدافعي التالي. فالشرجي سيعتبر ماهية موضوعه الخاصة عائقاً أمام سيادته، عائقاً سيثير عدوانيته وسيكون مرغماً على محاربته وإزالته بتطبيق تقنيته النوعية.

(*) نستعمل لفظة «الذات» هنا بمقابل (Objet, Sujet) أي بمعنى الفرد لا بالمعنى الحقيقي لكلمة ذات (Soi)، وهذا ينطبق على كل استعمال لها من قبل في هذا السياق «م»

كنا قد قلنا إن الفرد ينبغي أن يطرح نفسه في مواجهة موضوع أدنى منه وكلما كبر الهامش الذي يفصل بينهما، منظور إليه من هذه الزاوية، تقترب العلاقة من شكلها المثالي، المطلق. فالشرجي سيميل إذن إلى تغيير كيفي لعلاقته بالموضوع نفسه بهذا الاتجاه. وسيبحث عن توسيع هذا الهامش، إما بإنقاص الوضع الطاقي للموضوع، وإما بزيادة وضعه هو بالقياس على وضع الموضوع، أو بالوسيلتين معاً، هدفه **تقليص الموضوع على هذا النحو إلى شكل أصلي هو البراز**. وهذا الأمر سيتيح له أن يتحرر تحرّراً كلياً من تبعيته الفموية ويؤسّس استقلاله على القدرة على أن **يجعل الموضوع تابعاً له** على نحو كلي. فأبراهام ذكّر أن الطفل على مبولته، على عرشه كما يقال، **ملك**. إشباعه ليس تابعاً إلا لنفسه وبوسعه على حدّ سواء أن يعارض الموضوع البرازي بالمعنى الحقيقي للكلمة (إنه يلعب به خلال ساعات) ويعارض على النحو نفسه ذلك المربي الذي يعارضه، إذ يضرب عصفورين بحجر واحد ويبيّن أن هذين الموضوعين متعادلان بالنسبة له.

فالثنائي الشرجي ذات- موضوع هو إذن، في صورته المثالية، ثنائي **سيد- عبد** («إنك موضوعي، أفعل بك ما أشاء وليس لديك أي إمكان لتعارض ذلك»)، إذ تستأنف هذه المصطلحات دلالتها الحرفية في هذه العلاقة بالموضوع المعكوسة في الظاهر، علاقةِ المازوخي (مثال ذلك: «إنني شيؤك، بوسعك أن تفعل بي ما تشاء»). والمقصود بذلك وضع أساسي ليس **وسيلة** فقط (كان فرويد يتكلّم على دافع استيلاء)، خاضعة لغائية تتجاوزها، بل هدف في ذاته ينبغي للحزمة التناسلية أن تدمجه فيما بعد بوصفه كذلك، مع احتمال تغييره ما إن يكتمل الاندماج. ودرس أبراهام وسادْجر ومؤلفون آخرون القوة السحرية ذات العلاقة بالبراز، وبكل نفاية بشرية بالشمول. وكان فورنْزي [2] يشرح عاطفة الكلية بوصفها «ضرباً من إسقاط المعاينة التي يعاينها الطفل، الخاصةّ بدوافعه، دوافع يعيشها بوصفها لا تُقاوم وتقتضي أن تُطاع **طاعة عمياء** [3]. ويتوحّد الطفل في الواقع (أتكلم على الطفل غير

(2) ذكر ذلك جونز في مقاله (الكره والغلمة الشرجية، مجلة التحليل النفسي، 1913).

) أنا الذي أضع العبارة بالحرف البارز.

العصابي بالطبع) بدافعه، إذ يجعل قوة هذا الدافع قوته على هذا النحو، ولكنه يبحث في الوقت نفسه عن تجاوزه، أعني عن الإفلات من هذا القسْر الاستبدادي الذي يعيش سلطانه بوصفه جرحاً نرجسياً.

وهذه الحركة المزدوجة يمكن أن توضّحها بالمثال حالة بعض الأفراد، حالات شائعة في ممارستنا اليومية. والمقصود إما مشهد معيش، وإما استيهام، وفي الحالين نكوص إلى المرحلة الفموية التي تتيح لنا أن نلاحظ آلية عملها الوظائفي. ومثالنا تلميذ يحرّر واجباً مدرسياً ينبغي له أن ينجزه في مهلة معيّنة. إنه يعمل بهمة كبيرة، والزمن يمضي، فيسرّع الحركة، والتوتّر يزداد، وفي اللحظة الأخيرة، ولكن قبل أن يستطيع تسليم نسخته، حدثت له هزّة جماع عنيفة كان أحد مرضاي يقول عنها إنه لم يعش مثلها قطّ مع امرأة. ومن الواضح أن الموضوع، في هذه العلاقة بالموضوع، يزول بوصفه موضوعاً (إنه يبقى بالطبع خلف النكوص الشرجي على صورة لا شعورية) ولا يمثّله إلا المهمة الواجب إنجازها، وبالتالي ينتمي إلى الحركية. إنها وظيفة لاشخصية على الإطلاق ولكنها تمثّل في الوقت نفسه جماعاً أوديبياً مكبوتاً. فالدافع الأوديبي ينكص إلى المرحلة الشرجية ويُعاش عندئذ على النمط الخاص بهذه المرحلة: ينبغي أن يُطاع طاعة عمياء (المهلة) والفرد يفلت من القسر الملازم للدافع في اللحظة الأخيرة مع ذلك وتحدث له هزّة جماع في لحظة تسبق المهلة، أعني في اللحظة التي لا تزال فيها المهمة، مهمةٌ إنجازها لا يتميّز من القسر الدافعي، غير مكتملة. ويبلغ الفرد على هذا النحو السيادة الشرجية وهزّة الجماع معاً، ولكن على نمط نرجسي ظافر يجعل هزة الجماع لديه أكثر إرضاء بالحري (4).

وذلك يقدّم لنا عوناً لفهم أكثر صحةً، فهم تكوين الأنا العليا واستخدام الطفل هذه الأنا العليا، منظور إليهما في منظور نرجسي، وفهمٍ للبنية الشرجية

(4) هذه الحركة الطاقية المزدوجة تبدو أنها تؤدّي دوراً أساسياً في الآلية المازوخية التي تتيح للفرد أن يستمتع بقوة على الرغم من الجلد، وهذا قد يبرهن مرة أخرى على أن الدافع المازوخي غير موجود، ولكن استئناف هذا المشكل قد يبعدنا كثيراً عن موضوعنا.

بصورة عامة، كما نعرفها لدى الراشد في الحالات التي يكون النزاع مضفىً عليها. فنحن ندرك على هذا النحو محركّات الترجّح الأبدي لدى الشرجي بين السيادة الإيجابية والسلبية، والتباين بين دافعه الذي ينشد السيادة الأكثر اتصافاً بأنها مطلقة وبين استخدام أناه العليا استخدام التباهي. فالأنا العليا تحجب عندئذ بصورة مفارقة العمل الذي يكون محتواه متعارضاً مع هذا المرجع (أي الأنا العليا) (مثال ذلك محكمة التفتيش التي كانت تعذّب الناس من أجل مجد الله، مجده الأعظم) (5).

III

ركائز الطاقة في العلاقة الشرجية بالموضوع سيادة على الموضوع وضرب من علاقة قوى يضمنها. وقد تكون هذه العلاقة الأخيرة مباشرة أو معكوسة، واقعية أو كامنة، تتّخذ شكلها الأصلي، أو تتوطّد بواسطة مشتقّات أو مكافئات. وتستند إلى منظومات تقابلٍ، كضروب الثنائي «قويّ وضعيف، صغير وكبير»، «غنّي وفقير»، «بليد وذكيّ»، إلخ. والأساسي بالنسبة للفرد يكمن إزاء الموضوع وبالنسبة له، في أن يشغل موقعاً عالياً من الضروري أن يحافظ عليه بأي ثمن، لا سيما أنه يتضمّن مرجعاً نرجسياً إيجابياً، فضلاً عن قيمته الطاقية بالمعنى الدقيق للمصطلح. والسمة القسرية المرتبطة بصون هذه العلاقة الطاقية، لدى بعض الأفراد المثبّتين على المرحلة الشرجية، ظاهرة وأوهى نقص في سيادتها تلقيهم في أزمة حصر حقيقية. فالحاجة إلى المحافظة

---

(5) إنها لحظة التذكير بما قلناه (غرانبرجر، تمهيدات لدراسة موقعية للنرجسية، **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، إيار- حزيران [مايو-جوان] ١٩٥٨) عن المكوّنة الشرجية في الوضع التحليلي حيث تعمل عملها الوظائفي بوصفها قاعدة طاقة للدافع، ولكنها تكون أيضاً قاعدة طاقة للمقاومة. وهذه الأنا التي تعمل- كما قيل- بطاقات نُزعت الصفة الجنسية عنها مكوّنة ضد دافعية مستقلّة من أصل شرجي وأناها العليا ليست سوى البنية الفوقية الأكثر تأخراً من الناحية الزمنية والأكثر تمايزاً.

على هذا الموقع سليماً يصبح على هذا النحو هدفاً في ذاته، يتجاوز الإطار الطاقي بالمعنى الحقيقي. وما يكوّن، في الواقع، تلك الخاصّة الأساسية للعلاقة الشرجية بالموضوع إنما هو أن علاقة القوى تتقدّم على الدافع نفسه الذي يبدو أنها تقصد دعمه، قبل كل شيء، إذ تنقل اليه الطاقة الضرورية منحة له. والواقع أن الشرجي لا يوظّف الموضوع بقدر ما يوظف **العلاقة الطاقية** التي تربطه بهذا الموضوع، حامل الدافع. وذلك يعدّل الاقتصاد الليبيدي للشرجي تعديلاً أساسياً ويطبع بخاتمه كل المظاهر الحيوية. وسنتبع، لتثبيت الأفكار، سير سيرورة التوظيف بمثال مبسّط.

لنضرب مثل طفل أمام الواجهة الزجاجية لمخزن تحتوي تفاحة. إنها تفاحة رائعة، مذهّبة جيداً، مشهيّة، والطفل يرغب بالطبع في أن يأكلها. وسيكون بصورة مفاجئة كما لو أن الرغبة في هذه التفاحة قد حولّته. إن بوسعه أن يتذكّر فيما بعد هذه اللحظة الاستثنائية وستعيد ذاكرته إنشاء الصورة المعيشة لهذه الثمرة اللذيذة بأمانة، وشكلها وألوانها، وانعكاساتها المذهّبة، والانطباع الهام على وجه الخصوص الذي احتفظ به لهذا الحَدَث. وسيتخيل، أمام التفاحة، طعمها ورائحتها، تماماً كما لو أنه يقضمها الآن. إنه يختلط، إذا جاز القول، بالتفاحة، ويكوّن وحدة معها وسيحتوي العالم طفل-تفاحة، فضلاً عن ذلك، تلك الواجهة الزجاجية نفسها حيث التفاحة معروضة، وضجيج الشارع الذي يرافق المشهد، والهالة التي تحيط به، ونقول إجمالاً إن الطفل-التفاحة توسّع توسّعاً أقصى حتى حدود توظيفه الليبيدي الذي لن يتوقّف إلا على تخوم فاعليته الحسيّة. وهذه التفاحة يمكنها فيما بعد أن تظهر مجدّداً في أحلامه وعندما سيكون أكبر سيحولّ مجموع إحساساته ذات الارتباط بالتفاحة على كل ضرب من الدعامات التي ستتوافر له لهذه الغاية. فأي معرفة دقيقة بالتفاحة لم تمنع لاشعوره من أن يعيش هذه الإحساسات مجدّداً، وربما ورثت بعض الموضوعات من هذه المغامرة شدتّها، ومعيشها، والحدّة العجيبة للحالة الوجدانية التي ترافقها، بفعل عودة انفعاله البدئي الوحيد الذي لا يوصف.

فالطفل ذاق التفاحة إذن، إذا جاز القول، كما نعلم، على نمط هلوسي وابتهاجي[1]. ولكن هذا النمط لن يلبث أن يتشوّه، كلما أدرك الطفل أن ثمة ما هو أبعد من الكوب على الشفتين وأن التفاحة لم تعد هي هو، فجوعه المؤلم وخيبة أمله النرجسية في وجوب تحمّل هذا الجوع تجعل، على العكس، من هذه التفاحة شيئاً يصبح **آخر**. كذلك الواجهة الزجاجية، من جهة أخرى، التي تمنعه من كل مقاربة وتفصله إذن عن التفاحة، وكل الأشياء المحيطة بها، تتشوّه أيضاً بدلاً من أن تشكّل جزءاً من ذاته. ويتوضّح، بصورة موازية لتبلْور هذا التقابل بين الطفل والتفاحة، محيط الأشياء ولم تعد التفاحة نفسها محبوبة في هذه اللحظة بقدر ما هي **مشتهاة**. فالحالة الوجدانية المرتبطة بها لم تعد منذ الآن تُعنى كثيراً بطعمها ورائحتها، ولكن بخاصّـتها في أنها تسكّن الرغبة، والجوع وحاجة الطفل إلى امتلاكها، وبعبارة أخرى **خصائصها الطاقية**. أضف إلى ذلك أن الطفل سيحسّ بأسنانه تقضم التفاحة وتوتّر جهازه الحركي يشدّ عليها، ولن يحسّ بالتفاحة بوصفها كذلك ولا بماهية التفاحة، ماهية ضبابية، غير واضحة وغير محدودة. وسيجد نفسه أمام التفاحة التي ينبغي له أن يسودها («يستولي عليها») ليقضمها، ويلتهمها ويهضمها. والمقصود أن **يتّخذ موقعاً** للشجار، وبالتالي أن ينفصل انفصالاً جذرياً عن هذا الجزء من ذاته الذي كان يختلط بها فيما مضى، ليستولي عليها استيلاء على نمط جديد. والمهم في هذا الموقع الجديد إنما يكمن في أن **يتكيّف** مع المشكل المعنيّ، أي مع الواقع، وينبغي له بعبارة أخرى **ألا** ينظر الى ماهية التفاحة، بل إلى **شكلها**، ووزنها(وفي مستوى أكثر تطوراً: إلى ثمنها)، وذلك ما يمثله اكتسابه بوصفه جهداً عليه أن يبذله على نحو أو على آخر، إلخ. أضف إلى ذلك أن كل نرجسية الطفل ستكون مشتركة في العمل الذي يجب أن ينطلق وفي النمط الذي يتبنّاه لإنجاحه، نمط ناجع قليلاً أو كثيراً. فالطفل يجد نفسه في مواجهة الموضوع

(1) وريث الإشباع الهلوسي بالطبع للرغبة في الثدي.

الذي ينبغي السيادة عليه، سواء كان التفاحة، والنقود التي ينبغي الحصول عليها لشرائها أو البقّال الذي يمتلكها. إنها كانت تفاحة كلياً منذ عهد قريب، وهي الآن جملة هضمية كلياً، تغنيها هذه الأعضاء المتمّمة: الأسنان، الجملة العضلية وجهازه الحسّي كله. إنه **لم يعد يوظّف موضوع رغبته ولكنه يوظف علاقته الطاقية بهذه الرغبة**، فالتوظيف الأول باق مع ذلك، ولكن بصورة ثانوية، في الخلفية إذا صحّ القول. والمقصود بما قلناه بالطبع تخطيطية والعلاقة بالموضوع يمكنها أن تتّخذ الأشكال وتمرّ بالتعقيدات، الأكثر تنوّعاً. وسنتعرّف مع ذلك فيما بعد على الفموي الذي سيستمرّ في توظيف التفاحة بوصفها كذلك، وسيعرف ويقيّم أنواعها المختلفة، وسيبحث عن الأماكن التي يجد فيها الأطيب مذاقاً، في حين أن الشرجي سيكسب المال ليكون بمقدوره أن يشتري منها كثيراً وبسعر مقبول، ويتموّن من مخزن كثير السلع وذي «منزلة». وأخيراً، سيشتري»، بسعر ومحتوى فيتاميني متساويين، إجاصاً أو أناناساً أيضاً. وسيمنح الأفضلية موضوعاً على آخر، لاتبعاً لقيمته الذاتية، بل وفق ما يعنيه اكتساب هذا الموضوع الخاص بوصفه دليلاً ورمزاً لسيادة ناجعة على وجه الخصوص ومرْضية من الناحية النرجسية بوصفها كذلك(2).

---

(2) هذا مثال آخر ذو سمة أكثر عيادية يبيّن أن الشرجي لا يوظّف الدافع نفسه بقدر ما يوظّف علاقته الطاقية بموضوع الدافع: لنفرض رجلاً مثبّتاً على المرحلة الشرجية، للجماع بالنسبة له مكوّنةشرجية ذات أهمية كبيرة. إن بوسعه إما أن ينجز الفعل إذ يفرض على المرأة دنساً، تشويهاً أو انحطاطاً (ذلك ما يعنيه الفعل له)، وإما أن يكون مدفوعاً بالرغبة اللاشعورية في السيطرة على المرأة إذ يسبّب لها الإحباط، وفي أن يرفض ممارسة الفعل نفسه معها. وهو يمارس في الحالين سيادته الشرجية، بوسيلتين مختلفتين مع ذلك، بل متعارضتين: أحداهما تتضمّن إشباعاً دافعياً بالمعنى الحقيقي، والآخر لا تتضمّنه. أما المرأة، فإن بوسعها على حدّ سواء أن تؤمّن السيادة الشرجية بأسر عضو الذكر لدى الرجل ومهاجمته في أثناء العلاقات أو أن ترفض الجماع معه. **فكل شيء تابع للسياق الطاقي**، كما نقول ذلك بعبارات مختلفة للمحلّلين الذين يعانون صعوبة في أن يقبلوا وجود سلوكين متعارضين على وجه الإطلاق، فيما يتعلّق بمحتواهما، يمكن أن يكون لهما الدلالة الطاقية نفسها.

IV

قبّلها
ثم صالبها
على ساعة الجسم
التي كانت تُصدر بوصفها سيئة التركيب
دقّات صمّاء وانسجامات لا رشاقة فيها
وجسّها
بيد صمّمت أن تميتها
نعم، إنها لقمة
يمكن أن يتغذّى بها المرء
جزّأها
ودقّ عظامها
ركنها
قطّعها
غسلها
حملها
شواها
أكلها

يقول الطفل في المرحلة الشرجية لا ويتّخذ عن طيب خاطر موقف التحدّي، هادفاً فقط إلى أن يعبّر عن معارضته لكل ما يحيط به. إنه يغمر العالم بضجيج يُحدثه ويقذفه كالبراز، يمزّق كل ما يقع تحت يده ويكسره ويتلفه، ويروق له أن يكون في

جوّ القذارة والفوضى، وينكبّ على فاعليات عنيفة ومخرّبة من كل نوع. وهذا المسلك ضروري له، كما نعلم، ليوطّد موقعه النرجسي الجديد، أعني تأكيد ذاته بالنسبة للآخرين أياً كانوا. ونقول بعبارة أخرى، إنه تمرين ضروري لسيادته، بمعزل عن كلّ وضع نزاعي محدّد قد تسوّل للمرء نفسه أن يتذرّع به ليسوّغ أفعاله من الناحية التاريخية. ويُروى عن رجل دولة هونغاري شهير كان يقف في ممّر البرلمان منادياً: «يابول(أو بيير، أو جان)، قل لي شيئاً حتى يكون بوسعي أن أناقضك».

فالطفل ينكبّ إذاً على جمبازه الطاقي، الذي لا غنى عنه لدمج مكوّنته الشرجية، جمباز يتيح له أن يفحص أسلوبه في الفعل، أعني تقنيته النوعية، وأن يعمّق أيضاً ماهية العلاقة بالموضوع التي تستند الى هذه التقنية.

والشرجي، كنا قد قلنا، يوطّد نفسه في مواجهة موضوعه ويميل إلى أن يؤمّن لنفسه تفوّقاً عليه، أعني السيادة عليه. وتنزع هذه السيادة الى أن تصبح كاملة بصورة متعاظمة، فالسيرورة تسير في **نظام مغلق** حيث أن نقص قوة أحدهما يزيد بالمقدار نفسه قوة الآخر والعكس بالعكس. والهدف النهائي يكمن في أن ينتصر الفرد على الموضوع انتصاراً كلياً، وذلك يعني بالنسبة للموضوع أن يكون موضع الهجوم والإتلاف التدريجي حتى يتجرد، في نهاية المطاف، من كل خصائصه الأساسية التي يتفرّد بها، ويصبح مادة مغفلة دون وجود خاصّ، نفاية. والسيرورة-وصفها بليغ في ذاته-تحاكي الهضم، مع هدفه النهائي، أي **التحويل الى براز والقذف**. ولا تسير السيرورة بالطبع سيراً كاملاً على الدوام، فالفرد يمكنه أن **يتثبّت على الموضوع** في مرحلة معيّنة، مع ميل الى أن يمكث أبداً على هذه الحال، أو أن يعود إليها باستمرار؛ فنحن نواجه هنا عوامل تاريخية دراستها تتجاوز إطار الهدف الذي كنا قد حدّدناه.

وكان فرويد يقول إن السادي الشرجي يحضّر ضحيته حين يهاجمها، حتى يكون بوسعه، بالتالي، أن يأكلها. وليس ثمة شيء نضيفه الى ذلك، إن لم يكن ما مفاده أن القضية يمكنها أن تنعكس على وجه التقريب، ذلك أن هجوم الشرجي مُصاغ عادةً على تخطيطية الافتراس والهضم على وجه الخصوص حتى الطرد

النهائي للبراز. فلكل تعاقب من تعاقبات السيرورة المعنيّة ولكل شكل منها معادله النفسي. وقد يكون ممكناً أن نكتشف رصيد التعاقبات المختلفة، للسيرورة في السلوك الإجمالي للفرد ذي التثبيت على هذه المرحلة.

ويدمج الطفل السوي شرجيته على نمط تلقائي وقريب جداً من المستوى البيولوجي. فالسيرورة تسير إذن على نحو لاشعوري إذا جاز القول وماهيتها الأساسية تمرّ غير مرئية، إلا، بالطبع، في الحالات التي تشقّ البنية التحتية الهضمية والمحولّة الى براز طريقها حتى الراقات الأكثر سطحية، جرّاء تطورّ أُضفي عليه النزاع. وستجد في التعبير عن نفسه، على صورة اندفاعات، مادة حلمية واستيهامية من الافتراس وتكوين البراز (انظر دراسات ميلاني كلاين). وعندما تنقضي هذه المرحلة (نحن نستأنف حالة الطفل السوي) وتندمج الشرجية على نمط شبه لاشعوري، ستستمرّ السيادة المكتسبة على هذا النحو باقية وحدها، بوصفها إطاراً وحاملاً طاقياً للسيادات الدافعية الأكثر تطوراً[1]. ونحن نعلم أن الأمور تمضي على نحو مختلف في حالة إضفاء النزاع على الشرجية. والواقع أن الفرد، إذا لم يتوصل الى التنفيس عن نفسه بصورة طبيعية، سيظلّ مثبّتاً عليها، وذلك ما ينطوي على محذور خطير. وسيحتفظ فعلاً ببعض التصرّفات التي تتباين، بسمتها العتيقة، مع الباقي من سلوكه، سلوك الراشد، وعليه أن يناضل ضد هذه التصرّفات، وذلك ما سيكلّفه فقداناً كبيراً من الطاقات. فالشرجية الطفالية ستزيّف تصرّفاته، تصرفات الراشد، وتضفي عليها مظهراً سمتُه المرضية لن يفوتها أن تعنينا بصفة مزدوجة. والمقصود في الواقع سمات طبع ليست ذات علاقة بالفرد فحسب، ولكنها ذات علاقة بالجماعات أيضاً، ذلك أنها تتمحور على ما هو طاقيّ ويمكنها أن تكون على هذا النحو ذات انعكاسات قوية على الحياة الاجتماعية، وحياة الجماعات بصورة عامة.

---

(1) لا ينبغي للطفل أن ينجز تنفيساته في ضرب من الخواء بل، على العكس، أن يصادف مقاومات، دون أن تبتر دفعته (خصاء). والواقع أن ضرباته ستصيب، دون أن تلاقي معارضة، سطحاً رخواً، حيث تنغرز بدلاً من ترتّد بقوة متزايدة.

وسيكون، بالطبع، من المفيد جداً أن ندرس إسهام الشرجية الإيجابي في التطورّ السويّ لدى الفرد؛ فنحن نعلم أن الشرجية لايمكنها إطلاقاً أن تكون تخريبية دائماً وأن كل الأشكال البنائية من الفاعلية الإنسانية، على العكس، منوطة بها. وتمدّ الوظائف الأكثر تطورّاً من الحياة النفسية (الشعور، الإدراك، حسّ الواقعي، الحكم، التجريد، إلخ) جذورها في الشرجية. وكان فرويد يقول[2]، بصدد ضروب التصعيد، إن كل الحضارة الإنسانية يمكن أن تُعتبر محاولة من تصعيد الغلْمة الشرجية ونحن نذكّر مع ذلك بعنوان هذه المداخلة. فلا يمكننا أن نتكلم على علاقة بالموضوع شرجية لدى الراشد (وهذا هو موضوعنا تماماً) إلا إذا ظلّ الراشد مثبتاً قليلاً أو كثيراً على شرجيته الطفالية مع كل إضفاء النزاع والعواقب التي ينطوي عليها ذلك. فالشرجية لدى الفرد السويّ أو المعتبر سوياً، يُفترض أنها تختلط بالحزمة ذات الأولّية التناسلية وتصبح غير معروفة بفضل تعديل أساسي في اتجاه ايجابي.

إن ما يستوقفنا هنا إنما هو دراسة بعض العقابيل النمطية من التثبيت المرضي على المرحلة الشرجية، عقابيل يمكننا أن نكشف عنها بسهولة في سلوك فئات معيّنة من الأفراد. وأقول بعض العقابيل، ذلك أن ضرباً من الدراسة الكاملة للفرد قد تتجاوز إطار المحاولة الراهنة. ولن أحرص من جهة أخرى على أن أعرض عليكم وصف العلاقة بالموضوع الشرجي، المورفولوجي. بل أودّ، على العكس، أن أستخدم الوصف لبعض من التصرّفات هادفاً من وراء ذلك الى أن أتحقّق وأتأكّد إذا أمكن ذلك، من صحة المفاهيم التي تنزع الى شرح هذه العلاقة بالموضوع. وبعض سمات الطبع التي تكلمت عليها عابراً في هذه الفقرة هي المشتقات النفسية البعيدة لدوافع شرجية بدئية من الافتراس وتكوين البراز[3].

---

(2) عسر في الحضارة.

(3) قد يلومني بعضهم أنني اعتبرت الافتراس دافعاً شرجياً. أذكّر أنني أفهم الفموية أنها الفموية النقية السابقة على ثنائية المشاعر، وذلك يوافق على وجه التقريب ذلك الطور الأول الفموي لدى أبراهام. والطور الثاني، الذي يسمّيه الطور السادي الفموي، يدل بهذه التسمية دلالة لا بأس بها على تسرّب عناصر تنتمي الى الشرجية. والحال أن مصطلح افتراس، شأنه شأن مصطلح أسر واشتهاء، الخ، تنطوي تماماً على مكوّنة شرجية بفعل مكوّنة «السيادة» و «الاستيلاء التي تتضمّنها هذه المصطلحات».

نحن نعلم منذ فرويد أن التملّك (بالفرنسية possessionمن posseder جلس فوقه) وفرض السيطرة والحماية (possessivité) سمتان شرجيتان. وما أودّ أن أفحصه هنا إنما هو الميل الشرجي الى التملك، أي السيادة على الموضوع دون عيب، سواء كان الصبي الصغير الذي يريد أن يملك الكرات الصغيرة **كلّها**، أو هاوي الفن الذي لايمكنه أن ينام لأن قطعة معيّنة من سلسلة معيّنة تنقص مجمُوعته؛ وأعتقد أن أسلوبنا في رؤية الأمور يتيح لنا أن ندرك ماهية هذه الخاصّة نفسها. وإذا سلّمنا في الواقع، أن السيادة تعني الافتراس والهضم في نهاية المطاف، فإن بوسعنا أن نفهم ما يزعج الفرد في استيلائه غير الكامل إنما هو أن جزءاً من الموضوع الخاضع الى السيادة في كليته يمكنه أن يفلت من سيرورة الهضم إذ يجد نفسه، إذا تكلمنا من الناحية السيكولوجية، داخل جهازه الهضمي، أي كما لو أنه قد ابتلعه ابتلاعاً (ذكّرت خلال دراسة العلاقة الفموية بالموضوع أن الرغبة يمكنها أن تُعتبر على صيغة معيّنة أول تعاقب من اندماج الموضوع). وهذا الجزء الذي أفلت من سيرورة الهضم، سيسلك سلوك **جسم غريب** موجود في الجهاز الهضمي وأولئك الذين عانوا من الهضم يعلمون ما يمثّله ذلك (إذا كان جامع المجموعات المعنيّ مصاباً بالوسواس، مهما كان ضعيفاً وسواسه، فإنه لن يتحمّل وجود قطعة في مجموعته تالفة بعض التلف، للسبب نفسه دائماً: إنه غذاء عفن ولا يُهضم بالتالي). وأذكّر هنا بالنظرية التي تعتبر أن وجود الموضوع بوصفه كذلك يبدأ حين يدرك الفرد غيابه، وذلك ما يكوّن بالنسبة له نقصاً يولّد إحساساً بالإحباط.

وتتّضح أيضاً بعض جوانب **السادية** في هذا المنظور نفسه. ونحن نعلم أن الأطفال في المرحلة الشرجية يهاجمون عن طيب خاطر الأضعف منهم، والمشوّهين، والمرضى، وأصحاب العاهات، والحيوانات. فالمشكل معقّد، ولكن يبدو تماماً أن مظهراً من هذه المظاهر يمكننا أن نفهمه من زاوية الهضم. إن الشرجي يرغب، كما رأينا، في أن يؤمّن لنفسه سيادة كاملة على الموضوع. فهو يفضّل إذن أن يواجه فريسة **هُضمت سابقاً** إذا جاز القول، أعني أن كمال هذه

الفريسة مثلوم الآن كما لو أنه كان من قبل قد خضع خضوعاً جزئياً لمفعولات الهضم التي تفكّك وتتلف[4][5].

ونحن نعلم أن عمل الهضم يكمن - كموناً بخطوطه الكبرى - في عمل وظائفي للأغذية التي تدخل المعدة وفي تحولّ متتال إلى واحدات متمايزة يتعاظم صغرها، إذ تفقد بالتدريج خصائصها الأصلية وتكوّن في نهاية المطاف كتلة متجانسة، القرص البرازي. (ألا يكون هذا التصورّ، تصور الشرجية، رؤية فكرية فقط، أمر كان قد أكّده، في عداد من أكّدوا، هذا الرجل المسمى غوليترْ، قائد معسكر الاعتقال في أوسشويتز(*)، الذي كان يسمّي هذه البلدة ذات الذكرى المشؤومة «شرج العالم».) والحال أننا نعلم أن الشرجي لا يحب الفرديين «أولئك الذين لا يفعلون كما يفعل الناس كلّهم»، إذ أن وظائفه الهضمية تسير على شكل ثابت. إن الشرجي امتثالي وذلك يمكنه أن يمضي الى ممارسة قسْر اجتماعي كلي. فإضفاء التجانس على «المادة» الإنسانية مغال جداً وعلى وجه الدقّة في جماعات ذات تنظيم عال وإدارة أُضفيت عليها المركزيّة كثيراً أو قليلاً. فكل ما هو تنظيم يميل الى إضفاء التجانس الكيفي، الأساسي، ويعاني الفرد، معاناة متعاظمة، صعوبات في الإفلات من سيطرته.

وسأذكر أخيراً ضرباً من خاصة الطبع لدى الشرجي، خاصة مفارقة في الظاهر ولكنها متطابقة مع ما سبق، فالشرجي يقترب من موضوعه وهو يهاجمه، إنه أسلوبه في مقاربته وتهيئة غزوته. ثم يعلن، عندما يدفع هجومه الى حدّ أبعد بصورة كافية، حبه الى ضحيته ويكون مندهشاً - بكل حسن نية - من أن حبه هذا لم يكن مقبولاً بترحاب كبير. فهو لا يفهم أن ثمة من يمكنه أن يرفضه بذريعة أنه اتّصل في بادىء

(4) في فيلم لبونويل، لوس أولفيدادوس، نرى أطفالاً يهاجمون مُقْعداً. ثم يحلم أحد الأطفال بأمه والجوّ جوّ كابوس رهيب: فالأم تمدّ يدها الى الطفل بقطعة لحم يتكهّن المرء أنها عفنة، مقرفة ومرعبة. محيطها مشروم، وقوامها متميّع وعكِر؛ إنها بعبارة واحدة، متحولّة الى براز، كما لو أنها كانت قد خضعت من قبل الى العصارات المعدية.

(5) إيثار الشرجي ذلك الغذاء المهضوم سابقاً كانت هذه الثقافة المبسّطة ومن المستوى الثاني، الموزّعة باسم ذي دلالة (dijest: هَضوم) (ونترجمه الى العربية بلفظة موجز، ملخّص).

(*) بلدة في بولونية «م».

الأمر بموضوعه وهو يعتدي عليه. ونيته الحسنة مفهومة مع ذلك بقدر ما هي مفهومة دهشته؛ أليس أسلوبه في التعرّف مطابقاً، في الواقع، لتوالي التعاقبات: أسْر، هضم، امتصاص؟

وسأذكّر، في سجل آخر، بهؤلاء الأشخاص أو الهيئات الذين يحاربون فكرة جديدة تثير حذرهم على نحو طبيعي. ويغيّرون رأيهم فجأة، بعد أن حاربوها خلال زمن معيّن، وهم لا يقبلون الفكرة المعنيّة فحسب، ولكنهم يجعلونها خاصّة بهم. ويمنحونها في بعض الأحيان، بطاقة جديدة، رمز استيلائهم. والقوانين التي تحكم الهضم ستكون مرة أخرى مفيدة لنا. فالخلايا الآتية من الفرائس الأكثر تنوّعاً تصبح تماماً ـ ما إن يجري هضمها وامتصاصها ـ خلايانا الخاصّة لنا، أعضاء ذات نوعية أكثر أصالة.

V

ذكرنا فيما سبق روابط موجودة بين الشرجية ونموّ **حسّ الواقع**. وأحرص على أن ألفت النظر عابراً، دون أن يكون بإمكاني أن أتوقّف هنا عند هذه المسألة ذات الأهمية، إلى أن هذا العامل الأساسي من سيرورة النضج، أي حسّ الواقع، بحاجة، حتى يبلغ الدرجة المثلى، إلى أن ينمو نمواً متوازياً مع تطوّر الدوافع الجزئية التي تجتمع في ظلّ الأولّية التناسلية. فكلما قلّ بلوغ هذه الدرجة كان حسّ الواقع يعتريه عيب من وجهة نظر الكيف. والحال أن من يظلّ مثبّتاً على المرحلة الشرجية يكون، كما رأينا للتوّ، تابعاً لنمط خاص من التوظيف لا يمسّ إلا **العلاقة** بين الفرد والموضوع، وبالتالي الجانب الطاقي للحركة الدافعية، ويمكننا القول إن بعداً كاملاً من أبعاد التوظيف ينقصه. إنه سيوظّف فقط السيادة على الموضوع وملكيته، وكذلك ترسيخ تفوّقه عليه، وإذا بدا أنه احتفظ بشيء من كمية الليبيدو الضروري لإشباع الحاجات الفيزيولوجية بالمعنى الحقيقي للكلمة، فإننا سنلاحظ

أن هذا الليبيدو نفسه يتحولّ الى طاقة وغلمة شرجيتين ويحملان في جميع الأحوال خصائصه الأساسية .

فإقامة العلاقات المرْضية بموضوع منوطة بنضج دافعي جيّد، وتلك سيرورة تقدّم المكوّنة الشرجية طاقتها. إن الشرجية هي التي تؤمّن السيادة لمجموع الدوافع، بما فيها الغلمة الشرجية بالطبع. ويمكننا أن نذكر أن من المفروض أن تذوب هذه المكوّنة الشرجية، دون أن ندخل في دراستها المفصّلة في التناسلية. وينتهي الطور الشرجي على أي حال، أي أرجحية المكوّنة الشرجية، حين يتجاوز الفرد ثنائية المشاعر التي تميّز هذا الطور. والحال أن للشرجية ميلاً إلى أن تستولي، إذا جاز القول، على كل الطاقات الدافعية الجاهزة إذ تحولّها الى طاقة شرجية، وذلك ما يفضي الى تكوين حزمة من الدوافع المجتمعة، في هذه الحال، تحت تأثير الشرجية، والمقصود هنا **أوّلية شرجية** وليست تناسلية. أما حسّ الواقع، فإن تطوّره، مع أن هذا الحسّ ذو ماهية شرجية قبل كل شيء، سيكون مضطرباً، ذلك أنه لن يأخذ بالحسبان سوى جانب واحد من الواقع، وسيكون وحيد الجانب. ومهما يكن العامل الطاقي ذا أهمية من هذه الوجهة النظر في مرونة الإسهام الليبيدي وبروزه، فليس بوسعنا أن نتكلّم على ضرب من حسّ الواقع مكتمل بالفعل وصالح ليؤمّن للفرد سيادة متطوّرة ومناسبة (نحن نعرف السمة الناقصة لحسّ الواقع لدى بعض المنطوين ونظراء الفصاميين، ذوي الليبيدو المعاق، الذين يدعون شرجيتهم القوية تزدهر، ولكنها محرومة من كل توظيف ليبيدي بالمعنى الحقيقي للمصطلح).

فحسّ الواقع ينمو إذن على نحو مرْض قليلاً أو كثيراً وفق درجة الشرجية التي تسهم في تكوينه قياساً على نضج الحزمة الدافعية بمعناها الحقيقي. والمقصود منحنى صاعد يمضي من المكوّنة الشرجية الخاضعة للمجموع، مروراً بأرجحية شرجية ترتسم بدايتها، حتى السيادة المطلقة على هذا العامل النوعي، إذ تفضي هذه الدرجة الأخيرة ـ ويتصوّر المرء ذلك جيداً ـ إلى زوال كلّي لحس الواقع. فالتوظيف الوحيد البعد موجود إذن في أصل سلبي لحس الواقع، تطور سأسعى إلى

أن أرسمه رسماً أولياً بصيغة إجمالية. إنه تطوّر يمكنه، في بعض الحالات، أن يصبح خطراً، بل وبالاً على الفرد، إذ يفضي الى الذهان، وعلى الآخرين بوصفه ظاهرة جماعية. وانعكاس هذا التطوّر على العلاقة الشرجية بالموضوع ظاهر ولم أختر لدراسته الإطار الوصفي الكلاسيكي للمرض، بل اخترت تأثيره على بعض المظاهر من الحياة الاجتماعية التي ليست أهميتها أقل بالنسبة لنا، وإنما على العكس. ورأينا في الواقع أن العلاقة الشرجية بالموضوع علاقة نموذجية فرد- موضوع، إذ لا وجود للشرجي بوصفه كذلك إلا تبعاً للآخر، وإليه يوجّه شرجيته، وبه يعيشها، وعليها يفرغها، إذ يحتفظ بكل شحنته الطاقية الجاهزة لهذا القطاع. فالعلاقة الشرجية بالموضوع علاقة اجتماعية إذن بامتياز(1). وبوسعنا أن نتساءل، ما دام الشرجي يتحدّد بالآخر، كيف ستتطوّر علاقاته بهذا الآخر المتعدّد الأشكال، أي المجتمع.

فالفرد الذي اندمجت شرجيته فرد سويّ، يُفترض أنه أنجز تشابك دوافعه وبلغ المرحلة التناسلية. ولم يعد بوسعنا الكلام بصدد علاقته الشرجية بالموضوع. ودراسته، من جهة أخرى، ليست بالنسبة لنا ذات أهمية بمقدار ما تكون حياته الاجتماعية باهتة بالحري، خالية من البروز.

وذكّرنا فرويد تذكيراً رائعاً أن الحب يتوقّف عند الثنائي، وأما قوة التلاحم للحب التي تتّسع اتساعاً متعاظماً، هذه الغريزة (الحب) القوية جداً مع ذلك، فإنها بانت أنها أسطورة مع الأسف: فالأحداث التي استطاع جيلنا أن يشهدها بيّنت لنا العكس في الواقع أي أن القوة القادرة على أن توحّد جماعات يتعاظم عددها هو الحقد و**العدوانية**، أي الحالة الوجدانية التي ترافق شرجية معاقة في تطوّرها، ومصابة بالإحباط، وأضفي عليها النزاع إذن.

فما سيعنينا هنا إذن سيكون **المثبّت الشرجي**، أي من لم تكن شرجيته قد

(1) إذا كان آلاف الفمويين والتناسليين بمعنى من المعاني لا يكونّون سوى كثرة من الأفراد، فإن لقاء شرجيين تُضفى عليه الصفة الاجتماعية دفعة واحدة إلى حدّ معيّن.

اندمجت اندماجاً كاملاً وتظلّ العامل السائد في بنيته. وهذا الرجحان، رجحان الشرجية في بنية الفرد، أي فقدان التناسب في توظيفاته الليبيدية والطاقية بالمعنى الحقيقي للكلمتين سيصبح مصدر تشوّه جذري في حسّ الواقع، وسيضفي النزاع على وضعه بالقدر نفسه. وسينجم عن ذلك ضرباً من عاطفة انعدام الأمن التي يعوّضها الشرجي بالاعتماد على العلاقات الاجتماعية، على المجتمع بوصفه كذلك. (تشهد العدوانية في هذا الحالة إخفاق التعويض إخفاقاً جزئياً). فالشرجي يختار تلقائياً هذا الإجراء من التعويض، ذلك أن طبيعة علاقته السائدة تجعله دفعة واحدة ذا استعداد مسبق لذلك. إنه لن يبحث عن أن يحب ويكون محبوباً، بل أن يسود وأن يُساد. وسيندمج على نحو أسهل في الجماعة بقدر ما لا يوظف فيها ماهيته الخاصّة التي يمكنها أن تؤكد وحدانيته ويعزلها عن الآخرين، ولكنه سينقل عبء توظيفه الى العامل الطاقي، وهو عنصر غير شخصي الى الحدّ الأقصى، يفتح له الدرب، لهذا السبب على وجه الدقة، نحو الآخرين ذوي التوجّه الطاقي نفسه. وبدلاً من أن يشعر بالضعف بفعل وضعه المضفى عليه النزاع بوصفه فرداً، فإنه يحسّ بقوته وأمنه المتزايد أضعافاً جرّاء التشابه في هذه المسألة الرئيسة مع الآخرين الذين ينضاف اليهم إذن على وجه التقريب. فالعملية الحسابية في الظاهر - ذات خصائص المتوالية الهندسية مع ذلك (فكرة أكّدها بعض القوانين الانتخابية التي تقدّم علامة للحزب الأقوى). وكونه يجهل القيم المرتبطة بالمحتوى ولا يوظّف سوى العوامل الطاقية، أمر يشرح لنا من جهة أخرى لماذا يتفاهم بسهولة مع شرجي آخر ذي ميل (إيديولوجي) مختلف، بل متعارض، أكثر مما يتفاهم مع أحد يلاحق الهدف الذي يلاحقه ولكن على نمط يأخذ أكثر بالحسبان توظيفات ليبيدية ونرجسية.

واندماج الشرجي في المجتمع أو في أي جماعة منظّمة، يجعل الشرجي قاعدة هذا التنظيم نفسها، إذ أن بنيته وحدها هي التي توظّف التنظيم بوصفه كذلك

توظيفاً اصطفائياً، بمعزل عن محتواه (إنه سينظّم باللذة نفسها مكتب إحصاء ومخزن أحذية)، فكل تنظيم نمط من السيادة قبل كل شيء.

وهذا الاندماج في التنظيم سيكون مرتكزاً دائماً على تراتب تتعاظم مغالاته، بالنظر الى أن العلاقة الشرجية بالموضوع مبنيّة بالتعريف، كما رأينا للتوّ، على **منظومة من التقابلات**، وحيدة في الثنائي، ولكنها **تصبح سلسلة من ضروب ثنائي التقابلات في الهرم التراتبي**. وتضفي السمة **المتممّة لضروب ثنائي التقابلات**، التي نجدها - متكاثرة - في السلسلة، على الهرم التراتبي متانة كبيرة جداً (وهذا هو السبب الذي من أجله تبدأ كل دفعة من التجديد الاجتماعي أو غير الاجتماعي بإرادة مفادها إزالة التمييزات، ولكنها تبين طوباوية فيما بعد وتخلي مكانها حتماً، **ما إن يقوم التنظيم**، إلى إضفاء للتراتب تتعاظم مغالاته).

ويحتوي التراتب إذن أعضاء ذوي سيادة تتّصف في آن واحد أنها إيجابية وسلبية أو فاعلة ومنفعلة، **فكل فرد يكون في الوقت نفسه أعلى أو أدنى من آخر** حتى العضو الذي يستوي على قمة الهرم (والصورة ليست دون أساس)، عضو يقبل هو ذاته أن يكون خاضعاً لقوة أو مرجع أعلى من المراجع، وذلك تعبير عن السيادة أو القوة الكلية المطلقة (الله، أو فكرة صوفية أخرى). وبما أن الشرجي يحتاج دائماً مع ذلك إلى عدوّ مطلق، من شأنه أن يتلقّى إسقاطاته، فسيكون ثمة دائماً في المجتمعات ذات التنظيم الدقيق فئة من الموضوعات التي تشغل قاعدة الهرم، فئة أدنى من كل الفئات الأخرى تُعامل معاملة الفئة المنبوذة، أي معاملة البراز. (في نظام الطوائف الهندي، يُسمى الأفراد، الذين ينتمون الى هذه الفئة الدنيا - ربما لهذا السبب نفسه المنبوذين «لايمكن لمسهم: «intouchables»، فالاتصال بهم يُعتبر دنساً).

فهذا التوجه المزدوج (كون المرء في آن واحد أعلى وأدنى أو «ضحية

وجلاّداً» في سجلّ الانحراف، كما كان يتمنى بودلير) يرضي السيادة السلبية والإيجابية للفرد ويرسخ مكانته وأمنه في المنظومة. أضف الى ذلك أنه يتوحّد، من جهة أخرى، بعناصر التراتب الأخرى حتى مبدأ السيادة المطلقة نفسه، الذي تجسّده الألوهية أو الرئيس اللدنّي». وكان الألمان يسمّون أحد التشوّهات الكاريكاتورية للمنظومة «المزاج الدوري»، إذ تدلّ اللفظة الثانية على وضع أولئك الذين يحنون رقابهم، مغالين في هذه التبعية المزدوجة، أمام رؤسائهم ويلبطون بأرجلهم أولئك الذين يكونون أدنى منهم. ذلك أن الشرجية وثنائية المشاعر، وينبغي لا ننسى ذلك، مترابطتان. وإذا كان الشرجي من جهة عماد المجتمع وملاطه - تبعاً لتسلسل ضروب ثنائي التقابل، التسلسل الفاعل والمنفعل، فإن الجماعات ذات التنظيم القويّ مركز توتّرات بين تنظيمية وبين فردية، من جهة أخرى، وبخاصة إذا كانت الحاجة الى السيادة الفاعلة (والمنفعلة) لا تجد المناسبة للتفريغ على نمط اجتماعي. وإذا كان الشرجيون متساوين على مستوى معيّن، «فثمة دائماً» - كما يقول ألفونس ألّي - «من هم أكثر مساواة». وهاكم كيف تنزلق السيرورة نحو التدهور الذي ألمعت إليه للتوّ. فالمجتمع الشرجي يمكنه أن يُقارن بخلية نشيطة جيّدة التنظيم وتعمل عملها الوظائفي وفق قواعد دقيقة بقدر ما هي متصلّبة. وأزمات الشرجية يمكنها أن تفيد من هذه المقارنة، وفي هذه الحالة يكون المقصود خلية مذعورة. فالشرجية المرتبطة بكل تبنين الخلية حتى ماهيته ذاتها، بالتنظيم، بفاعلية سكانها المنظّمة وبالانضباط الذي يرزحون تحت نيره ويفرضونه معاً، تتحرّر وترتدّ عليهم، ذلك أنهم لم يتعلّموا قطّ أن يدمجوها على نمط أصيل وشخصي، ولا أن يصعّدوها. إنه الذعر إذن، والتشتّت والصراع الأعمى، صراع الكل ضدّ الكل، فيفقد الشرجي في هذه الفترة نفسها عاطفة الأمن لديه، ولم يعد يقدّم مساهمة؛ بل يرى، على العكس عدوه في كل أعضاء الخلية وفي كل مكان:

«هل أنت معي، أو ينبغي لي أن أدمّرك، وأغطّيك بالقذارة وأدوسك؟»(برانْديس).

ويفهم المرء أن فكرة «غريزة الموت» أمكنها أن تغري فرويد، إذ شهد مشهداً مماثلاً على وجه التقريب خلال انهيار الملكية النسماوية الهنْغارية بعد الحرب العالمية الأولى، فكرة ليست ذات أساس، دافع عنها بعض المحللين (سابينا سبيلرين على سبيل المثال) قبله ولم تُقبل قط من جهة أخرى إلا دفاعاً عن النفس وعلى سبيل الفرَض.

فالهدف الذي حدّدته لنفسي في هذا العمل كان يكمن في أن أترك مجال الدافع لمصلحة مجال العلاقة بالموضوع الذي يكون الدافع قاعدتها وحاملها البيولوجي على نحو من الانحاء. وآمل أن يسهم تحديد هذا المفهوم في توضيح المفاهيم التي تنجم أيضاً عن الشرجية كالغلمة والطبع الشرجي، والمازوخية، والسادية، والكره والعدوانية على وجه الخصوص.

الفصل الخامس

ملاحظات عن الانفصال بين النرجسية والنضج الدافعي[1]

مقدمة

حاولت في عمل سابق[2] أن أعزل جانباً من سلوك الفرد في التحليل بوصفه **نكوصاً نرجسياً نوعياً**، خاصاً بالوضع التحليلي، فصلته على هذا النحو عن التحويل التاريخي، إذ أن هاتين الظاهرتين من طبيعة مختلفة في رأيي. وسعيت إلى أن أبيّن أن هذا النكوص النرجسي شرط مسبق لانطلاق **السيرورة التحليلية**، محرك طاقي للعلاج. أما العامل التحويلي، التاريخي وذي العلاقة بالموضوع، الوحيد الذي أحتفظ له بتسمية التحويل، فإنه ينضمّ الى هذه السيرورة الأساسية المنفصلة عنه وذات **الاستقلال الذاتي**. فعزل هذا العامل النوعي ذو علاقة بالضرورة التي مفادها أن نجعل دراسته ممكنة ولا يعني إطلاقاً أنني أسعى إلى أن أهمل أهمية التحليل التاريخي ولا أن أقلّل منها. ويبدو لي على العكس أننا إذا حجزناه في حدوده الخاصّة، فإنني أسهم في أن أوضّح توضيحاً أكبر مفهوم «التحويل» مفهومه نفسه. ولا ينبغي لهذا التحويل، في الواقع، أن يشمل إلا ما يجري بين المحلّل والمحلَّل بالنسبة الى مراجع تاريخية دقيقة، في حين أن ثمة في الواقع بداية لأن يُدخل بعضهم فيه كل ما يحرّضه الوضع التحليلي في سلوك المحلَّل إزاء المحلّل،

---

(1) محاضرة ألقيت في رابطة باريس للتحليل النفسي، نشرت في **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، 1960، العددان 2 ـ 3

(2) محاولة في الوضع التحليلي، إلخ، **مجلة التحليل النفسي الفرنسية**، 1957 العدد 2

مع احتمال البحث فيما بعد عن التسويغات التاريخية لهذه التصرّفات، تسويغات فرَضية، تكون على الغالب قابلة للمناقشة وموضوع نقاش. ويكرّر النكوص النرجسي الذي يحرّضه الوضع التحليلي، كما أوضحت، بعض الجوانب من معيش الحياة السابقة على الولادة وليس بوسعنا إذن في الحقيقة، ولو أننا نكتشف **طرازاً** من النكوص النرجسي في التحليل، أن نعتبره تاريخياً، بالصفة نفسها التي تكون للمعيش العرضي والشخصي لكل مريض، معيش يكرّره التحويل.

أما وقد قلنا قولنا هذا، فإنني إذ اعتقدت أن من الضروري أن أؤكد أهمية الجانب النرجسي من الوضع التحليلي، أستمرّ في الاعتقاد أن العمل التحليلي بمعناه الحقيقي ينبغي أن ينصبّ بصورة أساسية على المادة التحويلية التاريخية. أما النكوص النرجسي، فإنه، مع بقائه القاعدة الطاقية ومحرّك العلاج، محركه نفسه، يفلت من التحليل المباشر، إلا في بعض الحالات المحدّدة جيداً:

1 - إذا لم يترسّخ هذا النكوص، أي إذا لم يستقرّ المريض في التحليل، وبعبارة أخرى عندما توجد **مقاومة للنكوص النرجسي** (هذا الضرب من المقاومة متواتر جداً ونحن نعلم جيداً أن بعض المظاهر التحويلية المبكّرة من الدافع الجنسي أو من العدوانية، مظاهر يتقدّم بها المريض في بداية التحليل، ينبغي أن نعتبرها أحياناً دفاعات ضد النكوص النرجسي النوعي، لا دفاعات ضد الدوافع)؛

2 - إذا كان النكوص النرجسي يُستخدم **استخداماً ثانوياً** لغايات المقاومة. (هذا الجانب الأخير - النرجسية بوصفها مقاومة - يبدو أنه وحده، كما نعلم، استدعى اهتمام المحلّلين).

وليس لمعرفة هذا العامل النوعي مع ذلك، أي النكوص النرجسي في الوضع التحليلي، إلا فائدة نظرية بسيطة، كما رأينا للتوّ، ولكنها تنطوي على نتائج تقنية واضحة.

فمهموم النرجسية، كما أستخدمه خلال هذه المحاولة، هو مفهوم «نرجسية نقيّة» على وجه التقريب، قوة أو ميل أساسي دون حامل دافعي أنظر اليه من الزاوية

الموقعية، أي بوصفها مرجعاً[3] من مراجع الحياة النفسية. أما العلاج التحليلي، فإنني أنظر اليه هنا بوصفه مجموعاً من السيرورات التي تجري آلياً إذا صحّ القول، في كَنَف المحلّل ورقابته الدائمة الفاعلة.

أولاً - الثلاثي النرجسي

بداية العلاج التحليلي يُفسَّر كلاسيكياً على نحو متناقض، كما لفتُ النظر الى ذلك سابقاً في مكان آخر. ويُعتبر في الواقع، وهذا يوافق جيّداً تجربتنا العيادية، أن الانطلاقات التنفيسية الأولى خلال العلاج ذات علاقة بالراق الأوديبي على وجه العموم، ومن هنا منشأ القاعدة الكلاسيكية التي مفادها أن «التحليل يبدأ بالسطح ثم ينفذ الى الراقات الأقدم أكثر فأكثر». ويُضاف عادة الى هذا أن الانطلاق التنفيسي الأول يجري في ترتيب يعاكس ترتيب الكبت، فأحدهما صورة مرآوية للآخر على وجه التقريب. وإذا كان الأمر، والحال هذه، على هذا النحو، فلا يقلّ مع ذلك اتّصافاً بالحقيقة أن الفرد يعيد في العلاج صناعةتطوره النفسي الجنسي وأن الترتيب الذي تتعاقب بحسبه الأطوار المختلفة من هذه السيرورة، سيرورة النضج، عكس الترتيب الذي تذكره القاعدة الموما اليها. أضف الى ذلك أن الراق الأول الذي يبلغه الاستقصاء التحليلي، إذا كان أوديبياً فيما يخصّ محتواه، فإن جانباً من الجانبين المكوّنين لعقدة أوديب ينقص على الوجه الأخصّ هذا المحتوى، والنغمية الوجدانية، التي يتطوّر فيها الوضع الأوديبي المميّز لهذا الطور من التحليل، ليست نغمية توتر بل هي بالحري نغمية ضرب من الراحة (أتكلم بالطبع على السير الابتهاجي الكلاسيكي لهذا الطور، طور «شهر العسل» التحليلي الذي قال به فرويد). ولا أنسى مع ذلك أن بداية التحليل يمكنها أن تكون مختلفة، بل معكوسة. ولكن أسباب هذه التغيّرات ينبغي أن تكون موضوع دراسة لاحقة.

ويبدو في الواقع أننا إزاء تطوّر مزدوج تتصالب خطوطه. فالعلاج التحليلي يجنّد بعدين مختلفين من الحياة النفسية، أحدهما يتحدّد بـ **محتوى** التحليل،

(3) انظر ب. غرانبرْجر، تمهيدات لدراسة موقعيــة للنرجسية، مجلة التحليل النفسي الفرنسية، 1958، العدد 3.

والآخر يحكم **الأنماط** المختلفة لانبعاث المحتوى وتفريغه . والحال أن محتوى بداية التحليل إذا كان أوديبياً، فإن نمط انبعاثه نرجسي، كما يشهد على ذلك الجوّ الوجداني **الفريد في نوعه**، الذي يجري فيه هذا الطور السابق على ثنائية المشاعر من العلاج . والمقصود في الواقع جوّابتهاجي ذو حدّة وكيفٍ لا يسوّغه أي معيش تاريخي مواكب ذي علاقة بالوجهين الأبويين. وهذا الأسلوب ناجم في الواقع عن الوضع التحليلي نفسه، وأذكّر هنا أنني عزوت الشفاء المذهل أحياناً، مع أنه مؤقّت، شفاء بعض الأعراض في هذا الطور، إلى نكوص نرجسي(4)، وتلك أفكار أكّدها المرحوم موريس بوفه في عمله الأخير(5) .

وبيّنت في مكان آخر تلك الفائدة الاقتصادية التي يمكن لتفسيرأوديبي أن يقدّمها للفرد، إذ يسكّن جرحه النرجسي، أما حلّ النزاع نفسه، فإننا نعلم أن الإلحاح على التفسيرات الأوديبية في هذه الفترة من التحليل قلّما يظهر بنتائج محسوسة ويمكنه في بعض الحالات، على العكس، أن يعزّز المقاومات. فليس على المحلّل أن يستسلم لسراب المادة الأوديبية التي تبين خلف تيّار الابتهاج، القويّ، للوضع التحليلي في هذه المرحلة.

فالأوديب الحقيقي، الذي يتطابق **أسلوبه** مع المحتوى ويكون تفريغه صحيحاً وناجعاً، لا يمثُل بوجه عام، بوصفه كذلك، الا في نهاية العلاج، أعني بعد أن يكون قد مرّبالاندماج المسبق لمختلف الأطوار قبل التناسلية. ويتطوّر النزاع الأوديبي ويتبنْين خلال التحليل ونحن نلاحظ هذا الواقع المفارق الذي مفاده إذا لم يكن الأوديب في بداية التحليل سوى رسم أولّي يتضمّن في الوقت نفسه شحنة انفعالية قوية جداً، فإن شحنته الانفعالية التحويلية تتناقص تدريجياً، مع أنه يغتني ويتعزّز بمكونات دافعية تنتمي إلى كل المراحل، كما لو أن النضج الأوديبي نفسه

(4) تمهيدات لدراسة موقعية للنرجسية، مجلة التحليل النفسي الفرنسية، 1958، العدد 3

(5) «. . . وأنّ عدداً معيّناً من الاضطرابات الجسمية ذات المظهر الوظيفي تكون قد اختفت منذ الأشهر الأولى من التحليل، كما لو أن الإضافة النرجسية، ولو على مسافة طويلة جداً، التي كان المحلّل قد أسهم بها، «متّنت» البنيات الجسمية»، فقدان الشخصية والعلاقات بالموضوع، 1960، مؤتمر المحلّلين النفسيين الناطقين بالألسن الرومانية، روما، 1960 .

كان يمضي تلقائياً في اتجاه حلّ الوضع التحليلي. والمقصود بذلك طبعاً تطوّر مثالي يمكن أن تعكره عوامل عديدة. ويبدو جيّداً، مع ذلك، أن يكون قدر الوضع التحليلي أن يندرج في هذا الخطّ، كما يوحي فرويد بذلك في خاتمة تحليله **هانْس الصغير**.

فنحن مرغمون إذن على أن نستنتج أن شدّة الحالة الوجدانية النوعية - الظاهرة أو الخفيّة - للوضع التحليلي في بداياته (مظهره الابتهاجي) ليست ذات علاقة بالعنصر التاريخي التحويلي الأوديبي، الذي لا يكاد يرتسم في هذا السياق من العلاج (ولا العناصر قبل الأوديبية من جهة أخرى)، ولكنها ذات علاقة - بـ **السيرورة التحليلية نفسها**، المرتكزة، كما سعيت الى أن أبرهن على ذلك في أعمال شتّى، على ضرب من الانصهار النرجسي بين المحلّل من جهة والمحلّل والوضع التحليلي من جهة ثانية. ونحن نكشف إذن في العلاج التحليلي عن وجود تيّارين من ماهية مختلفة واتجاه متعارض، ولكن بالنظر الى أن النرجسية تحتاج الى حامل دافعي لتعبّر عن نفسها، فإن من الصعب تمييز وتقييم المظاهر التي تُعزى الى النرجسية من تلك المظاهر التي تنتمي الى الدوافع بالمعنى الصحيح للكلمة. ومن الضروري مع ذلك أن نعكف على التفريق بينها وسأبذل جهدي في أن ألفت النظر فيما بعد إلى فائدة انفصال مشابه.

رأينا أن المهم في التحليل ليس المادة في ذاتها بقدر ما هو النمط الذي تمثُل بحسبه المادة وأن المادة نفسها تتّخذ، وفق النمط الذي تنبعث عليه، دلالات مختلفة ومتناقضة في بعض الأحيان؛ فنحن إذن في الوضع الأوديبي، كما يبدو في الوضع التحليلي، أمام كوكبة عناصرها الممثّلة أوديبية في الظاهر ولكن نمط ظهورها يجمع كل معايير المرحلة النرجسية ذلك أنه نمط ابتهاجي وسابق على ثنائية المشاعر. ونحن نعلم أن للأوديب جانبين (إيجابي وسلبي) وأن الوضع الأوديبي ينطوي على موقف مختلف لدى الفرد من أبويه. إنه موقف مزدوج مميّز، وحتى إذا بدا المشهد الأوديبي يسوده اتجاه إيجابي أو سلبي وحيد إزاء أحد الأبوين، فإن الاتجاه المتمّم لا يلبث أبداً أن يظهر على نحو أو على آخر وبأسلوب ملازم. والحال أن للانفعال الذي ينطوي عليه «شهر العسل» التحليلي سمة وحيدة الاتجاه

على الإطلاق ويتميّز بأن مصدره الأبوان معاً (إنك أمي وأبي) فليس ذلك إذن وضعاً أوديبياً أصيلاً ذلك أن الاستقطاب الخاص بالأوديب ينقصه، ولا قبل أوديبي، إذ أن **الصورتين الذهنيتين المثاليتين** الأبويتين ماثلتان فيه. إنه وضع منوط بمنظومة مراجع تنتمي الى بعد غير علائقي بمعنى العلاقة بالموضوع بالمعنى الدقيق، بل بعد نرجسي، على الرغم من كثرة العناصر الممثّلة. وإذا كان الوضع الأوديبي ماثلاً تماماً، من جهة، أي يُستخدم من الناحية التقنية، فإنه يموّه في الواقع ماسأسميّه **الثلاثي النرجسي** المسؤول عن الحالة الوجدانية النوعية المواكبة. أما المحلّل بوصفه حامل هذا الانفعال، فإنه يمثّل الأبوين - كما قلنا للتوّ - كما يمثّل أيضاً صورة أبوية مركّبة، ولكنه سطح إسقاط على وجه الخصوص يُستخدم لعكس نرجسية المحلَّل. وهذا الوضع غير أوديبي، بل ضد الأوديبي، ذلك أنه يمكنه أن يؤلف دفاعاً ضد الأوديب بوصفه وضعاً نزاعياً. إنه **موقع نرجسي ذي ثلاثة عناصر**(6).

ويفهم المرء أن هذا الوضع الذي يضفي الغبطة يمكنه أن يكون منشوداً، إنه مرسى النعمة وراحة البال، ملجأ أمين من بعض الأوضاع التي تثير الحصر على وجه الخصوص. ويجد الفرد نفسه في هذا الموضع على النقيض من أوديب. فليس المقصود حب والد وكره الآخر، بل أن يكون **محبوباً من الوالدين معاً، على نمط نرجسي، مطلق، انصهاري وغير نزاعي.**

فنحن نعلم أن الأطفال يبحثون عن الانفصال عن آبائهم، وذلك ما يوافق

(6) قد يورد أحدهم اعتراضاً مفاده أن أسلوب رؤيتي غير مطابق لتعليم نظرية التحليل النفسي الكلاسيكية. وأذكّر مع ذلك، دون أن أزعم أنني أقدّم مناقشة شاملة للموضوع، أن لدى الانسان قدرات كامنة ثنائية الجنسية، كما يبرهن على ذلك علم الأجنّة والتشريح، لا يمثّل حضور مبدأ الذكورة ومبدأ الأنوثة في لاشعوره ذلك الأصل الأبوي الثنائي بصبغياته فحسب، بل تمثله أيضاً رموز أفكار ترمز إلى المبدأين بواسطة صورتي الأب والأم. وهذه الملاحظات تنطبق قليلاً أو كثيراً على بعض من أفكار يونغ. وأذكر مع ذلك أن المحلّلين الفرويديين يميلون أكثر فأكثر الى قبول مفاده أن الأنا تتكوّن بواسطة **الصورة الذهنية المثالية الأبوية** للأب والأم، حتى ولو أن أحد الأبوين غائب بالفعل، وذلك ما يبرهن على أن لـ الصورة الذهنية المثالية الأبوية المزدوجة امتثالاً في اللاشعور نفسه. فالمقصود بعدٌ من الحياة النفسية يتطوّر لحسابه الخاص ولا ينبغي أن يختلط، في رأيي، بالمجموعة العلائقية، الغلمة الذاتية، العلاقة الثنائية والأوديب.

الأوديب، ولكننا لسنا أقلّ علماً أنهم يبحثون أيضاً عن المحافظة عليهما معاً أو جمعهما. وهم يفعلون ذلك بهدف أن يجدوا مجدّداً هذا الوضع النرجسي الثلاثي، أساس أناهم ذاته، لا بهدف نفي الحركة الأوديبية. إنه وضع مانح النعم الى الدرجة العليا وإحباطه المزدوج يوقظ لدى الطفل ضرباً من العدوانية النوعية ومن العنف الخاص جداً. وتنشد هذه العدوانية الأبوين معاً وتظهر برفض عنيف مطلق لما يذكّر، من قريب أو بعيد، بسعادته النرجسية المصابة بالإحباط، وهذا الرفض يمكنه أن ينتقل الى المستويات الأكثر اختلافاً. ولكن الطفل سيبحث، ما دامت هذه العلاقة لم يُضف عليها النزاع، عن العودة الى هذا الموقع الانصهاري الثلاثي ويبدو تماماً أن **للأب مكانه دائماً** في الاستيهام القديم المقابل لدى الطفل، على الرغم من رجحان الدور الذي تؤديه الأم، دور يختلط في الظاهر مع السيرورات التي تعتمدها الأم لتشجيع النمو السوي للطفل. فأن يكون ممكناً وجودُ وضع نرجسي انصهاري ذي ثلاثة عناصر، أعني أن يكون ممكناً وجود ثلاثة في واحد ويحوز اللاشعور امتثالاً له، أمر يبدو لي مذكوراً في **القصيدة المسيحية بالثالوث**.

هذا «الثالوث النرجسي» يميل بالطبع الى أن يكون النزاع قد أضفي عليه تلقائياً، ولحسن الحظ الكبير مع ذلك، لأن التطوّر السويّ وكذلك السير السوي للعلاج التحليلي منوطان بهذا الإضفاء للنزاع. ولكن الفرد لا ينبغي له أن يُطرد بعنف من هذه «الجنّة قبل الخطيئة» ذلك أنه ينبغي له، بوصفه محكوماً عليه أن يغادرها، أن ينجز هذه المغادرة ببطء وعن طيب خاطر. وسيظلّ متعلّقاً بها دائماً، من جهة أخرى، ضمن حدّ معيّن.

وتتيح المسيحية لأنصارها أن يعيشوا بالتماهي سعادة ابتهاجية مشابهة، في سجلّ مختلف ـ للنكوص النرجسي النوعي، نكوص بداية العلاج[7]، مع أن إضفاء النزاع على هذا الموقع الابتهاجي (إذ تتبع الديانة هنا التطورّ الفردي) منح

---

(7) تحتوي عروة العقد في بعض الكنائس الرومانية القديمة منحوتة تمثّل المسيح «في كل مجده» متصوراً وسط تكوين بيضوي الشكل، وذلك ما يعيدنا إلى الأصل قبل الولادي للنكوص النرجسي الذي ليس انصهاره النرجسي بـ **الصور الذهنية المثالية الأبوية** سوى مظهر.

المسيحية في نهاية المطاف علامة مختلفة بعمق عن العلاقة التي تطبع بداية تاريخ المسيح، أريد أن أتكلّم على **صورة الطفل الإلهي النرجسي**.

فالطفل الالهي يبدو كأنه المركز المشعّ للكون. إنه محاط بأهله الذين تختلط صورهم بصور الحيوانات، الحمار والثور، صور قديمة خاصّة بالحلم، ولكنها خاصّة أيضاً ببعض الأحلام المستثارة الجماعية التي تعبّر عن الحنين الذي احتفظ به الإنسان من فردوسه المفقود. وألّه الطفل الصغير وعبده الجميع وغمره عظماء الأرض بالهدايا، كثير من الإسهامات النرجسية، علامات حب **وإعلاء الشأن النرجسي** الذي بلغ أوجه هنا[8]. والمقصود، كما نرى، **استيهام بدئي كلّي متّصف بجنون العظمة**، استيهام الطفل في قمة سعادته الابتهاجية، وكم هي وحيدة هذه السعادة. وإذا كان الفرد في التحليل يصبح، وهو يعيش تحويله التاريخي ذا العلاقة بالموضوع، ذلك الطفل القادر على أن يتغلّب على الصعوبات الملازمة لإضفاء النزاع الإلزامي على وضعه الأوديبي، فذلك بفضل هذه الدفعة الطاقية التي مصدرها موجود في الشحنة الانفعالية لموقعه النرجسي التحتي. وهذا الموقع أخرس قليلاً أو كثيراً، لا يوصف، يفلت من التعبير باللفظ ولكن دوره لا يقلّ حسماً مع ذلك؛ إنه شرط استقرار السيرورة التحليلية وضمان نجاحها.

ثانياً - إعلاء الشأن النرجسي

مسسنا للتوّ تلك الرابطة بين النرجسية وحاجة المرء الى الحب، سواء كان الطفل أو الفرد في التحليل، أو الحياة النفسية الفردية أو اللاشعور الجمعي. وقبل أن نوضّح توضيحاً أكبر طبيعة الرابطة بين النرجسية والحاجة الى الحب، علينا أن نستطرد في جانب آخر من نفس الطفل. والمقصود هو التوليف بين النرجسية ـدوافع الذي لا يتحقّق إلا ببطء. فالدوافع تظلّ زمناً طويلاً مفصولة عن التيار ـجسي بالمعنى الحقيقي للكلمة، إذ يحتفظ هذا التيار بسمة لامادية، غير ـسّدة على وجه التقريب بالقياس على الانفعالات الغريزية. وكل شيء يحمل

ـحن نعلم أن كل الأطفال المسيحيين يحقّقون هذا التوحّد مرة في العام؛ إنهم يُغمرون بالهدايا ـلامات الحب الأخرى وكل أمنياتهم تستجيب لها شخصية معجزية أرسلتها السماء إليهم.

على الاعتقاد، في الواقع، أن الطفل يحتفظ خلال زمن طويل بالحنين الى سعادته الابتهاجية النرجسية السابقة على ثنائية المشاعر والحيادية من الناحية الدافعية وليس كفؤاً أن يقايضها بالإشباعات الدافعية إلا بواسطة بعض التعويضات. وبما أن قبل التناسلية لايفوتها أن يُضفى النزاع عليها بصورة مبكّرة جداً، فإنها تظلّ مفصولة عن المظاهر النرجسية ومشتقّات الحركتين المتوازيتين يمكننا أن نُلاحظ خلال زمن طويل كأنها تيّاران أحدهما ينقل سوائل صاخبة والآخر ماء هادئاً وصافياً، إذ يسيل الاثنان في سرير واحد خلال بعض من الزمن دون أن يمتزجا. والواقع أن الطفل يعزل هاتين المكونّتين من توظيفه ذي العلاقة بالموضوع ويحتفظ بالتالي بـ **صورة مزدوجة** لموضوعه الأوديبي، إذ يسقط على الوجه الأبوي دافعه الأوديبي المضفى عليه الإثمية من جهة ونرجسيته السابقة على ثنائية المشاعر من جهة ثانية، وذلك يتيح له أن ينكبّ على لذائذه قبل التناسلية معبّراً في الوقت نفسه، على نحو شبه مستقلّ، عن رغباته الأوديبية الصريحة التي يعيشها على نمط يفلت، في هذا الطور، من إضفاء الإثمية («التقسيم الثنائي» الفرويدي). ومع أن الطفل يتيح لنفسه إشباعات دافعية على مستوى معيّن، فإنه يحافظ عليها في الوقت نفسه مفصولة عن راقه النرجسي الأعمق والأكثر كبتاً وإذا أصبح عصابياً، فإنه سيحتفظ بهذا الانفصال على نحو نهائي؛ ولن يمكنه أن يقبل إلا المنحة النرجسيةأو منحة ما قبل تناسليته الدافعية، **ولكنه لن يقبل الاثنين معاً**.

ونرى على هذا النحو أن لدى الطفل صعوبات كبيرة عليه أن يتغلّب عليها قبل أن يكون بمقدوره تحقيق التوليف بين إشباعاته الدافعية وتطلعاته النرجسية، ذلك أن دفعاته الغريزية يُضفى عليها النزاع الى الحدّ الأقصى. فرغبة الطفل تنشد الموضوع الذي يتلقّى في الوقت نفسه تفريغه العدواني، ويستخدمه حاملاً نرجسياً وسطح إسقاط، وذلك أمر يضع الطفل أمام مشكلات متعذّرة الحلّ على وجه التقريب، وبخاصة ما دام لا يحوز **صوراً ذهنية مثالية** جيّدة التميّز. وهنا يتخذ حب الأبوين طفلهم كلّ دلالته ونجد أنفسنا عندئذٍ على مفترق طرق هو الأهمّ في تطوره

النفسي. وإذ نلفت النظر الى الأهمية التي يوليها الطفل كونه محبوباً، فإننا نكون قد رسمنا مسبقاً جواباً عن سؤال يمكنه أن يُطرح من جهة أخرى على النحو التالي: «لماذا يحتاج الطفل إلى أن يكون محبوباً؟» ذلك أننا في الواقع، إذا كنا نعلم في أيامنا هذه أن الطفل بحاجة الى حبّ مربيه[9] لينمو نمواً متناغماً، لا نعلم على وجه الضبط لماذا.

وكنا قد قلنا فيما سبق إن الطفل يحتفظ بذكرى سعادته الابتهاجية النرجسية وإنه، مع سعيه الى أن يوظّف فاعلياته قبل التناسلية بـ **الليبيدو النرجسي**، لن يفلح في ذلك إلا جزئياً، فجزء من مقتضياته النرجسية يظلّ غير مشبَع إذن. إنه سيكون حسّاساً لهذا القصور بمقدار ما يمسّ مباشرة صدمته النفسية الأولية، التي ينبغي على وجه الدقّة تصحيح مفعولاتها، أي جرحه النرجسي(10).

والإنسان يولد ذا طفولة مديدة، والأحرى أن نقول عاجزاً، ويحتاز الشعور على نمط معيّن - بعجزه احتيازاً على نحو مبكّر جداً. وإذا كان هذا العجز، والحال هذه، يُعاش على المستوى الدافعي الحقيقي قصوراً يولّد عاطفه انعدام الأمن، فإن انطباعاً من الخجل إنما ينجم عنه، إذ أن الطفل يعيش حياته في مواجهة مثاله النرجسي وكأنه **غير ذي قيمة** بسبب عجزه. ويستخدم الطفل، كما نعلم[11]، آليات متتالية ليستعيد كماله النرجسي. وتكمن إحدى هذه الآليات في إسقاط قوته النرجسية الكلية على أبويه. وبما أنه يقيم معهما حالة انصهارية، مع أنه يُعدّ تدريجياً في الوقت نفسه ضرباً من بداية الاستقلال، فإنه يحتفظ بإمكان استدراك كماله النرجسي المفقود. وسيتبع تطوّره من الآن فصاعداً خطاً مزدوجاً، نرجسياً ودافعياً، وكل تعاقب من هذا التطوّر سيسير تحت تأثير **توليف** إلزامي لهاتين الدفعتين المتوازيتين. وستكون كل حركة دافعية موظّفة نرجسياً وكل دفعة نرجسية ستكون، بالمقابل، معزّزة بفعل الدافع الذي يعمل عمله الوظائفي بوصفه الحامل

---

(9) انظر أعمال أنّا فرويد، د. بورلانْغام، رونه سبيتز، وأعمال س. ناخْت.

(10) انظر، بصدد الجرح النرجسي أو الصدمة النرجسية، أعمال فورنْزي، ونُبْرغ، إلخ.

(11) انظر فورنزي، درجات التطوّر لحسّ الواقع.

البيولوجي . وفي نهاية هذه السيرورة المزدوجة من النضج إنما سيستطيع أن يعيش حياته النفسية بوصفه **قيمة في ذاته**، ولكنه سيكون بحاجة طوال هذه السيرورة الى **إعلاء شأنه**، وهذا تبعاً لأبعاد الهامش الذي سيستمر بالضرورة بين مثاله النرجسي وإمكاناته المقلّصة والمكفوفة بفعل إضفاء النزاع الدافعي . وإذا كان الطفل بحاجة إذن الى حب أبويه ، فذلك حتى يعلي هذا الحب شأنه ، إذ أن كل مرحلة من هذا التدرّج نحو كماله النرجسي الخاص **يؤكده** على هذا النحو أولئك الذين يحوزون، بالنسبة له، هذا الكمال ويتقاسمونه معه إلى أن يسترجع كماله الخاص ولن يكون بحاجة الى كمال نرجسي مستعاد . ولم يعد في هذا الحين وجود للانصهار النرجسي الذي كان يتراخى تراخياً تدريجياً خلال ضرب من إضفاء النزاع الدافعي الموازي، والذي انتهى الى أن يعيشه بوصفه تبعية تعاكس التأكيد النرجسي لأناه الإجمالية .

ويقصّ إدْمون ويل، في سياق آخر، هذا المشهد، مشهداً يُلاحظ بصورة شائعة مع ذلك : ثمة أم تتنزّه مع صبيّها الصغير وتصادف جماعة من معارفها . ويتوقّف جميعهم ويسأل الصبيَّ الصغير شخصٌ عن حاله . فيتردّد الصغير لحظة، ثم ينظر الى امه وعندما يكتشف في بسمتها الاستحسان المؤثّر الذي كان يبحث عنه، يجيب : «أوه، أنا، إنني على خير ما يرام . » وهذا المشهد القليل الأهمية لايبدو للوهلة الأولى جديراً بالتدوين والتحليل، ولا أن يُوجّه إليه انتباه مع ذلك، لأن عدداً معيّناً من إحداثيات الوضع المعنيّ الممكنة تفوتنا، دون أن نتكلم على السمة العرضية وغير الكاملة للملاحظة . ولكنني لا أعتقد أننا نجازف بأن ننخدع حين نفرض أن المسألة هنا مسألة إحساس إجمالي ذي قاعدة دافعية يبحث الطفل عن رؤية أمه تؤكّده قبل أن يكون بمقدوره أن يضطلع بمسؤوليته على نحو شعوري وأمام الآخرين . ويبيّن تردّد الطفل في الوقت نفسه أن التوظيف النرجسي لحالته الدافعية ذات العلاقة بالحساسية العامة كانت المتانة تنقصها، ربما بسبب المكوّنتين الأوديبية وقبل الأوديبية اللتين أضفتا النزاع على هذه المتانة، وكان الطفل بحاجة الى هذا التأكيد الذي يضفي النرجسية، تأكيد يتيح له أن يدمج هذا الوضع مع جوانبه المختلفة، بل أن يعرضه، وتلك قرينة أخرى لوجود المكوّنة النرجسية . وتجد أنا

الطفل نفسها على هذا النحو وقد عزّزها وأغناها هذا الصعود لصورته الكاملة من الناحية النرجسية، المنعكسة على الموضوع، التي يؤكدها هو نفسه ويعلي شأنها. فالمرآة التي يمكن أن يتعرّف الطفل فيها على كماله النرجسي إنما هي الوالد قبل كل شيء، الذي يؤكد نرجسية الطفل بحبه. إنه، يبدو لي، إسهام من الإسهامات الأساسية التي يكوّنها حب الأبوين طفلهما؛ فثمة تكافل حقيقي بين الآباء والأطفال، إذا نظرنا اليه من هذه الزاوية؛ وسيدعم الأبوان طفلهما بفعل إسهاماتهما النرجسية، التي يلتمسها الطفل بدوره على نمط ملائم، إذ أن تطوّره السويّ مشروط بالسمة المتكاملة والتلقائية، سمة هاتين الحركتين. وإذا اضطرب هذا التعاون، لسبب أو لآخر، فإن النزاع يُضفي على السيرورة كلّها. فالإحباط النرجسي الذي يعانيه الطفل لا يثير في الواقع ضرباً من إضفاء الإثمية على علاقته بالموضوع فحسب، ولكنه يؤجّج النزاع أيضاً بين نرجسيته وأناه، إذ يحفر هوة بينهما لا يمكن أن تردم. ويمكننا القول، بما أن هذا الإحباط قد يكون مبكّراً إلى حدّ أقصى، إذا بسّطنا الأمور، إن الطفل، إذا كان يولد نرجسياً وعاجزاً، يجمع أيضاً تلك الشروط التي تقوده الى العصاب في الوقت نفسه. وستكون النتيجة المترتّبة على غياب التأكيد النرجسي أنه **لن يكون بمقدوره أن يقبل المنح النرجسية، ولا أن يلتمسها على نحو ملائم وناجع**. فالمحاولات في هذا الاتجاه، التي يكرّرها مع ذلك دون كَلَل ستكون محكومة، من الآن فصاعداً، بالإخفاق، وذلك أمر سيوقف، كما يُعتقد تماماً، كل تطوّره النفسي البيولوجي. وسيظلّ الفرد غير ناضج وكل ما يمكنه أن يفعل لينقذ نرجسيته سيكون إسقاط مسؤولية هذه الحالة من الأمور على موضوعاته الراهنة، الماضية أو المستقبلية. ومن العناصر التي تفصل في إضفاء الصفة المرضية على السيرورة، تمثل **شدّة نرجسية الفرد**، مع أن بوسعنا في الوقت نفسه أن نتّهم شدّة الجرح النرجسي الذي يؤثّر هو نفسه في اتجاه تضخّم النرجسية، فالكلّ يفضي الى استقرار حلقة مفرغة. ونقول، على أي حال، كلما كان الفرد نرجسياً (سواء كانت النرجسية محرّضة أو «جبلّية»)، كان الهامش إذن بين

مقتضياته النرجسية وعاطفة عجزه كبيراً وكان بحاجة الى أن يؤكِّد المربون نرجسيته ويُعلون شأنه النرجسي[12].

وسيسعى الطفل، في الدرجة العليا من تطوّره، الى أن يصبح مستقلاً عن هذا الحامل النرجسي الصادر عن الأبوين، ذلك أنه سيصبح من القوّة بحيث **يتموّن من مصادره الخاصة** إذا جاز القول وأن يقدّم هو نفسه لنفسه إعلاء الشأن النرجسي المعنيّ. إنني لا أفكر هنا ببعض الأنماط النكوصية جداً التي يستخدمها الكحوليون، ومدمنو المخدّرات، وهؤلاء التناسليون الكاذبون، إذ يستدخلون الموضوع الذي يعلي الشأن النرجسي، فكل المحاولات محكوم عليها بالإخفاق، لأنهم يقتضون إسهاماً خارجياً دائماً، بل أفكر في الطفل الذي **يلعب**، وعلى وجه الدقّة بالطفل الذي يلعب **بشيء من الأشياء**، أي يتماهى بالراشد على نمط نرجسي شبه هاذ ومتّصف بجنون العظمة. ويحتوي هذا اللعب مكوّنات أكثر تطوّراً من اللعب الذّاتي الغلمة ويفضي الى ضرب **حقيقي من توليف العناصر النرجسية وقبل التناسلية**، الشرجية على وجه الخصوص. فالطفل يحقّق هذا التوليف لحسابه الخاص، وتقلّ حاجته تدريجياً لأبويه وسيُظهر بالحري نفاد صبر عندما يريدان أن يتدخّلا في اهتماماته اللعبية، النرجسية ولكنها المستقلّة[13]. ونحن نعلم أن الطفل لا ينسى، وهو يلعب، وجود عالم واقعي ويتطوّر على هذا النحو بيسر على المستويين، معاً ودون أن يختلطا. إنه يتكيّف تدريجياً مع عالم الراشدين محتفظاً لنفسه في الوقت نفسه بالإشباعات التي لا ينفكّ يطالب بها.

---

(12) دور الأم دور راجح بالطبع دون هذه السيرورة، لا لأسباب هي البداهة نفسها ومن غير المجدي أن نذكرها إذن، بل لأن الأم أكثر نرجسية، بوصفها امرأة، من الرجل وتتوحّد بالطفل على نحو أكثر سهولة، إذ تدرك إدراكاً غريزياً كل الفروق الدقيقة واتجاهاته المختلفة في الالتماس، التي هي اتجاهاتها، مع مراعاة النسب كلّها.

(13) إننا نجد أنفسنا هنا في موقع يجمع بين نهاية قبل التناسلية وبداية مرحلة الكمون، فهذه المرحلة تتميّز بركود الجنسية، النسبي مع ذلك، وبركود النرجسية. وما إن يطرأ عصر البلوغ الذي يتضمّن دفعة جنسية قوية ونرجسية على حدّ سواء، حتى يُطرح مشكل التوليف بحدّة جديدة. وسيستعيد مشكل إعلان الشأن النرجسي مكانه على المستوى الأول تماماً ويمكننا القول إن البلوغ يكوّن خلال مدتها كلها أزمة نرجسية مع كل العواقب التي يتضمّنها على المستوى التربوي الاجتماعي والمرضي.

وقدرة الفرد على أن **يستمتع بأوقات فراغه** تمثل في مرتبة جيّدة بين المعايير الخاصّة بنهاية تحليل جيدة، وهذه القدرة إنما هي في الواقع رائز رائع. والحال أن أوقات الفراغ وفاعلية التكيّف الاجتماعي والمنحة النرجسية الذاتية مترابطات. فمن يمنح نفسه راحة نفسية وفيزيولوجية خلال العطل ويفيد منها، يبين الآن أن له علاقة أكثر تكيّفاً مع ذاته من العصابي الذي لا يتحمّل الراحة وتتعبه العطل. ولكن من يستمتع استمتاعاً واقعياً بأوقات فراغه سيستخدمها ليغيّر تغييراً كاملاً نمط حياته، حتى يطبعها بعلامة النرجسية الحرّة والجيّدة الاندماج. إنه سيبحث عن تحقيق ذاته نرجسياً، وعن أن يكون كما يشاء ويتيح لنفسه اهتمامات وظّفها توظيفاً نرجسياً. فمن يمنح نفسه خلال العطل بعض المنح النرجسية المتعارضة مع حياة اجتماعية متكيّفة طوال العام، أمر يكوّن تسوية بين الأنا الدافعية والنرجسية، تسوية لا يمكنها أن تتحقّق إلا بفضل توليف مسبق بين هذين العالمين. وهذا يعيدنا الى **الوضع التحليلي**، ذلك أن التحليل يمنح الفرد بادرة طعم على وجه التقريب، عينة، بالاستمتاع بأوقات فراغه على نمط نرجسي، إذا لم يجعله قادراً على نحو مباشر أن يستمتع بأوقات الفراغ هذه على النمط النرجسي. والواقع أن الجلسة التحليلية تتيح للفرد أن يستسلم لهذه الحرية النرجسية الابتهاجية نفسها، وذلك على نمط من الأنماط وفي الحالة النموذج التي وضعتُها في مركز هذه الدراسة نفسه.

وأذكّر هنا أن العصابي أخفق في محاولته الأولى لإعلاء شأنه النرجسي في أوانها وأن العلاج التحليلي يتيح له أن يستأنف السيرورة، التي يُفترض أنها تجعله يبلغ صعوده النرجسي في شروط أكثر ملاءمة. أما وقد قلنا قولنا هذا، فإنني أذكّر أيضاً أن ثمة فارقاً أساسياً، إذا نظرنا اليه من هذه الزاوية، بين التربية التي ينبغي أن تتدارك المفعولات وبين الوضع التحليلي. والواقع أن المربي، عندما يعزّز نرجسية الطفل، يكوّن ثنائياً نرجسياً معه ويكوّن أيضاً ثنائياً دافعياً معه، بالنظر الى أن النرجسية ليست معزّزة ويُعلى شأنها فحسب، ولكنها يمارسها عضوا الثنائي إذا صح

القول. فإعلان الشأن النرجسي يُعاش على المستويين الدافعي والنرجسي معاً ويختلط بالمنح الغريزية، الأوديبية وقبل الأوديبية التي ينهل منها. ويُفترض أن الوضع التحليلي يكرّر السيرورة التاريخية؛ ولا ينبغي لنا أن ننسى أن المسألة مسألة سيرورة جرت بصورة طبيعية كما في الحالة الاجمالية التي وصفتها للتوّ، بل إن أولئك الذين لجأوا للتحليل **فشلت سيرورتهم في الزمن الماضي** وهم ضحايا هذا الإخفاق، الذي يعيشونه صدمة نفسية خطيرة. ويظلّون فيما بعد مثبّتين على وضع لم يكتمل ولكنه وضع أضفي عليه النزاع، كما لو أن الأمر أمر عصاب صدْمي وحالما يباشرون مع المحلّل علاقة يشارك فيها مشاركة أقلّ ما يمكن، يجدون أنفسهم وقد أعيدوا الى وضع الصدمة نفسه، إذ يرتكسون وفقاً لمبدأ آلية التكرار الذاتية. ويخلقون على هذا النحو، للمرة التي لا يدرون ترتيبها لعددها الكبير، نفس الثنائي محبَط ـ محبط (إذ أن الإحباط يمكنه أن يكون مكوّناً من منح دافعية ليست في أوانها)، ولكن عضو الثنائي الآخر يكون المحلّل هذه المرة بوصفه شريكاً، وذلك أمر لايمكنه إلا أن يفضي الى إضفاء النزاع على الوضع التحليلي وإلى توقّفه. وهذا هو السبب الذي من أجله ينبغي للمحلّل، كما نعلم، أن يتوارى بوصفه موضوعاً واقعياً وأن يتهرّب من الانفتاحات التي لايفوت المحلّل أن ينفتح عليه في هذا الاتجاه، وألا يدخل في لعبته، وبعبارة أخرى أن يحتفظ بـ «الحياد الرحيم»، حياد ليس كلمة عبثاً. وسيفصل المحلّل على هذا النحو بين المستوى النرجسي والمستوى الدافعي فصلاً دقيقاً، **وإذا لم يساوم المحلّل على تعزيزه النرجسي، الضمني في معظم الأوقات ولكنه تامّ دائماً طوال العلاج، فإنه سيرفض أن يضيف إلى هذا الإعلاء، إعلاء الشأن النرجسي الصرف، أوهى مكوّنه غريزية.**

وتحديد دور المحلّل وموقعه بهذا الأسلوب الدقيق يعادل في الوقت نفسه توضيح وظيفته بالنسبة الى إعلاء الشأن النرجسي. ونحن ميّزنا في الواقع بين درجة النضج حيث يحتاج الفرد الى إسهامات المربي النرجسية، إسهامات مباشرة وتغتني بعناصر غريزية معيشة، وبين الدرجة الأكثر تطوّراً عندما يكون الطفل قادراً على أن يتدبّر أمر إعلاء شأنه النرجسي وحده، إذ يحتاج على الأكثر، ليحقّق ذلك، إلى

حضور وصائي، بعيد قليلاً أو كثيراً، وموافقة الراشد الضمنية. ويبدو جيداً أن الوضع التحليلي يكمن في أن نواجه المريض بهدف مفاده عدم التلقّي فيما يخص الشكل الأول، أعني الإسهام النرجسي مع عناصر دافعية، وهو أمر أسهل من الشكل الثاني، ولكنه يؤدّي بسهولة الى تثبيت نكوصي دائم. إنه يعادل إذن نبذاً بمجمله لوضع مثير للصدمة النفسية، وضع ينبغي للمريض أن يتعلّم تجاوزه متخلّياً عن أن يعيش، حتى يبلغ على هذا النحو، تحت ضغط الوضع التحليلي، موقعاً أكثر تطوّراً، موقع التموّن النرجسي المستقلّ، مآله مع ذلك أن يكون أيضاً موضع تجاوز في الزمن المنشود.

والحضور الوصائي للمحلل، منظور اليه من هذه الزاوية، هو التجسيد لوظيفة دون حامل دافعي تاريخي، وذلك أمر يشرح السمة المضحكة أحياناً وشبه الهاذية، سمة التحويل، كما كان فرويد قد لاحظ من قبل. فالطراز الذي يقدّمه المحلّل على هذا النحو إلى المحلَّل لأهداف التوحّد (التماهي) لا يمكنه أن يكون إلا إجمالياً، وظيفياً واستيهامياً. ويتألف توحّد الفرد بالمحلل من إسقاطات وعناصر تاريخية، تتجمّع تبعاً للوضع التحليلي، ولكنها تنتمي الى المحلّل وإليه وحده. فالسيرورة لا يمكنها، بفعل الانفصال بين المسافات النرجسية، أن تظلّ إذن بمنحى من التوحّدات الواقعية التي تدلّ، عندما تحدث، على اضطرابات السيرورة التحليلية. إنها التعبير عن تثبيت مرضي وتوقّف الصعود النرجسي عند نقطة لا يكون فيها النضج السيكولوجي البيولوجي للفرد قد اكتمل على الإطلاق.

فالسيرورة يمكنها أن تُعتبر مكتملة عندما يبلغ الفرد كماله النرجسي، أي عندما يصبح شبيهاً بنفسه أو، إذا تكلّمنا بعبارات أوديبية، عندما يكون أباً أو أماً لمصلحته الخاصة. ولم يعد في هذه الفترة نفسها بالطبع يحتاج الى إعلاء الشأن النرجسي، ذلك أنه سيكون قد حقّق التكامل المتبادل بين نرجسيته وأناه.

ثالثاً - قاعدة الإحباط

بما أن هدف التحليل يكمن في أن تتبنين الأنا تبنيناً جديداً لمصلحة إضفاء السواء على التوظيفات النرجسية للفرد، فإنه ينجم عن ذلك - كما يقتضي تطهير أنا المريض - أن النرجسية نفسها التي تدعم السيرورة ينبغي أن تظلّ غير ملموسة، إذا

كان ضرورياً أن تخضع هذه الأنا لتقص ّموضوعي لا عيب فيه . فإعلان الشأن النرجسي ينبغي إذن أن يكون مطلقاً، دون صدْع وذلك من بداية العلاج حتى نهايته . والمقصود بذلك شرط ضروري من شروط نجاح العلاج والممارسة التحليلية تأخذ بالحسبان هذا الأمر جيّداً، كما يبيّن ذلك مقتضى قاعدة يقبلها المحلّلون جميعهم ضمنياً دون أن تكون مصاغة، ولكنها قاعدة من المفيد مع ذلك، يبدو لي، أن نوضّحها . إن فرويد قال قولاً لا لبس فيه إن التحليل ينبغي أن يجري تحت مظلّة الإحباط ويكوّن الوضع التحليلي، كما نفهمه، ضمان احترام هذه القاعدة . ولكن علينا أن نوضّح مباشرة أن المقصود بذلك ليس إلا الجانب الدافعي من الوضع التحليلي، باستثناء جانبه النرجسي . والواقع أن **نرجسية المريض ينبغي أن تظلّ بمعزل عن كل إحباط** وهذا التقييد المحمول على القاعدة ذو أهمية بقدر أهمية القاعدة نفسها . ونحن نعلم على هذا النحو أن التهكّم الذي يوجّه الى المحلّل محظور على وجه الدقة في العلاج، ومحظور أيضاً موقف سلطوي، إلخ، وهي كلها قواعد أولّية ينبغي أن يحترمها المحلّلون النفسيون جميعهم . وأودّ مع ذلك أن أذكّر هنا، بهدف تحديد الأفكار، بمثال طريف، ولكنه فعّال، بل كاريكا توري . إنني أتذكّر الخرافة التي رأيتها مكتوبة تحت رسم من رسوم الدعاية الأمريكية التي تعرفونها بالتأكيد، رسم يبيّن محلّلاً على الديوان يقول له معالجه : «إنك لا تعاني عقدة الدونية، ولكنك دون بالفعل» . ومن المؤكد أن هذا المزاج الفظّ وهذا الجواب القادم من فم محلّل أمر غير معقول . ولكن المواقف الأقلّ مباشرة بكثير، الأقلّ جذباً للنظر والأقل فظاظة، يمكنها أن تسبّب جروحاً نرجسية للمريض، وهي مواقف مسوّغة تماماً مع ذلك من وجهة النظر الموضوعية على وجه الدقّة والطبيّة[14] . وعلينا ألا ننسى أن الفرد إذا كان قد لجأ إلى التحليل فذلك ليغزو

(14) بوسعنا، وعلينا على الغالب، أن نحلّل لماذا ينشد الفرد هدفاً معيّناً، وأن نبيّن له طبيعة صعوبات التي تعوق بلوغه، و لكن ألا نقول له أبداً إنه يبالغ في تطلّعه وعليه أن يقدّر دفعته تقديراً جيداً . فخلال تحليل نزاعاته وبمقدار ما يتقدّم نضجه الدافعي إنما سيكتسب تلقائياً كمال نرجسيته وحسّ الواقع، إذ يبلغ على هذا النحو معرفة أفضل بإمكاناته . وهذه الإمكانات واقعية على وجه العموم مع ذلك، ذلك أننا لا ينبغي أن نكفّ ما لا وجود له .

مجدداً كماله النرجسي وليس ليفشل نهائياً في محاولة الاستعادة النرجسية التي يضعها العلاج التحليلي تحت تصرّفه.

رابعاً ـ القضيب بوصفه يمثّل الكمال النرجسي

النرجسية لا يمكنها، كما رأينا، أن تندمج دون **إعلاء شأن** ويبدو أن غياب إعلاء الشأن في اللاشعور يكون معيشاً بوصفه **خصاءً** وليس بوصفه مجرّد نقص. ولهذا السبب سنشرع، بإيجاز كبير، في الإدلاء ببعض الملاحظات عن عقدة الخصاء بالنسبة للنرجسية والوضع التحليلي.

وسنحت لي الفرصة من قبلُ أن أذكّر أن النرجسية مع لازمتيها الطبيعيتين، السعادة الابتهاجية والقوة الكلية، تمدّ جذورها في الحياة قبل الولادية. فالنرجسية موسومة، طبقاً لهذا الأصل، بخاتم **الوحدانية** (الجنين وحيد) وخاتم **الاستقلال الذاتي**، وبعبارة أخرى الكمالية. والنرجسية بصورتها الأصلية، كما يعيشها الجنين، حالة من السعادة دون صدْع وإذا كانت الشروط العيادية لهذه الحالة الابتهاجية لا تتوافردائماً، فإنها تُعاش دائماً، من الناحيتين السيكولوجية و**البعدية**، بصفتها واقعاً لاجدال فيه. فالجنين يكوّن وحدة مع وسطه، إنه محتوى ومحتوي معاً، وذلك يعني ـ والتمايز الجنسي غير المكتمل يؤكّد الأمر ـ أنه ذكر وأنثى في الوقت نفسه. وأذكّر بتوحّده قبل الولادي وبعد الولادي بـ **الصورتين الذهنيتين المثاليتين** الأبويتين على نمط تطوّر النوع، كما ذكرت ذلك للتوّ فيما سبق. والحال أن بوسعنا، إذا كنا قد لفتنا النظر للتوّ الى أن الإنسان يولد مديد الطفولة، عاجزاً وذا استعداد مسبق، بسبب ذلك، إلى أن يسود النزاع حالته النفسية، أن نضيف أنه يولد أيضاً غير كامل، ذلك أنه مزوّد في البدء بكمونات ثنائية الجنسية ولا يتوصّل إلا في نهاية تطوّر طويل وشاقّ، مكوّن، في عداد توحّداته، من توحّدات متتالية ومتكاملة، ذكرية وأنثوية كما لو أنه لم يكن يريد لقاء أي ثمن أن يهجر كماليته الثنائية الجنسية ـ إلى أن يتكيّف، تكيّفاً يتراوح بين الجيّد والسيء، مع جنسيته

الفيزيولوجية، الأحادية النهائية(15). ويبدو جيداً أن نرجسية الفرد تعاني خسارة استقلاله الذاتي الجنسي (انظر نظرية أفلاطون التي ذكرها فرويد)، بين ما تعاني، بفعل الاتحاد النرجسي الانصهاري. ويبدو على هذا النحو أن وظيفة من وظائف الاتحاد الجنسي، في حالة ابتهاجية نوعية، هي الوظيفة التي تعيد للفرد الإحساس بكماليته النرجسية، وأن ضرباً من التوليف الناجح بين نرجسيته وأناه الدافعية من شأنه أن يضعه، ضمن نطاق معيّن، في مأمن من عاطفة القصور، منظور اليه من زاوية هذا الاستقلال الذاتي. وتحقيق هذا التوليف يُعاش في لاشعوره بوصفه ضرباً من الجماع داخل الاتحاد النرجسي، أي داخل أنا الفرد، وذلك ما يقابل من جهة أخرى على ما يبدو هذا النكوص النرجسي الكلي الذي يميّز ـ على نمط مختلف ـ هزّة الجماع ذاتها. ويعيش اللاشعور كل ذلك على أي حال، سواء أكان المقصود هو الكمال النرجسي أم إعلاء الشأن النرجسي (وكذلك الحطّ من الشأن النرجسي والجرح النرجسي) بوصفه جماعاً أو عجزاً جنسياً والرمز الفكرة الذي به تمثّل لغة اللاشعور ذلك هو **القضيب** أو، بصورته السلبية، القضيب الناقص أو المضرور، أي الخصاء. فالقضيب جسرٌ(16) يحقّق الكمالية النرجسية، كما يجمع عضوي ثنائي في الجماع. وهو يمثّل كمون هذا الاتحاد وكمون تحقيق **الكمال النرجسي الذي يتّصف القضيب أنه شعاره وصورته**.

وقد يكون مفيداً أن ندرس الروابط بين ما سبق وعقدة الخصاء بالمعنى الحقيقي للمصطلح، ولكن هذا يقودنا بعيداً عن موضوعنا. والحقيقة أن الخوف من الخصاء، أي الخوف من فقدان ضمان تحقيق ممكن للكمالية النرجسية، هو

---

(15) يبدو جيداً في بعض الأحيان أننا لا نعير انتباهاً كافياً لضرورة هذا التوحّد المزدوج. ويكفي مع ذلك اعتبار العلاج سيرورة، تشمل النضج النفسي الجنسي كلّه، لنقبل أن على الفرد أن يعيش مجدّداً في التحليل كلّ أطوار هذا النضج بما في ذلك التوحّد بالأب من الجنس المقابل. إنه تعاقب مموّه نسبياً وعابر، يتجاوزه التوحّد المقابل في نهاية المطاف، الضروري مع ذلك، المندمج من جهة أخرى في الأنا على نمط جزئي ولكنه نهائي.

(16) انظر فرونزي.

الذي يرهق الفرد في التحليل، لا سيّما أن الصورتين، عضو الذكر الجنسي والقضيب، تختلطان ويصبح عضو الذكر ـ القضيب على هذا النحو هو الموضوع **الوحيد** الذي تؤمّن ملكيته للفرد وحده ذلك الكمال المعنيّ، فالعضو الآخر من الثنائي مستبعد. والواقع أن الملكية الوحيدة وإضفاء النزاع والنكوص قبل التناسلي مترابطات، وذلك يفسّر لماذا يعيش الفرد صروف العلاج التحليلي، سيرورة هدفها اكتساب الكمال النرجسي، بعبارات خصاء الآخر، والخوف من الخصاء أو الخصاء الذاتي، وتكون هذه الصروف مشحونة بإثمية مقابلة. وهذا هو ما يشرح لنا أيضاً لماذا يكون بهذا القدر من الصعوبة أن يتخلّص الرجل من الخوف من الخصاء والمرأة من حسد عضو الذكر، كما بيّن فرويد في كتابه **تحليل منتهٍ وتحليل لا ينتهي**.

(وبوسعنا أن نضيف الى ما تقدّم أن المرأة ليست عرضة فحسب ـ كما نعلم جيّداً ـ لحسد عضو الذكر، ولكنها عرضة أيضاً للخوف من الخصاء كما تبرهن على ذلك تجربتنا العيادية اليومية. والواقع أن القضيب رمز الكمال النرجسي بالنسبة للمرأة كما بالنسبة للرجل، وستكون المرأة في حال من ملاحقة هذا القضيب طوال العلاج على أنماط أكثر تطوّراً فأكثر، أنماط ليس بوسعنا مع ذلك أن نصفها في إطار هذا العمل).

ويمكننا، لكي نعود الى الربط بين إعلاء الشأن النرجسي وعقدة الخصاء، أن نلخص المشكل على النحو التالي: كل إنجاز دافعي أو إغناء أنا الطفل، جدير بأن ينمّي قيمته ويكون معزّزاً بوصفه كذلك، سيتّخذ في لاشعوره سمة قضيبية، في حين أن غياب التعزيز أو إعلاء الشأن غير المتبوع بتعويض نرجسي سيعيشه، على العكس، بوصفه خصاء.

ونجد أنفسنا في التحليل أمام الوضع نفسه وينجم عن ذلك أن كل موقف للمحلّل يضع الكمال النرجسي المفترض لدى المريض موضع الاتهام يعيشه هذا المريض بوصفه خصاء. ومن الضروري في الواقع أن نميّز بين إحباط إشباع دافعي

وخصاء يمسّ النرجسية. فالأول الذي يتحمّله المريض جيّداً، لأسباب لايعود إلينا أمر فحصه هنا، يبين خصباً، في حين أن المريض يرتكس ارتكاساً سيئاً لكل مسّ للصورة الثابتة غير القابلة للتبدّل، صورة مثاله النرجسي الذي يكون كماله هو الشرط المطلق لكل محاولة من محاولات الاسترجاع.

فإذا أشعل المريض لفافة تبغ تلقائياً خلال الجلسة، حتى نستخدم مثالاً مبتذلاً، وإذا شرح له المحلّل بلهجة الحياد الرحيم أنه يحسن فعلاً لو أنه يتخلّى عنها، إذ يبحث معه في الوقت نفسه عن الدافعيات اللاشعورية لهذه الحركة، فإن هذا المريض يعاني إحباطاً ولكنه لا يعاني من ذلك معاناة تتجاوز الحدود ويستمدّ منها بالتأكيد، في نهاية المطاف، نفعاً. وإذا أمره المحلّل بلهجة تهديدية، على العكس، أن يطفيء لفافة التبغ، مستخدماً سلطاناً هو بالتعريف عنصر من خارج الوضع التحليلي، فإن هذا الأمر يعيشه المريض بوصفه خصاء. فكل تحريم **يعبّر عنه المحلّل على هذا النحو** يكوّن للمحلّل، من جهة أخرى، جرحاً نرجسياً وغير متوافق مع الحيادية التحليلية. وأوهى إلماع إلى وضع من أوضاع التبعية يمكن أن يستشعره المحلّل خصاء، ولو لم يكن إلا التذكير بتبعيته في العلاقة طبيب - مريض، علاقةٍ قيادةُ المحلل لها يمكنها، مهما قلّ اتّصافها بصفة الرعوية، أن تلقي المريض، من أعلى جنون العظمة «الفيزيولوجية» لديه، في ظلمات الاضمحلال النرجسي الأكثر اتصافاً بأنه مطلق، ما دام صحيحاً أن القاعدة الراجحة في مجال النرجسية هي قاعدة «الكلّ أو لاشيء». وقد يكون من الخطأ بهذا المعنى أن نتكلّم حتى على محلّل «متسامح»، ذلك أن من يتسامح يمارس أيضاً سلطاناً على من يفيد من التسامح. ونحن نعلم أن الأبوية يعتبرها بسهولة أولئك الذين يكونون موضوعاً لها أسوأ جرح نرجسي. ألا يعني ذلك، في الواقع، تذكير الطفل بعجزه و «إعادته الى مكانه؟» وهذا الاتجاه يخفي من جهة أخرى، في أغلب الأحيان، سادية مموّهة ولاشعور من تنشده يفهم ذلك جيداً.

وبعض التحليلات الروحانية تجد نفسها مشوبة بالخطأ نفسه؛ إنها تقصد أن تغيّر مباشرة ومن الخارج على وجه التقريب أنا المحلّل، أي إحلال أناها محل أنا

المحلّل، وذلك ما يعادل أيضاً ضرباً من الخصاء. و «الهداية» قد يعتبرها أولئك الذين يطبّقونها ضرورة اجتماعية قد تمضي، في بعض الحالات، حتى غسيل الدماغ، ولكنها ليست من التحليل في شيء.

خامساً ـ إثمية الشفاء ونهاية التحليل

يمرّ الفرد مروراً جديداً، في العلاج التحليلي، بكل أطوار النضج الدافعي، سالكاً في الوقت نفسه سبيلاً موازية تقوده من نرجسية أوّلية الى نرجسية مندمجة أصبحت سوية ومعزّزة بمكوّنات دافعية. إنه ينطلق إذن من نكوص عميق ليبلغ توليفاً بين نرجسيته وأناه الدافعية، وذلك يعادل بالنسبة للاشعوره أن **يكتسب، في التحليل، قضيباً، وهو تعبير عن كماله النرجسي**. واكتساب هذا القضيب، سيرورة بوسعنا أن نتبع مراحلها كلّها وكل تقلباتها إذ نلاحظ سير العلاج، مرتبط بصعوبات ضخمة جداً، هي منابع مقاومة يصعب جداً تقليصها. وللقضيب في الواقع دلالة مزدوجة بالنسبة للمحلَّل، وإذا صارع هذا المحلّل، من جهة، لامتلاك **عضو الذكر** الأبوي، الذي يحدث اكتسابه على كل الأنماط ومن جانب الرجل والمرأة على حدّ سواء، فإنه ينبغي له من جهة أخرى أن يفوز بـ **القضيب**، وهذا القضيب يمثّل كماله النرجسي ولديه الشعور بصورة واضحة أنه يناله من المحلّل بوصفه محللاً. وثمة إثمية كبيرة ترتبط «بهذه الاكتسابات ويبدو جيّداً أن تنفيس الإثمية، الأوديبية بالمعنى الحقيقي للكلمة، الحاصل على نمط أكثر تطوّراً، ينطوي عل صعوبات أقلّ من الصعوبات التي تنطوي عليها تنفيس الإثمية التي يستشعرها المحلّل إزاء المحلّل مالك القضيب، إذ أن الإثمية الثانية تتجاوز الأولى تجاوزاً واسعاً فيما يخصّ شدّتها ومدّة تنفيسها في العلاج على حدّ سواء. ويتعثّر التحليل تعثّراً مستمراً بواقع مفاده أن المحلَّل يسلك كما لو أنه كان حقاً قد شوّش المحلّل، إذ يكبر شأنه على حسابه، وكما لو أن الشفاء الذي يقتلعه منه على وجه التقريب كان يعادل خصاء المعالج. ويبدو المشكل أنه يطابق مشكل الخصاء لعضو الذكر الأبوي، ولكن نمطه أكثر أوّلية وأقدم. فكلما تفتّح الفرد خلال العلاج، راكم

اكتسابات جديدة وحدث لديه انطباع مفاده أن ارتقاءه يعادل ضرباً من الانهيار المناظر لكمال محلّله، كماله النرجسي، بمعزل عن جنس المريض وجنس المعالج على حدّ سواء.

ونحن نجد أنفسنا مجدّداً أمام واقع وحدانية القضيب الذي يمثّل نرجسية الطور قبل الولادي الذي كان الطفل خلاله وحيداً أيضاً، وحيداً في العالم، عالمه، وكان يملك قضيب التطوّر النوعي الأبوي الذي فقده عندما وُلد (صدمة نرجسية أوليّة) وعليه الآن أن يغزوه غزواً جديداً على حساب المحلّل (مرآة نرجسية) مالكه وينبغي له أن يسلبه منه. وهذا المشكل لا يمثل إلا مرة واحدة، ولكنه يمثل كل مرة يجد المحلّل نفسه فيها أمام مرحلة جديدة من نضجه الدافعي(17).

ونحن نشهد على الغالب، في بعض التحليلات، ضروباً مفاجئة من السقوط الجديد وألواناً من تفاقم المقاومة بعد بعض الاكتسابات ذات الدلالة على وجه الخصوص، اكتسابات ينبغي أن تُعزى مباشرة الى عمل المحلّل، بالنظر الى أن المرجع الأوديبي التاريخي يكون متباعداً أكثر فأكثر وإشكالياً. فلْننه التحليل في هذه الفترة نفسها، دون أن نحلّل الإثمية النوعية لدى المحلّل بالنسبة للمحلّل بوصفه كذلك، وسنحصل على الدليل على ما سبق. وسينتهي النزاع الأوديبي في الواقع، مع الزمن، إلى أن يُصفّى، ولكن بعض الاكتسابات الناجمة على وجه الخصوص عن السيرورة التحليلية دون مرجع تاريخي ستظلّ بمثابة معلّقة، ذلك أن إثمية نوعية ستمنع المحلّل من أن يقبلها. وهذا يحدث في الواقع نحو نهاية العلاج على الغالب عندما يقتضي الأمر من المحلّل لا أن يحصل على الشفاء بقدر **ما يضطلع بمسؤولية** الشفاء بالنسبة للمحلّل. وفي هذه الفترة من العلاج، تكون التفسيرات الأوديبية قد وهنت منذ زمن طويل، ولم تعد تثير مشاعر المريض، وتضع صبر المحلّل نفسه

(17) مبدأ وحدانية القضيب يتّخذ كل دلالته عندما نكون أمام **تحليل متزامن لعضوي ثنائي يقوده محلّل** واحد. والواقع أن الزوجين يسلكان، بما أنهما عصابيان لا يفلتان من إضفاء النزاع قبل الأوديبي، سلوك المتنافسين، إذ يكون موضوع المنافسة هو قضيب المحلّل. ويتخيّل المرء تلك التعقيدات التي يمكنها أن تنجم عن وضع مماثل ويبدو جيّداً أن تحليلاً يُجرى في شروط مشابهة يتعثّر بمانع نظري مطلق.

موضع الاختبار. إنها تفسيرات عديمة الفائدة، في حين أن التفسيرات التي تُروى مباشرة للمعالج بوصفه كذلك تحتفظ بقيمتها الدينامية المؤكّدة(18).

(18) إنني أفكّر على سبيل المثال في تحليل امرأة كان التزامها نفسه بالعلاج قد جرى في أوانه تحت تأثير العامل النرجسي. وكانت السيدة س . . . تعاني من عصاب حقيقي. ولكنها كانت تتحمّله جيداً، ذلك أنها استطاعت دائماً أن تحافظ على ضرب من التوازن، بفضل إسهامات نرجسية مستمرّة أتقنت دائماً أن تؤمّنها لنفسها على صورة بعض النجاحات الشخصية على المستوى الوجداني والاجتماعي. ولكنها لم تستطع، وقد بدأت تحليلها منذ ست سنوات، تحليلاً بوشر به بالحري تحت ضغط محيطها أكثر من كونه طواعية، أن تستقرّ في الوضع التحليلي وتخلّينا باتفاق مشترك عن متابعة العلاج بعد بضعة أشهر من الجهود العبثية. وانقضت أربع سنوات وهتفت لي تسألني أن أحدّد لها موعداً. وكان عصابها هو نفسه دائماً، ولكن ما كان قد تغيّر في غضون ذلك تغيّراً جذرياً إنما هو توازنها الذي كان قد أصبح قاصراً بوضوح بعد أن كان غير مستقرّ. وكانت قد عانت في الواقع من مرض خطير ترافقه أضرار جسمية وخصاء فعلي، جرح نرجسي كبير كان قد ألقاها هذه المرة نفسها بين ذراعيّ التحليل. وكان التزامها كلياً والعلاج يمضي بسرعة، وكان قد بدأ يعطي ثماره عندما أصبحت مقاومتها، في فترة معيّنة، قوية على وجه الخصوص وكان الركود يهدّد بأن يتأبّد. وفي أحد الأيام حملت إليّ الحلم التالي:

«أجد نفسي في منزلنا، ولكنه لم يعد المنزل نفسه؛ إنه في المدينة بدلاً من أن يكون في الضاحية، في شارع ممتع للنظر وهادىء. ولم يعد للمنزل إلا طابق واحد بدلاً من اثنين، ولكن هذا الطابق أوسع مما كان عليه من قبلُ والغرف أكثر عدداً وراحة. وفكّرت فجأة، وأنا أعاين كل ذلك، في خادمة منزلي: «ولكن كيف سأتصرف، السيدة دوبون (خادمة المنزل) تسكن دائماً في كلارمار؟» هذا أمر مختلف كل الاختلاف، سنهتم به فيما بعد».

وتدور الترابطات أول الأمر حول رواية سيمون دو بوفوار، الموظّفون الكبار، رواية بطلتها محلّلة نفسية. وتعتقد أن بوسعها أن تتذكّر أنني صُدمت، عندما كانت قد تكلّمت اليّ عليها للمرة الأولى، بما كان المؤلف قد قال عن المحلّلين الذين يغسلون غسيل مرضاهم الوسخ. ثم تقول كم ستكون حياتها أكثر رضىً لو أن هذا الحلم يتحقّق؛ إنها ستصبح من جديد المركز الذي يجمع حولها أناساً لطفاء ويجذبون الاهتمام، ومحاطة ومحبوبة كما في الزمن الماضي.

وبيّنت لها أن خادمة المنزل كانت أنا، المحلّل الذي يغسل الغسيل، وأنها كانت تريد أن تُحدث التغيّرات الخاصة بها هي (المنزل) بعيداً عني على وجه التقريب (المنزل يتغيّر، وبالنسبة للخادمة سنهتمّ بالأمر فيما بعد)، ذلك أنها تعتقد في نفسها أنها آثمة بصددي. وهي مرغمة في الواقع، لبلوغ النتيجة المنشودة، أن تخصيني (أصبح خادمة منزل)، وحتى يصبح طابقها أكبر وأجمل، ينبغي لطابقي (أسكن في الطابق الثاني) أن يزول. وأبيّن لها أيضاً الإثمية التي تحسّ بها إزائي وهي تسقط عليّ عدوانيتها ضد محلّل الرواية المذكورة الذي يمثّلني.

وتبحث السيدة س . . . في التحليل، دون ريب، عن استعادة كمالها النرجسي. ويلحق محلّلها، عبر تقلّبات صورتها الجسمية، بأمها لكونها موضوعاً سيئاً، وهو دور جعلت زوجها يلعبه خلال التحليل كله. وهذا وضع واضح كان موضع تحليل ولا يولّد أية إثمية. وكونها تُنمّي إثمية هي من الشدّة بحيث توقف التحليل، أمر لم يكن ممكناً أن يُعزى إلا لاتجاهها، اتجاه أن تخصي معالجها خصاءً نوعياً. ونجمت عن هذه التفسيرات مفعولات دينامية واستأنف التحليل سيره.

ويقول المريض في بعض الأحيان صراحة إنه يتعذّر عليه أن يقبل التحليل من يد محلّله ذلك أنه لا يمكنه أن يتحمّل مسؤولية خصائه ولا يفعل ذلك في الواقع إلا بعد أن أرسل اليه، على سبيل المثال، مريضاً جديداً، إذ أعاد اليه على هذا النحو قضيبه، إذاصح القول. وآخرون لا يمكنهم قبول الشفاء إلا على يد محلّل ثان «ينُجزون شريحة من التحليل» عنده للشكل ولا يستشعرون أي إثمية إزاءه - بسبب غياب تحويل ملائم. وخضع للتحليل عندي مريض لم يكن بوسعه أن يقبل مني أي تفسير، ولكنه كان يلتقي فيما بعد رفاقه الذين كانوا أيضاً في التحليل يكرّر عليهم جلسته على وجه التقريب: وعندما كان الآخرون يقدّمون له التفسير نفسه، كان هذا التفسير يصبح ناجعاً.

فالتحليل والشفاء، كذلك القضيب الذي يمثّلهما، يعتبرها المريض موضوعاً ينبغي دمجه على نمط معيّن. والصعوبات هي صعوبات العلاقة بالموضوع على وجه العموم، مع وجود فارق مع ذلك مفاده أن كل علاقاته، في بعض الأحيان، تصبح سويّة، ما عدا علاقته بالقضيب التحليلي، الموجودة مع ذلك في قاعدة كل العلاقات الأخرى. ويفلح المرضى مع ذلك في عزل هذه العلاقة. والحلول التي يختارونها لذلك هي من ماهية نكوصية على الغالب، وهو أمر لاينتزع شيئاً من كيف النتيجة التي يحصل عليها العلاج. ويوجد على هذا النحو مرضى يختارون «الكبت البعدي» الذي لا يكون تصفية واقعية للوضع التحليلي، بل هو نسيان موجّه على وجه التقريب. وآخرون يتركون التحليل على نحوٍ تدليسي، أي يتركون ديناً، وهو أمر ذو علاقة بـ«تجنّب العلاقة بالموضوع»(19) دون أن تكون النتيجة العلاجية، من أجل ذلك، قد تضررّت لأن هذه النتيجة رائعة غالباً كما تبيّن مقارنات لاحقة للمعلومات المتعدّدة المصادر. وبوسعنا أن نناقش قيمة هذه الطرائق، فهي تبدو مع ذلك مرْضية وأنا أوثرها على بعض التثبيتات التي يتعذّر على المحلّل حلّها، وتلك

(19) ب. غرانبرْجر، ملاحظات عن الفموية، مجلة التحليل النفسي الفرنسية، ١٩٥٩، رقم ٢.

نتيجة الإثمية نفسها، نتيجة غير مؤاتية على وجه الخصوص. ويبيّن تحليل بعض التحولات السلبية العنيفة على وجه الخصوص والمتصلّبة أن المسألة هنا مسألة إسقاط مآله وضع المريض في مأمن من الإثمية الشفاء، أي خصاء المحلّل. وفي ذلك إنما يكمن في الوقت نفسه تمويه اكتساب القضيب، أعني الشفاء الذي يتلاحق خلف هذه الستارة من الدخان. ويوضّح بالمثال وجود هذه **الإثمية النوعية من الخصاء المستقلّ عن الأوديب والمعزوّ الى المحلّل بوصفه كذلك**، فائدة فصل الجانب النرجسي من التحويل عن جانبه التاريخي، وفائدة أن نحلّل، بالمعنى نفسه، تلك المقاومة المتعذّر على الغالب تقليصها، التي لا يفوت التحويل أن يثيرها.

ونحن نعتقد أننا رسمنا الخطوط العامة في هذا العمل للبرهان على تيّار مزدوج، نرجسي ودافعي في التحليل، منذ استقرار المريض في الوضع التحليلي حتى نهاية العلاج حيث ينبغي له أن يضطلع بمسؤولية النتيجة لهذه السيرورة. ونعتقد أننا لفتنا الانتباه أيضاً الى بعض النتائج التقنية لمثل هذا الانفصال. وثمة معرفة تلقائية لهذه الأمور من التقنية مألوفة لدينا على وجه العموم. وكان هدف حديثنا أن ندمج هذه الأمور في مجموع نظري متماسك وأن نؤكد على هذا النحو صحتها.

الفصل السادس

بيان لدور النرجسية في ضد التحويل لدى المحلّل

قرأت تقرير الدكتورين بوفيل وفولْش بكثير من الاهتمام وأهنّيء المؤلفين على شجاعتهما في الشروع في مواجهة عمل بهذا القدر من الصعوبة وفي القيام به، بحميّة ومهارة تثيران التعاطف. إنهما يدافعان عن قضيتهما بكثير من الحماسة، وهو أمر لا ينفكّ في رأيي ينضاف الى مزاياهما، دون أن نتكلّم على مزية كونهما قدّما لنا إعادة نظر عامة في المسألة رائعة. وينبغي لي، مع ذلك، أن أُدلي ببعض الانتقادات التي لا تنصبّ على حجاجهما الشخصي، على أي حال، بقدر ما تنصبّ على بعض الجوانب المشتركة بين كل الأعمال التي تعالج ضدّ التحويل.

وسأقول بعض العبارات، أول الأمر، من وجهة النظر الطرائقية. والواقع أننا نستند، عندما نتكلّم على التحويل، إلى مادة نجنيها من الجلسة التحليلية ومن الوضع التحليلي نفسه. وليس الأمر بالتأكيد على النحو نفسه فيما يخصّ المادة التي نستند اليها لدراسة ضدّ التحويل (أو التحويل المضاد)، مادة ترتكز على عدة أنساق من الوقائع ذات أصل مختلف. وهكذا يذكر المؤلفان نفساهما الرقابة، والملاحظة الذاتية، والتحليل الذاتي، الخ. ومن الواضح أن المادة المجموعة على هذا النحو ليس لها إطلاقاً، بالنسبة لمحلّل من المحلّلين، تلك الصحة العلمية التي للمادة التي ترتكز عليها دراسة التحويل. وحتى لو كان ممكناً أن نسلّم لهذه المادة بشيء من الصحة، فالحقيقة مع ذلك أنها من ماهية مختلفة عن ماهية المادة الأولى ووضع

---

(٦) مداخلة ألقيت في المؤتمر الثالث والعشرين للمحلّلين النفسيين الناطقين باللغات الرومانية، تناولت تقرير الدكتورين ب. بوفيل و ب. فولْش ماتو: «مشكلات عيادية وتقنية لضد التحويل»، نشرت في مجلة التحليل النفسي الفرنسية، ١٩٦٣، عدد خاص.

التحويل وضدّ التحويل في حالة من الموازاة أمر يشوبه منذ البدء ضرب ممكن من مصدر الخطأ.

وإذا كانت الدراسة الموازية للتحويل وضدّ التحويل تبين محفوفة بالمخاطر، من وجهة النظر الطرائقية على نحو صرف، فإنها ليست في رأيي أقلّ تعرضاً للمخاطر إذا استندنا إلى محتوى هذين المفهومين نفسه. (أذكّر بأن مؤلّفي هذا العمل الرائع التمسا باستمرار تصوّراً متناظراً للتحويل وضد التحويل).

وإذا كان المحلّل والمحلَّل يجدان نفسيهما مجتمعين في غرفة واحدة خلال مدّة الجلسة التحليلية، فإنهما في الواقع لا يكوّنان على الإطلاق ثنائياً مهما فهمنا من هذا المصطلح أنه الاتحاد أو المواجهة بين عضوين لهما تجانس وتكافؤ.

وقد تقودنا الدراسة التفصيلية لموقعي المحلّل والمحلَّل، موقعيهما المختلفين، من وجهات النظر الميتاسيكولوجية كلها، بعيداً، ولهذا السبب سأقتصر على بعض التوجيهات الموجزة.

ومن المؤكد أن عمل «السيرورة التحليلية» الوظائفي يرتكز على الاتّصال بين لاشعورين، لا شعور المحلّل ولاشعور المحلَّل، وإذا كنّا نجهل تفاصيل هذه السيرورة فإننا نعلم أن تأثير لاشعور على آخر يجري على أنماط ومستويات مختلفة، وعلى وجه الخصوص في سياق وجداني تحكمه قوانين تشترك في أمور قليلة. والمحلَّل وحده موجود في وضع تحليلي والمحلَّل وحده يجري **تحويلاً تحليلياً**، وذلك أمر يكوّن ظاهرة وحيدة، تنتمي إلى الوضع التحليلي وإليه وحده. أما المحلِّل، فإن تحويل نزاعاته الذي يجريه في مواجهة مريضه ليس له أي صفة نوعية. إنه التحويل دون صفة، تحويل قد يحرّضه أي عامل آخر وهو في الواقع، بمناسبات ملائمة، خارج الوضع التحليلي.

وأسمح لنفسي أن أذكّر بهذه المناسبة أن واقع الجلوس على مقعد وثير أو واقع التمدّد على الديوان أمران غير متشابهين على الإطلاق ونحن جميعاً نعرف الفارق الدينامي بين الوضعية التحليلية مع المريض على الديوان والمريض الجالس في «مواجهة المحلّل». وفكرة فرويد أن يوضع المريض على الديوان

والمحلّل وراءه فتحت لنا السبيل نهائياً إلى بعد جديد من الحياة النفسية البشرية وغيرّت كل المنظور العلاجي التحليلي. فالمريض يجد نفسه أمام لاشعوره، مبتعداً ابتعاداً مفاجئاً عن أنا المعالج وعن أناه الخاصّة على وجه الخصوص. ويغيّر عالم صوره الذهنية المثالية واجتيافاته مستواه الموقعي مع إعادة توزيع شحناته الدافعية وتحرّر نرجسي، فكلها تحرّض الوضع التحليلي النوعي. إن فرويد حدّد على هذ االنحو إحداثيات الوضع التحليلي، وينبغي لنا من الناحية النظرية أن نحتفظ بمصطلح «تحليل نفسي» أو «تحويل تحليلي» حصراً للتقصّي الجاري في هذه الوضعية.

وبينتُ في مكان آخر أهمية هذه الوضعية النوعية، نوعية يؤكّدها تأكيداً وافراً سلوك المرضى أنفسهم وتتعارض مع تماثل النزاعات التي نجدها دائماً، أياً كان البديل العلاجي.

وإذا فحصنا الآن مجموع وضعية المحلّل في الوضع التحليلي، فإننا نعاين أن علينا أن نميّز، في كَنَفَ التحويل المضاد كما يفهمه المؤلفان، بين مجموعتين من العناصر: ثمة أول الأمر التحويل المضادّ بالمعنى الحقيقي للمصطلح، أعني انبعاث بعض نزاعات المحلّل الشخصية مع المحلَّل بوصفه موضوعاً. وأعتبر، مع أنّي رايخ التي يستشهد بها المؤلفان وبآخرين غيرها كثيرين، أن بروز هذه النزاعات أمر مزعج بالحري، ذلك أنها تتداخل مع وضعية المعالج النوعية وينبغي تجنّبها بقدر الإمكان. وسيتّخذ سلوك المحلّل، خارج هذا التحويل المضادّ النزاعي، بعض المظاهر التي تحكمها بعض العوامل اللاشعورية، ولكنها **مستقلّة عن المحلَّل وذات علاقة على وجه الحصر بفاعلية المحلّل بوصفه محلّلاً.**

وبوسعنا، لدراسة هذه العوامل، أن نبدأ باتّباع المؤلّفَيْن اللذين يتساءلان عن طبيعة وضعية المحلّل، أعني عن دافعياته اللاشعورية، فيذكّران على هذا النحو بدراسات مونه كيرلْ وراكر، مؤلفين يعتقدان أن دوافع المحلّل في مواجهة مريضه المجهول تدعمها على وجه الخصوص عواطفه الأبوية، وميوله التي تجدّد

القوى وفضوله العلمي. وهذه البواعث عديدة جداً في رأينا نحن الذين نبحث عن عامل نوعي وحيد. وسنفحصها للتوّ مع ذلك.

فلنأخذ «العواطف الأبوية» أول الأمر. والمقصود، في رأي صاحبي التقرير، عاطفة واقعية، ذلك أنهما يقيمان، بوصفهما وفيّين لقضية التناظر بين المحلَّل والمحلّل، علاقة بين هذه العاطفة ونجاح العلاج. والحال أن المحلَّل يبدو أنه **يُسقط** عواطفه، شأنه شأن الآخرين كلهم، على المحلّل وهذا يمكنه أن «يشجع نموّ المحلَّل ونضجه» تشجيعاً بمنتهى الكمال، حتى ولو أنه هو نفسه لم يبلغ على الإطلاق درجة «الأب الناضج» لحسابه الخاص كما يبدو أن المؤلفين يقتضيان منه، شريطة بالطبع أن يكون، من جهة أخرى، محللاً جيداً، أي لا يعوق إسقاطات مريضه والسيرورة التحليلية بمجموعها. وهذا يبيّن الآن أن التناظرت المستنَد إليها بين المحلّل والمحلَّل، تحويل وضدّ التحويل، ترتكز على تصور ونهج موضعيْ منازعة وأنه لا وجود لـ «معنى دائري» ولا لتبادليّة. ثمة اتّصال بين لاشعورين عملهما الوظائفي ذو اتجاه واحد بالنسبة لكل منهما وله توجّه خاص.

أما ما يخصّ «الميول المجدّدة للقوى»، فهي موجودة تماماً ولكنها لا علاقة لها في رأيي مع «الرغبة في الشفاء» التي يتكلّم عليها المؤلفان. فالتطابق بين التقصّي التحليلي والرغبة في الشفاء كان فرويد قد حاربه باستمرار، كما نعلم، وحظّره مصيباً، ذلك أن في هذا إنما يكمن موقف تحويلي مضادّ ضارّ.

ونصل أخيراً إلى الشغف العلمي، شكل مصعّد من التلصّص وموجود دون شك، لأننا إليه ندين بهذا الاجتماع، في جزء كبير منه على الأقلّ. ولكن ثمة مؤتمرات علمية أخرى في بارشالونا وأماكن أخرى؛ فالتلصّص المصعّد ليس له أي شيء تحليلي على نحو نوعي والجلسة التحليلية ذاتها ربما يحلّ محلّها تماماً عناية طبيّة أو فحص سيكولوجي.

وسنستأنف الآن هذه الأدلة الثلاثة مضيفين إلى كل واحد منها مصحّحاً هو واحد في الحالات الثلاث مع ذلك.

فعواطف الأبوة **يُسقطها** المحلَّل على المحلّل وليس على هذا الشكل إنما، من جهة أخرى، كانت تُعاش واقعياً. ونحن نعلم في الواقع أن التحويل المسمّى

«الأبوي» يحتوي بعض العناصر دون أي تسويغ تاريخي وذلك على نحو متميّز ودائم. ونقول بإيجاز إن هذه العناصر تناظر إسقاط نرجسية المريض على المحلّل. والطفل نفّذ وهو صغير هذا الإسقاط على الأب أولاً، وعلى وجوه أبوية أخرى ثم على مُثُل ونحن ألمعنا في كثير من المناسبات إلى المصلحة التي لنا في اعتبار الأوديب نفسه ضرباً من انتقال الجرح النرجسي لدى الفرد إلى نزاعه مع الأب. ثم سيُسقط المريض هذا النرجسية المفقودة على المحلّل. أما العواطف الأبوية الواقعية، فإنها تحتوي دائماً، عندما توجد، ونحن نعلم ذلك جيداً، مكوّنة نرجسية ذات علاقة بالرغبة في أن يرى المرء **نفسه** متحققاً في الطفل، أي أنه خاضع للبحث عن إنجاز نرجسي. ويحتاج المحلّل أيضاً بالطبع إلى إنجاز نرجسي. والحال أن من يكون مدعواً إلى أن يفيد بصورة طبيعية من فاعليته إنما هو المحلّل الذي سيفسّر، بالنظر إلى إسقاطه الأبوي على المعالج، عون هذا المعالج باتجاه يناسب هذا الإسقاط. والواقع أن المحلّل لن يبحث عن هذه المنحة النرجسية مباشرة في عمله بالنسبة للمحلَّل، وذلك أمر سيكون تحويلاً مضاداً، بل سيبحث عنها **في عمله التحليلي على وجه العموم**.

أما «الميول المجدّدة للقوى»، فهي ذات أهمية بالتأكيد بوصفها دافعيات ولكنها مستقلّة دائماً عن المحلَّل؛ إنها تعمل بالحري عملها الوظائفي على سبيل **التصعيد**. والحال أن الهدف الذي يلاحقه التصعيد، إذا كان ينهل طاقته من المكوّنات الدافعية قبل التناسلية، هدف نرجسي قبل كل شيء، والدراسة الأكثر سطحية تبيّن ذلك.

والفضول العلمي، أخيراً، ركيزة قوية بالتأكيد للعمل التحليلي كما للبحث العلمي على وجه العموم. إن المكوّنة النرجسية هي التي ستفردّه أيضاً ونحن هنا في النقطة الأساسية من برهاننا. ولكننا ملزمون، قبل أن نستأنف هذا البرهان، أن ننعطف انعطافاً صغيراً.

يقول المؤلفان (ص-105) بصدد وضعية المحلّل: «المثاليُّ (المتعذّر

مناله) أن يصبح المحلّل، بفعل الإرصان المناسب لدوافعه ودفاعاته، قادراً على أن يفهم أي ضرب من المرضى وأن يحلّلهم بالتالي.» ويستمرّ المؤلفان: «نحن نعتقد أن تقدّماً في هذا المجال قد تحقّق بالتدريج؛ فمحلّلو أيامنا هذه يمكنهم، بفضل تحليلاتهم الأكثر تعمّقاً والإتقان التقني، أن يقاربوا عدداً من المرضى أكثر اتّساعاً. وهكذا ازدادت إمكانات تحليل الأطفال المضطربي الطبع، **الحالات الحدّية**، والذهانيين، إلخ». انتهى الاستشهاد بالنصّ.

ويبدو في الواقع أن القدماء، المحلّلين الأوائل، كانوا يحلّلون تماماً تلك **الحالات الحدّية**، والأطفال، ومضطربي الطباع والذهانيين. بل إنهم حقّقوا، خلال تحليل هذه الحالات، كشوفاً لا تبلى، كشوفاً تكوّن في أيامنا هذه إرثنا العلمي فيما يخصّ فهم الذهانات على وجه الخصوص (أبراهام، فورنزي، توشك وآخرون كثيرون أيضاً). وكانت هذه الحالات قد حُلّلت مع ذلك تحليلاً رديئاً، أو لم تُحلَّل على وجه التقريب، أو لم تحلّل على الإطلاق في بعض الأحيان، كغروديّك، العرّاب العبقري لـ«الهو». وبيّنوا مع ذلك أنهم كانوا محلّلين حقيقيين. والواقع أن ما يصنع محللاً جيداً ليس العنصر الكميّ. فالأهمية قبل كل شيء ليست لعدد النزاعات المحلَّلة أو عدد الجلسات، بل الأهمية للتوظيف النرجسي، توظيف العمل التحليلي بوصفه كذلك، توظيف سندرس قاعدته ونوعيته فيما بعد. وإذا كان المحلّل، من جهة أخرى، يتحدّد بمجموع نزاعاته المحلولة وإذا كان التحليل يقتصر على ما تعرّفه المحلّل وتعلّم معرفته خلال تحليله الخاص، فلن يكون ثمة علم تحليلي. وستكون تقنية تقليدية متخثّرة قد حلّت محلّ هذا العلم، أي مجموع سينتهي، تحت تأثير النزاعات اللاشعورية التي لم تُحلّل تحليلاً كافياً لدى كل محلّل، إلى أن يتقوّض تدريجياً حتى يتحوّل إلى غبار. ومن حسن الحظ أن ما نراه – وليست مع ذلك هي الحالة دائماً، مع الأسف – إنما هو أن المحلّلين يتطوّرون ويتطورون جيداً، لا لأنهم كانوا خاضعين لتحليل كامل مع إرصان كل نزاعاتهم وحلّها، بل لأنهم أفادوا من تعلّمهم ليتآلفوا مع العمل الوظائفي للاشعورهم أو بالحري – ونحن نستبق ما يلي – ليتحرّروا من

بعض العوائق ويفسحوا المجال لتفتّح جهوزية واستقبالية نوعيتين، وموهبة، كانوا يمتلكونها امتلاكاً بالكمون منذ بداية حياتهم. ذلك أن التحليل النفسي فنّ قبل كل شيء، وإن كان ذا جانب علمي.

وأعبّر عن أسفي لأن المؤلفيْن نظرا إلى النرجسية - حصراً على وجه التقريب - في وظيفتها بوصفها عقبة أمام تعرّف التحويل المضادّ. ومن المؤكد أن ثمة عثرة ولكن السقوط في ضرب من المغالاة العكسية سيكون ضاراً أيضاً في رأيي، وليس أقلّ نرجسية، مغالاة قد تكمن في إعلاء شأن عيب ورفعه إلى مرتبة الضرورة. وسيكون علينا أن ننظر الآن في النرجسية بالنسبة إلى الدافع الثالث المذكور، دافع فاعلية المحلّل. ويبدو أن التلصّص يتجاوز في الواقع، بوصفه دافعية للاشعورية لدى المحلّل، إطار الإشباعات الدافعية - مكوّنة جزئية قبل تناسلية حدث تجاوزها وامتصاصها خلال النضج الدافعي - وينبغي النظر إلى هذا التلصّص أنه شعاع موجّه لـ **إنجاز نرجسي ذي قيمة كبيرة**. والمقصود منحة نرجسية نوعية ذات أهمية كبيرة جداً، **ترتبط مباشرة بتقصّي اللاشعور**، سواء كان لاشعور المريض أو لاشعور المحلّل أو اللاشعور الجماعي، فكلّها لا تكوّن مع ذلك سوى بعد واحد وحيد من أبعاد الحياة النفسية تنفذ معرفتها إلى ما يتّصف به هذا الجانب من النفس أنه غير محدود ولا يمكننا التعبير عنه. وحتى لو سلّمنا أن السيادة على اللاشعور تتاخم وهم القوة الكلية النرجسية وأن سهولة النكوص إلى هذه المرحلة على نمط معيّن، ووجود المرء فيها كما في مجال مألوف، متعلّقة على الغالب ببنية قابلة قليلاً أو كثيراً للنكوص وسريعة العطب أمام بعض المهمّات الذرائعية بقدر ما هي حسّاسة لالتقاط الرسائل الصادرة عن اللاشعور، فالحقيقة مع ذلك أن الأفراد من هذه الفئة هم محلّلون ممتازون على الغالب. وهم يمتّون بصلة، من جهة أخرى، على نحو فريد، من حيث بنيتهم، إلى الشعراء، والفنانين والعلماء المبدعين الذين كان فرويد يقيّم إلى درجة لا يُستهان بها معرفتهم اللاشعورية الحدسية وعلّموه عن اللاشعور، كما يقول، ما لم يعلّمه إياه أحد. فالمحلّل يملك استقبالية وجهوزية نوعيتين، وإذا كانت القوانين التي تحكم هذه

الصفة الثمينة لا تزال مجهولة على وجه التقريب، ولا سيّما أنها تفلت من منظومة الإحالة المألوفة لدينا، فإن ذلك «لا يحول بينها وبين أن توجد». والمقصود عامل يمكننا أن نقول عنه إنه أساسي لممارسة التحليل النفسي.

وبالنظر إلى هذه الصلة بين بنية المحلّل وبنية الفنّان، ينبغي أن نتوقّع بالطبع أن نرى الموهبة تتجلّى لدى أفراد نرجسيين جداً وضعيفي «التكيّف» نسبياً وقد نخطىء في أن نطبّق عليهم مقتضيات ثقافية أو ذات نزعة جماعية، مقتضيات صادرة عن الأنا العليا، باسم مثال من مثُل الاندماج الاجتماعي مع شهادات أو أدلّة انتماء أخرى إلى تراتب من التراتبات. فاستقلالهم من هذه الناحية يكوّن في الواقع ضماناً ضدّ تطبيق معايير مسبقة التقرير، وذلك أمر سيكون أيضاً من التحويل المضادّ، ويتيح لهم هذا الاستقلال أن يقدّموا العون لمرضاهم وأن يحقّقوا ذواتهم في التحليل وبه، **كلّ حسب أسلوبه**.

أما وقد قلنا قولنا هذا، فإن بوسعنا أن نستأنف فحص موضوعنا، دراسة مهنة التحليل النفسي، وهو موضوع يرتبط ارتباطاً مباشراً – وسنرى ذلك حالاً – بمسألة ضدّ التحويل. فنحن انطلقنا في الواقع من مثل الإبداع الفنيّ ونعاين أي دور ذي أهمية يمكن أن تؤديه هذه الفاعلية في التوازن النفسي لدى الفرد. والحقيقة أننا نجد أنفسنا في مواجهة جانب من الشخصية يعمل عمله الوظائفي بوصفه **تصعيداً**، وتلك ظاهرة لن ندرسها دراسة بالتفصيل هنا، ولكننا نعلم أنها تمثّل محاولة ناجحة قليلاً أو كثيراً، بيد أنها تفرض نفسها دائماً على نحو إلزامي، محاولة **انزياح الشحنة النزاعية وتحييدها**.

وهذا الأسلوب في رؤية الفاعلية، فاعلية المحلّل، يكوّن جواباً عن عدد معيّن من المشكلات منها مشكلة ضدّ التحويل. وناقش بعض المحللين – ومنهم صاحبا التقرير – اتّجاه المحلّل الذي يعمل عمله الوظائفي مع «غياب التفريغ». والواقع أن ثمة تفريغاً على مستوى معيّن لا يمسّ ما يجري في الوضع التحليلي **بمعناه الدقيق**، تفريغاً كان لا بدّ له بالضرورة مع ذلك، لولا هذا التحييد وهذا

الانزياح، أن يفضي إلى إنتاج توتّرات ضد تحويلية دائمة. وهذا التفريغ الملائم المقبول إنما هو **وظيفة تصعيد العمل التحليلي**. إنني على وفاق تام في ذلك مع بالان الذي يستشهد به المؤلفان، بالان الذي يرى أن «السلوك التحليلي ضرب من الدرب، شكل متكيّف جداً ومصعّد لتسكين التوتّرات». فالمحلّل لن يكون ملزماً إذن أن «يرفض أو ينفي عواطفه»، كما يقول المؤلفان، لا لأنه سيعيشها على صورة تحويل مضادّ بل لأن هذا العواطف ستكون موضع تحييد بالتدريج، فكلّ نزاعيته ستُفرَّغ على صورة متسامية على وجه التقريب، صورة التصعيد. وسينجم عن ذلك بالتالي أنه **سيكون أقلّ ميلاً إلى أن يمارس ضدّ التحويل ولا حتى أن يقاومه بالطبع**. وليس ثمة جدوى في أن نضيف أن هذه الوضعية لن تنجم آلياً عن حياده (غياب التوتّرات) الرحيم (لذّة التصعيد) فحسب، ولكنها ستنجم أيضاً عن استقلاله، استقلال الأنا العليا لديه مع مفعول علاجي ينجم عنه. والمقصود بالطبع رؤية مثالية يتّجه نحوها الأفراد الذين يكون العمل التحليلي بالنسبة لهم تصعيداً ناجحاً على وجه الخصوص. ويبدو أن لذلك أهمية خاصة في اختيار المحللين النفسيين الذين سيكون، في رأيي، أكثر أهمية بكثير أن نقيّم قدرات التصعيد لديهم من أن نقيّم نزاعيتهم النوعية أو تكوينهم الجامعي.

أما وقد قلنا قولنا هذا، فإن ثمة نقطة أخيرة ينبغي إيضاحها. إن المؤلفين يتوجّهان (ص. 107) نحو تقنية يبدو أنها تهمل، إلى حدّ، ما يسمّيانه ضرباً من «السلبية الناجمة عن تصورّ لسيرورة الشفاء التي تضفي قيمة أساسية على الصمت، على العوامل غير اللفظية، على التجربة الانفعالية المصحِّحة، وعلى قيمة التجربة التي لا مثيل لها، تجربة المحلّل، وعلى العوامل المتعذّر وصفها والمشتركة في العلاقة التحليلية، إلخ». وأعتقد أن مفهوم الموهبة أو الميل الطبيعي إلى التحليل النفسي كما حاولنا أن نلفت النظر إلى بعض سماته بالنسبة للموضوع الذي يستوقفنا هنا، يثير المعارضة أيضاً لديهما دون شك. وهذا الموقف الذي ينفي على نحو قطعي قويّ مجموع العوامل التي تسهم، في رأيي، بإحداث الوضع التحليلي إحداثاً حاسماً وأساسياً، موقفٌ يشارك فيه المؤلفان مع عدداً من

المحلّلين، لا يمكنه أن يُعزى فقط إلى ضرب من التكوين العلمي ولا إلى تحويل مضادّ بالمعنى النزاعي للمصطلح. إنه يتجاوز هذا الإطار المحدود بقوّة وتجانس يتيحان أن نفترض خلف هذا الاتّجاه الإجمالي وجود عامل لاشعوري قويّ يمكنه بالتأكيد أن يكون له قيمة دينامية وجدوى تحليلية.

وحتى أولئك الذين، من جهة أخرى، يعتبرون التحليل النفسي مثلنا مجال الحدس قبل كل شيء، إذ أن ممارسة ذات علاقة بتوظيف نرجسي نوعي له قيمة التصعيد، يُظهرون ضرباً من الإثمية الخاصة المرتبطة بفاعليتهم المهنية **التحليلية النفسية**، ولا ترتبط بغير ذلك. وبمعزل عن تحليل صحيح أكسبهم نتيجة مؤكّدة، ينبغي لهم في بعض الأحيان أن يبذلوا جهداً خاصاً جداً يكون بمقدورهم أن يضطلعوا بمسؤولية ميلهم الطبيعي اضطلاعاً إلى درجة مرتفعة قليلاً أو كثيراً مع ذلك، بحسب الحالة. فما نقوله عن ذلك ربما يكون صحيحاً من جهة أخرى بالنسبة لكل أشكال التصعيد المبدع بمقدار ما تتغذّى هذه الأشكال من هذا **الاتّصال المباشر نفسه باللاشعور**، اتصال يتّصف، في ظلّ شكل نوعي معيّن، أنه وقف على المحلّل ولكن آخرين، كما رأينا، يشاركون فيه. ويبدو جيداً في الواقع أن الغوص البعيد الغور في اللاشعور لا يكوّن لذة نرجسية ومهارة مقابلة فحسب، ولكنه يكوّن أيضاً ضرباً من الانصهار **الأوّلي العتيق مع اللاشعور نفسه**، انصهار عتيق ولكنه يُعاش على نمط تصعيد روحي، وهذا أمر يطابق ما ذكّرنا به في موضوع الأصول النكوصية هذا الغوص النرجسي. واللاشعور، في هذا الانصهار، يؤدّي الدور المتمّم بالنسبة إلى هذا النموذج الأصلي الانصهاري الذي يتكوّن دائماً وفق المخطّط محتوى - محتوٍ، إذ يفضي إلى هذا الكمال النرجسي الذي يظلّ، وقد تحقّق على المستوى الفموي، الشرجي، القضيبي أو التناسلي، نرجسياً دائماً في ماهيته وتمثّله صورة القضيب في اللاشعور. والحال أن تحقيق هذه الوحدة الانصهارية القضيبة النرجسية هو، كما حاولت أن أبيّن من جهة أخرى، هدف التحليل، هدفه نفسه على المستوى العميق، وذلك أمر يشرح سمته الابتهاجية، ولكنه يشرح أيضاً تلك الاضطرابات الخطيرة، على الغالب، لهذه

الحالة وبخاصة صعوبات الفرد في أن يضطلع بمسؤوليتها في هذه الشروط. ويفهم المرء وجوب المرور في سيرورة من النضج حتى يبلغها، ويفهم أيضاً لماذا ينبغي للهدف، بالنسبة لبعضهم، الذين يتعثّرون بحواجز أكبر مما يتعثّر بها الآخرون لتحقيق هذه الهدف، أن يُكتب بأي ثمن.

ونحن كنا قد قلنا إن هذا الانصهار مع اللاشعور كان من طبيعة نرجسية والنموذج الأصلي لهذا الانصهار هو في الواقع الانصهار قبل الولادي، وتلك وضعية نرجسية دون أي منازعة ممكنة. والحال أن النرجسية ذات «سمعة سيئة» والإثمية المرتبطة بالنرجسية هي بالتأكيد الإثمية الأصعب إلغاءً، على الأقل تحت حكمنا المستند إلى الأنا العليا. فالإنسان لا يسمح لنفسه أن يحبّ نفسه وأن يكون حسبما تقتضي ذاته، والفردية - المصطلح المشوب فوراً بشيء من الاحتقار - بغيضة دون مناقشة. وتُعاش السعادة النرجسية وكأنها خطيئة في حين أنها تكوّن، ما إن يقبلها المرء، المكوّنة الأساسية والإلزامية للنضج الأكمل ذي العلاقة بالموضوع ويؤثر المرء أن يتعثّر حالاً بعكسها، وهو شكل معيّن من العلاقة النزاعية بالموضوع محدّدة في مستوى معيّن. أينبغي لنا أن نجد أنفسنا على هذا النحو أمام الخصام، خلف التقابل ضدّ التحويل - تصعيد، بين الميل إلى التحرر النرجسي والإثمية التي تعارضه؟

* * *

الفصل السابع
في
الصورة القضيبية[1]

I - مدخل

يجد المحلّل نفسه، خلال عمله، في مواجهة مستمرّة مع الصورة القضيبية التي تسود وقائع العلاج. وأياً كانت، في الواقع، طبيعة المادة، ومستوى النموّ الذي ترتبط به، والتاريخ الفردي للفرد، فإن حول الإشكالية القضيبية إنما تقع النزاعات في نهاية المطاف. وذلك هو من الصحة بحيث أن فرويد كان يعتبر أن هذه الإشكالية تطغى على العلاج ذاته، إشكالية تكوّن حجر العثرة له إذا جاز القول، وهذا أمر ينطبق على كلّ الأفراد من الجنسين (**تحليل منته وتحليل لا ينتهي**).

وتظهر الصورة القضيبية، في الواقع، كل لحظة ذات دلالة من عمل انطلاق المكبوتات، في ظلّ الضروب من التمويه الأكثر تبانياً وعلى صورة إيجابية أو سلبية (قضيب وخصاء).

وما تشمل عليه هذه الظهوارت المتواترة لهذه الصورة الخاصة يتجاوز الدلالة الجنسية بالمعنى الحقيقي على نحو واضح، حتى ولو سلّمنا مع فرويد أن

---

(١) محاضرة ألقيت في رابطة باريس للتحليل النفسي، ١٩ آذار (مارس) 1963. نُشرت في مجلة التحليل النفسي الفرنسية، 1964، العدد الثاني.

القضيب هو العضو الجنسي الوحيد بالنسبة للاشعور. وسنعكف للتوّ على دراسة هذه الصورة (ودلالاتها المتعدّدة) التي يبدو أن لها مكانة ممتازة جداً في اللاشعور الإنساني على وجه العموم.

والمكان الرئيس للصورة القضيبية والخصاء واضح في علم النفس السويّ والمرضي وفي اللغة، والفولكلور، والميثولوجيا، والدين أو الأخلاق، على حدّ سواء. ويبدو أن مواجهة الإنسان الحديث هذه الإشكالية تحدث على مستوى أقرب إلى الشعور نسبياً ممّا كان الأمر عليه في الزمن الغابر، أقلّه عندما يدرك انعكاسها في عدد معيّن من الإبداعات الفنية المعاصرة. وأذكر عشوائياً كافكا وبيكيت، السلسلة السوداء والخيال العلمي، ويونيسكو ودوبيلار، إلخ.

وبيّن فرويد إبهام الصورة القضيبية في اللاشعور، صورة تعني القضيب في جانبيه الإيجابي والسلبي معاً، أي الحضور القضيبي والخصاء. ونحن نعلم أيضاً أن عقدة الخصاء أسبق من الأوديب وأن كل طور قبل تناسلي يقابله نمط خاصّ من الخصاء حتى الخصاء الأبكر، الولادة نفسها. وسنعود إلى دراسة هذه الضروب من الخصاء الأوّلية ولكن بوسعنا، منذ الآن، أن نلاحظ أن الخصاء ينطوي، في مستويات مختلفة، على توسّع الصورة القضيبية إلى أشياء كثيرة، وذلك أمر يتيح لنا أن نستنبط أن القضيب والخصاء مفهومان لا يشملان أفعالاً أو حالات، بل يدلاّن على تغيّرات وظيفة.

وقد ألححت من جهة أخرى على واقع مفاده أن الإنسان، الذي عرف الكمالية التامة في الحياة قبل الولادية، يبحث فيما بعد أن يكوّن مجدّداً كماله المفقود، إذ يكثر من محاولات ما سمّيته «البرءُ النرجسي». وكان العلاج التحليلي قد بدا لي أنه يكوّن شكلاً من أشكال هذا البرء النرجسي.

وسأضيف الآن أن العصابي ليس على الإطلاق، في رأيي، من قَبِل الخصاء الملازم لـ «الشرط الإنساني» بل هو بالحري من فشل في الإمكانات المختلفة، إمكانات الاستعادة النرجسية لكماله المفقود، على مستويات **نضجه الدافعي** المختلفة.

والواقع أن كل مرحلة من التطوّر تقدّم للإنسان أشكالاً متعدّدة ونوعية من البرء النرجسي شريطة أن يفضي إلى إنجاز دمج الدوافع، الخاصة بكل مرحلة، وهي موضوع توظيف نرجسي مناسب[2].

ومن المؤكد أن العودة إلى الكمالية قبل الولادية الكلية يتعذّر بلوغها إلا عبر نكوص مرضي، ولكن أشكال استرجاع الكمال ستحدث، بالنظر إلى طبيعة التغيّر الأساسي الذي يمثّله الانتقال إلى الحياة بعد الولادية، على نحو يختلف اختلافاً جذرياً، وهي ليست متوافقة فقط مع تطوّر سويّ ولكنها تكوّن شرطه الضروريّ.

(إننا نواجه هنا مشكل النرجسية السليمة والمرضية، ولكنه يتعذّر علينا أن نفصّل فيهما الآن).

استخدمت مفهوم الكمال في عمل سابق[3] بالإحالة إلى النرجسية، ولكن مدى هذا المفهوم أكثر اتّساعاً ويشمل كل سيرورة **النضج الدافعي**[4]. ويبدو جيداً - وهذا أول فَرَض يظهر لنا مسموحاً أن نصوغه خلال هذا العمل - أن الصورة القضيبية تعبّر عن الكمال بصورها كلها وأن الخصاء يمثّل الصعوبات من كل نسق، صعوبات يعانيها الفرد في أن يتكوّن تحت تأثير الكمال.

وأودّ أن ألحّ على خاصة أساسية من خصائص **سيرورة النضج الدافعي** التي ستتيح لنا أن ندرك إدراكاً أفضل مفهوم **الكمال** كما أفهمه. فثمة «**موازاة بين الإشباع الدافعي والتوظيف النرجسي**». إن لكل إشباع دافعي، في الحقيقة، جانبين: الإشباع الدافعي بمعناه الحقيقي، المتكوّن من الفعل الذي يوقف التوتّر،

(2) بيّن فورنزي أن بلوغ حسّ الواقع كان يحدث وفق درجات متوالية من محاولة استرداد القوة الكلّية. ولكن الكمالية التي أتكلّم عليها يهبها مجرّد التوافق بين دافع وتوظيفه النرجسي المناسب.

(3) ملاحظات عن الانفصال بين النرجسية والنضج الدافعي (الفصل الخامس من هذا الكتاب).

(4) قد يكون مفيداً أن نذكر بالمناسبة أن كلمة صحة (Sonté) تُقال في اللغة الهنْغارية «intégrité» أو «complétude» (كمال أو كمالية) وعندما يتمنّى فرد لفرد صحة جيّدة يعبّر عن أمنيته بأن يحتفظ بـ «كمال جيّدة (bonne intégrite)».

من جهة، والإحالة إلى قيمة الفعل المنجزَ الذي يشبع حب الذات لدى الفرد، من جهة أخرى. والمقصود معامل خاصّ يرتبط بصفة الفعل الوحيدة والشخصية، فعل يُنسب إلى الفرد. فالدافع، شأنه شأن التوظيف النرجسي المواكب، تطرأ عليهما تغيرات في المستويات المختلفة من النضج. وهكذا تنضاف، في المرحلة النرجسية الفموية، إلى المنحة الغذائية (الدافعية)، المنحة النرجسية المتّصفة بجنون العظمة (كنت مشبعاً لأنني الكون). ومن الواضح أن المسألة هنا مسألة معيش يتعذّر وصفه ولا يزال التعبير عنه في اللغة أمراً متعذّراً.

وينال الفعل الذي يمارس على سبيل المثال، في المرحلة الشرجية، تمريناً رياضياً، إشباعاً دافعياً حركياً، ولكنه ينال أيضاً الإشباع النرجسي الناجم عن أن له جسماً صالحاً لإنجاز المآثر، جسماً يعمل جيداً عمله الوظائفي ويطيعه طاعة كاملة ويزيد شعوره بالقيمة.

والجماع، في المرحلة التناسلية، هو على وجه الضبط تفريغ توتّر جنسي ولكنه انصهار نرجسي أيضاً ربما يكون الأقرب - كما قال فورنْزي من قبل - إلى الحالة قبل الولادية.

ونحن نلاحظ عن كثَب طبيعة العوامل التي تجعل هذه السيرورة الموازية من النضج تتقدّم وتلك العوامل التي تعوق تقدّمها وبخاصة إنجازها.

والمعاينة التي يمكننا أن نقوم بها تكمن في:

١ - النقاط الحرجة في هذا التطوّر عديدة جداً؛

٢ - إنها تتّخذ جانب الكمال الإيجابي والسلبي؛

٣ - هذه النقاط الحرجة موسومة في اللاشعور بعلامة قضيبية إيجابية أو سلبية.

والواقع أن في اللاشعور إمكانان خاصّان بالصورة القضيبية: إما أن يوجد قضيب، وإما أن يوجد قضيب مخصيّ، جزيئاً أو كلياً. فليس ثمة تقابل بين حضور القضيب وغيابه، بل بين حضورين: حضور قضيب وحضور قضيب مبتور، مشوّه، تالف أو **مفقود**، وذلك على نمط عنيف دائماً: عدوانيّ أو ساديّ(5)(6).

فإذا كان في اللاشعور صورة للأنوثة مبنيّة على المعادلة «امرأة: رجل مخصي»، فذلك من حيث أن دينامية اللاشعور تترجّح بين قطبين من اكتساب القضيب وتشوّهه الجزئي أو الكلّي. وهذا أمر يدلّ على الإحالة الأكثر تواتراً، إحالة إشكالية الخصاء إلى الطور السادي الشرجي. وهكذا فإن الصورة القضيبية تمثّل الحركة نحو الكمالية أو المانع لهذه الحركة.

أما تواتر الصورة القضيبية العجيب والرتيب على حدّ سواء، فإننا نفهمه بيسر

---

(5)(6) تمثيل النقص أو الغياب لا وجود له في اللاشعور، ولا تمثيل الموت من حيث هو نهاية (فرويد). ولا يكمن عمل الحداد الذي يلي فقدان عزيز في دمج هذا النقص في اللاشعور بل في تعديل علاقته بالموضوع (انظر **الحداد والسوداوية**). فالأم الغائبة ليست، في اللاشعور، نقص الأم بل هي أم سيئة.

فالصورة القضيبية، شأنها شأن الكلمات الأولية التي تعبّر عن معاني متقابلة كالعالي والعميق، والصغير والكبير (فرويد)، تُظهر الكمالية والخصاء معاً؛ وصفة التمثيل وحدها هي التي تتغيّر في اللاشعور، إذ تسمه، بالنسبة لنا، بسمة الإيجاب أو النفي.

(6) تحويل المرضى السلبي الدفاعي، ذوي البنية الذهانية الهذائية (بارانويا) أو ذوي البنية التي تنطوي على نواة اضطهادية ذات شأن، يترجّح بين قطبين: المقصود خصاء المحلّل الذي يكوّن عضو الذكر لديه، الذي أسقط عليه المريض كل عدوانيته، تهديداً خطيراً من النفوذ المدمّر، ولكن الخصاء الاستيهامي (الدفاعي) للمحلّل لا يكوّن أو هي تهديد، ذلك أن عضو الذكر المخصيّ يؤدّي دور موضوع مرعب وبوسعه بملامسته نفسها أن ينقل العدوى إلى المريض ويخصيه لهذا السبب. ونحن، من جهة أخرى، نعرف الخوف العميق المنتشر انتشاراً كليّاً من صور الخصاء، ليس لأنه يذكّر باحتمال وقوعه فحسب، ولكن لأن الملامسة - حتى البصرية - للموضوع المخصيّ يكوّن في ذاته أيضاً تهديداً لكمال الفرد. وهذا يبيّن لنا أيضاً كم يتعذّر قصورّ الخصاء أنه يعادل نقصاً في اللاشعور.

إذا أخذنا بالحسبان خاصيّة للاشعور بالنسبة لسيرورة تجري في الأنا، على مستوى قبل شعوري. والواقع أننا إذا تابعنا العمل الذي يحدث في الأنا، فإننا نلاحظ أن التقدّم الديالكتيكي يجري باتّخاذ مواقف أساسية، وتراجعات، وتسويات، وهي حركات ذات نطاق واسع يمكننا أن نصفها أنها إستراتيجية.

أما على مستوى أعمق من اللاشعور، فإن ديالكتيكاً مختلفاً يسود فيه، قوامه تغيّرات مستمرّة في التوازن، ثمرة عمل مدقّق، في العمق والفروق الدقيقة، إذ أن تغيّر شحنات التوظيف يتنوّع بتواتر أكبر بكثير من التواتر على مستوى الأنا. ويبدو جيداً، والحال هذه، أن العلامات التي تعبّر عن هذه الحركة الأخيرة تسم مراحل السيرورة التكتيكية، كما تسم على وجه الدقّة تلك التغيّرات الأساسية في السيرورة الإستراتيجية الجارية على مستوى الأنا. وهكذا فإن الفرد عندما يختار الوضعية السادية على مستوى الأنا، تكون علامة هذا التوجّه هي القضيب، وبالتالي خصاء الموضوع؛ أما التطبيقات الجزئية المستمرّة، إذا جاز القول، لهذه الوضعية، فإنها ستكون ذات صفات موقعية مختلفة بحسب الدرجات المختلفة لبعدها عن الأنا الشعورية أو قبل الشعورية، ولكنها ستمثّلها العلامة نفسها دائماً.

وإذا عكفنا الآن على وضع تعريف للصورة القضيبية، فإن بوسعنا أن أن نقترح الصيغة التالية اقتراحاً مؤقتاً:

تمثّل الصورة القضيبية في اللاشعور حركات النضج الدافعي الديالكتيكية الجارية تحت تأثير الكمال الذي يكمن نموذجه الأصلي في الحالة قبل الولادية.

II - النرجسية والدافع

نحن نعلم أن الصورة القضيبية يمكنها، في الأحلام على سبيل المثال، أن تمثّل الحالم كله وأن القضيب يمكنه أيضاً أن يكون غائباً من جسم يمثّل بذاته القضيب، إذ أن الوظيفة القضيبية تكون قد أُسقطت على الجسم برمّته وقطبا التكاملية يمكنهما على هذا النحو أن يرمزا، أحدهما بدلاً من الآخر، إلى القضيب الذي يمثّل الجسم كلّه، ولكن الجسم كله يمكنه أيضاً أن يمثّل القضيب تماماً (فورنْزي وبرْتام لوفن).

والقضيب يمثّل الأنا الجسمية ولكنه يمثّل أيضاً الأبعاد الموقعية المختلفة للأنا النفسية، بالنظر إلى أن فكرة **كمال** الأنا ترتبط بـ كمال عضو الجماع **والعكس بالعكس**. والصورة القضيبية، شأنها شأن كل ما ينتمي إلى اللاشعور، ذات الدلالات المحدّدة تحديداً متضافر العناصر، تشمل الجانب محض الفيزيولوجي من عضو الذكر – عضو جنسي وكذلك كل المتضمّنات لهذا العضو بالإحالة إلى الطور القضيبي على سبيل المثال.

ولكننا سنعكف على دراسة القاسم المشترك بين كل هذه الصور القضيبية، أي الكمال (الإيجابي والسلبي).

رأينا للتوّ، في موضوع النضج الدافعي، أن التطوّر النفسي الجنسي يسلك دربين متوازيين، درب النضج الدافعي بمعناه الحقيقي ودرب التوظيف النرجسي. فالبحث عن الكمال أو الكمالية يجري إذن على نمطين دافعي من جهة ونرجسي من الأخرى أو، بعبارة أخرى، بواسطة السيادة على الطاقة أو إعلان الشأن النرجسي. والحال أن هاتين الوسيلتين تحيلاننا إلى التوظيف الليبيدي وإلى الحامل الأول للانفعالات الليبيدية، عضو الذكر.

وسنحاول أن ندرس شكلين من الكمال القضيبي، النرجسي والدافعي، وسنتكلّم من الآن فصاعداً على عضو الذكر عندما يكون المقصود هو العامل الدافعي وعلى القضيب عندما ننظر إلى العامل النرجسي.

وفي موضوع التوحّد المتبادل الممكن بين الجسم وعضو الذكر، بين الكلّ

والجزء، بوسعنا أن نلاحظ أن أعضاء الحسّ، وليست أطراف الجسم فقط، وأي جزء من الجسم أيضاً في الحدود القصوى، يمكنها لهذا السبب أن تتّسم بخصائص عضو الذكر السلبية أو الإيجابية. مثال ذلك أن الرسّامين التكعيبيين، بيكاسو وغْليز وغورمير، يمثّلون عضو الرؤية (العين) على صورة أسطوانة ضيّقة متطاولة (انظر أيضاً كل المعتقدات بالعين الشرّيرة، عضو نافذ ومرمّر، نظير عضو الذكر الشرجي).

وعقلن بعضهم سمة عضو الذكر للأذن قائلين إنها تتجاوز حدود محيط الجسم، ويبدو في الواقع أن وظيفتها نفسها هي التي تجعل منها عضو ذكر ذا طاقة. وقال فين في مداخلة إن لكل ما يعمل عمله الوظائفي على نحو ملائم دلالة عضو الذكر بالنسبة للاشعور. ويؤكد الأصل الوظيفي لهذه القيمة النابعة من عضو الذكر واقعٌ مفاده أن للأشياء الدائرية أيضاً دلالة عضو الذكر وليست الأشياء المتطاولة فقط، كما يُقال كلاسيكياً. فالدائرة شكل كامل في الواقع، ذات كمالية مطلقة.

فعضو الذكر، وقد قلنا ذلك، صورة الكمالية التي تحصل بفعل السيادة، وكل علامات الخضوع والسلطة تنتمي، في الواقع، إلى رمزية عضو الذكر، من صولجان الملك إلى عصا قائد الأوركسترا. أضف إلى ذلك أن السيادة على الموضوع تنتمي إلى الطور السادي الشرجي ونحن نعلم أهمية المكوّنة الشرجية في الجنسية. وثمة تصوّر للجنسية تحتلّ فيه هذه المكوّنة الطاقية كلّ المكان إذا جاز القول، كما يشهد على ذلك كل المظاهر اللاشعورية أو حتى الشعورية. وهذا أمر واضح على وجه الخصوص في القاموس الشائع وبخاصةٍ الاصطلاحي أو الشعبي الذي يحمل علامة السادية الشرجية، في تسمية العضوِ الجنسي وتسمية الجماع نفسه على حدّ سواء. أضف إلى ذلك أنني سأذكّر بتواتر الرموز السادية الشرجية لعضو الذكر (سكين، سيف، بارودة، إلخ).

أما فيما يخصّ العلاج التحليلي، فمن غير المجدي أن نلحّ على الأهمية لكل ديالتيك الخصاء (سأخصيك، إنك تخصيني، أخصي نفسك، إنني مخصيّ - أنت مخصيّ، إلخ). والجزء الأعظم من النزاعية خلال التحليل يمكننا النظر إليه من زاوية إشكالية الخصاء. والحال أن الخصاء، حتى لو انصبّ على عضو الذكر التناسلي، ذو ماهية سادية شرجية. ويحمل الفَرَض ذاته، القائل إن حسد عضو الذكر لدى البنت قد يرتكز، جزئياً على الأقل، على رغبتها في أن تبول كما يبول الصبيان، علامة التصوّر الشرجي للجنسية ويبدو، بالإضافة إلى ذلك، أن الرغبة نفسها في البول وفق أسلوب الصبيان قائمة على الفارق بين التبوّل القذفي، إذا أمكننا القول، لدى الصبيّ، وبين التبوّل، بالمقارنة، لدى البنت الصغيرة، الأكثر سلبية، الذي تنقصه القيمة الباليستية (الذاتية الاندفاع). ولكنه تصوّر لحسد عضو الذكر سطحيٌ جداً في الواقع. وثمة فَرضَ متمّم يبدو لي أن اقتراحه ممكن وهو ينتمي أيضاً إلى تصوّر العالم في الطور الشرجي. والواقع أن الشرجي لا يعترف بشيء أنه واقعي إلا ما هو واضح، قياسه ممكن ومقارنته بشيء آخر ممكنة، وبالتالي مرئي. وثمة دائماً مع ذلك، ونحن نعلم، مكوّنة استعرائية في الشرجية. والحال أن حامل الجنسية الأنثوية التشريحي خفيّ على وجه التقريب، وذلك يعادل عدم الوجود بالنسبة للشرجي، فالمعادلة امرأة - رجل مخصي تبدو لي إذن أنها تنتمي إلى الطور الشرجي، وإذا كانت المرأة تعيش حياتها مخصيّة فذلك بالتأكيد ليس سببه أن عضواً جنسياً صالحاً للإشباع على مستوى الجنسية[7] ينقصها، بل لأن هذا العضو ينقصه بعض الخصائص التي لا غنى عنها من وجهة النظر الشرجية. فالتوظيف لدى السادي الشرجي لا ينصبّ، كما لفتّ النظر إلى ذلك في موضوع العلاقة الشرجية بالموضوع، على الموضوع بقدر ما ينصبّ على

(7) لا أعتقد أن الفتاة تجهل فرجها قبل البلوغ.

العلاقة التي يقيمها مع الموضوع، أي على **علاقة القوى** التي تؤمّن لهذا السادي الشرجي السيادة على الموضوع. والحال أن السيادة تكافىء حرمان الموضوع من استقلاله الذاتي؛ فذلك يعني خصاءه وهذا الخصاء للآخر له قيمة اكتساب عضو ذكر شخصي في اللاشعور. ويُتصوَّر عضو الذكر في هذه المرحلة بمثابة الوحيد و«وإذا لم يكن لديك عضو ذكر، فلديّ أنا». ونحن نرى أن صورة عضو الذكر تشكل كل تحوّلات الكمال الجسمي، من الواقع الفيزيولوجي حتى الفكرة المجرّدة. إنه امتثال وحيد لمجموعة من الوضعيات ذات وجاهة سيكولوجية ومفصولة بتشكيلة كاملة من أشكال الانتقال.

وبهذا الصدد، وعلى هامش مقال فرويد «ذكرى من طفولة ليونار دو فنسي»، سنقول بعض العبارات عن **الفيتشية** التي يبدو أن موقعها، في رأينا، يتحدّد معاً في البعد الدافعي لعضو الذكر والبعد النرجسي الذي يناسبه القضيب. وسيتيح لنا هذا الموقع الوسط، موقع الفيتيشي، أن نقارب إشكالية البحث النرجسي عن الكمال.

وسأذكّر بأن عضو الذكر الذي يبحث عنه الفيتيشي لدى شريكته مزوّد على الغالب، كما لاحظ بعض المؤلفين قبلي، بخصائص شرجية. فنحن نعلم على هذا النحو أن الفيتيشي يؤثر الأشياء القذرة، المستعملة، بل المنفّرة في بعض الأحيان المشبعة بالروائح، ونقول بعبارة واحدة إنها تلك التي يدنّسها البراز.

ويزوّد الفيتيشي شريكته، في النظرية الكلاسيكية، بأشياء ترمز إلى عضو الذكر ويزوّدها في أغلب الأحيان، كما رأينا للتوّ، بعضو الذكر البرازي، دفاعاً عن نفسها من الخوف من الخصاء. ويبدو لنا جيداً، والحال هذه، أن في ذلك إنما يكمن، في الواقع، ذلك الهدف النهائي الذي يلاحقه الفيتيشي ولكن الفيتيشي يبلغه في الحقيقة بطريق ملتوية يمرّ بـ **خصاء** موضوعه حتى يحوز عضو الذكر

الرمزي الذي منحه الموضوع بصورة مسبقة، حيازة استيهامية أو واقعية. وهذا يبدو واضحاً على وجه الخصوص في الحالة المعروفة جيداً، حالة قاطعي الضفائر. ويخصي الفيتيشي شريكته حتى عندما لا يستولي بالفعل على الفيتيش، مكافىء عضو الذكر الشرجي، خصاء كما يقتضيه التصوّر النكوصي للجماع، الواقعي أو الاستيهامي، لدى السادي الشرجي.

وتبدو ماهية **التعرّي** التدريجي على المسرح، في السجل نفسه، كامنة في «النزْع» المتتالي لرموز عضو الذكر المتنوّعة التي تتزيّن بها المرأة (قفّازين أسودين طويلين، جوربين أسودين، حذاءين بكعبين مرتفعين أو جزْمة نصفية، مشدّ، إلخ)، كما لو أن أهمية الأمر لم يكن يكمن في واقع مفاده أن المرأة تحمل عضو ذكر ولا في عريها، بل في خصائها التدريجي المتعدّد.

وقد يشرح لنا كل ذلك دلالة عضو الذكر المكتسب على هذا النحو، الذي نرى جوانبه الجنسية الطاقية السادية الشرجية، المتداخلة بعناصر نرجسية، التي تجعل منه قضيباً. والواقع أن مثل هذه الخرقة الوسخة يمكنها أن تصبح عضو ذكر بالنسبة للاشعور أمر يدلّ على حضور العنصر نفسه، عنصر القوة الكلية التي تصنع من عصا شجرة البندق عصر سحرية[8]. ونقول، علاوة على ذلك، إن تجاوزاً مماثلاً لعناصر مختلفة - دافعية ونرجسية - خاصّة بالصورة القضيبية، موجوداً في اللاشعور، أمر يبدو لي أن وجود الجنسين المثليين الفيتيشيين المفارق يؤكده، فرؤية عضو الذكر لدى الشريك لا تكفي وحدها على ما يبدو لإشباع بحثهم. فنحن نُساق إذن إلى التفكير أن الفيتيش لا يتماثل في وظيفته مع العضو الجنسي فقط.

والواقع أن **الانفصال** بين العناصر الدافعية والعناصر النرجسية، بين عضو

(8) يلحّ باش وروناد أيضاً في دراستهم الرائعة، **مشكلات الانحراف الأساسية**، على المكوّنات قبل التناسلية، وبخاصة الشرجية، للفيتيش وإضفاء المثالية عليه، أي جانبه النرجسي. أما النظرية العامة للفيتيشية، فإنهما معي في الخطّ الفرويدي نفسه، خطّ النكوص.

الذكر والقضيب، غير يسير دائماً، لا سيّما أن العاملين موجودان بنسب مختلفة بالطبع.

ورأينا في موضوع الحسد لدى البنت الصغيرة، حسد عضو الذكر، أنها تودّ لو أنها ذات تبولّ بالقذف وعضو جنسي مرئي، ولكنها تغار في الوقت نفسه من عضو الذكر، ذلك أن «الصبيان يفعلون كل ما يشاؤون» (القوة الكلية النرجسية).

فنحن نرى الآن إذن، من خلال هذا المثال، ذلك التشابك الدائم بين عنصر عضو الذكر والعنصر القضيبي، وهو أمر يذكّرنا في الوقت نفسه بضرورة هذا التشابك، ذلك أن الدوافع ينبغي لها أن تكون موظّفة نرجسياً والمكوّنة النرجسية لا يمكنها، بالعكس، أن توجد إلا بفضل حامل دافعي واقعي.

ولهذا السبب نرى أن النرجسية المحرومة كلياً من عناصر دافعية واقعية لا يمكنها أن تفضي إلا إلى الهذيان، في حين أن الشرجية غير المندمجة نرجسياً تفضي من جهتها إلى كل ضرب من التكوينات المرضية التي ربما يكون منها تجسيد النزاع النفسي في مرضي جسمي. (هذا على سبيل الفَرَض).

وترتكز النرجسية نفسها، في رأينا، على وقع هو الحياة قبل الولادة، وتلك كمالية واقعية ذكراها مدوّنة فينا ومقتضانا الدائم لضرب من استعادة هذا الكمال قائم إذن على هذا الواقع الذي يمثّله القضيب في اللاشعور. وعندما نتكلّم من جهة أخرى على قضيب «يتّخذه» فلان أو فلان، لا نفكر على وجه العموم بعضو الذكر بل بالقضيب بوصفه قوة كلية، وعلى هذا النحو إنما ينبغي أن نفهم الجزء الأعظم من المادة القضيبية التحليلية، الحلمية أم الاستيهامية.

وإشكالية خصاء الموضوع كلّها، الموجودة لدى الرجل المحروم من عضو الذكر ولدى المرأة على حد سواء، التي تمارس تأثيرها على موضوع مذكّر كما على موضوع مؤنّث، تدلّ على تجاور عضو الذكر والقضيب في اللاشعور. ويتيح

هذا المظهر المزدوج للصورة القضيب - عضو ذكر الدافعية والقضيب - الكمالية أن نحيط بمشكل الخوف من الخصاء لدى المرأة. ويضفي عضو الذكر الدافعي على الرغبة إمكانات التحقيق ولكنه يضفي حدوداً أيضاً، في حين أن القضيب سيظلّ ممثّل القوة الكلية، والعظمة، وما لا يوصف، الذي يدوم لدى كل فرد طوال حياته.

وتنبسط الدفعة النرجسية نحو المطلق، نحو اللامحدود، انبساطاً أسهل بقدر ما لا يكون بوسع شيء أن يعارضها وبقدر ما يرافق إنجازَها ضرب «نوعي من العاطفة الابتهاجية التي تكون مناسبة بمقدار ما تكون بأمن من الإثمية لأنها (العاطفة) غير نزاعية وسابقة على ثنائية المشاعر».

ونحن نعلم أن الطفل يفلح في أن يصون قوته الكلية النرجسية بإسقاطها على أبويه المؤلهين وعلى الألوهيات على وجه العموم، وكلّها مفهومات ستمثّلها الصورة القضيبية في اللاشعور بأشكال مختلفة ومتكيّفة مع دلالاتها النوعية.

والقضيب يمكنه، مع احتفاظه بشكله الأصيل المنتمي إلى عضو الذكر، أن يفقد صفاته محض الدافعية ولا يتّخذ إلا دلالات نرجسية. ويختفي التمايز الجنسي في هذه الدرجة وملكية القضيب لا تعني أن يكون المرء رجلاً أو امرأة ولكنها تعني أن **يكون على نحو كامل** من وجهة النظر النرجسية، أعني أن يكون ما هو عليه.

أما العلاج التحليلي، فإن الأمل والاقتناع ببلوغ هذا المثال من الكمالية، الذي لولاه لكان تحمّل انبعاث النزاعات ذات العلاقة بالموضوعات متعذّراً على المحلّل. أضف إلى ذلك أنني بيّنت أن الوضع التحليلي في ذاته كان يحرّض المحلَّل على أن تنبعث بعض الحالات الابتهاجية، نظيرات النرجسية قبل الولادية، ضروب من المعيش التي تستبق مثال الكمالية، مثال ستمثّله في سيرورة العلاج رغبة في أن يحوز المحلَّل، على أنماط مختلفة، عضو ذكر المحلّل، الذي يحيل هنا إلى القضيب في الواقع.

III - الديالكتيك

النرجسية، غير الدافعية والسابقة على ثنائية المشاعر في الأصل، إنما يُضفى عليها النزاع حين تدلف في سيرورة النضج الدافعي.

وسنذكّر فقط ببعض المعاينات دون أن ندخل هنا في البرهان على أصول هذه الحركة.

وهكذا يصرّح المرضى غالباً، في بداية التحليل، أنهم لا يجرؤون على الكلام على أنفسهم، وأن الاهتمام على هذا النحو بذاتهم شرّ، إلخ. ونقول بعبارة أخرى إنهم لا يجرؤون على أن يحبّوا أنفسهم ويقبلونها، ونحن نعلم أن إحدى مهمّات المحلّل تكمن في سوقهم إلى أن يتيحوا لأنفسهم ذلك. وبمجيء المرضى إلى التحليل الآن إنما يبيّنون أنهم استطاعوا أن يتغلّبوا على مانع يرتبط بإضفاء الإثمية على نرجسيتهم. فالأنا العليا المسيحية عدوّ النرجسية، وخطيئة الكبْر بالنسبة إليها هي الخطيئة بامتياز.

فالنضج الدافعي سيجري إذن تحت تأثير الإثمية الموازية للنرجسية والدافع والمكوّنة الشرجية على وجه الخصوص (مثال الأنا والأنا العليا) وسيعرض علينا نقيضة حقيقية عضو ذكر - قضيب ستولّد بينهما **حركة ديالكتيكية**.

ونحن نعلم أن الطفل يشرع على الغالب في عملية تكتيكية مستنداً إلى أحد أبويه خلال تسوية نزاعه مع الآخر. ويتكرّر هذا التكتيك في التحليل. ومن اليسير أن نعاين أن المريض الذي يحقّق تقدّماً في مجال سيميل على الغالب إلى التراجع في مجال آخر. ولا أعتقد أن بوسعنا أن نكتفي بالاستعانة بآلية اقتصادية ونقول: «كان ذلك مغالياً في الروعة، ولا بدّ له من أن يفسد»، بل نطرح السؤال التالي بالحري: «ما الذي كان مغالياً في الروعة؟» و «ما الذي فسد؟».

فنحن نرى عندئذ أن الترجّحات تحدث في مجالات نوعية دائماً وبوسعنا أن نعاين أن تقدّماً على المستوى الشرجي، المادي، على سبيل المثال (الربح الكبير، التقدّم على المستوى المهني. . .) يرافقه تراجع على المستوى الوجداني، على صورة جرح نرجسي مثار، فقدان مكانة، أو حب، أو حب الذات.

وهذا التناوب تعبير عن سيرورة خاصة، ديالكتيكية، تقود الفرد خلال العلاج التحليلي إلى دمج مواز يتعاظم اكتماله، دمج نرجسيته وعلاقاته بالموضوع، فالتقدّم يحدث بأرباح صغيرة من الناحية الكمية ولكنها تراكمية، وكل حركة موسومةٌ بالصورة القضيبية السلبية أو الإيجابية، كما ذكرنا في المدخل إلى هذا العرض.

وستكون الشحنة الليبيدية، خلال هذه الحركة الديالكتيكية، موظفة في العنصر من الثنائي الذي أُضفي عليه النزاع آنياً إضفاء أقلّ، ونحن نعلم أن الدافع الذي يُوظَّف توظيفاً قوياً يمكنه، مع توظيف ليبدي متناقص، أن يعمل عمله الوظائفي بوصفه دفاعاً والعكس بالعكس. فهذا شخص يمكنه على هذا النحو أن يقبل خصاءه الدافعي حتى يتدبّر ضرباً من زوال إضفاء النزاع على المستوى النرجسي، أو يتخلّى عن منحة نرجسية ليتيح لنفسه إشباعاً دافعياً، إذ يؤمّن لنفسه على هذا النحو تقدّماً لقاء تضحية أقلّ شأناً (والصفة الأقلّ شأناً من التضحية تابعة للتوظيف).

والديالكتيك يمكنه على هذا النحو أن يتنوّع بنسب كبيرة؛ إنه لا يحدث بين عضو الذكر الطاقيّ والقضيب فحسب، ولكنه يحدث أيضاً بين مختلف الأشكال الدافعية والنرجسية، بين مختلف أطوار النضج المتنوّعة جداً فيما يخصّ أهميتها النفسية الجنسية على وجه التقريب.

ونحن نعلم على سبيل المثال إلى أي حدّ يكون أسهل على بعض الرسّامين أن يشبعوا دافعهم الشرجي، إذ يصعّدون اللعبة البرازية نفسها في ممارسة فنّهم، من أن يهيّئوا معرضاً، وينظّموا الاستقبال لافتتاح معرض فنيّ، ويتصوّروا شروط عقد، ويبيعوا لوحاتهم، فكل العمليات تستخدم جوانب أخرى من المكوّنة الشرجية.

ومن الضروري أيضاً وفي حسد عضو الذكر لدى المرأة، أن نميّز في رأيي بين كل دلالات عضو الذكر والقضيب.

وتفسير كل حسد لعضو الذكر أنه دفاع أمام الأنوثة يجازف في أن يفضي إلى جهل بدلالة الرغبة في الكمال النرجسي والكمالية، التي تشملها على الغالب وتتجلى في اللاشعور بالصورة القضيبية لدى الجنسين.

والواقع أن الأنوثة المكتملة تتجلّى في اللاشعور بهذه الصورة أيضاً. ولهذا السبب فإن الفهم الخاطىء للمواقف الأنثوية من القضيب - الكمالية لا يمكنه أن يقود إلا إلى تفاقم حسد العضو، عضو الذكر (بوصفه عضواً جنسياً) وتأبيد هذا الحسد.

واتجاه امرأة ترفض العلاقات الجنسية يمكنه، في عداد اتجاهات أخرى، أن يعادل أن تهب نفسها عضو ذكر شرجياً بهذا الرفض، ولكن إذا رفضت امرأة علاقات جنسية لأنها عذراء ووظّفت عذريتها نرجسياً، فإنها تهب نفسها قضيباً. فلاهوتيو القرون الوسطى فهموا ذلك جيداً، إنهم كانوا يرفعون إلى المحرقة - عقاباً على خطيئة الكِبْر - عذارى صبايا متمرّدات ذوات جمال رائع.

والواقع أن اتجاه الرجال إزاء النساء يتدوّن أيضاً، على الغالب، في هذا الديالتيك عضو ذكر - قضيب. وهكذا لن يتسامح رجل معيّن من الرجال، يشجّع امرأته على أن تتبوأ موقعاً مسيطراً فيما يخصّ القرارات التي ينبغي اتخاذها في أن تُظهر مزاياها الفكرية ويغار من حياتها المهنية. وذاك رجل آخر يتحمّل بيسر أن تمارس امرأته الأعمال لا أن تقود سيّارة.

وكل نسخ هذا الموقف ممكنة ولكنها تمضي على الأغلب، دون شك، باتجاه ضرب من الرفض لمنح القضيب.

ونحن نذكّر، دون أن نريد الدخول هنا في تحليل هذا الحادث السوسيولوجي، حادث التلقين، أنه يتضمّن دائماً على وجه التقريب أفعالاً جنسية مثلية في الظاهر، تجعل منه مكوّنة نوعية، باقية حيّة مع ذلك بأشكال ملطّفة

ورمزية في إغاظات الأغرار وطقوس أخرى مماثلة، ترافق القبول في المحافل، والنوادي، والرابطات السرّية والتجمّعات المتنوّعة . . . وحتى إذا سلّمنا، والحال هذه، أن في ذلك تكمن، بالنسبة للمتقدّمين، مناسبة ليعيشوا جنسيتهم المثلية، إذ يلوطون الفتيان على نمط رمزي أو واقعي، وأن للمؤسّسة نفسها محتوى جنسيّ مثليّ صراحة، فإنه ينبغي لنا مع ذلك أن نرى أنها تخدم في الوقت نفسه هدفاً مختلفاً بصورة أساسية: إنه اجتياف القضيب الأبوي بوصفه إسقاط نرجسية الغرّ الذي يصبح على هذا النحو ذلك المؤتمن على هذه القوة؛ وإذ تشارك المؤسسة في البعد النرجسي، فإنها تقع خارج الزمان وتدوم على هذا النحو أبداً من خلال حاملها، الجنسية، ولكنها منحرفة جزئياً عن هدفها الأصيل، أي أنها مصعّدة.

واللاشعور يستخدم الصورة نفسها في الحالين، صورة ذات تحديد متضافر العناصر، كما هو الأمر بالنسبة للامتثالات الحلمية التي يقع علينا أيضاً عبء فصل دلالاتها المنضدّة وفي هذه الإضاءة إنما ينبغي، في رأيي على الأقلّ، أن ننظر في تحليل المكوّنة الجنسية المثلية السلبية لدى الجنسين.

IV

الكمالية النرجسية

المحتوى والمتحوي

أذكّر، هنا أيضاً، بالدور الذي جعلته فعّالاً خلال الحالة قبل الولادية في البحث عن الكمال النرجسي.

ويحقّق الطفل في رحم أمه حالة من الكمالية بفضل الوحدة التي يكوّنها مع أمه، أي في الانصهار **المحتوى والمحتوي**.

والطفل في هذه المرحلة لا يميّز العنصرين بالتأكيد اللذين يؤلّفان عالمه

الانصهاري، ولكن الواقع، سواء أكان يحتفظ من عالمه بشيء من الانطباع، أم أنه يعيد تكوين وضعيته الأصلية بصورة استيهامية، يكمن في أنه سيحاول، في كل مرحلة من مراحل نموّه، أن يكوّن مجدّداً، على أنماط مختلفة، وحدة المحتوى والمحتوي. فالقضيب سيتحدّد إذن بوصفه الكمالية التي تحقّقها وحدة محتوى - محتوي.

وهكذا يحقّق الطفل، الذي يغدق عليه الثدي نعمه فيّ المرحلة الفموية، هذه الوحدة، ويبلغها في المرحلة الشرجية بالسيادة على الموضوع الذي ينغلق فيه، ويؤسّس الجماع، الذي يحقّق اتحاد الشريكين المتكاملين، كمالية جديدة أي محتوى - محتوي.

(وصفت جانين شاسّيغه سميرْجلْ، في عمل أصيل يتناول **استيهام الالتهام في الرهاب والخدعة في الذهان الهذائي** (بارانويا)، تحوّلات المتحوى والمتحوي الاستيهامية في هذين الكيانين من علم وصف الأمراض).

والخصاء ذو علاقة، كما بيّنت فيما سبق، بمجموعة مماثلة (ستارك)، الخصاء الجنسي، الخصاء الشرجي (فقدان البراز، خسائر مادية، فقدان الرقابة)، الخصاء الفموي (الفطام) وأخيراً الولادة (خصاء أولّي).

ونحن، على هذا النحو، نرى التناظر الكامل بين مجموعة الكمالية ومجموعة «الخصاء».

والسؤال مطروح لمعرفة ما إذا كان تحقيق الكمالية، في الحياة أو في العلاج التحليلي، ممكناً.

والواقع أن الكمالية لا يبلغها المرء بلوغاً تاماً أبداً، ولو لا ذلك لما كان أي تطوّر ممكن التصوّر. وتظلّ مع ذلك وعداً، احتمالاً، إذ يُسقط الإنسان في المستقبل ما عرفه مرة والبحث عنه ليس عبثاً على نحو كلّي دائماً، ذلك أنه إن لم

يكن قد نال أبداً إشباعاً ابتهاجياً، فلن يكون ثمة أيضاً أي تطوّر ممكن. فتأكيد بلوغ الكمالية المطلقة، شأنه شأن النفي الكلي لهذا البلوغ، يكوّنان، كلاهما، جهلاً بواقع حياة الإنسان وحياة الإنسانية، حياة ترتكز على تعاقب دفعات وحركات دينامية.

ونحن رأينا، في النموّ الفردي، أن الفرد كان، في الواقع، يحصل في كل مرحلة من هذا النموّ على إمكانات جديدة من «البُرْء النرجسي» القائم على توظيف نرجسي للنضج الدافعي، الخاص بالمرحلة المأخوذة بالحسبان.

ولا بدّ من أن نلفت النظر هنا إلى أن إمكان «البرء النرجسي» في كل مرحلة لا ينوب مناب الإمكان في المرحلة السابقة، بل ثمة إضافة لإمكان جديد.

ويحتوي الطور التناسلي كل هذه الإمكانات، فهو يحوز على هذا النحو تشكلية واسعة ذات فروق دقيقة من الكمونات. وأعتقد أنني لا ألتقي هنا فكرة فرويد فحسب، فكرة «الحزمة ذات الأولّية التناسلية»، ولكن ألتقي أيضاً فكرة موريس بوفه الذي كان يرى في القدرة على النكوص الحرّ خاصّة أساسية من خصائص التناسلية. وهذا التصوّر يناظر، على أي حال، تعريفاً جزئياً كلاسيكياً للجماع التناسلي يفترض هجراً تلقائياً للنكوص، ويدمج في الوقت نفسه نظرية امتزاج العناصر الوراثية لفورنْزي التي تعتبر الجماع ضرباً من إيجاز مراحل النمو كلّها. أما عضو الذكر التناسلي، فإنه نتيجة توليف مثيل لعناصر دافعية من مراحل سابقة ومن المرحلة السادية الشرجية والعناصر النرجسية على وجه أخصّ.

وبما أن مفهوم الكمالية النرجسية الذي يمثّله القضيب ويحققه الاتحاد محتوى – محتوي قد قادنا إلى تصوّر ضرب من التبعية المتبادلة المطلقة بين الوحدة الانصهارية والخصاء، فإنه يتيح لنا أيضاً أن نحيط بمشكل الأوديب على نمط شبه بيولوجي تكويني.

فالمادة التي يقدّمها لنا المحلّلون تبيّن في الواقع أن استيهام المشهد البدائي ذو علاقة بامتثال الاتحاد محتوى – محتوي، الذي يباشر الأبوان، في خيال الطفل، تحقيقه ويودّ الطفل (أتكلّم هنا على الصبي) لو يحطّم هذا الاتحاد، ولكن هذا الانفصال يعادل تدمير القضيب (المتماثل في اللاشعور مع الاتحاد محتوي –

محتوى) ويخصي الأب إذن (إنه خصاء الأب، خصاء بدئي، والخوف من الخصاء هو الخشية من الرد).

وتكوّن الآن رغبة الأم على هذا النحو تدمير المحتوي - المحتوى الأبوي والخصاء بالتالي، مع رغبة الابن في خلق اتحاد جديد مع الأم، أي أن يعيد بدوره تكوين المحتوى - المحتوي، أعني امتلاك القضيب. بل بوسعنا أن نضيف أن الطفل يمكنه، بوصفه حقّق الانصهار محتوي - محتوى مع أمه «قبل» أن يحقّق الأبوان انصهارهما (من وجهة نظره على الأقل)، أن يكون لديه حدس لهذه الأولوية؛ وأن يكون لديه على هذا النحو أسباب مشروعة لاعتبار أبيه دخيلاً مع اقتناع متعاظم.

أما استيهام الإغواء بواسطة الأم، فإنه يبدو ذا علاقة بإسقاط مزدوج عليها، إسقاط رغبة الصبيّ في تكوين وحدة المحتوى - المحتوي معها وفي خصاء الأب في الوقت نفسه، فالأم مسؤولة عن فصم الوحدة التي كانت تكوّنها معه في المشهد البدائي.

وهكذا تجد «الاستيهامات الجماعية أو الكلية» الثلاثة لدى فرويد: **الخصاء، الإغواء والمشهد البدائي**، نفسها وقد انصهرت في وحدة مفهومية متماسكة.

الفصل الثامن

دراسة في الاكتئاب[1]

مقدمة

نسمّي اكتئاباً ضرباً من البَرَم (انزعاج وقلق) النوعي ذي نَغَمية. وسنشرع في دراسته هنا، إذ نوجّه انتباهنا أول الأمر إلى طبيعة هذه الحالة الواجدانية، طبيعتها نفسها. والحال أن نغمية الاكتئاب النوعية يتعذّر إدراكها إذا صحّ القول وتقاوم كلّ وصف، أياً كان غناه اللفظي أو دقّته الأدبية، بل الفلسفية (الفينومينولوجية، الوجودية، أو الأخرى). والواقع أن أولئك الذين جرّبوا هذا المعيش المتعذّر الوصف، ولو على نحو عابر تجربة شخصية، هم وحدهم الذين يمكنهم أن يدركوا الصفة النوعية لهذه الحالة الوجدانية.

بوسعنا مع ذلك، حتى تبدأ تقصّياتنا، أن نحاول استخدام درب من المقاربة غير المباشرة، إذ نقارن الاكتئاب بالحَصَر. فالحصر يُعاش، في الواقع، بوصفه ارتكاساً دفاعياً أمام خطر حيويّ، في حين أن الحياة نفسها هي التي تصبح بالعكس، مصدر الانزعاج في الاكتئاب. والحال أن الحصر إذا كان يعبّر عن هذه الخشية على الحياة، خشية تصل الذروة، فذلك يبرهن على أن المصاب بالحصر

(1) محاضرة أُلقيت في رابطة باريس للتحليل النفسي، 21 كانون الثاني (يناير) 1964، ونُشرت في مجلة التحليل الفرنسية. 1965، العددان 2 -2.

يوظّف الحياة، بل يوظّفها إلى الحدّ الأقصى، في حين أن هذا التوظيف هو الذي يُعاش في الاكتئاب قاصراً أو يبدو - في الحالات القصوى حتى شبه غائب. «فالحياة لم تعد تستحقّ أن تُعاش». وتبدو مسألة التوظيف النرجسي إذن أنها تقدّم نقطة انطلاق ملائمة لنباشر عرضنا.

ومنذ فرويد(2) [9] (ولكن إسكيرول كان يتكلّم من قبلُ على «اعتبار الذات») وأبراهام(3)، تلحّ كل الدراسات في الاكتئاب على أهمية هذا العامل. وهكذا تبنّى رادو [28] وفينيشل [7]، وعلى وجه الخصوص إيديث جاكوبسون [21] وإداور ببْوينغ [4]، وكذلك المؤلفون الفرنسيون، مثل باش [27] ورونار [29] وماله [25]، تبنّوا وجهة النظر هذه. وأنوي في هذا العمل الحالي أن استأنف المسألة واضعاً النرجسية في ضرب من المنظور الذي سأوضّحه خلال عرضي.

I

«أعظم شيء في العالم إتقان المرء
ألا يكون تابعاً لشيء أو شخص».
مونتين

علينا أول الأمر، وقد اخترنا على هذا النحو ذلك المنظور الذي نقصد أن نحدّد فيه موقع حديثنا، أن نقول بعض العبارات عن مفهوم النرجسية ذاته.

يتكلّم فرويد في كتابه **الكفّ، والعَرَض والحَصَر** على «الطبيعة الليبيدية لغريزة المحافظة على البقاء» ذاكراً سمة هذا التوظيف ذكراً صريحاً. فـ«النرجسية الأولية المطلقة» يمكنها إذن دون شك أن تُعتبَر مظهر المكوّنة الليبيدية لغريزة

---

(2) «اختيار الموضوع لدى السوداوي اختيار نرجسي».

(3) «جرح بليغ لنرجسية الطفولة بفعل إحباطات (خيبات أمل) الحب».

ملاحظة: نشير إلى أن الرقم المكتوب داخل قوسين [ ] يدل على رقم المرجع الوارد في نهاية هذا الفصل «م».

المحافظة على البقاء وهذه النرجسية هي التي تسوّل لي نفسي ألا أميّزها من الحالة الابتهاجية (اللاشعورية) قبل الولادية، ذلك أنه لا وجود لأي سبب، كما لفتُ النظر في مكان آخر، يدعو إلى افتراض حلّ من الاستمرارية بين هذه النرجسية الأولّية الماثلة في بداية الحياة وبين الحالة الابتهاجية السابقة - لا سيّما أن كثيراً من المؤلفين لاحظوا على هذا النحو (وحسبي أن أذكّر بأعمال برْترام لوفن) [22] أن استمرارية الحالة الابتهاجية وذكراها ومثولها في اللاشعور بيّنات، ولو لم يكن ذلك إلا على سبيل الاستيهام الأولّي والأساطير (توسْك)[32].

وفي رأي فودرنْ [6] أن «وجود» الأنا نفسه موظَّف نرجسياً ويظهر بهذا المعيش النوعي الذي يسميّه ich - gefühl (الشعور بالأنا أو الإحساس بالوجود).

فنرجسية الطفل هذه متماهية مع الحالة الابتهاجية والقوة الكلية عند الولادة ونحن نعلم في الواقع أن محيطه سيسعى جاهداً، على الرغم من التغيّرات الأساسية في شروط حياته، إلى أن يحافظ حوله على جوّ شبيهٍ بذلك الذي كان سائداً في الحياة داخل الرحم (فورنزي) [8]. ولن يفلح الطفل إلّا تدريجياً، فيما يخصّ توجّهه السيكولوجي على الأقلّ، في تعديل نظامه الأيضي النفسي، وذلك تغيير يمكننا وصفه، فيما يخص جانبه الأساسي، أنه الانتقال من النظام غير النزاعي ذي القوة الكلية (حاجات الطفل مشبَعة خلال حياته الجنينية قبل أن تنشأ بوصفها حاجات) إلى النظام الذي سيُساق فيه شيئاً فشيئاً، بالنظر إلى أن الآلية الذاتية لتموينه توقّفت عن العمل، إلى ضرب من إعادة تنظيم اقتصاده السيكولوجي الفيزيولوجي مهمًا كان في البداية أخرق وأولّي. فالطفل يصل دون أي شك إلى هذا العالم بمنظور مختلف كل الاختلاف عن المنظور الذي ينبغي له أن يكتسبه فيما بعد.

والمهم في رأينا هنا، عن هذا الموضوع، أن على الطفل أن يكتشف اكتشافاً بالتدريج أجزاء جسمه المختلفة أول الأمر، ووجودها، ثم أنها تكون في هذه

المرحلة نفسها بالنسبة له، جرّاء وجود صلةٍ بينه وبين أعضائه، ضرباً من القوة الكلية وابتهاجاً **دون جسم ودون أنا بالتالي**. إنه، في هذه المرحلة نفسها، غير مادي، دون حدود، غير زمني، قوياً كل القوة، يحمل في نفسه كل صفات الألوهية. ولكنه ملزم أن يكتشف وجود جسمه وأن يقبله بوصفه خاصّته، وسيُساق أيضاً إلى أن يتصرّف على النحو نفسه مع دوافعه، مع أن فهم هذه السيرورة أصعب على المراقب من فهم تكامل الأجزاء من جسمه(3). وسيدرك الطفل عالم الموضوع شيئاً فشيئاً، ولو لم يكن إلا بغية أن يعيد إعادة ناجعة تنظيم نظامه الذي يكون هذا الطفل تابعاً له، ولكن علينا ألا ننسى أن إعادة التنظيم هذه تتطلّب منه إعادة توزيع الطاقة في اقتصاده الليبيدي لأنه يمرّ من نظام نرجسي مطلق إلى نظام مقابل بصورة أساسية، قاعدتُه الإحباطات والتوتّرات الدافعية ذات الأساس الفيزيولوجي الجديد. ويباشر في استخدام أعضاء خارجية وداخلية، حشوية وحسّية بقيت حتى الآن غير مستخدمة، متطوّرة في عنصر مختلف، وذلك أمر لا يمكنه أن يحدث دون احتمالات متعدّدة.

وسيشمل عالم الموضوع في البداية جسمه ودوافعه، وبالتالي أناه (يقول فرويد إن الأنا قبل كل شيء أنا جسمية).

ومن الضروري له أن يدمج جسمه، وداوفعه، وأناه، بوصفها خاصة به، وأن يوظّفها بالليبيدو النرجسي. وهذا الإدماج لا يمكنه أن يحدث دون توتّرات، وصدمات، وهذا الوضع يكون في البداية أقلّ استساغة من الوضع النرجسي البدائي المطلق السابق وهو بالتالي وضع قاصر من الناحية النرجسية.

والتوتّرات نفسها ستؤخّر هذا الاندماج، إذ يبحث الطفل عن التخلّص من جسمه ومن أناه، اللذين يباشران تكوّنهما بوصفهما خاصّين به، بإسقاطهما مجدّداً (درس توسْك هذه السيرورة في الذهانات)، كما يبحث عن

---

(3) برهنت على أن الاكتشاف النرجسي للذات واختيار الذات يتكرّران في كل اكتساب جديد للأنا بحيث أن كل اكتساب جديد يكون، بإشراف الوعي والحكم، إماً مرفوضاً وإما موظّفاً ليبيدياً ومنسوباً إلى الأنا» (فيكتور توسْك، في أصل آلة التأثير لدى الفصاميين).

التخلّص من دوافعه(4). وستنشأ التوترات إذن بين الكتلة النرجسية الموجودة لديه وبين أناه الوليد؛ فعلى الطفل مع ذلك أن يقبل عالمه الجديد ويغزوه، وذلك ما سيجعله يبلغ طوراً جديداً من النرجسية سيكون طور النرجسية المندمجة.

ومن الواضح أن كل عثرة، كل تعقيد يزرع الاضطراب في هذه السيرورة يمكن أن يعيشه الطفل بوصفه جرحاً نرجسياً، ولكن واجب الشروع في هذا العمل، عمل التكيّف، بل مجرد كونه ملزماً بالتخلّي عن الحياة قبل الولادية، يمكنه أيضاً أن يؤدّي هذا الدور. فالإنسان يعيش دائماً دون شك، في أعماق نفسه، هذا الجرح المفتوح.

II

وحتى يكون بوسع السيرورة (الاندماج النرجسي للتقنية الحيوية الدافعية) أن تتحقّق مع ذلك، يستند الطفل، كما نعلم، إلى أبويه ومربيه، وأمه على وجه الخصوص.

ويكوّن الطفل مع أمه «وحدة تكافلية» (مارغاريت ماهْلر) ويُسقط اندفاعاته الدافعية على أمه التي تقدّم له على هذا النحو قالباً حقيقياً للتوحّد فيما يخصّ دوافعه، وحركيته، إلخ. والأم يمكنها أن تعمل عملها الوظائفي في هذا الاتّجاه ذلك أنها لا تعيش مع الطفل في ضرب من التبادلية والهوية الغريزية فحسب، بل لأنها حين تحبّ الطفل **تضفي قيمة** على هذا التعلّم.

(4) نحن نعلم أن الدوافع بوصفها كذلك لا يمكنها أن تولد إلا من الإحباط، وبالتالي من الجرح النرجسي. وبالنظر إلى أن هذه الدوافع تُشبع إشباعاً مباشراً في عالم الجنين، فلها لم يكن ممكناً لها أن توجد بوصفها كذلك (إلا في حال اضطرابات خاصة تتيح المجال على وجه الدقّة لاضطرابات نوعية. إن ب. مارتي يرى فيها أصل الحساسية على سبيل المثال).

ويتّخذ كل إشباع دافعي، بفضل هذا الإسهام النرجسي الصادر عن الأم، مظهراً نرجسياً ابتهاجياً بالنسبة للطفل، كما لو أن السيرورة كانت تجري في ظلّ النظام النرجسي السابق، ، كما لو أن الاستمرارية بين الحياة السابقة على الولادة والنظام الجديد كانت قد تأسّست مجدّداً وأُلغي الجرح النرجسي، مبدئياً على الأقلّ.

وترمّم الأم، التي تضفي القيمة على الطفل وهي تعزّز هذه العلاقة في الوقت نفسه بالإسهام الغلمي، سمة الحياة الدافعية، السمة السلبية بالضرورة بسبب الإحباطات التي لا غنى عنها.

فهي تتيح للطفل على هذا النحو أن يعيش انصهار العنصر النرجسي والدافع. أليس الحب المثالي أيضاً مظهراً دافعياً تختلط به أيضاً في الوقت نفسه منحة ابتهاجية ذات سمة نرجسية؟ أما السعادة التي ينهلها العاشق من شريكته والعكس بالعكس، أوليست هي التعبير عن إعلاء الشأن المتصف بجنون العظمة والحصري، إعلاء شأن الفرد من جانب الموضوع الذي اختاره؟

ويبدو تماماً مع ذلك أن نجاح هذا «التعزيز النرجسي» المثالي، الذي يُخرج الطفل من لعنة وضعه ويتّصف إذن بأنه ضرب حقيقي من الفداء، يكون غير كامل على الغالب، والسمة الجزئية للنجاح تسبّب في أن يعتبرها الطفل تسوية.

وفي رأيي أننا نجد أنفسنا هنا أمام نقطة التثبيت للاكتئاب: فالمكتئب، على عكس الفصامي مثلاً، نجح في تكوين أنا نفسية وأنا جسمية متماسكتين، متكاملتين ولكن ينقصها إعلاء الشأن والتعزيز النرجسي اللذان يمنحان الأنا إلى الأبد غبطة خاصة، مستساغة، ناجمة عن الكمال الوظيفي الذي أُضيفيت عليه القيمة (فرح بالحياة)، غبطة تتّخذ معنى سلبياً لدى المكتئب، كما سنرى فيما بعد، أي ستكون **معكوسة**(5).

(5) إذا كانت نقطة التثبيت تقع في مرحلة مبكّرة جداً من التطوّر، فإن وحدة الأنا لا تكتمل والناكص أو الطفل سيعتبر أن جسمه لا ينتمي إليه. (انظر فقدان الشخصية، الفصام، حالة الهزال (التهام الذات)، مفعولات الاستشفاء المديد. .).

والدليل على أن هذا «التعزيز النرجسي» غير كامل يقدّمه لنا واقعٌ مفاده أن الطفل سيكون مرغماً، لحماية نرجسيته، على أن يُسقطها على وجه أبوي وعليه، ليكون بمقدوره أن يحبّ نفسه بوصفها موضوعاً، أن يمرّ إذا صحّ القول بواسطة هذا الموضوع الذي تُضفى عليه المثالية، موضوع هو حامل «مثال الأنا»؛ والحال أن هذا الإسقاط يجري على الأب والصورة القضيبية لدى الجنسين، بالنظر إلى أن الموضوع الأول بدا من وجهة النظر هذه غير كافٍ (أعتقد أن جانين شاسيغه سميرجْل ستلحّ على هذه السيرورة لدى البنت خلال الشهر القادم).

وهذا المرجع النفسي (مثال الأنا) سيؤدّي من الآن فصاعداً دوراً كبير الأهمية في حياة الطفل.

والواقع أن إخفاق التعزيز النرجسي يجعل الطفل يغوص مجدّداً، كلما يجد نفسه أمام دافع لم يكن موضوع إضفاء القيمة ومندمجاً من الناحية النرجسية، في أهوال جرحه النرجسي إذ تذكّره بفردوسه المفقود مع عاطفته الأليمة بعدم كفايته وصغاره (قياساً على قوته الكلية النرجسية)، عاطفة يمكننا مقارنتها بالخزي[6]، **الخزي** «الذي تكابده الأنا أمام مثالها، مثال الأنا». إنه عكس السعادة الابتهاجية التي يعرفها الطفل عندما يعلي حب الأب شأن منحته الدافعية إعلاء كاملاً[7].

ويحدث انبعاث الجرح النرجسي بشدّة خاصة لدى المكتب، كما لو أنه كان

---

(6) تكلّم باشْ ومالّه على هذه الحالة الوجدانية بمناسبة الحديث عن الاكتئاب.

(7) نحن نعلم أن السادي يذلّ ضحيته، أي أنها تذكّرة بقصوره. ولهذا السبب (بين أسباب أخرى) يؤثر السادي أن يبتهج على حساب ضحية هي الآن مخصيّة، ولهذا السبب أيضاً يكون السادي عاجزاً عن أن يجد إشباعه حين يضفي على موضوعه صفة الشريك (ذلك أمر يعتبره أيضاً تذكيراً بقصوره).

أما الحاجة إلى تلقّي تعزيز نرجسي، فإن مثلاً رائجاً مبتذلاً يقدّمه هؤلاء الأشخاص الذين لا يمكنهم أن يستمتعوا بأي لذّة إلا إذا شاركهم فيها أحد ليس له بالضرورة رتبة الموضوع بالنسبة لهم. فلا بدّ لهم، سواء في عَرْض أو في مشهد من المشاهد، من أن يعبّروا عن لذتهم إلى آخر يتوقّعون منه ما يشبه المشاركة وضرباً من التعزيز. ذلك أن الآخر إذا كان غائباً أو لا يبين أنه يرى رأيهم، فإنهم يفجّرون أزمة اكتئاب. ولا ريب في أن هؤلاء الأشخاص يلعبون لعبة «التعزيز النرجسي» على النمط السلبي أو الإيجابي في بعض الأحيان أيضاً، بل الإيجابي والسلبي في آن واحد.

قد عاش الإصابة البدئية بالصدمة النفسية خلال فترة كانت فيها دفعة الشحنة النرجسية الإيجابية شديدة على نحو خاص، أو كان الإحباط عنيفاً على وجه الخصوص، أو في ملتقى التيارين. فنقص التعزيز سيكون بالنسبة له «إلغاءً»، و«التوظيف النرجسي» سيعيشه مرفقاً بعلامة معكوسة وكأنه عسْر.

وهذه الحالة الوجدانية (الاكتئاب) لاتعبّر على النمط النفسي عن نقص التوظيف النرجسي، بل عن نقص التعزيز من جانب مثال الأنا، أي عن النرجسية ذاتها في نهاية المطاف، نرجسية تظلّ، لانعدام كونها اندمجت حسب الأصول في المنظومة الدافعية، طفلية، غير متكيّفة، غير حاليّة، وتفضي إلى إحساس تعيشه الأنا وكأنه **عاهة مخزية، خليط من الانسحاق المعنوي، والحزن، والخزي والقرف.**

وتعبّر عاطفة تعاسة عميقة، عاطفة وهن العزيمة الكلي، عن انقطاع الدفعة الخاصة بالحياة، وهي – أي العاطفة – الصورة السلبية للازمنية النرجسية.

والواقع أن التيّار النرجسي لا يعرف بداية ولا نهاية وينفذ على هذا النحو عملياً إلى الأبدية والقوة الكلية، والأحرى أن نقول إن الحياة، بالنسبة للاشعور، ضرب من لانهائية المشروعات. والحال أن زمن المكتئب متخثّر، مذهول، موجود في ردْب، وذلك ما يشرح بعض المظاهر من فقدان الإرادة في سلوكه وانخفاض قوته المعنوية أيضاً. (نحن نعلم الأهمية القصوى لهذا العامل لدى السوداوي الذي يعيشه بشدّة خاصة كل الخصوصية، ويمكننا الاعتقاد أنه يستعيد اللازمنية النرجسية، على صورة إضفاء العدم على الذات إضفاء يتحدّد باستمرار في تناذر كوتار (Cotard)(*)، وستسنح لنا، في اعتقادي، فرصة الكلام مجدّداً على هذا الموضوع في حديثنا عن السوداوية).

(*) تناذر كوتار: حالة هاذية، ترتبط بالسوداوية على الأغلب، وتشمل بصورة أساسية: 1 – أفكاراً لتدمير الجسم أو أعضاء شتّى؛ 2 – أفكار الاتّساع غير المحدود، والضخامة، والخلود، إلخ. 3 – نزوعاً إلى الانتحار والتشويه الذاتي؛ 4 – غياب الارتكاس على الألم الجسمي (فقد الألم) (معجم علم النفس، هنري بييرون، المنشورات الجامعية الفرنسية، الطبعة الرابعة، 1968).

وهذا الإحساس هو ذاته أياً كان أصل القصور النرجسي؛ سواء كان الجرح النرجسي الواقعي (الإذلال)، أو فقدان الموضوع (الذي عوّض بإسهامه النرجسي عن القصور النرجسي لدى الفرد)، أو معاينة هذا الفرد عدم نضجه (نقص التعزيز والاندماج النرجسي) أمام إلحاح الدافع.

ومن هذه الزاوية إنما يمكننا أن نفهم ارتكاس بعض المكتئبين الذين يصابون بأزمة اكتئاب أمام سعادة غير متوقّعة. وهذه السعادة على وفاق مع متطلبات مثال أناهم، ولكن نزاعيتهم الدافعية تحول بينهم وبين بلوغها. فالهامش الموجود بين مثال أناهم ونضجهم - هامش أصبحت الأنا مسؤولة عنه - هو الذي يثير الاكتئاب.

والهامش بين الأنا ومثال الأنا يصغر بقدر ما يكون التعزيز النرجسي ناجحاً، إذ يجعل تكوين هذا المرجع النفسي أقلّ اتصافاً بأنه ضروري ومقتضياته أقلّ اتصافاً بأنها مطلقة(8).

وبيّنت في مكان آخر، وأنا أتكلّم على «التعزيز النرجسي»، أن الطفل لا

(8) يُصاب بعض المراهقين بأزمة البلوغ على نحو مفارق إذ يرتكسون بوقائع حقيقية من الاكتئاب على الإشراق الطارىء وغير المرضي تماماً، إشراق فتوتّهم المتألّقة. والحال أن هذه الأزمات، التي تؤدّي فيها المكوّنة الأوديبية دوراً هاماً دون ريب وكذلك الإثمية النوعية أمام المكوّنة الشرجية للجنسية، تبيّن مع ذلك ضرباً من الغلبة النمطية للعنصر النرجسي قياساً على الإثمية الدافعية. ويدلّ المحتوى على هذا العنصر النرجسي، تدلّ عليه بصورة خاصة نغمية هذه الأزمات؛ فتلك الصبيّة التي يحبّها الجميع ويُعجبون بها، تدخل منزلها منتحبة، تندب حظّها العاثر أنها بهيمة، لا أهمية لها، منفّرة وقبيحة، لا نفع منها (إنها لا تتّهم نفسها على الإطلاق مع ذلك بأي سلوك ينتمي إلى اختصاص الأنا العليا) وذلك بعد أن أسقطت على محيطها إسقاطات حقيقية هاذية من هذا التقييم الذاتي الذي يمكننا الآن أن نقارنه بـ «الهَوَس الضعيف» للمكتئب السوداوي. والمقصود هنا الشحنة النرجسية المفاجئة التي تعاصر دفعة البلوغ ولكنها دفعة لا يمكنها أن تندمج، وهي تحطّ من شأن الأنا بدلاً من أن تغنيها من الناحية النرجسية. وبوسعنا أن نتبع مصير هذا العنصر النرجسي الذي أُضفيت عليه الإثمية، على صورة تصعيدات شتّى، أزمات صوفية أو ضروب من الشغف الروحي على نحو صرف، أو، على العكس، ألوان من النكوص المنحرف أو الإجرامي، وعلى وجه الخصوص أزمات اكتئابية إذا بدت هذه الآليات قاصرة.

يحتاج إليه عادةً بعد مرحلة محدّدة، ذلك أنه يمنح نفسه، ما إن يصل إلى الطور التالي من سيرورة نضجه، بنفسه التعزيز النرجسي ولن يكون بحاجة إذن إلى الإسهامات النرجسية الخارجية إلا على نحو عابر. والحال أن المكتئب يحتاج باستمرار إلى هذه الإسهامات (أما ما يصنع بها، فهذا ما سنراه فيما بعد) وفحص هذه الحاجات تشهد أيضاً على الأصل المبكّر لعجزه النرجسي الأصلي.

ونحن سنستأنف فيما بعد مسألة العلاقات بالموضوع لدى المكتئب.

أما الوسائل التي يحوزها المكتئب، من جهة أخرى، ليكافح اكتئابه، فإن جان مالّه أحصى منها عدداً معيّناً إحصاء وثيق الصلة بالموضوع جداً؛ وقائمته، في جزء منها على الأقلّ، تتوجّه مع ذلك، في رأيي، توجّهاً مغالياً في الاتجاه الدافعي. وأعتقد أن أهمية هذه الوسائل تتجاوز هذا الإطار وأن تعدادها - بعد تغيير السجلّ السابق - ينبغي أن يتوسّع توسعاً كبيراً.

فالمكتئب بحاجة إلى الحبّ ولكنه يمكنه أن يستخدم **كل مصادر اللذة النرجسية**، بوصفها إسهاماً نرجسياً، أياً كان المستوى السيكولوجي لهذه الوسائل.

ومهما كان تجمّع هذه الوسائل غير متجانس، فإنها، بالنسبة للمكتئب، ذات تكافؤ معيّن، وذلك ما يتيح لنا أن نصنّفها في فئة واحدة، من وجهة نظرنا نحن على الأقلّ.

والواقع أن المكتئب شره للحب، ولكنه يستمدّ اللذة النرجسية البديلة نفسها من الكحولية والإدمان على المخدّرات، والمقامرة والألعاب الرياضية، ومن التصعيدات من كل نوع وكل الصوفيات، ويكوّن استيهامات للهدف نفسه ويبحث عن الانحرافات ولكن بعض الفاعليات الحركية أو المهنية تفي أحياناً بالغرض أيضاً.

ونحن نعلم أيضاً، من جهة أخرى، أن أولئك الذين يعكفون على الفاعليات على سبيل الموضوع البديل (كالذي يبحث عن النسيان في العمل) هم مكتئبون

عادةً، أي أنهم ذوو بنية اكتئابية، ولو أنهم يفلحون في تقنيعها، مستخدمين الآليات المعنيّة دون كَلَل، استخداماً على وجه الدقّة.

ولهذه الوسائل دلالة رئيسة بالنسبة للمكتئب وتؤدّي لهم في بعض الأحيان دور الموضوعات الحقيقية («موضوعات بديلة»). وليس في هذا شيء من الغرابة إذا فكّرنا بتكوّن صلة بالموضوع مشابهة؛ والواقع أن المكتئب المستقرّ في وضع من عدم الإنجاز، سيعيش باستمرار في «حالة من الحاجة» ومهما توجّه بانتظام إلى الوسيلة نفسها ليوقف هذه الحالة (فالتكافؤ سيمنح موضوعه سمة التماثل حتى ولو كان اختياره متعدّد الجوانب)، فإنه سيكوّن، بمعزل عن تبعية الموضوع، ضرباً من الصميمية الخاصّة، وتلك صلة ستتّخذ أبعاداً وصفات تتجاوز مادّية هذه الموضوعات البديلة وقيمتها الوظيفية الموضوعية.

وإذا نظرنا إلى هذه الارتباطات من هذا المنظور، فإننا نفهم بعض جوانبها المفارقة، وبخاصّة بعض الصعوبات النوعية الذي يصادفها المعالج غالباً خلال العلاجات لإزالة التسمّم بالمخدّرات والكحول(9)(10).

(9) - يبدو جيداً أن تعزيزاً نرجسياً لا يمكنه أن يعوِّض إلا بوضع الفرد مجدّداً في حالة نكوصية لأن الإصابة البدئية بالصدمة حدثت دون شك على مستوى مماثل من عدم النضج، دون الكلام على القيمة النفعية للذة النرجسية المنشودة ذاتها، التي تبدو بوضوح أنها في بعض الأحيان ذلك المكافىء العتيق البدئي، الخاصّ بدرجة النضج النرجسي نفسها (نضج لحظة الإصابة بالجرح النرجسي). ويبدو أن الوضع يشغل بهذا الصدد موقعاً ذا امتياز.

(10) يقول فرويد إن تراكم الليبيدو في الأنا يسبّب ألماً عندما يتجاوز التوظيف درجة معيّنة ومن هنا منشأ الضرورة التي مفادها أن نثبّت ليبيدنا على الأشياء.

وأعتقد أن مسألة الانتقال من النرجسية إلى حبّ الموضوع يفيد من استئناف بحثه في سياق أعمّ وأوسع؛ أما الألم الحاصل بفعل توظيف مغال، فإنه لا يبدو أن هذا التوظيف يمكنه في ذاته أن يكون مولّد ألم، شريطة أن نسلّم أن هذا الألم غير صادر من نقص تعزيز نرجسي لهذا التوظيف. فهذا الألم الخاص ربما يكون الاكتئاب أو مكافئة الجسمي. وعدم النضج يتكشّف، كما رأينا للتوّ، في الاكتئاب، وذكّر باش أن الاكتئاب هو على الغالب «مرض نفسي جسمي»، ربما (نضيف نحن) بسبب درجة عدم النضج هذا.

III

«ودون أن يعلم على وجه الضبط أنها كانت
خطيئته، كان يحسّ جيداً أن عيشه لم يكن عقوبة
كافية عليها أو أن هذه العقوبة كانت في ذاتها
خطيئة، تستدعي عقوبات أخرى وهكذا دواليك،
كما لو أنه كان ممكناً أن يوجد شيء آخر غير
الحياة بالنسبة للأحياء».

س. بيكيت

الاكتئاب مرض الأنا. وفي رأيي أنه لا يوجد فقط ألم، كما يقول آخرون، ناجم عن الهامش بين الأنا ومثال الأنا، بل يوجد نزاع حقيقي بين مثال الأنا النرجسي، المدرك بوصفه مرجعاً نفسياً شأنه شأن الأنا العليا ولكنه مختلف عنها، وبين الأنا. وليس فقط لأن الأنا هي التي تعيش الحالة الوجدانية المؤلمة عيشاً سلبياً، بل لأنها تجد نفسها من الآن فصاعداً، إذ أخفقت في المهمة التي كانت تقع على عاتقها (الحصول من النظام بعد الولادي على إشباع نرجسي من نوعية مناسبة، كما بيّنت في عملي على الصورة القضيبية قبل الولادة)، **تحت وطأة الضروب من انتقام المرجع النرجسي وكأنه مضرور في فاعليته الوظيفية**.

إن هذا هو الذي يساعدنا على أن نفهم جانباً من جوانب السيرورة الاكتئابية التي تثير ذهول الأنا وتسبّب كون الاكتئاب يكشف في ذاته عن ميل إلى التفاقم،

ولو أن انطلاق المرض الحالي يبدو مرتبطاً على وجه الحصر بحَدَث فيزيولوجي محدّد كما في حالة اكتئاب الطمث على سبيل المثال.

ويكمن التوتّر بين مثال الأنا النرجسية والأنا، في الواقع، في زوال حقيقي لتوظيف الأنا أو بالحري في تفكّك، الأنا التي تجد نفسها محرومة من الزاد الضروري لفاعليتها الوظيفية الجسمية، وهو أمر بارز بصورة خاصّة في حالة فقدان الإرادة الاكتئابي على سبيل المثال (ونحن لا نفعل سوى أننا نشقّ النافذة قليلاً، بالمناسبة، على منظور مماثل خاصّ بأمراض أخرى، كالخَلَفة الذهنية على سبيل المثال).

وبوسعنا أن نستشهد لندعم هذا الفَرَض بظاهرة «الاكتئاب الصباحي» المعروفة جيداً. والمقصود هؤلاء المكتئبون الذين يتركون النوم بصعوبة، كما لو كان تركهم النوم على مَضَض، ويجدون أنفسهم فجأة وقد صعقهم الكفّ. ولكن حركيتهم تنتهي شيئاً فشيئاً، وبمقدار ما يعكفون مع ذلك على بعض المشاغل، إلى أن «تجلو» ويجدون أنفسهم على نحو مفارق في أحسن حال نحو المساء في حين أن الآخرين يبدأون الشعور بالتعب (كانت عودة فاعلية المصاب بالوهن العصبي النفسي إلى السواء محدّدة في الساعة الخامسة بعد الظهر فيما مضى). ويمكننا أن نشرح ما يجري في حالة مشابهة منطلقين من هذا النكوص النرجسي، النوم، نكوص شبّهه بعض المؤلفين، تشبيهاً صائباً، بالابتهاج النرجسي قبل الولادي.

وتتهيأ الأنا المستيقظة، عند الخروج من هذا الاكتئاب، لفاعلية من مستوى مختلف في سجّل النضج الدافعي، فاعلية ينقصها التعزيز النرجسي. فهي ستكون إذن فاعلية قاصرة من الناحية النرجسية بالقياس على النوم.

وستجد الأنا نفسها إذن فجأة وقد جمّدها زوال التوظيف الكثيف لحالة اليقظة ولكل فاعلية جسمية تتضمّنها هذه الحالة. وستجد مع ذلك زادها على الرغم من زوال التوظيف، إذ تجني إذا جاز القول كميات صغيرة مبعثرة من اللذة النرجسية التي تنتجها الفاعليات العضوية المنعزلة، العضلية وغير العضلية. وهذه اللذات هي من مستوى لذّات النوم. فيمكن إذن أن يقبلها المرجع النرجسي؛ وفيها مع ذلك، ستجد الأنا أيضاً تلك المحروقات الضرورية لعملها الوظائفي(11).

وتبيّن السمة العابرة لفقدان الإرادة هذا أن الأنا إذا وجدت نفسها مصابة فإن إصابتها غير عميقة، ولكنها مُسَّت مع ذلك، وفي نفسي ذكرى بعيدة لبعض المكتئبين أنهم كانوا يضيفون صباحاً، عند الاستيقاظ، إلى فقدان الإرادة والغثيان والقرف، لَكْمة أو يتظاهرون بقتل أنفسهم.

إن الأنا هي المنشودة على هذا النحو، إنها هي التي عليها العقوبة، وذلك أمر يباشر حَلْقة مفرغة: المرجع النفسي النرجسي يوتّر في الأنا الخائرة إذ يحرمها من التوظيف؛ وهذه الأنا، المرتبكة في عملها الوظائفي، تُساق إلى التقليص من قدرتها على الإنجازات، وذلك أمر يفاقم عجزها أيضاً، وهذه حالة تسوّغ حرماناً جديداً من التوظيف النرجسي وهكذا دواليك.

---

(11) - هذا التوتّر بين المرجع النرجسي والأنا يصعب ملاحظته، ذلك أن الأنا وحدها هي التي لها، في الواقع ملكة التعبير، في حين أنه لا يعدو كونه حواراً بين المرجعين. وهكذا نعرف كلنا تصرّفاً خاصاً، خليقاً بالمكتئب الذي يفرض على نفسه ضرباً ما من المعاملة السيئة بعد أن يعاني ضرراً، وذلك هو ما يفعله المازوخي أو العصابي العادي ولكن بعد أن يسمحا لنفسيهما بإشباع أو حتى يكون بمقدورهما أن يمنحاه نفسيهما. والواقع أن هذا التصرّف يعبّر تعبيراً كاملاً عن ما يحدث بين الأنا والمرجع النرجسي: فالأنا ستصيبها عقوبة المرجع النرجسي لأنها بدت أدنى من مستوى مهمتها، بدلاً من أن تستخدم الضرر المعاني، إخفاقاً وحادثاً جسيماً على سبيل المثال، لتتخلّص من إثميتها وتفيد من هذا التخلّص بغية أن تسمح لنفسها بمنحة.

IV

يقول إيديث جاكوبسون [21] وهو يتكلّم على «الشخصية الهوسية الاكتئابية :

«إذا سنحت لنا الفرصة لملاحظة سلوك هؤلاء الأفراد قبل أن يقعوا مرضى أو خلال الفواصل الزمنية الحرة، فإن غنى تصعيداتهم تُحدث لدينا انطباع الدهشة . وتصيبنا المفاجأة حين نلاحظ أن هؤلاء الأفراد يمكنهم، ما داموا غير مرضى، أن يكونوا أصحاباً أو أزواجاً، رائعين، كما سنحت الفرصة آنفاً لبلولر أن يثبت ذلك . ويمكنهم، في حياتهم الجنسية، أن يكون لهم سلوك تناسلي على نحو كلّي ويمكنهم، فيما يخصّ وجدانيتهم، أن يُظهروا، على عكس نظراء الفصاميين، وداً انفعالياً قوياً وتعلّقاً مخلصاً وعميقاً بشركائهم . وهؤلاء الأشخاص طوّروا دون ريب علاقات حقيقية بالموضوع وتتوافر فيهم، بالكمون، معايير حياة سويّة كل السواء . ومع أنهم لا يُظهرون انعداماً جلياً في المنابع الداخلية، فهم يعانون مع ذلك ضعفاً نوعياً في الأنا، وذلك ما يترجمه سرعة عطبهم وعدم تسامحهم إزاء كل عثرة، إحباط أو خيبة أمل» .

ويثير هذا الوصف في رأينا عدداً معيّناً من التعليقات ولكننا لا نتوقّف إلا عند مسألتين . فنحن نلاحظ أول الأمر ذلك الإلحاح الذي يباشره المؤلّف في تأكيد الضعف النوعي لأنا المكتئب؛ وألححنا للتوّ، نحن أنفسنا، على هذه المسألة الرئيسة باحثين في الوقت نفسه عن ربطها بـ **النزاع الدائم بين الأنا ومثال الأنا لدى المكتئب**، نزاع يفضي، كما رأينا للتوّ، إلى إضعاف منظّم للأنا .

ويبدو لنا أيضاً مهماً أن نبيّن ما يقوله المؤلف عن الودّ الانفعالي لدى المكتئب وغنى تصعيداته .

ولكن لنستأنف أول الأمر مسألة الجرح النرجسي ذاته الذي يصيب مكتئب المستقبل بشدّة كما أدلينا بفرَضنا لهذا الموضوع. ورسمنا الخطوط الكبرى فيما سبق للمفعولات المباشرة لهذا الجرح البدئي النرجسي، ولكن كيف سيسلك المكتئب فيما بعد؟

أعتقد أن علينا أن نتذكّر اكتشاف رانك الذي أكّده فرويد: «اختيار الموضوع لدى الكتئب اختيار نرجسي»[9]. وهذا أمر لا يتطرّق إليه الشك، ولكن لنتذكّر أيضاً مصير هذا الاختيار. إننا رأينا في الواقع أن مكتئب المستقبل اختار، عندما فقد قوته الكلية النرجسية، ذلك الحلّ الذي مفاده أن يصون هذه القوة الكلية المتّصفة بجنون العظمة إذ يُسقطها على وجه أبوي هو الأب أو الصورة القضيبية بالحري. ولكن الفرد سبّب في نفسه انقساماً إذ تصرّف على هذا النحو؛ إنه منح نفسه إذن مرجعاً له دور أمام هذا الانقسام، ذلك أن بوسعه أن يتّخذ؛ بين ما يتّخذ، صورة الإله. ولكن الفرد يترك على هذا النحو جزءاً من ذاته يفلت من رقابته وسيعيش من الآن فصاعداً في تبعية وثيقة لهذا المرجع، وذلك ما يمكنه أن يصبح عبودية حقيقية.

أما فيما يخصّ المكتئب، فإن هذا الانقلاب سيكون كلّياً، إذ يصبح المرجع منافس الأنا بالمعنى الحقيقي للكلمة، ويرتّد ضدها ويُرهقها إلى حدّ يسحقها.

ولن يكون للأنا، من الآن فصاعداً سوى هاجس واحد، هاجس استرجاع هذا المثال النرجسي المفقود، إذ تريد أن تبدو جديرة أمام هذا المرجع الذي يحوز نرجسيتها المسقَطة ويجسّدها جاعلاً من نفسه محبوبها.

وبما أن المزايا التي يعتدّ بها الفرد أمام مثال الأنا لا يمكنها أن تكون سوى إنجازات نرجسية، فإنه سيبحث عن إرضاء هذه المقتضيات إذ يحقّق هذه الإنجازات بل ويخضع إلى هذا الإلزام خضوعاً دائماً.

وفي رأيي أنه لا ينبغي أن يغرب عن بالنا هذه المقتضيات المطلقة للمرجع

النرجسي عندما نفكّر - مع إيديث جاكوبْسون - في غنى التصعيدات لدى المكتئب(12).

وربما تكون هذه المسألة ذاتها هي التي تجعلنا نفهم سمة خاصة من سمات العلاقة بالموضوع لدى المكتئب، سمة هي بحثه المنهك المستمرّ عن الموضوع، الذي يفضي دائماً، في نهاية المطاف، إلى ردْب (درب مسدود)، ذلك أن نزاعه سيظلّ، على الرغم من علاقته بالموضوع التي تبدو ناجحة، دون حلّ، وذلك ما سيبرهن عليه، بصورة دقيقة، تفريخ المرض.

ويمكننا للوهلة الأولى أن نعتقد، في الواقع، أن التوازن النرجسي المفقود لدى المكتئب يمكنه أن ينتظم مجدّداً بفضل الإسهام النرجسي الذي يقدّمه موضوع مناسب، فيتوقّف الاكتئاب على هذا النحو، والحال أن الواقع مختلف كما قلنا للتوّ، وأعتقد أننا قادرون على أن نرى السبب.

إذا كان التعزيز النرجسي الضروري لتوظيف الأنا توظيفاً مناسباً غائباً في البدء بفعل خطأ الموضوع (الأم)، فإن الفرد سيفشل في كل المحاولات اللاحقة التي سيحاولها على مستويات مختلفة للهدف نفسه.

والموضع البدئي الذي ينبغي له أن يقدّم التعزيز النرجسي عندما تتكوّن الأنا يتيح للفرد في الواقع أن يخرج من عالمه الانصهاري، عالم النرجسية الأولية بسمتها اللامحدودة، اللازمنية، ذات القوة الكلية، ليمضي نحو إمكانات جديدة من المنَح النرجسية، الملازمة لتطوّر سويّ ونضج دافعي مرْض.

وعلى الموضوع البدئي أن يشجّع الطفل إذا صحّ القول، بفضل التعزيز النرجسي، على أن يواجه عالم الموضوع دون أن يتشوّه اعتبار الذات لديه تشوّهاً خطيراً. فإذا أخفق الطفل في مهمته، فإنه يُسقط نرجسيته الأوليّة المطلقة (قبل

---

(12) - الإنجازات، كالتصعيدات، تناسب الموضوع الأبوي تماماً، الذي أُضفيت عليه الصفة المثالية، موضوع يتلقّى توظيفاً كثيفاً دون أن يكون بوسع هذا التوظيف أبداً أن يفضي إلى علاقة مكتملة واقعية وذلك بغياب تعزيز نرجسي ملائم كما بيّنا للتوّ.

الولادية في رأيي) كلياً على مثال الأنا لديه، ولم يعد يوجد في الواقع سوى إمكان واحد، إمكان العودة إلى مستوى النرجسية قبل الولادية، أي إلى مستوى مكافىء. وهكذا فإن بحث المكتئب، إذا بدا أن الرغبة تدفعه إلى إيجاد موضوع وهذا أمر لا يحدث إلا على نحوٍ شبه قسري، لا يمكنه أن ينجح أبداً ذلك أن هذا الحلّ فقد بالنسبة له - ونحن نعلم ذلك - فائدته الحقيقية وقدرته. فعلى مستوى من المستويات، سيستمرّ في بحثه عن الموضوع لأن التثبيت على الأم المحبطة باقٍ، ولكنه سينبذ الموضوع على المستوى العميق، وهذا الجانب المزدوج والمتناقض من تصرّفه هو الذي نلاحظه في الواقع على وجه الضبط؛ وسيمكنه أيضاً أن يبحث عن لذة نرجسية ابتهاجية من أي نَسَق كانت وقد رأينا أن كل مصادر هذه اللذة متكافئة بالنسبة له وسيلاحق هذه الإشباعات النرجسية بتوسّط «الموضوع البديل» الذي تكلّمنا عليه.

أما محاولاته في البحث عن الموضوع، فإنها ستحمل في ذاتها بذرة تشوّهها ذلك أن عدم النضج لدى المكتئب يجعله عاجزاً عن تحمّل ضرب من فارق القيمة النرجسية بينه وبين موضوعه في الاتجاه السلبي أو الإيجابي، ولن يكون بوسعه إذن أن يرتبط إلا بـ «الموضوع المرآوي» إما لأنه يشبهه وإما لأن له البنية نفسها، ولكن لأنه، قبل كل شيء، بلغ درجة النضج التي بلغها المكتئب نفسها.

وسيجد المكتئب نفسه إذن على الدوام، في نهاية المطاف، قُبالة صورته النرجسية، أي **قُبالة ذاته**. والحال أننا نعلم، وهذا هو تماماً وضعه الأساسي بالنظر إلى سبب تثبيته (رفض الموضوع تقديم التعزيز النرجسي وعدم النضج الذي ينجم عن هذا الرفض)، أنه يكره نفسه (يكره أناه الخاصة) وأنه سيصل حتماً إلى كره الموضوع إذن (ويمكننا القول ونحن نشرح صيغة فرويد): «ظلّ الأنا يسقط على الموضوع لأن ظلّ الموضوع يسقط على الأنا» (خلال الصدمة النفسية المذكورة في هذه الفقرة).

وهكذا سيبحث المكتئب دائماً عن الموضوع تبعاً لضرب من التماثل النرجسي الذي يبدو أنه يفتح له الدرب الوحيد لعلاقة بالموضوع واقعية، ليتحول عنه في **الحال** إلى البحث تبعاً لتطوّر يكون النتيجة لهذا التماثل الجنسي ذاته.

ويصبح الموضوع مختلفاً بالطبع عندما يعيش الفرد على الموضوع جانبي فاعليته المتفرّعة ثنائياً، أي فاعلية الأنا.

وهكذا فإن المرأة (المكتئبة) على سبيل المثال (التي تميل ميلاً أضعف في العادة إلى استخدام «الموضوعات البديلة» من ميل الرجل) ستصنع من موضوعها الواقعي، الرجل، مثال الأنا لديها وأمها المحبطة في آن معاً، وذلك سيفضي حتماً إلى تدهور علاقتها بالموضوع، ذلك أن المرجع النرجسي الذي تودّ أن تكون محبوبة منه والصورة الذهنية المثالية للأم التي ستعيش نزاعاً معها سيتوسّطها الموضوع نفسه(13).

V

هذه التبعية المزدوجة لمثال الأنا والنزاع الأمومي، مع أن مستوى هذين الوضعين مختلف من الناحية الموقعية (نرجسي ودافعي)، هي التي تنير - في رأينا - جانبين هامين من جوانب تصرّف المكتئب، أريد أن أتكلّم عن عدوانيته وعلى ما يناسب أن نسمّيه مازوخيته الكاذبة.

فأولئك الذين عكفوا، كناخْت وريكاميه[26]، على دراسة العدوانية لدى المكتئب، لم يفتهم أن يلحّوا على السمة النكوصية لهذه العدوانية، التي يرتبط

(13) - حساسية الفرد إزاء تغيّرات توازنه النرجسي ستزداد تبعاً لتقدّم سيرورة الحرمان من توظيف أناه: فكلما تكون الشحنة النرجسية، في الواقع، مسحبة من الأنا، تغذو هذه الشحنة مثال الأنا، أي أنها تزداد بمقدار ازدياد المقتضى النرجسي نفسه. وهذا من شأنه أن يشرح لنا فرط الحساسية لدى المكتئب، ذلك أن أناه تصبح ضعيفة أكثر فأكثر في حين أن تقييمه الذاتي يزداد بالنسب نفسها لأن مثال الأنا لديه يصبح في الوقت نفسه قوياً أكثر فأكثر.

مظهرها النمطي مع ذلك بطور من المرض معيّن. والمكتئب يمنح الانطباع، عندما يسمع لنفسه أن يعبّر جهاراً عن عدوانيته، أنه شخص مستبّد وذو نيّة سيئة. إنه يثير محدثّه، وله موقف المنتقم إزاءه، ويُرهقه إذ باللوم ويكثر من مآخذه. ونحن نتعرّف هنا بالمناسبة على «جامع الظلم» لدى برغْلَرْ[3].

وإذا فحصنا عن كثَب هذا التصرّف، فما يظهر للعيان إنما هو جانبه اللاعقلاني. فعدوانية المكتئب، الذي يكرّر دون كلل ولا ملَل نفس الموضوعات (إنه ستار من الدخان الذي ينشره ليخفي موضوع شكواه الواقعي)، تفرض نفسها في بعض الأحيان بوصفها محاولة تنفيس دافعي (وهي محاولة تنفيس ضمن نطاق معيّن)، ولكنها تجد نفسها في الوقت عينه مكبوحة بفعل عدم نضجه الخاص، فتتعثر بهذا المانع ويُحكم عليها أن تتكرّر دون أن يكون بوسعها الخروج من هذا الدرب المسدود.

وإذا كان جانب **الاحتجاج** من هذه الحالة الوجدانية العدوانية خاصاً، في الحقيقة، بإحباطه بسبب نقص التعزيز النرجسي في الزمن الغابر من حياته، فإن مظهره المتردّد، ضعيف الإرادة ولكنه المفعم بالضغينة، غير ذي علاقة مباشرة بالإحباط ونتيجته، الاكتئاب، بل ينبغي أن يكون متعلقاً بالحري بـ**محاولات الاسترجاع النرجسي** التي تجد نفسها، هي ذاتها، مثقلة بإثمية دافعية أوديبية أو قبل أوديبية، وذلك أمر يفاقم أيضاً عنف الارتكاس العدواني.

والتحرّر النرجسي الابتهاجي - كما يحدث ذلك على نحو مماثل مثير جداً في التحليل - يحرّر العدوانية الدافعية في الوقت نفسه، وذلك أمر يكبح ويعقّد التحرّر النرجسي ذاته بفعل صدمة مرتدّة.

وتنجم السمة الإسقاطية لعدوانية المكتئب عن واقع مفاده أن تُنسب إلى الموضوع حالة أو صفة ينبذها مثال الأنا لأنها مصدر الجرح النرجسي.

والمكتئب لايتّهم الموضوع أنه ارتكب فعلاً محدّداً، ولكنه يتهمه **كونه** موضع نقد على نحو أو على آخر، أي أنه قاصر من الناحية النرجسية(14).

وهذه الشكوى من الظلم المعاني ذو علاقة على هذا المستوى بنبذ **الاتّهام الذاتي النرجسي**، الذي يتّصف أنه حَظّ ذاتي من الشأن في الحقيقة، وفق الصيغة التالية: «لستُ بطبيعتي غير متكيّف، ولكنني ضحية معاملة ظالمة تمنعني من أن أكون ذاتي.» فالإسقاط يخفق مع ذلك، وهذا ما يشرح الفارق الدقيق المرهق واليأس الذي يحتويه لأن اللاشعور غير مخدوع والمرجع المغبون، الذات النرجسية، يرفض المناورة. وتجد الأنا نفسها على هذا النحو أن مثال الأنا يرهقها فجأة وأنها مرهقة أمام الجرح النرجسي البدئي الذي يبدو مجدّداً بمناسبة إلغاء الإسقاط. وتظهر الأنا أمام هذا المرجع، الذات النرجسية، بكل عريها ونفهم أن سبب الاكتئاب لايكون العجز الدافعي في ذاته بل، بالحري، يقظة الجرح النرجسي بفعل هذا العجز، جرح ترى الأنا نفسها بشأنه موضع لوم المرجع النرجسي. أو، كما يقول بيبرينغ، «ارتداد دوافع المرء ضد ذاته أمر ثانوي بالقياس على انهيار اعتبار الذات» (15).

وينبغي، في رأيي، أن نعكس القضية الفرويدية التي تكون الاتهامات الذاتية بحسبها موجّهة في الواقع إلى الموضوع في البدء ومرتدّة إلى الأنا المتماهية مع الموضوع المستدخل. والواقع في رأيي أن كون الاتّهامات الموجّهة إلى الموضوع هي اتهامات يوجّهها مثال الأنا، فإننا نكون، عندما تبدو الاتهامات الذاتية لدى المكتئب، أمام **الإخفاق في منظومة الإسقاط** التي تحمي الفرد من التدمير الذاتي.

ونحن نقّص هنا لتثبيت الأفكار، واقعة من علاج تحليلي.

(14) - للأزمة العدوانية الذاتية لدى «مكتئب الصباح» نظير لدى المكتئب **الافتراضي المطالب** الذي يفتح صباحاً، مع عينيه، محابس احتجاجه العنيفة.

(15) - ونقول بعبارة أخرى إن ذاك الشخص سيصبح مكتئباً بسبب **كونه لم يكن** قادراً على أن يمنح نفسه إشباعاً ومعيّناً وليس بسبب كونه لم يحصل على هذا الإشباع. والدليل أنه ما إن يكتسب الاقتناع مرةً أن بوسعه الحصول عليه وقبوله، حتى يشعر أنه لم تعد لديه حاجة إلى أن يحصل عليه بالفعل.

والمقصود امرأة صبيّة حلّلتها منذ بضع سنين وكان علاجها يختلف عن المألوف شأنه شأن اللوحة العيادية التي كانت تعرضها، وهي تتحدّى كل محاولة للتصنيف. وبما أنها كانت قد أتت إلى عيادتي بسبب صعوبات ناجمة عن اضطرابات في الطبع (أرسلها خطيبها الذي أنهى تحليله في عيادتي قبل مجيئها بسنتين)، فإنني كنت قد حاولت أن أصنّفها على الرغم من مجموعة من الأعراض غير المتجانسة بقدر ما هي ضبابية بوصفها «مضطربة الطبع»، ولاسيما أن الجانب الأبرز من تحليلها كان يؤكّد هذا التشخيص تماماً. ولم تكن تكفّ، عابسة، نوّاحة، عدوانية دائماً وذات نيّة سيئة واضحة، صاخبة تارة وباكية بدمع سخين تارة أخرى، عن توجيه اللوم لي والاحتجاج على العلاج على وجه الخصوص إذ تقود طعونها اللاذعة ضدّ الطريقة وضدّي. فأي تفسير تاريخي، تحويلي، تفسير مقاومة، إلخ، يمكنه أن ينال من تصرفها، إلى حدّ انتهيت إلى أن أبادر باقتراح وقف العلاج. والحال أنها عارضت هذا الاقتراح معارضة قطعية ولم تتذرّع بتحسّن حالتها فحسب، تحسّن أكّده محيطها، ولكنها أظهرت في هذه اللحظة قراراً حازماً أن تستمرّ في العلاج وكانت تصرّح أنها لست قادرة على الاستغناء عنه.

ولن أذكر هنا محاولاتي كلّها لتفسير موقفها الذي كان يحتفظ على هذا النحو بجانب لغزي صلب. إنني أتعامل دون ريب مع أنا سريعة العطب جداً مع علامات مختلفة لبنية اكتئابية، ولكن عدوانيتها الصاخبة إلى الحدّ الأقصى، التي كانت تحمل علامات تسوّغ في الوقت نفسه التشخيصات الأكثر تنوّعاً، كانت تحجب هذه المجموعة المتوازية من الأعراض، مجموعة ينقصها البروز جداً ولم تعبّر على وجه التقريب عن نفسها خلال فترات طويلة.

وفي الفترة التي يُفترض أننا نحضّر لنهاية التحليل (جلسة واحدة في الأسبوع) اغتنت عدوانيتها بألوان لم تكن مألوفة حتى هنا، وأصبحت ارتكاسات المريضة غير متوقّعة أكثر فأكثر وتفاوتت من الرفض أن تنتظر حتى نهاية الجلسة إلى المخابرات الهاتفية المنتظمة ترافقها الشتائم، في حين أنها كانت تعلم أنني أباشر جلسة التحليل لمريض آخر، إلخ. وهدأت المريضة، بعد أزمة عاصفة على نحو

خاص" اتخذت أقوالها خلالها اتجاهاً واضحاً، اتجاه ضرب من الاستفزاز الفظ"، وحدث لدي" انطباع مفاده أنني أشهد استنفاد توتّر يُتوقّع منه تغيّر أساسي، فقدّمت لها، مستفيداً من هذه الهدْاة، مجموعة من التفسيرات، إذ استخدمت مادّة حصلت خلال الجلسة ذاتها، مجموعة تمضي في اتجاه ما سبق. وبيّنت لها على هذا النحو أنها كانت تحلم أن تكون مفهومة ولكنها كانت في الوقت نفسه تفعل كل شيء، حتى لاتكون كذلك، ذلك أنها كانت تحقد على نفسها وتحرص على القدرة على أن تعزو إلى الآخر ماكانت تحقد على نفسها وتحرص على القدرة على أن تعزو إلى الآخر ماكانت تلوم نفسها عليه باستمرار. وأنها لم تكن تحب نفسها وتبحث عن أن تتخلّص من هذا الحقد بإسقاطه على الآخر. وأخيراً كانت تعلم مسبقاً أنني، إذ تهتف لي خلال كوني أباشر جلسة تحليل، سأكون مرغماً على أن أقصر المحادثة على صيغة موجزة بالإكراه وأن بوسعها أن تصرّح أنها غير مهذّبة ومحبِطة، إذ ترافق اللعنات ملاحظاتها، وكل ذلك يؤمّن لها ضرباً من التعزية.

وكانت هذه التفسيرات تبدو أنها، للمرة الأولى، تثير مشاعرها وقالت لي بلهجة جديدة كل الجدّة: «أعترف لك، في الواقع، أنني كنت أتوقّع، وأنا أهتف لك للمرة الأخيرة (كان ذلك اليوم السابق لهذه الجلسة)، أن أسمع منك تغضب مني وتبدي السخط عليّ. ولكنك كنت لائقاً، ومهذّباً و**ذلك ما راق لي** للمرة الأولى.»

وما قصصته للتّو هنا ليس بالتأكيد قصة استفزاز مازوخي ولاقصة «اختبار للحصول على الدليل» عزيز على المؤلفين السويسريين، مع أن «المصابين بعصاب الهجر الذين وصفتهم السيدة جـ. غويّو [20] يعرضون على الغالب رسماً بيانياً سيكولوجياً يشبه الرسم البياني السيكولوجي لمريضتنا. والمقصود إسقاط العدوانية الذاتية ونجاح هذه الآلية بفضل الوضع التحليلي الذي أتاح للمريضة أن تستخدم موقفي بوصفه تعزيزاً نرجسياً مناسباً انتهى إلى أن يعوّض عن خسارة هذا التعزيز في فجر حياتنا (وهي في الواقع مريضة فقدت أمها في العام الأول في حياتها).

وتحضنّا هذه الحالة على قول كلمة هنا عن الفارق بين المازوخية والاكتئاب، مع أن المكتئب يمكنه أن يكون مازوخياً (إنه مازوخي على وجه العموم، من جهة أخرى) و**العكس بالعكس**(16).

والواقع أن المكتئب لايبحث، على الرغم من المظاهر في بعض الأحيان، عن الضربات ولكنه يجمع المظالم، ولايخضع ولكنه، على العكس، يحتجّ ويتّهم. إنه يدخل في حلقة مفرغة من التدمير الذاتي بسبب إخفاقه البدئي الذي يلوم نفسه عليه، في حين أن المازوخي يتظاهر بالإخفاق لينجح على هذا النحو في نيل المتعة.

---

(16) – هذا التمييز بين التدمير الذاتي لدى المكتئب والمازوخية ينطوي على تدابير تقنية ذات أهمية: والواقع أن التحليل المبكّر للسلوكات المازوخية إذا كان ممكناً تماماً في بداية العلاج ويبين على وجه العموم أنه ذو نجوع كبير، فإن الجهل بالسمة الاكتئابية لتصرّف استفزازي يبدو شبيهاً بتصرّف مازوخي يمكنه أن يقود إلى رفع آلية دفاع قبل الأوان، ضرورية للوقاية الذاتية، لاسيّما أن العمل الوظائفي لهذه الآلية يكوّن قاعدة سيرورة الشفاء، قاعدتها نفسها، أي إقامة التوازن النرجسي للفرد مجدّداً.

وعلى هذا إنما ظهر على مريض من مرضاي الأوَل، شاب مصاب بالتدرّن الرئوي إصابة خطيرة، تحسّن مؤكّد في حالته الجسمية بعد سنة ونصف من المعالجة. وكانت صوره الشعاعية قد أصبحت مرْضية جداً. ولكنه كان، على العكس، قد باشر الاكتئاب، وتلك حالة كانت حالته قبل مرض التدرّن الرئوي.

وبما أن الآليات المازوخية كانت لديه، على ما يبدو، في المستوى الأول دائماً، فإنني استمرّيت في تحليلها وهذا على وجه الخصوص بمناسبة رسالة كان قد وجّهها إلى خطيبته وعنُي أن يُرينيها قبل أن يرسلها. وينبغي ليْ أن ألاحظ هنا أن جنسيته المثلية (أوديب المعكوس) كانت موضع تحليل غزير وعلى وجه الخصوص مازوخيته. والحال أن هذه الرسالة كانت تكوّن استفزازاً حقيقياً بقدر ما كانت عدوانية. ولهذا السبب فسّرت حركته أنها تصرّف مازوخي موصوف هدفه أن يُعاقب بفقدان موضوعه (بصرف النظر عن الدفاعيات). وغادر الجلسة وأصابته نكسة جديدة اقتضت إدخاله المشفى.

ماذا كان قد جرى؟

لم تكن حركته استفزازاً ولكنها كانت تدخل – بالنظر إلى السياق – في فئة العلاقة التي وصفتها للتوّلدى المكتئب.

وعندما أراني الرسالة، أراد أن يبرهن لي، أنا الذي أسقط عليه مثاله النرجسي، أن ماكنت عليه لم يكن في نفسه بل في موضوعه. ولم يكن ثمة بّد من أن أصمت. وبدلاً من ذلك، وجد نفسه مرغماً، إذ فسّرت فعله وكأنه ضرب من الاستفزاز، على التخلّي عن صراع مأساوي مع موضوع خارجي ولم يكن بوسعه إلا أن يرتّد بعدوانيته ضدّالأنا، على صورة جسمية.

وعدوانية المكتئب غير ناضجة في حين أن مفعولات تدميره الذاتي واقعية. والمازوخي، في علاقته النزاعية بالموضوع، يعارض شريكه بتفوّق في المهارة، ذلك أنه في الواقع هو الذي يسبّب الضرب لنفسه وينظّم استنفار الغير، إذ يموّه مهارته بعدوانية ذاتيةمصطنعة ورمزية فقط في بعض الأحيان. وإذا عوقب فذلك ليكون بوسعه أن يحب نفسه ويمنحها اللذة، في حين أن المكتئب ينبذ أناه بفعل كره لذاته حقيقي. فتبين الحركة المازوخية إيجابية من وجهة النظر الاقتصادية، إنها تضفي البنية على أنا الفرد الذي يبلغ وضعية مثلثية، تدعمها مكوّنة سادية شرجية قوية، في حين أن النصر الوحيد لدى المكتئب يقود إلى فنائه الخاص. فـ «الغير الضار» ليس حليف المكتئب من حيث أنه يتيح له أن يفلت من تدميره الذاتي، في حين أن الشريك المازوخي يساعده على أن يسخر من أناه العليا وينجح في الحصول على اللذة.

خلاصة

حاولت، خلال هذه الملاحظات، أن أحدّد موقع الاكتئاب باحثاً عن تحديد النزاعية التي تميّزه. وجعلت على هذا النحو تلك السلسلة **دافع – إثمية (أنا عليا) – حصر**، سلسلة العصاب بالمعنى الحقيقي للكلمة، مقابلاً للسلسلة **نرجسية – جرح نرجسي (مثال الأنا) – اكتئاب**.

وأنا واع كل الوعي مع ذلك أن في هذا الأسلوب في رؤية الأمور شيئاً من التبسيط، لاسيما مايخصّ التقابل بين الأنا العليا ومثال الأنا، ذلك أن هذين المرجعين يختلطان على الأغلب، بالنظر إلى أن الأنا العليا نفسها موظّفة نرجسياً، وأن ما يكون خزياً في الأصل يصبح خطيئة أو جريمة (والعكس بالعكس).

ويستخدم المربي على هذا النحو نرجسية الطفل، وإذ يرسّخ في ذهنه ما لا ينبغي فعله من الأمور «إذا كان يحترم نفسه» فإنه يكون قد منح الأنا العليا دعم مثال الأنا.

ولكن الحالة ليست دائماً على هذا النحو وبخاصة في الوضع التحليلي حيث

ينجح المحلّل مع الأنا العليا على نحو أسهل من نجاحه مع مثال الأنا، وإذا كان الفرد في التحليل يكتم بعض الوقائع عن محلّله كتماناً عن قصد، فهي على وجه العموم وقائع تمَسّ نرجسيته، ولن يخفيها بسبب الإثمية بل لأنه يخجل منها أمام مثاله الأعلى الذي يتّصف أنه محلّله، سطح إسقاط نرجسيته.

فالمراجع النفسية يمكنها على هذا النحو أن تختلف وتدخل في موقف ديالكتيكي، أحدها بالنسبة للآخر، وهذا الفعل الذي تحرّمه الأنا العليا يمكن أن يرغبه مثال الأنا الذي يطرح مقتضياته فيما يخصّ قيمة إنجازه.

وعلى أي حال، أفهم كل الفهم أن وجهة نظري جزئية وأنا أعي، بوصفي مقتنعاً بكثرة دروب المقاربات الممكنة، أهمية العوامل التي لم أستطع أن أعالجها في الإطار المحدود لعرضي. وأعتقد مع ذلك أن إنارة إضافية لبنية الاكتئاب، بغية تطبيق لطريقة التحليل النفسي أكثر تكيّفاً مع شفاء هذا المرض المخيف الذي يتعاظم انتشاره، تسوّغ مشروعي.

مراجع هذا الفصل

(1) – أبراهام (كارل)، **الحالات الهوسية الاكتئابية والمستوى قبل التناسلي لليبيدو.**

(2) – أبراهام (كارل)، دراسة موجزة في نموّ الليبيدو، في **أوراق مختارة**، 1942.

(3) – برغلَرْ (إدوار)، **العصاب الأساسي**، بيّو.

(4) – بيريّنْغ (إدوار)، آلية الاكتئاب، في **الاضطرابات الوجدانية**، غريناكرْ.

(5) –كورشه (جـ – ل)، الانتحار، **تطوّر الطب النفسي**، 1955.

(6) – فودرنْ (بول)، **سيكولوجيا الأنا والذهانات.**

(7) - فينيشل (أوتو)، **نظرية التحليل النفسي في العصابات**، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1953.
(8) - فورنزي (ساندور)، **درجات التطور لحسّ الواقع**.
(9) - فرويد (سيغموند)، **الحداد والسوداوية**.
(10) - فرويد (سيغموند)، **النرجسية: مدخل**.
(11) - فرويد (سيغموند)، **علم النفس الجماعي وتحليل الأنا**.
(12) - فرويد (سيغموند)، **في تاريخ عصاب طفلي** (الرجل ذو الفئران).
(13) - فرويد (سيغموند)، **مدخل إلى التحليل النفسي**.
(14) - فرويد (سيغموند)، **محاضرات جديدة**.
(15) - فرويد (سيغموند)، **عسْر في الحضارة**.
(16) - فرويد (سيغموند)، **الأنا والذات**.
(17) - جورو (جورج)، بناء الاكتئاب، مقال في **صحيفة التحليل النفسي العالمية**، 1936.
(18) - غرانبرجر (بيلا)، ملاحظات عن الانشقاق بين النرجسية والنضج الدافعي، مقال في **المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**، 1962.
(19) - غرانبرجر (بيلا)، ملاحظات عن الفموية، مقال في **المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**، 1959.
(20) - غويه (جيرمين)، **عصاب الهجر**، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1950.
(21) - جاكوبسون (إديث)، ميتاسيكولوجيا الاكتئاب الدوري، في **الاضطرابات الوجدانية**، غريناكر.
(22) - لوفن (برترام)، **علم النفس التحليلي للابتهاج**، لندن 1953.
(23) - لوران (ساندور)، الخلْفية العصابية، **الطب النفسي الجسمي**، 1943.

(24) – لوران (ساندور)، دينامية الحالات الاكتئابية وعلاجها، **مجلة التحليل النفسي**، 1937 .
(25) – مالّه (جان)، الاكتئاب العصابي، **تطوّر الطب النفسي**، 1955 .
(26) – ناخْت وريكامه، الحالات الاكتئابية، دراسة في التحليل النفسي، **المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**، 1959 .
(27) – باشْ (فرانْسيس)، في الاكتئاب، **المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**، 1963 .
(28) – رادو (ساندور)، مشكل السوداوية، **صحيفة التحليل النفسي العالمية**، 1928 .
(29) – رونارْ (ميشيل)، **الحالات الاكتئابية وحالات الإثارة** (تحت الطبع) .
(30) – روأرت (جوليان، الاكتئاب ومشكلات علم النفس المرضي التكويني، **تطوّر الطب النفسي**، 1955 .
(31) – سبيتْز (رونه) ووُلْف (ك.)، الاكتئاب الاعتمادي، **في دراسة في علم النفس التحليلي للطفل**، الجزء الثاني، 1946 .
(32) – توسْك (فكْتور)، **في أصل آلة التأثير لدى الفصاميين** .

الفصل التاسع
انتحار السوداوي[1]

«الانتحار مفعول عاطفة سنسميّها، إذا شئتم، اعتبار الذات حتى لانخلطها بكلمة شرف.
يوم يحتقر الإنسان نفسه، ويوم يرى نفسه محتقراً، وحين يكون واقع الحياة على خلاف مع آماله، فإنه يقتل نفسه ويشكر المجتمع على هذا النحو، مجتمعاً لم يشأ أن يظلّ أمامه عارياً من فضائله وإشراقه.»

بالزاك (لوسيان روبَمْبره)
الأوهام المفقودة

I

انتحار السوداوي، الذي ننوي دراسته هنا، يفرض نفسه على انتباهنا للسببين التاليين بصورة خاصة:

1 - يبدو أنه يكوّن طوراً نهائياً شبه حتمي لهذا المرض وأن

2 - الشروط التي يحدث فيها تدهش الملاحظين في بعض الأحيان، بسمتها غير المألوفة، ولو كانوا من أكثر المجرّبين.

ونحن سنتخلّى عن أن نستبق الملاحظات التي تلي، لضيق المجال، بإعادة

(1) - محاضرة ألقيناها في رابطة باريس للتحليل النفسي في إطار «ندوة الإتقان» من 29 إلى 31 كانون الثاني (جينيوري) 1966.

نظر نقدية للأعمال التي خُصّصت لهذا الموضوع اللغزي الجذّاب وسنقتصر على بعض الملاحظات الأساسية فيما يتعلّق بتوجّه هذه الدراسة.

«السوداوية مرض من أمراض النرجسية» كان فرويد يقول. وهذه المعاينة ستقوم بالنسبة لنا مقام نقطة انطلاق وستقود نهجنا على نمط غالب إن لم يكن حصْري، نهجاً سيؤمّن لحِجاجنا ضرباً من التجانس. ونحن نمنح النرجسية هنا، إذ أضفينا عليها منصب مرجع واعتبرناها بعداً من أبعاد النفس خاصاً، منحاً بالحري بطيبة خاطر، شيئاً من الاستقلال الذاتي بمقدار ما يبدو المرض، موضوع اهتماماتنا الراهنة، أنه ينتمي قبل كل شيء إلى إشكاليتها النوعية، كما يذكر الاستشهاد بفرويد.

ولست أقصد إطلاقاً أن أقلّل من شأن العوامل الأخرى الواردة كلاسيكياً. بل بدا لي مع ذلك أن اختيار منظور محدّد كل التحديد كان أمراً لاغنى عنه هذه المرة، مع احتمال أن أستأنف هذه الدراسة فيما بعد، في ظلّ إنارة مختلفة.

ويضعنا هذا الموقف أول الأمر في مأمن من خلط يوجد على الغالب في الأدب بريشة مؤلفين يخلطون عادة بعض العناصر الخاصة بالعصاب الوسواسي مع عناصر تنتمي إلى الذهان الهوسي الاكتئابي أو الاكتئاب العصابي. وسيتيح لنا هذا الموقف أيضاً أن نتجنّب مشكل «اختيار العصاب» كما يطرحه أبراهام، وكذلك النتائج النظرية التي تقوده إليها ملاحظاته. والواقع أنه يتساءل، وهو يعاين النزاع الدافعي المثير للمريض الذي يبدو متماثلاً في الحالتين: «**لماذا السوداوية وليس العصاب الوسواسي ؟**»

ونحن سنجيبه أن الأمر لايعدو كونه مشكلاً كاذباً ذلك أن المرء يمكنه أن يعاني سوداوية أو اكتئاباً خطيراً وهو في الوقت نفسه مصاباً بالوسواس، أو منحرف الطبع أو مصاب بالذهان الهذائي (بارانويا) أو الهستيريا، بل بستجيب لعدة بطاقات من هذه البطاقات معاً، بالنظر إلى أن الفئتين من الاضطرابات توافقان أوضاعاً نزاعية

من سجل" مختلف وأن الأمر ليس اختياراً بل **موازاة**؛ والموازاة نفسها التي توجد بين العصاب والاكتئاب تفصل مصير النرجسية عن مصير النزاعات الدافعية بمعناها الحقيقي وينبغي دراستهما منفصلين.

أضف إلى ذلك أن الدراسة الكلاسيكية للسوداوية، المتمحورة على نزاع دفاعي، إذا كانت تعتبر الانتحار احتمالاً ذا طبيعة ثانوية بالضرورة، ذلك أن الأمر لا يعدو كونه دائماً اجتيافاً)سادياً فموياً والعامل الكمي" هو وحده الذي يقرّر اتجاه تطوره، فإن موقعنا يتحدّد في منظور عكسي"؛ ونحن نسلّم بسمة الانتحار الحتمية، وهي عرض أساسي من أعراض المرض وعاقبة ليست ناجمة عن نزاع دافعي بل عن ضرب من **الموقف** الأصلي، سواء ولّدته الكينونة من تصنيف الأمراض، التي هي السوداوية، أم لم تولّده.

والواقع أننا نجد موقف التوجّه إلى الموت في أمراض مختلفة جداً، وعلى وجه الخصوص إذا حدّدنا مكاننا على تربة عيادية على وجه الدقة. وأذكّر هنا على هذا النحو باللوحة العيادية للسوداوية مع مجموع أعراضها الكلاسيكي والمبتذل وكأنه مجموع أعراض لمرض جسمي مع محتوى سيكولوجي عميق أُضفيت عليه الفردية ببروز، إذ أن المادة المجموعة شبه متماثلة من حالة إلى أخرى وتصلح لوضع علم الوراثة الفرويدي موضع الإخفاق. وبما أن الموقف المعني" موجود أيضاً في بعض الاكتئابات الخطيرة فيما يخص عقباها، ولكن ليس ثمة شيء يميّزها على ما يبدو من اكتئاب عصابي، وهو اضطراب لايتضمّن، من الناحية البنيوية، عقوبة محتّمة على الإطلاق، فإن المرء تسوّل له نفسه أن يؤكد العكس. وإذا كان بوسعنا أن نفترض مع فرويد أن الانتحار الطارئ في بعض الحالات الخرساء ينبغي أن يُنظر إليه أنه الطور النهائي لمرض ذي تطوّر خفي" توضيحه **البعدي** يسهل تحقيقه على الغالب مع ذلك، فثمة حالات يصيب فيها الاندفاع الانتحاري الفرد فجأة، دون أية أمارة ولا أي سرعة عطب بنيوي يمكننا الكشف عنها وبوسعنا اعتباره شاهداً

على اضطراب عصابي نوعي. واستطعت أن أرى، أنا نفسي، لدى فرد حياتُه كانت كتاباً مفتوحاً بالنسبة لي، ذي صحة نفسية كاملة وتوازن نفسي منيع، أقول استطعت أن أرى انهياراً سوداوياً نمطياً كلياً؛ وكان قد صُرِع على هذا النمط الخاطف، دون ريب، جرّاء صحته التي كان قد حماها من كل تداخل مرضي حتى تلك اللحظة.

وينجم انتحار السوداوي عن كوكبة موقعية خاصة يمكنها أن تتكوّن في الوقت الراهن تبعاً لعوامل شتى ولكن أصولها تعود إلى الولادة وما قبلها. ومكافئاته، إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية، ينبغي البحث عنها بين الوضعيات المرضية الخفيّة على الغالب التي لها الميل الخاص نفسه إلى الموت، التي تفضي إلى نهاية على نمط أو آخر، ولكن على نحو معجّل دائماً (دراسة عمودية)، وليس بين ضروب أخرى من الانتحار (دراسة أفقية). وكان فرويد يتكلّم على السوداوي الذي «**يستسلم للموت حين تهمله أناه العليا**». والحال أن المصاب باكتئاب خطير لا يستسلم للموت استسلاماً سلبياً، ولو أنه لا يبدو بهذا المظهر، بل يقتل نفسه على نمط فاعل، والسوداوي هو الذي يقدّم المثال على ذلك إلينا. ولكن هذا المثال ليس الوحيد على الإطلاق(2).

وستسوّل لنا أنفسنا أن نستأنف، في ظلّ هذه الإنارة، دراسة عدد من الكيانات العيادية، سواء أكانت أم لم تكن موضوع الوصف، بدءاً من النتائج المترتّبة على الاستشفاء المديد التي درسها رونه سبيتز حتى الخَلْفة الذهنية، اضطراب أشرنا إليه آنفاً في الاتجاه نفسه بمناسبة أخرى، مروراً بالتدرّن الرئوي(3) والإدمانات على السموم.

وثمة كل الضروب من الأمراض التي تتّخذ نهاية مميتة لأسباب نفسية على

---

(2) - لهذا السبب إنما نعارض تصوّر المؤلفين، كجوف وساندكر (**ملاحظات على الاكتئاب والتفرّد**)، الذين يُدخلون مفهوم «**الاستكانة أمام الألم أو الاستسلام له**». فإذا كان المرء مستكيناً أو مستسلماً، فإنه يوقف كفاحه، ولكنه لا يقتل نفسه.

(3) - الصلة التي نقيمها على هذا النحو بين الاكتئاب الخطير وبعض الأمراض النفسية لا تحكم حكماً مسبقاً - بالطبع - على استقلالها الذاتي بالنسبة لتصنيف الأمراض.

وجه الحصر، وذلك يمكنه أن يكون حقيقياً بالنسبة لبعض حوادث الموت المتعذّر شرحها كما بالنسبة للموت بفعل النكوص الشيخوخي نفسه؛ ألم نعاين، مع هنري إي، أن عامل النكوص الشيخوخي كان يقدّم 40 بالمئة من كل حالات الانتحار السوداوي؟

II

لفتُّ النظر، خلال دراساتي السابقة، إلى أهمية الدور الذي يؤدّيه، في حالة تطوّر نفسي جنسي مضطرب، غياب التنسيق بين جانبين من السيرورة التطوّرية، العامل نرجسية والعامل نضج دافعي. وهذان العاملان يتباعدان، بدلاً من أن يفضيا إلى ضرب من التوليف، ويولّدان بتداخلاتهما المتبادلة أوضاعاً ديالكتيكية داخل المنظومة نفسه.

إنه وضع مميّز بالنسبة للاكتئاب العصابي، ولكننا نكتشفه في الأعصبة على وجه العموم، من هنا ينشأ أن النواة الاكتئابية لا يمكنها أبداً أن تغيب كلياً. ويولّد هذا الاضطراب، فضلاً عن عدم النضج الدافعي، حالة من الغمّ نحدّده باسم اكتئاب. وثمة ضرب من تنظيم التوازن: فالتوليف نرجسية – نضج دافعي يمكننا الحصول عليه مع ذلك لقاء ألف من الصعوبات ولكنّه يظلّ مؤقتاً وتحت رحمة أوهى إرهاق يثير ترجّحات تفضي إلى تفاقم الغمّ، ويتدخّل الإرهاق في الاتجاه الإيجابي أو السلبي. فإذا كان الفرد ذو صحة جيّدة ويستجيب بالاكتئاب لظرف غير مؤات على وجه الخصوص، فإن حدثاً ساراً أو إشباعاً يملآنه بالفرح، في حين أن المكتئب سيستجيب لأوهى إحباط بحساسية عالية الشدّة، ولكن الذعر سيستولي عليه أيضاً لأوهى مسرّة تتجاوز عتبة إمكانات التوظيف النرجسي لديه، وهي عتبة

مقلّصة جداً. « **في نفسي**، كان يقول المكتئب الكبير كافكا، **هذا التعب وهذا الفراغ المميتان اللذان يستوليان عليّ كلما كان يُسعدني شيء من الأشياء.** »[4].

أضف إلى ذلك أن المازوخي إذا اشترى اللذة بالعقوبة، فإن المكتئب يعاقب نفسه لعدم حصوله على اللذة، ويعاقب نفسه أيضاً لفشله في الحصول عليها.

ويعاقب مرجعه النرجسي أناه بسبب قصورها، فهي عاجزة عن البحث الناجع عن اللذة وعاجزة عن قبولها على حدّ سواء. وبما أن كل إخفاق جديد ينعكس صداه على إمكاناتها الإجرائية، فإن نقصان قيمتها الوظيفية يجذب إليها عقوبات المرجع النرجسي، وهذه العقوبات ذاتها تقلّص وسائل العمل لديها، وهكذا دواليك، حلقة مفرغة حقيقية تستقرّ في ظلّ تأثير عدوانية ذاتية دائمة ليست شكلية ولا رمزية، كما لدى المازوخي، ولكنها ذات واقع لا يرحم.

وبما أننا ناقشنا العلاقة بالموضوع والعدوانية الارتكاسية معاً لدى المكتئب، فإننا لن نسهب فيهما هذه المرة؛ ولكننا نلفت النظر - قبل أن نمضي بعيداً - إلى أن سلوكه النوعي تابع للطلاق الأصلي والنقيضة بين المكوّنة النرجسية ونضجه الدافعي.

ويربط فرويد، إذ يتكلّم على الحَصَر المميت لدى السوداوي[5]، هذه الحالة من الأمور بحَصَر الولادة فهو يؤكد إذن أصله المبكّر. ويصعب علينا ذلك أن نتابع فرويد فيما يخصّ المصطلح المستخدم، وبما أن صلة الحصر إنما هي بالأنا وفق المعاينة الفرويدية («**ليست الأنا موجودة في هذه اللحظة ولا يمكنها إلا أن تنمو شيئاً فشيئاً**»)، فهذا المرجع لا يزال غائباً في اللحظة المأخوذة بالحسبان. ومن المؤكد أن الحصر موجود في التوتّر المميت لدى المكتئب ولكنه ذو أصل دافعي، مرتبط بالنزاع مع الموضوع، في حين أن نوعية الحالة الوجدانية ناجمة عن الاكتئاب وهذه المكوّنة هي التي سنبحث عن اكتشاف أصولها بالعودة حتى الولادة (وتلك

(4) - يانوش: «قال لي كافكا».

(5) - «الأنا والهو».

النظرة تطابق - ونقول عابرين - تصورنا الذي يعزو الاكتئاب إلى اضطراب في النرجسية، هي ذاتها من أصل قبل ولادي).

أما وقد قلنا قولنا هذا، فإن علينا أن نحدّد موقع هذه النرجسية ذات الأصل قبل الولادي، والموجودة إذن لحظة الولادة، بالقياس على الأنا التي لاتزال غير موجودة في هذه اللحظة. وهذا هو المجال للتذكير بتعليم فودرن الذي يرى أن بداية الحياة تسيطر عليها «**عاطفة الأنا**» ذات السمة النرجسية، وذلك تكوين يسميه «أنا الأنا الكونية».

هذا التكوين أو الحالة لاتوافق تعريف الأنا الفرويدي (مرجع شبيه بمرجعي الهو والأنا العيا ينفصل، بتأثير منبّهات خارجية وداخلية، عن الهو ويطرأ عليه تنظيم خاصّ يجعله قادراً على أن يقوم مقام الوسيط بين الهو والواقع)؛ وسيكون هذا المرجع بالحري **واقعاً نفسياً له كتلة وجودية** وشحنة ليبيدية نرجسية.

تكلمت في عدّة مناسبات على الفَرَض الخاص بحياة ابتهاجية، تؤكّده كل الضروب من الذكريات التي يحتفظ بها اللاشعور الجماعي أو الفردي على صورة أو على أخرى، ولكن المناسبة لم تسنح لي بعدُ لألحّ على ما يمكنه أن يُعتبر العِوَض عن هذه الذكرى الإيجابية، إذ تزدوج إذا صحّ القول بمعيش نفسي، ذي علاقة بالانهيار المأساوي لهذه الحالة من الهناء. **والمقصود هو الفردوس المفقود، أي طوران متواليان من سيرورة واحدة، إذ أن الطور الثاني ألغى الطور الأول إلغاء صاخباً كارثياً**. فكل شيء يحمل على الاعتقاد أن ما هو معيش مجدّداً في هذه الذكرى إنما هو الحالة الابتهاجية البدئية والإحباط هو الذي يليها بالضرورة. وبما أن نرجسية الأنا الكونية تختلط بكون الفرد وبالكون دون صفة بفعله، فليس ثمة ما يثير الدهشة أن يكون كلا الطورين قد عاشهما الفرد مجدّداً، عيشاً بقوة تطابق هذا الوضع الوحيد للفرد، الطور الأول عاشه على نمط ابتهاجي، والثاني أصابه بشقاء مرعب لا شفاء منه. والنمط الخاص بحفظ هذه الذكرى تابع دون ريب لغياب أنا قادرة على الإدراك بالمعنى الذي نفهمه به، فالتسجيل وجداني إذن على وجه الحصر، وهو مزوّد بقوة يتعاظم كبرها بمقدار ما لايوجد أنا تراقبه، ولو لتحويلها إلى حَصَر.

وترصن الأنا هذا الأثر التذكّري الخاص فيما بعد وتنقل إلينا عقُبوله الغمّي على صورة الاكتئاب، وهذا الاكتئاب ينطلق كلما أنعشه توتّر جديد بين الأنا والنرجسية. أما السوداوية، وهي حالة نكوصية، فإنها بهذه الصفة أكثر قرباً بكثير من الاكتئاب العصابي إلى المعيش الأصلي، ونحن نجد فيها معاً الوضع النرجسي المركزي (يتّهم الفرد نفسه أنه سبب نزاع عالي مدمّر على سبيل المثال) والذكرى الكارثية للحَدَث. وتحتوي **اتهاماته الذاتية** دائماً، التي تتخذ لسهولة مدى كونياً ذلك **الأسف على حالة بدئية كاملة، دمّرها خطأ الفرد**، وذلك أمر لايثير الدهشة، ذلك أنه في اللحظة الدقيقة الذي يذكّرنا فيها وهو يقصّ علينا تعاساته، يكون العالم وهو نفسه مختلطين («أنا الأنا الكونية»). إنه يكرّر **الماضيَ** طوال الوقت (مستخدماً لذلك محتوى مناسباً لهذا الغرض لايزال يشغلنا نحن مع ذلك)، لأن المقصود في الواقع ماضيه الأكثر بعداً من الناحية الزمنية، المتجسّد في الحالة الوجدانية بفعل السيرورة النكوصية. وبوسعنا أن نضيف، إذ نستبق أيضاً ما يلي، أنه يبحث على هذا النحو عن أن يُطلق نرجسيته على حساب أناه ويعقلن إحساساً ذا ماهية تسبق ماهية الأنا، دافعيته الواقعية التاريخية لايمكنها إلا أن تفلت منه. والمقصود حالة وجدانية منهكة جداً، مصدر عذابات تُعاش على نمط مأساوي وحالةُ الذهول وحدها تفلح في أن تخفّف حدتها في نطاق معيّن.

وليعود إلى الحالة الابتهاجية البدئية التي تقابل الإنجاز الآلي للحاجات الفيزيولوجية، إذ أن هذه الحاجات لم تتكوّن بوصفها حاجات، فإنه يكون محكوماً عليه أن يعاني في لحظة أو أخرى اضطراباً يتجاوز عتبة معيّنة ولايمكنه، لهذا السبب، إلا أن يزعزع المجرّة النرجسية، أي أنا المستقبل في هذه اللحظة، زعزعة في أسسها ذاتها. وبما أنه لايوجد، والحال هذه، أنا في هذه اللحظة الحرجة، ولاموضوع، ولاأي امتثال، فإن **تأثير هذه الزعزعة لايمكن أن تحتمله أو تسجله**

سوى **الكتلة النرجسية ذاتها**، مثيرة في الوقت نفسه، بالطبع، بداية تمايز في الجهاز الدافعي الذي يسهم في تكوين الأنا. ولكن الأساسي بالنسبة إلينا هو أن نقيس هنا المفعول الذي من شأن هذه الصدمة الأولّية أن تُلحقه بالنرجسية البدئية.

والواقع أن المعايير التي نعترف فيما بعد للنرجسية بها تبيّن أن هذه النرجسية تُعاش بوصفها حساسية عامة ابتهاجية خاصّة، مصدر توظيف عام للوظائف والعلاقات بالموضوع، حامل وضع الفرد في العالم وأمنه، إلخ. وتجد بعض هذه الحساسية العامة ترجمتها على نحو تلقائي في مفاهيم القوة الكلّية، واللامتناهي، والخلود. والحال أن الصدمة النرجسية تلقي الكتلة النرجسية في حالة هي نفي ماهيتها نفسها وتضعها إذا صحّ القول موضع تساؤل من جهة النظر الحيوية، وتلك حالة سنكتشفها في الجرح النرجسي وهي مسؤولة عن هذه النغمية الغمّية الخاصة، أي الاكتئاب.

والاكتئاب عكس الابتهاج، ويعبّر عن تغيّر في علامة النرجسية ويضع ضرباً من البَرَم مكان الغبطة. فنحن نجد أنفسنا في غمرة نزاع بين النرجسية المصدومة والرسم الأوّلي للأنا التي ولدت للتوّ من الصدمة ذاتها، المسؤولة عن النزاع. وبما أن النرجسية هي نقيض الاعتراف بإخفاقها الخاص، بفعل ماهيتها ذاتها، فإن أنا المستقبل هي التي ستستقبل إسقاطها و**تكوينها سيحّس بهذه الرعاية آخر الأمر**. وهذا النزاع هو المسؤول عن القطيعة والتوتّر الدائم بين النرجسية والأنا الإجرائية، إذ تولّد هذه القطيعة مختلف النسخ من مرض الاكتئاب. وإذا لم يفلح الفرد في أن يتجاوز هذه الإصابة بالصدمة المبكّرة، فإنه لايحتفظ منها بضرب من فرط الحساسية الخاصّ فحسب، بل أن تطوّره النفسي الجنسي سيكون مصاباً في كل طور من أطواره بنقص الاندماج المتبادل للعاملين اللذين يشاركان فيه (النرجسية والأنا)، إذ تنقل الأولى إلى الثانية حالتها المرضية الخاصة.

III

المسؤول عن السوداوية، وفق رأي فرويد في فَرَضه الأول الخاص بالسوداوية، إنما هو فقدان الموضوع. ولكنه يوضّح، خلال هذه الدراسة نفسها («الحداد والسوداوية»)، وذلك بمعزل عن تقييداته الخاصة لمدى فروضه، تقييدات مألوفة لديه، أن أسباب السوداوية تتجاوز الحالة الواضحة لفقدان الموضوع بفعل الموت وتتضمّن حالات من الإذلال، والإهانة، وخيبة الأمل، إلخ. . . »، أي الجرح النرجسي بعبارة أخرى. ويطرح فرويد، في فقرة أخرى من المقال نفسه، سؤالاً مفاده أن يعرف «ماإذا كان فقدان الأنا دون أخذ الموضوع بالحسبان، لايكفي لتوليد الذهان الهوسي الاكتئابي».

وهذه الفقرة تبرز بالنسبة لنا بروزاً فريداً، ذلك أن فرويد لاينظر في الأسباب النرجسية الصرفة للاكتئاب السوداوي فحسب، بل يميل إلى أن يتهم سيرورة ذات طبيعة تقع داخل الأنا خاصة بفقدان الموضوع ذاته، بالنظر إلى أن هذا الفقدان ليس متغاير الموضوع ولكنه نرجسي. وهذه النافذة الجديدة لدى فرويد، بالإضافة إلى انهيار فرضه الأصلي، تجعلنا نهجر الطور السادي الشرجي للموضوع، إذ تضع على هذا النحو نهاية للبْس الأبدي مع العصاب الوسواسي، وتقرّبنا في الوقت نفسه من الطور النرجسي وبالتالي من الخط الموجّه نفسه لهذه الدراسة. وبوسعنا، من جهة أخرى، أن نلقي جسراً بين التصورّين، إذ نذكّر أن اختيار الموضوع لدى السوداوي نرجسي وأن فقدان الموضوع ذو علاقة دائماً بجرح نرجسي والعكس بالعكس. فالفرد كان يحبّ الموضوع حباً نرجسياً، أي حباً مرآوياً ويسقط عليه إذن

توظيفه النرجسي. فإذا اختفى الموضوع، فهو يختفي قبل كل شيء بوصفه سطح انعكاس يتلقّى الشحنة النرجسية التي ستكون مفقودة أيضاً (ونذكّر هنا بـ **الحطّ من الشأن النرجسي** لدى الفرد، الذي ينجم عن هذه الحالة، وتلك سيرورة يعبّر عنها الفرد - لأسباب سنراها فيما بعد - بعبارات سادية شرجية، أي بوصفها **إفقاراً واقعياً، مادياً**، إذ تكوّن شكواه - كما نعلم - عنصراً من العناصر الأساسية للوحة العيادية، لوحة الطور الحادّ من مرضه.).

ويصبح الأمر أكثر وضوحاً كذلك إذا نظرنا في طور السيرورة التي تلي فقدان الموضوع. والواقع أن فرويد يشرح انتحار السوداوي برجوع الليبيدو إلى الفرد الذي يستخدمه - متداركاً خسارة الموضوع - لغايات التوحّد بالموضوع المفقود، على نمط نرجسي؛ وإذ يجري الاجتياف المواكب على نمط سادي فموي، فإنه يفضي إلى قتل الموضوع أي إلى الانتحار بواسطة التوحّد النرجسي. والحال أننا إذا وضعنا السيرورة على التربة النرجسية مجدّداً، فإننا نجد أنفسنا أمام عدم توافق حقيقي بين النكوص النرجسي والسادية؛ أضف إلى ذلك أن الفرد إذا كان يتوصّل إلى أن يجد الموضوع المفقود مجدّداً بهذه الواسطة، فلن يكون ثمة حاجة إلى قتل النفس، أي إلى الانتحار.

والواقع أن الفرد إذا اختار موضوعه اختياراً نرجسياً، فالسبب أن نرجسيته الخاصة لم تكن، بالنظر إلى أن النزاع اضفي عليها، مندمجة اندماجاً كافياً، وذلك أمر يرغمها بالضبط على هذا الاختيار غير الناضج للموضوع؛ ولم يكن بوسعها أن تستغني عن دعم نرجسي «من الخارج» وبما أنه كان قد أسقط أيضاً وحدانيته النرجسية على الموضوع، فقد أصبح هذا الموضوع موضوعاً يتعذّر أن يحلّ محلّه آخر. واستطاع أن يحقّق على هذا النحو - بفضل هذا الدعم الصادر عن الموضوع على نمط معيّن - توازناً نرجسياً مرضياً من وجهة النظر الاقتصادية ولكننا ندرك مباشرة لماذا لن يكون بوسع فقدان الموضوع إلا أن يلقيه في اليأس، أو في الفشل إذا تكلمنا بلغة الاقتصاد الليبيدية. والواقع أن الذي حرّره موت الموضوع سيرتدّ إلى الفرد، ولكنه لن يمكنه، نظراً إلى أن ليبيده النرجسي الخاص قد أُضفي عليه

النزاع وهو غير مندمج بالتالي، أن يتحمّل مسؤولية هذه الكمية الإضافية من الليبيدو النرجسي. فلنتذكر أن عدم نضجه النرجسي هو الذي حدّد في الماضي ذلك النمط الخاص لاختيار الموضوع (الاختيار النرجسي).

وهذا الليبيدو لايمكنه إذن إلا أن ينضاف إلى مقدار الليبيدو السلبي الذي كان عليه أن يؤويه دائماً، بصفته مكتئباً، وتنامي الليبيدو السلبي لايمكنه إلا أن يفاقم انعدام التوازن النرجسي لديه بمقدار لم يسبق له أن واجهه حتى هذه اللحظة. وغير مجدٍ أن نضيف أن هذا الليبيدو العائم، مصدر الغَمّ الشديد، يتعذّر استخدامه أيضاً لغايات التوحّد، لاسيمّا أن التوحّد ذو صلة بضرب من العلاقة بالموضوع، في حين أن ضغط الليبيدو العائم لايمكنه إلا أن يلقي الفرد في نكوص سابق على الموضوع حيث يكون قاب قوسين أو أدنى من كارثة الجرح النرجسي الأوّلي ذاته. فنجد أنفسنا هنا في عالم الإسقاط وليس في عالم الاجتياف.

ولن يتوقّف هذا الجرح، مع أنه يظلّ مكبوتاً بعمق، عن أن يجعل حضوره يظهر منذ بداية الحياة بحساسية مفرطة للجروح النرجسية وبحركة ديالكتيكية دائمة بين الأنا والمرجع النرجسي. ولن يتوقّف المرجع النرجسي، خلال جريان هذه الحركة، أن يبتزّ من الأنا ضرباً من الشحنة الليبيدية، وذلك أمر لايفوته أن يفضي إلى حلقة مفرغة كما قلت فيما سبق. والحال أن هذا السحب، سحب التوظيف، يزيّف بالضرورة، كلّما حدث، ميزانية الفرد النرجسية، بالنظر إلى أن هذا الفرد مرغم على أن يباشر في كل مرة تعديل هذا التوازن المضطرب. وتختبر الأنا قدرتها لتحقيق هذا التنظيم لقاء جهد كبير قليلاً أو كثيراً، إلى أن يطرأ ضرب من اللامعاوضة. وفي النقطة نفسها إنما تظهر أعراض الاكتئاب العصابي، كضرب من فقدان الإرادة، وتعب لامبرّر له من الناحية الموضوعية، بل مفارق، ونقص في

الحيوية، وانزعاج يتعذّر تحديده، وشيء من القرَف، **الاشمئزاز من الحياة**، أو المزاج السوداوي وفق قاموس العصر.

وإذا كانت هذه الأعراض تعبّر عن تعب بعضٍ من الوظائف التي تبدو أنها سطحية قليلاً أو كثيراً، وظائف الأنا، فإن الأعراض تظهر مع ذلك لتدلّ على إخفاقات التوازن النرجسي على وجه العموم.

وتذكّرنا هذه الأعراض أننا نشهد هنا الطور الراهن لمعركة تدوم من الولادة إذا جاز القول وتدوم، بمعنى من المعاني، منذ زمن طويل. وما إن تتدخّل مجموعة من الجروح النرجسية على نمط متسارع قليلاً، أو ما إن يصيب الفرد فجأة إحباطٌ نرجسي واحد ولكنه كثيف ترافقه صدمة خاصة، حتى تتّخذ سيرورة سحب التوظيف من الأنا سمة ذات قدر كبير من الأهمية كماً وكيفاً بحيث أن الأنا لم يعد يمكنها أن تواجهه بترسانتها. وسنشهد عندئذ الانتقال من الاكتئاب العصابي إلى الاكتئاب الخطير أو السوداوي.

IV

إذا فحصنا اللوحة العيادية التي يقدّمها لنا السوداوي، فإننا نلاحظ أن أعراضه مختلطة؛ فهي تشمل، في الواقع، عناصر ذات علاقة بـ **سحب التوظيف النرجسي**، تضاف إليه علامات **حزن** وضرب من **تمرّد** الفرد، في نطاق معيّن، على سقوطه، وأخيراً قرائن على تدهور خاص علينا أن نقول بعض العبارات عنه فيما بعد.

ونلاحظ، فيما يخصّ الفئة الأولى من الأعراض[6] (أعراض سحب التوظيف النرجسي)، أن حساسية المريض العامة، «وجوده في العالم»، دون أن نتكلّم عن الأعراض النرجسية بمعناها الدقيق، هي المصابة، وأن ثمة قصوراً في الشحنة النرجسية الإيجابية فيما يخص كل الوظائف الفيزيولوجية ذات العلاقة بالاتصال. وهذا القصور يؤثّر في كل الأجهزة الحسية المستخدمة لدعم انفعالات الفرد ذات الصلة بالموضوعات، والعمل الوظائفي لكل أناه الجسمية، بوصفها عضواً علائقياً، ينطوي على شذوذات. (ليس المقصود بذلك على الإطلاق اضطرابات وظيفية فيزيولوجية، ذلك أننا سنرى أن الفرد يبلغ فجأة، ليخدم قصده الانتحاري، أي عندما يرتدّ ضد أناه الخاصة، ضرباً من التلاؤم الحسي فوق الطبيعي). ويشكو الفرد من الشعور بالافتقار، ذلك أنه يجد نفسه ويشعر أنه قليل الشأن من الناحية النرجسية، ونحن نعلم أن مفهوم الكمال النرجسي، المفهوم نفسه، يختلط بشعور الفرد بقيمته («تعديل في اعتبار الذات»).

وإذا تصوّر الفرد نفسه قليل الشأن، فإنه يجد نفسه مصاباً بالافتقار واقعياً، وبما أن العلاقة بالموضوع، منظوراً إليها من الزاوية الاقتصادية (ملكية، خسارة، عوامل كمية)، تنتمي إلى السجل السادي الشرجي، فلن يكون بوسع الفرد أن يعبّر عن اضطراب حساسيته إلا بعبارات هذا السجّل نفسه، كما في الهوَس على

(6) - اضطرابات الشهيّة، انحراف الذوق، سُعار في بعض الأحيان، نَفَس كريه الرائحة، علامات خَلَل وظيفي عصبي نباتي، انتفاخ البطن، تغيّرات في الوزن، إمساك، حاجات ملحّة، بُوال،

اضطرابات في وظائف الغدد الصمّ، اضطرابات الطمث، انقطاع الطمث، اضطرابات السلوك الجنسي، فقدان الليبيدو على وجه الخصوص،

اضطرابات قلبية وعائية، فرط التوتر، عسر التنفّس، صُداع، دوار،

غَمَش، رهاب الضوء، أزيز، طنين الأذن، فرط الحساسية السمعية،

الشعور باللاواقع، اضطرابات المخطّط الجسمي، سرعة الغضب، النزق البالغ وحالة حواسّه واهنة، عدم الحساسية للألم، ضعف الانتباه، ضعف الذاكرة، إلخ.

وجه الضبط، حيث سيمنح حساسيته الظافرة تعبيراً مادياً («لي كذا سندات ملكية، أملك عدداً من القصور، ولي ثروة تبلغ المليارات، إلخ»)[7].

أما الأعراض التي تنتمي إلى الفئة الثانية (حزن وتمرّ على التوظيف النرجسي) فإنها تعكس جيداً الشدّة التي يتّخذها - في جو من إضفاء العدم، إضفاء يقلب الأمور رأساً على عقب - سحب التوظيف النرجسي الشديد الذي يصيب الفرد[8]. فكل حساسيته العامة كانت مرتبطة، في الواقع، بتوازنه النرجسي الذي كان يحدّد موقعه في العالم (موقعاً مركزياً وظافراً دائماً بصورة لاشعورية)، في

(7) - كان فرويد يشرح الخوف من الافتقار بضرب من الغلمة الشرجية النكوصية، وذلك الأمر لا يمضي إطلاقاً على عكس أسلوبنا في رؤية الأمور، ذلك أننا نعتقد تماماً أن أساس الدوافع تقدّمها قبل كل شيء المكوّنة السادية الشرجية. وبما أن نقصاً في الشحنة النرجسية يطرأ على هذه المكوّنة، فإنها تجد نفسها مضطربة شأنها شأن المكوّنات العلائقية الأخرى، من جهة أخرى أيضاً. وهذا ما يشرح على وجه الخصوص ذلك التنوّع الكبير في المخاوف التي تعذّب السوداوي الذي يخشى أن يعتدي على الناس وأن يتلقّى عدوان كل الضروب من الإسقاطات المرعبة لهذه العدوانية التي تصبح، بوصفها منفصلة عن الأنا المصابة بالفقر، أكثر تهديداً بكثير. أما **الغلمة الفموية**، فإننا نعلم الأهمية التي كان قد مُنحها هذا العامل في مبحث أسباب السوداوية. ولا نعتقد مع ذلك أن هذه المكوّنة يمكنها أن ترقى إلى النوعية التي يريد هذا المؤلف أن يراها قد مُنحت ما منحها. (ومع ذلك، كشف أبراهام عن العامل قبل الولادي الذي يسود الجانب الأساسي في سيرورة الانتحار السوداوي، وإن لم يكن قد حلّ لغزه، كما سنرى فيما بعد). أما موضوع الأرق، الذي يدفع به فرويد ليبيّن صلابة الموضوع وعجزه عن أن يسحب ليبيده من العالم المحيط، وهو شرط النوم، فإننا نعتقد أن المقصود بذلك فارق في المنظور، ذلك أن السوداوي يفلح جيداً جداً في سحب توظيف العالم المحيط ويُحدث ضرباً حقيقياً من النكوص النرجسي، ولكنه نكوص أُضفي عليه النزاع. إنه لا يفكّر إلا في نفسه وهو عاجز عن أن يجعل فكرته تحيد عن هذا القطب. وتصبح هذه الفكرة مع ذلك مزعجة يتعذّر تحمّلها، عذاباً حقيقياً. فما ينقصه إذن ليكون بوسعه النوم، هو أن يوظّف وظيفة النوم على نحو ملائم، إيجابي، وهذا التوظيف النرجسي لا غنى عنه لسير جيّد لهذه الوظيفة، كما لسير الوظائف على وجه العموم.

(8) - المريض مشغول، معذّب؛ ويستخدم مختلف المؤلفين ألفاظاً مثل: ضائع، خائف، وجل، يائس، إلخ؛ وهي ألفاظ تعبّر عن حالة من الشقاء الكلي: «لماذا يحدث لي ذلك؟ ماذا فعلت لأستحقّ ما يحدث لي؟» فسحنته مشوّهة، ورأسه مطأطأ، وجبهته مجعّدة، ونظرته منطفئة، وكتفاه مسترخيان، وجهازه العضلي مترهّل، وتلك علامات عديدة لأنا قاصرة، تنوء تحت تعاسة لا حدود لها. ولديه أفكار عدم الجدارة والعجز، يرتجف، إنه يخاف كل شيء.

حين أنه لايمكنه إلا أن يشهد، عاجزاً، تعريته الكاملة والانهيار التدريجي ولكنه المنظّم القاسي لكل تبنْين الأنا. وبما أن مكوّنات هذا المرجع النفسي يمسّها سحب التوظيف (الذي لايمسّ حدود الأنا الإجمالية فحسب، ولكنه يمسّ أيضاً الامتثالات والصور ذات العلاقة بالموضوع، والتوّحدات، والمراجع النفسية الأخرى، والصور الذهنية المثالية وكل الاستدخالات) فإنه سينكص، وستكون مظاهر النرجسية، كما ستظهر من خلال الأنا الفاقدة التنظيم بعمق، أقلّ تكيّفاً فأقل، بل متناقضة.

فمن خلال الانتقاص الذاتي من قيمتها، إنما ستُظهر الأنا جنون عظمتها النرجسي، **فالأنا المسحوب توظيفها والنرجسية المتحرّرة من الأنا تظهران في الوقت نفسه**: «إنني أعظم صيّاد سمك في العالم». إن الأنا ستتعلّق بنرجسيتها التي أُضفيت عليها الأنانية وستبحث عن أن تعارض حركة سحب التوظيف ولكن دون قدرة على أن توقف السير القاسي لهذه السيرورة. ولايتّهم السوداوي نفسه (وإذا كانت أناه العليا لاتزال موجودة، فإنه بوسعه أن يستخدمها معرّضاً نفسه إلى العقوبة مع عاطفة متنامية بقيمته)، إنه **ينتقص من قيمتها**، أي أنه يجاهر بسقوطه أمام العالم. ويسلك كما لو أنه كان يحسّ بالقسوة الخاصة جداً، جرّاءكونه مجرّداً من قيمته، أي من كلّ شيء، بفعل المرجع نفسه (النرجسية) الذي تكمن وظيفته، على العكس، في إعلاء «اعتبار الذات»، إذ يتعلّق على هذا النحو وجوده بالمحور النرجسي للغبطة والقوة الكلية. ويجعلنا احتجاجه، الذي يتّخذ الأبعاد الكونية، نشهد مرة أخرى لقاء صغره وجنون العظمة لديه - فالثانية تبيّن أن نرجسيته العاملة متحرّرة من كلّ رقابة للأنا، في حين أن الأول يعبّر عن شقاء الأنا الأقصى. ولم يعد بوسع الأنا أن تفيد من نرجسيتها، بل إن نقل الانتقاص من قيمة الذات من القوة إلى الفعل (نقلاً تراجعياً) يمسّ، على العكس، ذكرى كل المعيش الدافعي اللاشعورية (محتوى آخر للأنا). وهذا النقل للانتقاص من قيمة الذات يسحب - بعد المحتوى الراهن - كل الشحنة النرجسية ذات العلاقة بالماضي - كل الماضي

– إذ ينتقص من قيمة الأنا بعدياً. فهذا الإعلاء من القيمة الملغى ينضاف على هذا النحو إلى كتلة النرجسية السلبية لدى الفرد. ويميل الإنسان السويّ إلى أن يجد تعويضاً عن الإحباط الحاضر في توظيف الماضي نرجسياً ويتكلّم بطيب خاطر على «الأزمنة القديمة الرائعة». ولن يكون بوسع السوداوي، تبعاً للعلامة المعكوسة لنرجسيته، أي نرجسية سلبية، إلا أن ينتقص من قيمة **الماضي**، لاسيمّا أن هذا الماضي **يحتوي بالفعل** – كما سنحت لنا الفرصة أن نلحّ على هذه النقطة – **مصدر تعاسته**. أما المستقبل، فلا وجود له، ذلك أن التوظيف ينقصه.

ويتعذّر تصوّر المستقبل دون توظيف، تصور بمعناه الصحيح، والمريض لايمكنه أن يعيشه (لانعدام هذا التوظيف الإيجابي) إلا على صورة كارثة كونية.

وإذا انتقلنا أخيراً إلى دراسة الفئة الأخيرة من الأعراض، فئة علامات التدهور النوعي(9)، فإن علينا أول الأمر أن نقول كلمة عن طبيعة سيرورة التوظيف، طبيعتها نفسها. وأذكّر بهذا الصدد أن القوى الفاعلة في هذه السيرورة تفلت – على الأقلّ في المرحلة المعنيّة – من رقابة المراجع النفسية وأن التوظيف لايمكنه أن يكون إلا سيرورة فاعلة، نظراً لأن اللاشعور لايعرف اللامبالاة أو الحياد. فكون الفرد لم يعد يحب الموضوع لايعني فحسب في هذا المستوى هجر الموضوع بعد أن اجتافه في الماضي، بل يعني هجره على نحو فاعل يتوجّه إلى نتائج هذا الاجتياف الذي لايمكنه إلا أن يكون انهياره وتدميره المنتظمين، إذ يفضي الأمر في نهاية المطاف إلى التخلّص منه. وتلازم هذه الحركة تلك المكوّنة السادية الشرجية التي وظيفتها هي – بين وظائف أخرى – أسر الموضوع وهضمه حتى تحويله الكامل إلى غائط. وأذكّر هنا أن النبذ يتّخذ على الغالب، بالنسبة للناس، معنى التحويل إلى الغائط، وأن الموضوع الذي نرفض توظيفه يصبح

رديئاً، **وسخاً**، أي نفاية، برازاً. وعلى هذا النحو إنما نسمّي الحرب التي لاتكون حربنا حرباً قذرة، والعمل الذي لايروق لنا عملاً قذراً، وكبش الضحية الذي نسقط عليه دافعنا السادي الشرجي زنجياً قذراً، يهودياً قذراً. كذلك السوداوي الذي ينبذ أناه الخاصة لايقف عند هذا الجانب من الوضع (كالمكتئب العصابي الذي لايحبّ نفسه أيضاً، ولكنه لايمضي إلى أبعد من ذلك)، إنه يقوّض نفسه، يهضمها، ونقول بعبارة واحدة، «يضفي عليها الصفة الشرجية».

وكلّما تفاقم سحب التوظيف (عمله التقويضي يمكنه، بالطبع، أن يتابع سيره، في بعض الحالات، في الظلام وينتظر الإنجاز الكامل لعمله ليظهر مترافقاً بالضوضاء)، أفضى ليس فقط إلى الاحتقار، بل إلى نقص واقعي، إلى تصغير حقيقي أو تضييق، إلى التضاؤل، يعيشها الفرد بوصفها كذلك مستفيداً من السمة النكوصية للسيرورة؛ والأنا في مواجهة محتوياتها التي تفوتها، والتي احتفظت بأبعادها بالنسبة لها، تجد نفسها على هذا النحو غارقة، مذعورة، شبيهة بقزم تعس يحاصره جيش من العمالقة الضخام يهدّدون ويهانفون كما في حلم الكابوس. والمستدخلات التي تفلت من رقابة الأنا، ولمصلحة السيرورة النكوصية، تميل إلى أن تتّخذ صورها الأصيلة (ذات العلاقة بالموضوع)، ولكنها قريبة من الصور الذهنية المثالية في الوقت نفسه، شوّهها بالإضافة إلى ذلك إسقاط العدوانية عليها، عدوانية حرّرها تشتّت الأنا؛ فثمة في هذا الوضع **ميل إلى إعادة لإضفاء صفة الموضوع وإلى تبعثر محتويات الأنا**؛ والأنا هي وحدها المذعورة، المصغّرة، المرتجفة، العارية كما كانت في أصولها ولكنها محرومة من الاحتياط النرجسي الهائل التي كانت قد استصحبته في متاعها وهي قادمة إلى العالم. ولدى المرء انطباع مفاده أن المرجع النرجسي، الذي كان عليه فيما مضى أن يواجه الصدمة الأوّلية وعزا المسؤولية إلى الرسم الأولي للأنا، غير بعيد عن أن يثأر لنفسه.

V

اللوحة القاتمة التي رسمناها للتوّ تعبّر عن وضع ديالكتيلي، تبعاً لفقدان التوازن النرجسي، وضع نحن قادرون على أن نتبع تطوّره العيادي. والكوكبة نفسها التي أشرنا إليها للتوّ يمكنها، بالمقابل مع ذلك، أن تبقى في الظلّ من الناحية العيادية؛ فالفرد يعيش بصورة عادية على وجه التقريب، وهو، على أي حال، يعيش دون أعراض مميّزة ثم ينتحر فجأة وكأن انتحاره قصف رعد في سماء صافية. ولدينا انطباع مفاده، إذا استخدمنا مقارنة مقتبسة في الكيمياء، أن فعل الانتحار كان موجوداً هناك، كما لو أنه في سائل لايذوب فيه، ينتظر صدمة من الصدمات، ذات طبيعة مجهولة على وجه التقريب مع ذلك، ليتسارع. وتتيح بعض الحالات المذهلة على نحو خاص مجالاً مع ذلك لتقارير في الصحافة ويمكننا أن نكشف عن بعض العناصر غير المألوفة. فيقرأ المرء أول الأمر ملاحظات من نَسَق سطحي ومبتذل، ولكن تكرارها الرتيب، من حالة إلى أخرى، تبعث على التفكير. ويقرأ المرء بانتظام على سبيل المثال - المقصود ملاحظات محيط المنتحر - أن المنتحر «كان لديه كل شيء ليكون سعيداً»، ولم «يكن لديه أي سبب، على العكس، لينتحر»، وإنه «كان مبتهجاً، لايشغله على ما يبدو أي شاغل»، وأنه في اللحظة المشؤومة «كان يبدو في صحة جيّدة، بل أفضل من أي وقت مضى»، وأنه «كان يرى القطار يصل إليه، قطاراً كان يمضي لسحقه بهدوء يتعذّر تعكيره». ثم إن المرء تدهشه بعض التفصيلات التي تتناول موضوع اهتمامات المنتحر، السابقة مباشرة لحركته، ذات العلاقة على الأغلب ببعض العنايات الجسمية التي كان سيغدقها على نفسه: «سأذهب للتوّ إلى الحلاّق لقصّ

شعري»، كان الرجل يقول لزوجته. وذهب ولم يعد أحد يراه. وتلك العارضة الأزياء تطلب مجموعة من الشعر المستعار وتقتل نفسها. وتجنّد مضيفة طيران مختلف الأشخاص ليناقشوا معها سكنها الجديد (والمقصود على وجه خاص مجموعة من الستائر)، وفي الغد وُجدت ميتة. ويمضي رجل يبحث عن أسطوانات ليتسلّى ويلقي بنفسه في الماء فيموت غرقاً.

والمشترك في هذه الحالات جميعها إنما هو، بادئ ذي بدء، أن التفصيلات المذكورة متعارضة مع التصميم على الانتحار في مدة زمنية قصيرة، ثم إن هذه الاهتمامات - دون أن تكون ذات علاقة دائمة بالعنايات الجسمية - **تخدم غايات نرجسية ولكن على نمط ليبيدي قبل تناسلي**، ذات صلة بالأنا الجسمية، ولو بصورة غير مباشرة.

وهذه الأهداب من السلوك يمكنها أن تبدو لنا خالية من أية فائدة، ولكننا نعلم أن منظور اللاشعور ينبني وفق معايير أخرى تختلف عن معايير التفكير الواعي. وهذا الوضع الخاص نفسه يجد نفسه مع ذلك منقولاً على سجّل ذي منزلة مختلفة من الناحية السيكولوجية: نحن نعلم في الواقع أن كثيراً من السوداويين ينتحرون حينما يتمتعون، وقد غادروا المشفى، بحريتهم التي استردّها مجدّداً ويتمتّعون في الوقت نفسه بكل مزايا ومباهج حياة متمدّنة. فالناجون من معسكرات الاعتقال يرتكسون بالانتحار غالباً على الجرح النرجسي الرهيب الذي عانوه، بعد أن أفادوا إفادة واسعة من هذا الجانب المادي من الرفاه الذي كانوا محرومين منه خلال أسرهم. وينتحر المتكئبون على الغالب وهم في حالة من الابتهاج الفيزيولوجي المُثار أو غير المثار، دون أن نتكلّم على بعض الاندفاعات الانتحارية الطارئة في غمرة وجدهم العاشق، وتلك حالة تتلقّى عقلنات بعدية ماكرة بقدر ما هي من صنع المخيّلة؛ فذاك الأديب الذي ألهمته حالة مماثلة أطلق الصيغة التالية: «انتحار بفعل الحماسة». (أكرّر أنني لاآخذ بالحسبان سوى العامل النرجسي وأهمل دراسة التغيّرات العلائقية وإمكانات الإسقاط، إلخ).

فثمة، في جميع هذه الحالات، ما يشبه اللقاء بين مكوّنة ليبيدية ومكوّنة نرجسية، لقاء يمكنه أن يفضي إلى ضرب من التوليف، الذي يبدو مع ذلك ممنوعاً والعاملان يسلكان، على العكس، باتصال أحدهما بالآخر، كما لو كانا مادتين انفجاريتين. وتُلاحظ الظاهرة، من جانب أكثر خصوصية أيضاً، في «وضع النداء» الصادر عن الموضوع، الذي سأقصّ حالة من حالاته بإيجاز: كان لديّ مريضة أحلّلها، كانت تتكلّم إليّ عن انتحار أمها. وهذه الأم، مكتئبة كبيرة ذات بنية هيستيرية، كانت تقضي يومها بين قراءات مبهمة ونعاس دائم على وجه التقريب يصونه استخدام أدوية منوّمة. وفي أحد الأيام، ناداها زوجها باسمها في حين أنها كانت قد نهضت وخرجت إلى الشرفة مستندة إلى حاجزها. فارتعشت كما لو أنها استيقظت من ضرب من حالة ثانية وألقت نفسها في الفراغ. ومن المؤكد أننا لانعلم شيئاً عمّا كان يعني زوجها لها على المستوى الشعوري واللاشعوري وما حدث في نفسها حينما ناداها. ولكنني اقتنعت، من خلال ملاحظتي بعض الحالات المتكافئة قليلاً أو كثيراً، أن التوتّر المفاجئ الذي ألقاها في الموت كان توتر نزاع بين نكوص نرجسي عميق غير دافعي وبين مادية الموضوع والدافع لهذا النداء الذي كان ينشد أناها (كان النداء، فضلاً عن ذلك، باسمها). وكانت مريضة غورشه (دراسة تحليلية نفسية للانتحار، تطوّر الطب النفسي، 1955، III)قد أمضت أياماً رائعة في عطلة وكانت قد عادت دون أوهى علامة من الاكتئاب. واستأنفت حضور جلسات التحليل، وبعد جلستها الأولى ألقت بنفسها من النافذة[9]. وبوسعنا أن نفترض وجود النزاع نفسه بين الإشباعات الدافعية من جهة

---

(9) - بعد بداية عطلة رائعة تغمرها البهجة، أطلقت مجموعة من الأحداث حَصَراً عنيفاً. وأتت لتراني؛ وفي موعدنا الأول، فازت - وذلك مميّز جداً - بالبقاء جالسة في مواجهتي، وعادت إلى منزلها وألقت بنفسها من النافذة.

(أيام عطلة، حافلة بالنشاط ومرْضية جداً) وبين الحماسة النكوصية النرجسية في الوضع التحليلي من جهة ثانية.

والنداء يمكنه أن يصدر عن التماسات دافعية داخلية المنشأ وهذا هو ما يبدو أنه يحدث على الأغلب عندما لايكون ثمة انتحار بالمعنى الحقيقي للكلمة بل مرض، حادث أو مجرّد موت مفاجىء «أساسي»، أي دون سبب ظاهر. ويعلم الأطباء أن بعض المصابين بالتدرّن الرئوي أو بفقدان الشهية يحافظون، إذا لم يقبلوا أن يُعالجوا، على الرغبة في الموت وإرادة الموت؛ إنهم يحقدون على أناهم ولايتردّدون في أن يخدعوا الطبيب، عندما يستطيعون، ذلك الطبيب الذي يقع على عاتقه أمر العناية بهم ويسعى إلى إنقاذ أناهم.

ويتسلّى بعض المصابين بالتدرّن الرئوي بانحطاط أناهم، شأنهم شأن من يشهد سقوط عدّوه اللدود. فالدعابة، دعابة سوداء بالطبع، تقنّع في بعض الأحيان هذه الميول الانتحارية تقنيعاً بين الجيّد والسيّىء: «إنني مصاب بالتدرن الرئوي الذي تقتله الحانات»، كان أحد الكحوليين المصابين بالتدرّن الرئوي يقول، وأغراضه العدوانية الذاتية أو بالحري **الموجّهة إلى أناه** لم تكن تقبل أي شك فيما يخّص صحتها. (وفي هذه الإضاءة إنما ينبغي أن نفهم أيضاً، في رأيي، ذلك السلوك المفارق لهؤلاء المصابين بالتدرّن الرئوي أنفسهم الذين يجهلون خطورة حالتهم جهلاً تاماً ولايتوقّفون عن صنع مشروعات مستقبلية في الوقت الذين يكونون خلاله ميّتون الآن من الناحية العملية. والمقصود هو التباين نفسه الذي بيّناه للتو ّلدى السوداوي. **فالأنا الجسمية تموت ولكن النرجسية تنتصر**، وهي وحدها المسؤولة عن تفاؤل الفرد ومشروعاته.

وعلينا أن نستأنف ماقلناه للتو، لنحيط إحاطة جيّدة بالنزاع المطروح على بساط البحث، عن التوظيف النرجسي وعكسه، أي سحب التوظيف، الذي يفضي مباشرة إلى ضرب من «إضفاء الصفة الشرجية» على الموضوع، وبالمناسبة على أنا الفرد ذاته. ولن يكون بوسع هذا الفرد، إذا توصّل إلى أن يحافظ على كبت

الأسباب التي أدّت إلى جرحه النرجسي أي إلى أن يتماهى مع خسارته ذات العلاقة بالموضوع، أن يحصل على النتيجة نفسها فيما يخصّ الحالة الوجدانية الاكتئابية ذاتها ولن يكون بوسعه على وجه الخصوص إلا أن يفهم ظاهرة التدهور التي أُصيب بها. وسيكون مسوقاً، وفقاً للماهية العميقة لهذه السيرورة، إلى أن يعتبر نفسه حقارة، برازاً نتن الرائحة ينبغي للناس أن يتخلصوا منه. فالكحولي الذي ينتحر في فيلم برغْمان، «متناولو القربان المقدس» يتصرّف على هذا النحو لأنه يوحّد أناه بالعدوانية الكونية التي يعتبر القنبلة الذرية هي التعبير الموضوعي عنها. إن كافكا، الذي مات بالتدرّن الرئوي يرى نفسه («التحوّل») على صورة حمار قبّان عملاق، رمز القذراة الذي ينبذه الناس بقرف ورعب[10]. وإذا كان الكاتب والحال هذه يتماهى على هذا النحو بأناه الجسمية (أناه المعادية للنرجسية أرادت أن ترى عملها مدمّراً بعد موتها)، فإنه استطاع مع ذلك أن يبدع ونرجسيته الظافرة أكسبتنا رائعة من روائع الأدب العالمي. ونحن نمّس هنا مصادر المانوية، مصادرها نفسها، ومشكل الخير والشر على وجه العموم، دون أن يكون بوسعنا، بالطبع، أن نتوقّف عنده؛ وبما أن كلاً منا يؤوي نواة اكتئابية، فإن سيرورة **إضفاء الصفة الشرجية** على الأنا فاعلة على الغالب، ويبدو تماماً أن بوسعها أن تتسارع في بعض الظروف الخاصّة؛ فالبدائي الذي انتهك حرمة التابو يسلك كما لو أنه كان قد أصبح فجأة حامل كل شرجية القبيلة ولايبقى له إلا أن يرزح تحت هذا الحمل. لماذا؟

وذكر النزاع يستدعي ذكر القوى الجاهزة وذكر المتقاتلين. إننا كنا قد انطلقنا من الحالة النرجسية البدئية لأنا الأنا الكونية الابتهاجية في ماهيتها، والسبب نفسه

---

(10) - كانت مريضة مكتئبة تقول: «لاأصلح لشيء؛ عليّ أن ألقي بنفسي في مرحاض وأسحب طرّادة الماء.

لاضطراب هذه الحالة الابتهاجية المثالية لايمكنه إلا أن يختلط، بالنسبة للمرجع النرجسي البدئي، مع ما يكون في سبيله إلى أن يصبح الأنا الإجرائية (الأنا الصانعة). والحال أن هذا النزاع إذا استمرّ بين النرجسية والأنا وتلاحق هذا التبلور المزدوج على نمط تدريجي، فإن الأنا الإجرائية ستجد نفسها وقد أصابتها، في مرحلة معينة، سيرورة إضفاء الصفة الشرجية، في حين أن كل نرجسية ستكون متمركزة على ما كانت الأنا القديمة البدئية، أي الأنا الكونية. ويكفي إذن، لسبب واحد- يمكنه أن يكون تعديلاً حاسماً في علاقة القوى بين المتنافسين - أن تدسّ حكومة الأنا الإجمالية يديّ الأنا الإجرائية في يديّ المرجع النرجسي، وذلك الأمر سيفضي إلى قلب الأوضاع. وبما أن هذا التغيّر يجعل الأنا، في الواقع، تنكص إلى نقطة تتنازل فيها عن غلبتها إلى الكتلة النرجسية ذات العلاقة بالأنا الكونية، فإن هذه الأنا **تعود آلياً إلى حالة قبل نزاعية، وذلك أمر يكافئ إلغاء الجرح النرجسي،** ولكنه يكافئ أيضاً إلغاء الأنا بالطبع؛ وبما أن نقل السلطات هذا يتّفق مع تجانس السيادة الجديدة (النرجسية في ماهيتها شمولية ولاتسامح مع الأقليات في عهدها)، فإن رصيد الأنا الإجرائية - كتلة من النفايات ينبغي قذفها - لايمكنه من الآن فصاعداً إلا أن يُلغى وذلك هو ما يحدث تماماً. فالأنا الإجمالية الوديعة تجد مجدّداً صفاءها على هذا النحو وإذا ظلّ هذا الصفاء نظرياً، ذلك أن الأنا الإجمالية لايمكنها أن تفيد منه، فإننا نلاحظ مع ذلك مفعولاته. ويكفي، **في الواقع، أن يكون السوداوي قد اتّخذ قراره، قراراً وخيم العاقبة، ليكتشف الآن سكينته، قبل أن يستطيع تحقيق تصميمه على الانتحار.**

وسيتذكّر الأشخاص، الذين رأوه قبل زمن قصير من انتحاره، سكينته واسترخاءه الوديع، ولكن العلامات التي أخذوها قرينة على صحته - المناقضة إذن

للانتحار - ينبغي اعتبارها نتائج هذا الجزم المشؤوم نفسها. فمنذبضعة أيام أيضاً، كان الفرد غاضباً، عدوانياً وذا إسقاط - وكلها مظاهر أناه - في حين أن **وجهه الجديد السعيد الباسم يعكس وضع المرجع النرجسي الذي يشغل من الآن فصاعداً مكان الأنا**. إنه لايحتجّ، ذلك أن الأمر قد قُضي. والواقع أن الأنا ميتة من الناحية الكمونية.

وهذا النكوص المنقذ إلى مرحلة الأنا الكونية خاصّ بالذهان الهوسي الاكتئابي. فنحن نعلم أن المكتئب العصابي يبحث عن الشفاء، والفصامي، الذي يرتجف من الحَصَر رازحاً تحت عبء ضربٍ من الإثمية، يطلب النجدة يأساً، في بعض الفترات، في حين أن السوداوي يصرّح أنه غير جدير بالعناية ويرفض النجدة.

وبما أن نكوص السوداوي نكوص هو، في الواقع، تابع للنزاع بين الأنا والنرجسية، فإن الأنا تجد نفسها وكأنها مهجورة ويكرهها المرجع النرجسي، في حين أن الأنا، في الاكتئاب العصابي، يمكنها، نظراً إلى أن الطلاق بين المتنافسين ما يزال غير تامّ، أن تدافع عن نفسها ضد الاضطراب الذي يغزوها فتفلت على هذا النحو من النكوص.

أما الفصامي، فإنه إذا نكص من «حالة من الأنا» إلى حالة أخرى، فإن أناه تغيّر المستوى ولكنها تحتفظ، على قاعدة معدّلة مع ذلك، أي هاذية، بوحدتها الوظيفية. والأنا الجسمية، في تناذر كوتار أخيراً، مسحوب توظيفها (إحساس بالفراغ، نقص الأعضاء، إلخ)، ولكن حدود الأنا الإجمالية، بوصفها حدوداً، تحتفظ بشحنتها النرجسية. وينجم عن ذلك ضرب من الأنا الإجمالية المجرّدة، التي حُكم عليها بحالة سكونية كلية، ومن هنا منشأ عاطفة الخلود التي يشكو منها الفرد، ذلك أنه يعلم أن الموت سيكون له أيضاً أنا، أي الحياة.

VI

«إذا انتحرت، فلن يكون ذلك لأدمّر نفسي، بل لأكوّنها تكويناً جيداً.»

(أنْتونان أرْتو).

«رميت مسروراً، قبل أن أدخل عالم الموت، علبة البارود، والبارودة، وجعبة الطرائد، التي كنت أحملها دائماً فخوراً، وارتديت كفني كما ترتدي الصبيّة ثوب عرسها.»

(الصياد غراكشو، كافكا).

«ولكنني أعلم أن منقذي حيّ،
وأنه سيبُعث على الأرض آخر من يبُعث؛
عندما سيكون جسمي مدمّراً، سيبُعث،
وسأرى الله عندما لن يكون لي جسد.»

(كتاب أيوب).

«لن يأكل الإنسان في عالم المستقبل،
ولن يشرب، ولن يمارس التجارة؛
ولكن سيكون للبررة تيجان على رؤوسهم وسيستمتعون بحضور الجلالة الإلهية.»

(رابّي ناتان في بيركه أفوث).

إذا كان السوداوي قد بلغ النفي، الخاص بتناذر كوتار، فإنه لن ينتحر، ذلك أنه لايوجد ما يُقتل، فالأنا المقيتة هي الأنا الجسمية. و«الأنا بغيضة»، وهذا ليس التعبير عن تأثير الأنا العليا الخارجي المنشأ، ولكن الأنا العليا المعادية للأنا هي نفسها التعبير الآن عن ميل نرجسي (نجد مثال الأنا في أصل الأنا العليا) يمضي في

اتجاه فصل المرجعين النفسيين، اللذين يمثّلهما الخط الذي يفصل صورة الجسم إلى جزأين في كل الديانات، السماء وجهنم، الأعلى والأسفل. ففي كل منا ميل إلى تجاوز التبعية لجثماننا، والأوضاع التي تجعل الإنسان يتخلّى عن أناه الجسمية، في بعض الأحيان بسهولة قصوى، أوضاع عديدة. وتجاوز الإنسان نفسه، أي التغلّب على الصعوبات المرتبطة بمقتضيات الجسم، معيار سموّنا الروحي والأخلاقي. «أنت ترتجفين، أيها الهيكل العظمي»، كان تورين يقول لأناه الجسمية عندما كانت تباشر قتل نفسها، أي تجازف بفقدان وجودها الجسدي، لتطيع مقتضيات مثالها النرجسي.

ألا تبيّن كل الكلمات التي تعبّر عن السموّ، والبهجة، والوجْد أن ثمة رغبة من رغبات الإنسان تكمن في أن يستغني عن أناه الجسمية، وأن يكون موقعه خارج ذاته؟[11].

ووظّف السوداوي - كما رأينا للتوّ فيما تقدّم - أناه الجسمية، ولكن السحب، سحب التوظيف هذا يحدث فقط في ظلّ علامة نزاع بين المرجع النرجسي والأنا، أعني أن ما لا يشارك في هذا النزاع يبدو أنه يفلت من السيرورة بقدر معيّن. ولهذا السبب فإن الأمل في نبذ المرء نفسه إنما سيظهر له في هالة ابتهاجية من خلال رصيد الأنا الجسمية المتقلّصة والذليلة ولكنها ذات التطلّع بفعل احتياطياتها الدافعية. ذلك أن العامل الابتهاجي يبين دائماً دون شك خلف الحركة الانتحارية، أياً كانت الأهمية التي يتّخذها عامل السادية في الأوصاف الكلاسيكية، باستثناء كل مكوّنة أخرى.

---

(11) - يمكننا أن نعتبر أزمة الهوس ذاتها (التي تتناوب في بعض الأحيان، وليس دائماً، مع أزمة السوداوية) ضرباً من محاولة الفرد أن يتخلصّ من أناه (وأناه العليا) إذ ينصّب مكانها نرجسيته الحرّة وذات القوة الكلية ويجعل أناه المعطوبة تعمل بوصفها عاملاً تابعاً في خدمة هو أُضفيت عليه النرجسية كلياً. والواقع أن سيادة شرجية حقيقية غائبة - تبعاً لغلبة النرجسية - عن الاحتفال ولن تلبث الأنا، التي حرقت كل احتياطات الطاقة في اندفاعة نرجسية مصابة بجنون العظمة، أن تكون منهكة في فاعلية مزيّفة زاخرة بوضوح، ولكنها ذات نفس يتعاظم قصره. ولن يلبث انهيارها أن يحدث والجرح النرجسي الذي يمثّله هذا الانهيار سيجعل الفرد يسقط في الاكتئاب مجدّداً.

وانتحار السوداوي يكتسي على الدوام روعة داخلية، ولو أنه يبدو لنا من الناحية الخارجية، كأنه انزلاق ماكر وشقي نحو التدمير الذاتي، انزلاق يتحقّق مع ذلك ببراعة لاشك فيها ولقاء آلام تتجاوز ملكة الفهم، حتى ولو أخذنا بالحسبان درجة معيّنة من فقدان الحساسية بفعل سحب التوظيف من الوظائف الحسية.

وعندما يقول الكحولي: «أموت حتى يكون الآخرون سعداء»، يطرح نفسه في صغاره منقذاً يعلم أن العالم مدين له بظهور عصر الغبطة الكاملة الجديد. ويبدو فعله مع ذلك، فعل جنون العظمة، غنياً في الوقت نفسه بضرب من الإشباع الدافعي ذي القيمة الكبرى مع أنه لاشعوري كلياً. إنه يحقّق على هذا النحو في اللحظة النهائية التي يحوّلها إلى ذروة، بل إلى قمة المجد، ذلك التوليف المتمنّى كثيراً وغير المتحقّق أبداً بين نرجسيته ودوافعه. فهو يبلغ على هذا النحو، بموته، ذلك الإشباع الأسمى الذي رفضت حياته - الطويلة أحياناً - أن تمنحه إياه.

الفصل العاشر

الطفل ذو الكنز
وتجنب أوديب(*)

I

في عرض سابق(1) - قدّمته إلى مؤتمر المحلّلين النفسيين باللسان الروماني بلوزان - وصفنا جانباً أساسياً من نفس الطفل الذي ينفي الواقع الجديد من حياته بعد الولادة، إذ يبحث عن الاحتفاظ بوهم كماله النرجسي (صورة قضيبية). وقلنا، إذ استأنفنا دراسة مشكل متطوّر لمعنى الواقع انطلاقاً من القوة الكلية النرجسية التي درسها فورنزي، إن الطفل يميل إلى أن يعيد تنظيم نفسه على قاعدة نرجسية سحرية، مطابقة للقاعدة التي كانت تقوم مقام الدعم لحياته قبل الولادة، التي يظنّ أن بوسعه ألا يهجرها هجراً نهائياً. إننا وصفنا هذا الموقف بالاتجاه **التكتيكي**، ودون أن يكون بمقدورنا أن نستأنف هنا بالتفصيل دراسة أشكال التطبيق لهذا التكتيك بالقياس إلى التطوّر العام، فإننانعتبره محاولة أولى لتحقيق الاتجاه **الإستراتيجي** الذي ينشد الكمال النرجسي. وبوسعنا على هذا النحو أن ننتقل مباشرة إلى دراسة الطور التكتيكي التالي، المتعارض في ماهيته تعارضاً مطلقاً مع الأول، مع أنه يلاحق الهدف نفسه. والمقصود الفترة، الموصوفة وصفاً إجمالياً

(*) - محاضرة حرّرتها عام 1966 وعرضتها في رابطة باريس للتحليل النفسي 21 شباط (فبروري) 1967.

(1) - انظر الفصل الأخير المعنون «أوديب والنرجسية».

بالطبع، التي يترجّح فيها الطفل، من وجهة النظر الدافعية، في الطور السادي الشرجي عندما يبلغ ذروته. وستنصرف نرجسيته، التي تملّك عامل طاقة قوياً وجديداً، تحوّلاً بقدر معيّن، عن الحلّ الابتهاجي، موضوع التكتيك السابق، وستوظّف التيّار السادي الشرجي، خصم التيار السابق (النرجسي الفموي). وستقدّم إلى أناه هذه الشحنة الليبدية الكثيفة لشرجيته عناصر مفيدة لاكتساب معنى الواقع، ولكن الطفل سيطبّق أول الأمر، بالنظر إلى أن هذه السيرورة لاتزال في بدايتها، تكتيكه الجديد على النمط المطلق نفسه، المغالي، الذي كان يستخدمه ليفرض تكتيكه السابق. وستتّخذ نرجسيته مظاهر مميّزة لسيادة شرجية ذات قوة كلية، مصابةٍ بجنون العظمة، ونودّ أن نلفت النظر هنا إلى الفروق النرجسية الأساسية الدقيقة لهذه السيادة الشرجية. ففرويد وصف «**الطفل على العرش**» إذ ألحّ على عامل القوة الكلية، وعمّق أبراهام وفورنزي بعده دراسة الطور السادي الشرجي في الاتجاه نفسه. (أذكّر هنا بالحالة التي عرفها فورنزي، حالة الصبيّ الصغير الذي يهدّد مرضعته التي تغيظه أنه «يغمرها بالبراز»، إذا جاز القول، من بِسْت إلى بودا)(*). وألحّ هنا على الحضور السائد للعامل النرجسي في كنَف هذه التصرّفات الشرجية. وكان أحد مرضاي، الذي كان يتذكّر «جلسة على المبولة» مشابهة، قد أدهشته في الماضي أهمية هذه المكوِّنة: «كنت أحسّ أنني أمثّل قيمة شخصية فريدة وكنت أستشعر كبرياء لاحدود له؛ وأتساءل منذئذ ما الذي أمكنه أن يسوّغ مثل هذا الشعور من جنون العظمة». وهذا الشعور من جنون العظمة الذي يدعم الـ«لا» القطعية هو الذي يعارض به الطفل محيطه في الشعور السادي الشرجي، إذ يؤكد على هذا النحو كماله النرجسي من خلال سيطرة مطلقة على موضوعه، وتلك هي خاصيّة العلاقة الشرجية بالموضوع، كما لفتنا النظر إلى ذلك في عدة مناسبات.

(*) - بودا وبِسْت منطقتان تتشكّل منهما هنغاريا «م».

ويتعارض هذا التكتيك تعارضاً مطلقاً مع التكتيك الذي وصفناه في عرضنا في لوزان(2)، الذي منحنا فيه مكاناً خاصاً لـ«**استيهام الطفل الإلهي**» (يمثّل «**الثالوث النرجسي**»، فالطفل مندمج في الثنائي الأبوي على نمط نكوصي غير دافعي يحميه من الأوديب والمشهد البدائي). وسيتنازل هذا الاستيهام بالطبع عن مكانه لوضع متخيّل مختلف بصورة أساسية وسيبحث الطفل في هذه المرة، بدلاً من الاندماج في الثنائي الأبوي ملغياً النزاع الأوديبي هذا النحو، عن التخلّي عن السند الأبوي وعن فرض نفسه دفعة واحدة بوصفه فرداً. وتبدو المكوّنة النرجسية لهذا الوضع بتضمّن قضيبي بارز جداً، يحجب على هذا النحو منظرها السادي الشرجي. فالطفل يريد أن يفعل كل شيء وبخاصة - وفق الصيغة التي تميّز هذا الطور «أنا وحدي» - أن يستغني عن عالم الراشدين. ويمضي هذا البحث عن الاستقلال، بالطبع في اتجاه الكمال النرجسي؛ ويكوّن هذا البحث مع ذلك شكلاً من الهروب أمام الوضع الأوديبي الماثل دائماً ولكن الطفل يشعر أنه عاجز عن الاضطلاع به(3). وسيختار حلّ تجنّب المعركة الأوديبية ويميل إلى الانتصار على الخصم الأوديبي على نمط نرجسي سحري، دون أن يدخل معه في ضرب من وضع الخصومة بمعناها الحقيقي. والمواجهة بين الكبير والصغير - محتوى الاستيهامات السائدة في الطور - تحدث دائماً على نمط أسطوري، سحري، أعجوبي. وينتصر الطفل دائماً، على الرغم من دونيته الموضوعية الواضحة، على

---

(2)- بعد وصف أول أدلينا به في مقال عنوانه «ملاحظات عن الانفصال بين النرجسية والنضج الدافعي».

(3) - الواقع أن البنية الأوديبية، كما سنحت لنا الفرصة سابقاً أن نذكّر بذلك، بنية مبكّرة جداً، بل فطرية. ولايمكنها مع ذلك، في أي حال، أن تختلط بالوضع الأوديبي الكلاسيكي، الأكثر تأخّراً من الناحية الزمنية. فالبنية الأوديبية إجمالية في البداية، مجرّدة، ضرب من الكمون، شبيهة بحقيبة فارغة يأتي الطفل إلى العالم وهو يحملها ويملأها كلما اجتاز مراحل نضجه قبل التناسلي. فعدم الأخذ بالحسبان إلا الحقيبة الفارغة إنما يعني أن ننزع عن الأوديب كل جوهره، إنما يعني أن نحيله إلى مفهوم غير متجسّد.

العملاق الذي يحوز مع ذلك كل الوسائل التي يجد الصغير نفسه محروماً منها(4).

ويمرّ التطوّر السويّ للطفل من خلال اندماج الشرجية في الحزمة التناسلية وفي بنية الأنا، وتلك مرحلة ذات أهمية رئيسة في النضج النفسي الجنسي. واندماج المكوّنة الشرجية هو، في آن واحد، ذلك الملتقى المركزي لهذا التطوّر إذا أخذنا تعدّدية مصيره بالحسبان - كل الفاعليات، كل الأوضاع الوجدانية، الجنسية والعلائقية، ذات مكوّنة شرجية - وكذلك المحور الطولاني، إذ فكّرنا في مدة السيرورة التي تختلط مع سيرورة النضج حتى اكتمالها، أي عمر الرشد. وبما أن الموجة القضيبية التي تلي الطور الشرجي عن قرب لايفوتها أن تجذب إلى نفسها جزءاً كبيراً من الليبيدو السادي الشرجي، الذي امتصّه، إذا جاز القول، تطوّر التناسلية والأنا، فإن مظاهر هذه الموجة القضيبية، مظاهرها الحقيقية، ستفقد وضوح معالمها وبخاصة في حالة تطوّر مرْض للطور الأوديبي نفسه، فالسيرورة الأساسية لاندماجها يمكننا اعتبارها مكتملة. وهذا التطوّر في خط مستقيم استثنائي إلى حدّ كاف مع ذلك ويحدث على الأغلب أن يبتعد خط النموّ النفسي الجنسي، **إذا كانت المكوّنة الشرجية سيئة الاندماج**، ابتعاداً كبيراً عن هذا المخطط المثالي. أضف إلى ذلك أن نقص اندماج الشرجية في الأنا، نقصاً أسبابه يمكنها أن تكون متعدّدة، يمضي مترافقاً مع تطوّر غير سويّ لعامل النرجسية وبوسعنا أن نطرح أن هذا العامل الأخير هو الذي ينبغي مبدئياً أن نتّهمه في المستوى الأول، ولكن لايمكننا أن نتوقّف هنا عند فحص الجانب السببي من المشكل. والمؤكد إنما هو

---

(4) - رغبة الطفل في الاستقلال، المرتبطة بتصوّره السادي الشرجي للعالم، تظهر واضحة على نحو خاص عبْر رغبة الإنسان - العتيقة جداً والمكبوتة على الأغلب بعمق كبير - في الإنجاب؛ والأساطير التي تقصّ حالات الإنجاب الذاتي، الغنّي بها جداً فولكلور أوقيانوسيا والأمريكتين، تعالج في الأغلب أولئك الناس المخلوقين انطلاقاً من المواد البرازية، أو ليس الإنسان الأول مصنوعاً - وفق التوارة - من الوحل (=براز) ومخلوقاً دون والدين؟ (انظر فرويد: «تحولات الدوافع، في الغلمة الشرجية على وجه

أهمية التوليف المرْضي بين العاملين في إطار الأنا بحالة تطوّر، بالنظر إلى أن هذا التوليف تابع لأنا متلاحمة والعكس بالعكس؛ وفي الحالة التي ننظر فيها هنا، سيحدث تطوّر هذين العاملين من الآن وصاعداً **خارج الأنا** إلى حدّ بعيد، وذلك شذوذ لن يفوته أن يسم بخاتمه هذا المرجع المركزي الذي سينطوي بالتالي على صدْع سنسعى إلى دراسة طبيعته. ولتحقيق ذلك، سنتّخذ نقطة انطلاقنا دراسة «الطفلُ ذو الكنز».

II

سنحت لكل منا الفرصة لملاحظة الأطفال الذين يكوّنون لأنفسهم «كنزاً» يطلق عليه الطفل نفسه هذه التسمية، إذ تكون هذه التسمية ذات علاقة بالتوظيف النرجسي الكبير الذي يحمله الكنز. ويتألف «الكنز» بصورة مفارقة وبالتعريف، المخفّي والمعروض معاً والمحفوظ بغيرة في الوقت نفسه، من **أشياء متنافرة، بالية، ناقصة الأجزاء وغير متجانسة، قذرة، ليس لها أية فائدة ولا قيمة**. ويبدو جيداً أن الطفل لا يفهم سمة **النفاية** لهذه الأشياء فحسب، بل يحرص على هذه الصفة الدقيقة الرئيسة بالنسبة له، ولا يتردّد في إظهار شدّة توظيفه النوعي إذا اقتُرح عليه، على سبيل المثال، أن يبادل بها لعباً جديدة، في حالة سليمة ولها قيمة موضوعية فعلية، وهو قادر تماماً، من جهة أخرى، على تقييمها. أما أصل هذه الأشياء، فهو خفيّ على وجه العموم، فهي ليست مكتسبة ولا ملتقاة، ولكنها وُجدت، وجُمعت في الخفاء أو اختُلست بوضوح، وذلك تفصيل ذو دلالة سنعود إليه(5).

(5) - نؤكّد، دون أن ندخل هنا في دراسة تشخيصية فرقية، أن من الصعوبة في بعض الأحيان أن نحدّد الكنز بمعناه الحقيقي قياساً على محتويات أخرى من غرفة الطفل، عرائس ولعب، وكذلك «مجموعات» من كل ضرب. ويتميّز الكنز مع ذلك من «الشيء الانتقالي» بوصف محتوياته متعدّدة وتكوّن «مجموعة» ويمكن متابعة تغيّرات هذه المجموعة بوصفها كذلك طوال التطور اللاحق للطفل.

وإذا حلّلنا مختلف خصائص الكنز، فإننا نكتشف بسرعة كبيرة أن المقصود بالنسبة للطفل قبل كل شيء أن يكوّن شيئاً يملكه (بالنظر إلى نمط اكتسابه)، دُون المرور بالسيرورة العلائقية، إذ **يتجنّب** هذه السيرورة. والمقصود بذلك علاقة موضوعية ليست كأي علاقة، لعدم وجود مكوّنة شرجية جيّدة الاندماج، كما نرى ذلك في بعض فئات الأطفال المصابين بغواية السرقة، الذين يسرقون حتى لايكونوا مرغمين على أن يصيغوا طلباً، أي ألا يباشروا علاقة بموضوع. أضف إلى ذلك أن الأصل الخفي لهذه الأشياء يشجّع ضرباً غنياً جداً من تكوين الاستيهامات بمعنى، من المعاني الأخرى، **الاستقلال النرجسي** الذي كان موضع البحث فيما تقدّم، إذ أن الكنز ليس مصدره أي شخص في الواقع، وذلك الأمر **يستبعد الأصل الأوديبي** وكل منظومة العلاقات المشتّقة منه. وبما أن الكنز هو الذي يخلقه، ومن «ابتكاره» (بالمعنى الحقوقي للكلمة، الذي يحدّد من جهة \أخرى علاقة الراشدين بـ«كنزه» - قطع نقدية، على سبيل المثال، مكتشفة خلال أشغال الحفر)، فإن بوسعه أن يسقط نفسه عليه، على نمط نرجسي سحري، وأن يخلق على هذا النحو كوناً حقيقياً على حدة، كوناً هو السيّد عليه.

أما السمة **المتنافرة** لـ«عناصر» الكنز، فإن دلالتها تبدو ذات دافعيات متعدّدة. وتدلّ كثرة الإسقاطات ونقص تماسكها على أنا مكوّناتُها، التي ما تزال غير مندمجة، موجودة في حالة مجزّأة قياساً على أنا إجمالية، وذلك أمر ذو علاقة بوجود صدع في الأنا وصفناه للتوّ. **فتعدّد الأشياء المستخدلة وعدم تمثّلها** يحافظ عليهما إذاً، الأمر الذي يمكننا اعتباره دفاعاً نرجسياً ضد «إضفاء الصفة الأوديبية» المفهوم في اتّجاه هذا العمل **نظراً إلى أن الموضوع الأوديبي في كل من جانبي**

الأوديب وحيد. فالطفل يجد نفسه على هذا النحو في ضرب من **التعدّدية الإلهية** قياساً على الوجدانية بوصفها إسقاط الوضع الأوديبي(6).

والقاسم المشترك بين عناصر الكنز يكمن في توظيفها النرجسي؛ والحقيقة أن ماهيتها، بوصفها أشياء أُضفيت عليها الفردية، ليست ذات أهمية، ولافائدة، ولاقيمة، وتلك صفات عدم من الناحية الموضوعية كما رأينا للتوّ، نظراً إلى أن سبب وجودها وفرديتها الاستيهامية اللذين أُضفيا عليهما تابعان وناجمان فقط عن التوظيف النرجسي لمالكها. فما إن يتكوّن الكنز وتتجمّع عناصره، أي تُزوّد بالتوظيف النرجسي، حتى يمثّل **نظام حماية** حقيقي من مخاوف الخصاء التي لايمكن أن يفوتها أن تنبعث بقوة وعدد في لاشعور هؤلاء الأطفال على عتبة مرحلة الكمون، الذين نعرف الآن اندفاعاتهم الأوديبية الأولى، بسبب شرجيتهم غير المندمجة ونرجسيتهم المتضخّمة، لم تكن موضع «تصفية»؛ فهم لايكافحون كفاحاً يائساً استيهاماتهم العدوانية قبل التناسلية فحسب، بل يكافحون عقدة أوديب لديهم. أما صعوباتهم في التوّحد، فإننا سنخصّص لها الفصل التالي ويمكن أن يتّخذ نظام الحماية الذي يكوّنه الكنز مظهراً وسواسياً، إذ يتّخذ وجوده سمة إجبارية، قسرية.

وفيما يخصّ المظهر الشرجي (القذارة، سمة النفاية) للكنز، يغيّر التوظيف النرجسي انعدام قيمته إلى قيمة، وفق حلم **السيميائيين** القديم العهد، الذين لم يسبق لهم أن تخلّوا عن الأمل (ونحن نعلم أنه لايزال يوجد منهم في أيامنا هذه) في

(6) - كان القانون الموسوي، الذي حرّم نسخ الشكل الحيواني أو الإنساني، يميل إلى منع صنع الأصنام، أي منع النكوص إلى تعدّد الآلهة؛ وكان يعبّر في الوقت نفسه عن الخضوع إلى واقع الأصل الإنساني، أي وجود الأب، بالنظر إلى أن الإنسان لايمكنه أن يولّد نفسه على نحو مستقلّ.

أن يحوّلوا الرصاص البخس (البراز) إلى معدن ثمين، إلى ذهب(7). ويعبّر هذا الحلم عن الرغبة التي تكلّمت عليها في مؤتمر لوزان، رغبة تكمن في **القفز فوق السيرورة الطويلة، المليئة بالمخاطر، سيرورة النضج الدافعي**، القائم على تعاقب التوحّدات في الإطار الأوديبي، وبعبارة أخرى، فوق الأوديب. فالكنز موضوع جزئي سحري شرجي ينبغي اجتيافه إذ يُزوّد بقيمة قضيبية **كما لو أنه** كان نتيجة سيرورة نضج مكتملة، مرّت في كل مراحل التطوّر الأوديبي. والواقع أننا نجد أنفسنا في مستوى نكوصي، فالكنز شيء شرجي لايكاد يكون مشتقّاً من الموضوع البرازي البدئي، بالنظر إلى أن العناصر التي تكوّن الكنز ناقصة الأجزاء، ذات ماهية ممسوسة، مخصيّة، أي تُضفي عليها صفة الغائط، فالخصاء والنقص يصبحان قيمة ومصدر القوة الكلية السحرية التي تعزوها الشعوب البدائية إلى أصحاب العاهات، المخصيّين، والمسوخ.

ونحن أكّدنا أهمية الحامل المادي بوصفه سطح إسقاط ونذكّر هنا بما قلناه أو أوحينا به فيما يخصّ الموضوع النرجسي؛ فالنرجسية - المرجع النفسي، أي المتدخّلة في ضرب من الديالكتيك داخل الأنا الإجمالية، لايمكنها أن تستغني عن الدعم الدافعي. فثمة مع ذلك، في هذه الحال (في كوكبة التي ننظر فيها هنا)، نكوص فيما يتعلّق بالحامل المادي، بالنظر إلى أن عناصره تفقد فرديتها الأصلية ولم

---

(7) - بيّنت جانين شاسيغه سميرجل، فيما يخصّ على وجه الدقّة موضوع المحاولات السيمائية التي قام بها سترابيرغ (**من أجل تحليل نفسي للفن والإبداعية**، نشر دار بيّو)، تلك الضرورة التي يجد المصاب بالذهان الهذائي نفسه فيها، ضرورة أن يخترع اختراعاً كاملاً قضيباً سحرياً مستقلاً، على نحو يختصر طور الاجتياف الشرجي لعضو الذكر الخاص بالأب. ولكن، في حين أن المخاوف الوحيدة لدى الأنا، المرتبطة بالإسقاطات الكثيفة التي تنصبّ على الأب وعضو الذكر لديه، تزعزع السيرورة التي تقود إلى صنع القضيب السحري المستقل، فإن الحالات التي تستوقفنا هنا

١ - تسقط هذا القضيب على الكنز بوصفه نظام حماية أو على مكافئه، مثال ذلك تجمع متنافر من المفاهيم المتمركزة على وسيط، وتعزّز بالإضافة إلى ذلك، كما سنرى فيما بعد، هذا الإسقاط النرجسي بفعل ضرب من التعدّد المرآوي.

٢ - المخاوف بالنسبة للأنا ليست وحدها المتّهمة هنا، ولكن الإثمية وعدم النضج في مجموعه هما المتهمان أيضاً.

تعد تكوّن سوى مادة منسجمة ومغفلة (براز) مزوّدة بمعنى ووجود خاصّين، بفعل العامل النرجسي السحري وحده[8]؛ وهناك نكوص مزدوج (شرجي ونرجسي) ولكنه ذو مستويات مختلفة، وذلك ما يعادل لدى الفرد شيئاً من الحرية الوظيفية الشرجية، والنرجسية أيضاً؛ فالمكوّنتان الحرتان نسبياً للأنا الإجمالية (النرجسية والشرجية المتدخّلة في النظام) تفلتان في الواقع، بالتعريف، من الأنا العليا التي تباشر تكوّنها ويجد الفرد نفسه متحرّراً من الإثمية نسبياً، وبالتالي أقلّ كفّاً مما في قطاعات الأنا المشاركة في الأنا العليا. مع أن الفرد يمكنه أن يكون لديه مهارة ذهنية، لفظية، تفلت من إضفاء النزاع وتبلغ درجة معيّنة من الكمال في بعض الجوانب المحيطة من فاعلياته ونرجسيته، التي تفلت أيضاً من رقابة الأنا، يمكنها أن تطلق العنان لنفسها على نمط يكون قاب قوسين أو أدنى من جنون العظمة.

III

النمو النفسي الجنسي البشري **ثنائي الطور** كما نعلم، فالفرد يستعيد في البلوغ مختلف الأطوار من سيرورة نضجه قبل التناسلي والتناسلي. ونحن نعلم أيضاً أن الأوديب لاينحلّ أبداً في العمر الأوديبي الكلاسيكي وأن الإنسان لايبلغ النضج الجنسي والعلائقي إلا في مرحلة متأخّرة جداً. والحال أن هذه المرحلة من النضج يمكن أن نعتبرها تعاقباً طويلاً من الأوضاع الأوديبية عبْر التوحّدات المقابلة في إطار حركة ديالكتيكية، حتى الفترة التي يبدو فيها الفرد - بعد أن دمج توحّداته

(8) - وثمة مثال على هذه الغفلية تقدّمه لنا نسخة من الكنز بعيدة عنه بعض البعد ولكن وظائفها الأساسية مشتقّة منه، نسخة هي لغة الطفل في اللعب (سنهمل منها جانب اللعب بالطبع، ولكننا استطعنا أن نقتنع أنها تعمل عملها الوظائفي بوصفها نظام حماية يفي بالغرض، وتلك هي بالتأكيد، من جهة أخرى، في نطاق معيّن، الحال في الألعاب على وجه العموم) حاملها المادي اللفظي (الكلمات: am، stram، gram، على سبيل المثال) ليس له معنى، ولكنه ذو توظيف نرجسي قوي جداً؛ ومكان الكلمات في النظام ثابت بقدر ماهو ضروري، إذ أن الأطار المادي يغتني مع ذلك من ضرب من الطقسي المتخثّر أيضاً. فالأطفال يشاركون فيها، وذلك أمر يخلق بينهم صلة خاصة جداً وهذا بالقياس على عالم الراشدين، على العالم الأوديبي الذي يكون النظام مدعواً للعمل في مواجهته. والظلال المناوئة للراشد بارزة على وجه الخصوص ومرئية في بعض من هذه اللغات اللعبية لدى الأطفال.

المتعاقبة في أناه - في نضجه، إذ أكمل سيرورته بـ **بلوغ هويته الخاصة**، بالنظر إلى أنه متماه مع ذاته أو، بعبارة أخرى، بالنظر إلى أنه هو أبوه الخاص أو أمه الخاصة. ويترافق **التمايز الجنسي** بالطبع مع ضروب التقدّم في **التفرّد** ويكون منوطاً إذن بالعوامل نفسها - توحّدات ونزاع أوديبي -، عوامل لاتنطوي مع ذلك إلا على جانبين مختلفين من السيرورة نفسها. واستمرارية الديالكتيك الأوديبي والتوحّدي مطلق ونحن ندركه على وجه الخصوص خلال التحليل حيث يفرض دوامُه نفسَه برتابة يمكن أن يجدها بعضهم مرهقة. والوضع التحليلي نفسه يمكن أن يُعتبر - من هذه الزاوية - علاقة طفل - والد وتقدّمُ العلاج يمكننا أن تشبّهه بالنماء نفسه، إذ أن نهايته تتزامن مع اللحظة التي يصبح فيها الطفل المحلّل راشداً، أي يصبح والداً بدوره. أما التوحّد، فإنه يرتكز - كما نعلم - على **الاجتياف**(9)، وهو بداية سيرورة الاستقلاب (أيْض) (مع **مظهر حشوي**، **لاشعوري** ولكنه يُعاش مجدّداً في التحليل على نحو بارز) ويجنّد مجموعة من الاستيهامات ذات العلاقة.

ولدينا جميعاً، وفقاً لما سبق، تجربةُ أوليةِ المادة الأوديبية في بداية التحليل وطوال العلاج، فالأساسي في العمل التحليلي يُخصّص بالطبع للديالكتيك الأوديبي. والحال أن الأمر ليس على هذا النحو دائماً، ونحن نصادف أكثر فأكثر حالات تفرض فيها إزالة العوائق قبل الأوديبية نفسها إذا جاز القول، قبل أن يكون بوسعنا مقارنة الأوديب على نحو مقبول من الناحية الدينامية. ونحن نكتشف بين المحلّلين، الذين يحلّلون أنفسهم تحليلاً تعليمياً، محلّلين تبدو لديهم، في عملهم التحليلي الخاص، صعوبة بارزة أمام تحليل الأوضاع الأوديبية، صعوبة يمكنها ألا تصبح محذوراً من وجهة النظر العلاجية فحسب، بل مانعاً حقيقياً يتعثّر به المحلّل الشاب خلال متابعة نجاحه المهني؛ ويبدو في الواقع أن المحلّل ينبغي له، في ممارسة عمله المهني نفسها، أن يضطلع بدور الراشد تجاه المحلَّل الطفل، وفاعلية المحلّل المهنية تكون معاقة جرّاء عجزه عن هذه الاضطلاع.

(9) - انظر بهذا الصدد تقرير بيير لوكه عن التوحّد في مؤتمر التحليل النفسي بلوزان في اللغات الرومانية، باريس، 1961.

وحديثنا في هذا الموضوع يكمن في إقامة صلة بين عدم النضج الأوديبي هذا وبين الصدعْ على مستوى الأنا، صدعٍ ينزع هذا العرض إلى أن يقدّم إسهاماً في دراسته.

ونحن نذكّر بالأهمية التي عزوناها إلى دمج المكوّنة الشرجية السيّء، بفعل نقص التوليف مع العامل النرجسي، فالمكوّنة الشرجية والعامل النرجسي يتابعان تطورّهما كمالو أنه خارج الأنا الإجمالية وعلى نمط مستقّل. وبما أن الاجتياف، والحال هذه، حركة من الحركات التي تبني الأنا بصورة أساسية، فإن الحرية النسبية لسيرورة الاجتياف ذاتها تفلت بصعوبة من ضرب من إضفاء الصفة الجنسية المبكّر، لاسيّما أن هذا الإضفاء لايمكن إلا أن تشجّعه هذه الحرية، وذلك أمر يفضي إلى علاقة بالموضوع يُضفى عليها النزاع، وليس إلى اجتياف نتيجته اندماج بالأنا. فلْنستأنف، دون أن نتابع مع ذلك إلى حد أبعد تحولّات هذه الشرجية غير المندمجة، دراسة العامل الآخر، أي النرّجسية.

رأينا فيما سبق أن الطفل كان يبحث سابقاً في الطور الشرجي عن تحقيق استقلاله الذاتي النرجسي وفق الصيغة التالية: «أنا وحدي تماماً». والنرجسية (نرجسية ما) تعارض الاجتياف مبدئياً - وتلك خاصّة من خصائصها الأساسية -، ذلك أن هذا التعارض - كما نعلم - مصدر على وجه الضبط من المصادر الأكثر أهمية للمقاومة؛ فالنرجسي يرغب في أن يظلّ ما هو عليه ويرفض إدخال أي شيء كان في أناه، فهذا التعارض يمكنه أن يستند إلى موقف أولّي مبكر إلى الحدّ الأقصى. ونحن نعلم أن عالم الموضوع ينبغي أن يقنع الطفل - بالحب الذي يقدّمه له - أنه يمكنه أن يفيد من الاستسلام إلى استثاراته الدافعية وأن يخرج من نرجسيته الأصلية المطلقة، إذ يقبل الاجتياف الذي لايكون، في بداية الأمر وخلال زمن طويل جداً، إلا ضرباً من الدخيل. فالنرجسي لايشبه أحداً، أي أنه **يرفض التوحّد**، وبوسعنا القول إن النرجسية نفسها، التي وصفناها أنها متعلّقة بالأوديب لتنقذ كمالها، تعود نحو موقع أكثر قدماً، وترفض الأوديب كما ترفض كل التكوّنات المشتّقة منه، كما سنرى فيما بعد. إنها ترفض الأوديب والتوحّد بسبب **التضمّن الحشوي** للسيرورة التي يعيشها بوصفها

ولوجاً داخل حدودها (10) . أما الطفل ذو الكنز ، فإننا نعلم أنه ابتكر نظامه ليندمج في كون نرجسي هو إسقاطه الخاص ، ولكنه إسقاط ، داخلي المنشأ على النحو من الأنحاء ، هدفه تجنّب توحّده بالموضوع بمعناه الحقيقي . وإسقاط فرد من هذه الفئة من الأفراد نرجسيته على الموضوع الأوديبي ربما كان قد كوّن من قبل تسوية ، أي هجراً جزئياً لنرجسيته ، ولكن بصفة مؤقتة .

ويركّب «الطفل ذو الكنز» آلية حمايته المناوئة للأوديب في عمر يكون من المفترض أن التيّار الجنسي متوقّف أو متوقف على وجه التقريب (الطور المسمى طور الكمون) ، وذلك أمر يمنح الآلية موضع البحث ضرباً من الاستقرار . وسيكون على **المراهق** ، ما أن يصل الطفل إلى البلوغ ، أن يسود تياراً قوياً دافعياً جديداً ، يعاصر دفعة نرجسية مقابلة ، وذلك أمر يؤدي ، حتى في شروط سويّة ، إلى انقلاب الأجهزة القائمة ، انقلاب لايمكن تجنبه ، وتلك هي أزمة البلوغ الكلاسيكية . إنها أزمة سوية ، ولا ينبغي مع ذلك أن تتجاوز مدة معيّنة . فإذا امتدّت امتداداً مفرطاً - **وتلك حالةٌ تزداد تواتراً وظاهرةٌ تسم الحضارة المعاصرة بقوة** - فإنها تشي بضرب من اضطراب خطير في الأنا ، من المنظور الذي وجّهنا بحسبه التقصّيات الراهنة .

والواقع أن أزمة المراهقة المرضية تتمايز على الأغلب من طور البلوغ السوي فيما يخصّ مدته والتغيرات الكيفية الملازمة لهذا الامتداد غير المألوف ، ونحن نجد أنفسنا في مواجهة أفراد لايمكنهم أن يكملوا نضجهم لأنهم لم ينجزوا على

(10) - هذا الاجتياف يحدث عادة في عمر وعلى نمط استيهامي ولاشعوري بحيث أن الطفل ينجزه وهو يلعب إذا جاز القول ، كما بيّنا في مكان آخر ؛ وتنبعث الصعوبات ، إما في حالة من إضفاء الغلمة المبكّر ، وإما في حالة ضرب من إضفاء النزاع على التوحّد بالأم ، إلخ ؛ إلا إذا حدث إعداد ذهاني هذائي في الحالات التي تسود فيها المخاوف النرجسية ، فإثمية الطفل تجاه أبيه ستجلب له المتاعب على نحو غالب في بعض الأحيان . فالعاملان ، في الحالات التي تشغلنا ، هما موضع اتهام . وتدفع الدفاعات ضدّ المظهر الجسمي من السيرورة إلى أن يُرفع تجسيد العلاقة الأوديبية ، وإلى نفي مكوّناتها الغلمية على جانبي الأوديب ، وإلى أن يحلّ التجريد أو الكلمة ، على مستوى النظرية التحليلية مثلاً ، محل الجسمانية .

نحو مرض توحّداتهم المبكّرة. فكل منا يعرف ارتكاس المراهق الذي يتوقّف في الشارع أمام «كهل» في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من عمره يرتدي الزي البورجوازي، بطين قليلاً، مع بداية صلع، ليصرخ بقرف: «أأصبح بمثل هذا الشناعة؟ أفضّل الموت. ولكن هذا الارتكاس يمرّ ونحن نعرف التتمّة، في حين أن تأبيد هذا الاتجاه يشرع في أن يتّخذ مظهراً يدعو إلى شيء من القلق، لا سيّما لدى فرد في الخمسين من عمره على سبيل المثال، وما سُمّي «**أزمة الأصالة الشبيبية** هو في الواقع احتجاج على التوحّد بعالم الراشدين وإذا استمر، فتلك علامة على أن النرجسية الداعمة ترفض التوحد الأوديبي، وأنها رفضته دائماً، وستستمر في هذا الموقف فضلاً عن ذلك. وإذا كانت الصيغة «كل يشبه بابا»، المتحقّقة إلى الحد الأقصى والممتدّة، تدل على تثبيت على الأوديب المعكوس، التثبيت الذي يكمن في أن يفعل المراهق بانتظام خلاف ما يفعله بابا، فذلك يعني، بدءاً من نحو 18 عاماً، أن الأوديب لم ينحلّ ولن ينحلّ أبداً، ذلك أننا هنا أمام سلوكات مظهرها المغالي والدائم لا يخدع أبداً: **فليس الأمر التزاماً أوديبياً بل تجنبه المنتظم**. وليس الأمر أمر الانتصار على الأب على نمط أوديبي (في الخصومة والتنافس) بل إبعاده حتى لايكون على الابن أن يقيس نفسه به، ولوطه أيضاً على نمط سادي شرجي تجنّباً للقائه على المستوى التناسلي. ونحن نعلم أن قتل الأب ومضاجعة الأم فعل ذو علاقة بتصرّف نكوصي يمكن أن ينجزه المتوحش الصغير، الذي تكلّم عليه ديدرو، لو كانت له قوة الراشد، ولكن مأساة الإنسان، وهنا إنما نجد على وجه الضبط مصدر الديناميك الأوديبي كله، تكمن في واقع مفاده أن هذين المعطيين، الرغبة الأوديبية وإمكان تحقيقها، لايتزامنان في البدء؛ فثمة ضرب من سيرورة النشوء الإنساني ينجم عنهما، سيرورة لاتنعكس إلا في الحالات التي تكون العودة إلى الوراء أمراً يباشره النكوص بالفعل، كما في حالة التخلّف العقلي أو بعض الذهانات. ونحن نعلم أيضاً أن «تصفية» الأوديب تعني حالة يكون فيها الاستيهام البدئي قد اندمج اندماجاً كبيراً في الأنا وديناميكه قد استُخدم على نمط مرَضٍ من الناحية الاقتصادية.

والتثبيت على **توحّد معاكس** دليل على عدم الدخول في الأوديب، على

لون من التباعد، ويتجنّب الشباب الذين يظلّون مثبّتين على هذا الوضع كل إمكان اللقاء مع الذين ينبغي أن يكونوا منافسين، ويتجمّعون على حدة كلياً. إنهم ينعزلون في عالم نرجسي حيث يعيشون مع أمثالهم، أي مع صورتهم الخاصة، حتى اللغة واللباس، وفي حالة من اللاتمايز الجنسي (11).

وثمة بعض العدوانية التي يوجهونها إلى عدوّهم الكاذب، أي إلى الراشد، تذكّر باستنزال اللعنات الهوميرية التي يتبادلها المحاربون من ضفتي النهر، الذين يحذرون مع ذلك أن يعبروا **المنطقة الحرام** التي تحميهم **وتضمن عدم لقائهم**. وليس المقصود احتلال مكان الأب بل التصرف كما لو أنه لم يكن موجوداً قط. وعندما يكون المراهق المثبّت على هذه المرحلة مسوقاً مع ذلك إلى أن يجلس على كرسيّ والده، مدفوعاً باندفاعته العدوانية، فإنه سيقلب كل شيء وسيملأ الإطار الأوديبي بمحتوى من المحتويات سيكون على مقدار كبير من الاختلاف عما كان من قبل بحيث لايمكننا أن نرتاب في وجوده النرجسي خارج الأوديبي ولاسيّما أن نتّهمه **أنه أخذ عن والديه أي شيء كان**؛ وسيكون قد أفلح على هذا النحو إلى الحدّ الأقصى في تجنّب الوضع الأوديبي. إنه لن يشغل مكاناً في خطّ السلالة، ولكنه سيقطع نظام البنوّة ثم سيبحث عن مكان خارج هذا النظام (12).

---

(11) ـ كل ذلك يبيّن جيداً أن المقصود سيرورة معادية للتوحّد؛ فعالم الراشدين يتألف من أفراد في حين أن عالم المراهقين من الفئة موضوع البحث يختلط مع الجماعة التي يحلّ بعضهم داخلها محلّ بعضهم الآخر إلى حدّ معيّن. ويصبح المراهق «**مختلفاً**» عن الراشد، ولكنه ليس «**أصيلاً**» بين الذين يشبهونه كما يشبه الأخ أخاه.

(12) ـ البحث الشره عن الجدّة بأي ثمن، أيا كانت قيمتها الجوهرية، يندرج في محاولة شبيهة لتجنّب الوضع الأوديبي. والمقصود عدم الاندماج في ضرب من الموروث، وهنا يكمن تحطيم السلالة أيضاً، والإغراء الذي تمارسه الجدّة في ذاتها مصدره الحلّ البيّن الذي تسهم به في النزاع الأوديبي، إذ يدور حوله. إن فكرة أصيلة بالفعل، واكتشافاً ثورياً في الحقيقة، يمدّان، في الواقع، جذورهما في الماضي الذي يتغذيان منه ويستقلبانه؛ وهما، بعبارة أخرى، يصدران عن مبدأ البنوّة.

IV

تسوّل لنا نفسنا بشدّة، بعد هذا الإيضاح الموجز لما نفهمه من النضج الأوديبي أن نستأنف تحليل الأسطورة الأوديبية ذاتها، من خلال محتواها ونصّ سوفوكل. فنلاحظ واقعاً غريباً بعض الغرابة مفاده أن بين تفسيرات الأسطورة الأوديبية كلها لانجد تفسيراً واحداً، وفق ما نعلم، أدرج عنصرها المركزي إدراجاً متماسكاً، وأنا أقصد الكلام على أبي الهول (السفنكس). وهنا إنما تكمن دون ريب ثغرة كبيرة يمكنها أن تُشرح بعبارات المقاومة. ويهتمّ فرويد باللغز الذي يطرحه أبو الهول أكثر مما يهتمّ بأبي الهول نفسه ونحن نعلم المعنى الذي يعزوه إليه (أصل الأطفال). ولا يتكلّم على أبي الهول بوصفه أبا الهول إلا مرة واحدة (وذلك على نحو غريب إلى حدّ كاف في «دستوفسكي وقتل الأب») وبوصفه في الواقع وجهاً أبوياً يجسّد قتله بواسطة أوديب تجسيداً مسبقاً قتل لاوس على نحو من الأنحاء. ولن نتوقّف عند هذه النقطة إلا لنذكّر أن رأي فرويد لم يكن غالباً في هذه الحالة وأن المؤلفين ميّالون حالياً إلى أن يروا في وجه أبي الهول بالحري امتثالاً للصورة الذهنية المثالية، صورة الأم القضيبية. وفي رأينا أن انتصار أوديب على أبي الهول لا يؤلف ضرباً من التجسيد المسبق لقتل الأب ودلالته تتجاوز مانسميه الأم القضيبية عادة تجاوزاً كبيراً.

فأبو الهول موجود أسطوري ذو نسخ متعدّدة؛ إن لنسخة طيبة وجه امرأة، وقوائم وذنب أسد وجناحين. ومن الجدير بالملاحظة دفعة واحدة أن المقصود

تجمّع من الرموز وليس غير ذلك، فأبو الهول ليس له جسم ويحجب فراغاً حامل رموز[13]. وتحيل هذه الرموز إلى أصول مختلفة على نحو أساسي، والمقصود أشياء عتيقة من الإسقاطات، وذلك ما يعيدنا إلى الكنز [14] ويقيم استمرارية بين الاثنين. فأبو الهول «تجمّع عناصر» كالكنز، وذلك أمر ذو علاقة بسمته النرجسية العتيقة.

وأبو الهول (le Sphinx) مذكّر ولكنه يعتبر مع ذلك مؤنثاً ويُسمّى في بعض الأحيان «la Sphinge» من جهة أخرى.

أما أصله النفسي، فمتعدّد وفق الإسقاطات التي يكون هو حاملها وبوسعنا أن نضع قائمة طويلة تعدّد هذه الإسقاطات. ويبدو لنا مع ذلك أكثر فائدة أن نبحث عن الفكرة المكوّنة الموجودة في أصل وظيفته في الأسطورة.

رأينا أن ضرباً من الصدع في الأنا يمنع المراهق غالباً من أن يكمل نضجه على نمط موحّد (فرد = لاينقسم = متجانس)، فأناه تظلّ مبعثرة (أنا ذات «رداء المهرّج») ودون أن تستكمل توحّداتها الأوديبية (هدفها لايمكنه أن يكون سوى توحيد الشخصية: فليس ثمة إلا أب واحد وأم واحدة). وينظّم عندئذ **منظومة من الإسقاطات المتعدّدة، مكافىء «الكنز»، إذ تتعزّز نرجسيته في الوقت نفسه بانعكسات مرآوية كثيرة، مشتركة بين جماعة من المراهقين يفيدون من المنظومة نفسها**. وبما أن شحنة المراهق النرجسية تحدّدها هذه السيرورة، فإن عالمه وحده الموجود داخل هذه المنظومة هو الموظّف نرجسياً، إذ أن الشحنة الممثّلة سُحبت كلياً من عالم الراشدين، غير الموظّف نهائياً بمعنى من المعاني، عالم لم يعد له وجود. إنه، بالتالي، ضرب من اللاقيمة ويجب رفضه (ذلك هو

(13) ـ ليس ذلك وجهة نظر فكر؛ فالعلماء في الآثار المصرية الذين لديهم أبو هول منحوت تحت تصرّفهم كانوا قد دُهشوا دهشة كبيرة حين اكتشفوا أن أبا الهول لم يكن يحجب في داخله ـ على عكس كل الأوابد المصرية القديمة ـ أي ممرّ، أو معبد، أو قبر؛ إنه كان فارغاً.

(14) ـ يعتبر أبو الهول، ولا سيّما نسخته المصرية، حارس كنز وهذه الوظيفة موجودة في كل استخداماته المعمارية المختلفة المنتشرة في بلدان الشرق الأدنى الراهن.

الهدف، على الأقلّ، الذي ينشده المراهق ويفهم المرء، بمعنى من المعاني، سنحطه أمام الراشد الذي لاتتوافق أفكاره بهذا الصدد مع أفكاره).

وقد يحدث والحال هذه أن تصبح الإسقاطات متمركزة حول وجه محوري يمثّل تطلّعات أعضاء الجماعة إلى درجة عليا وأن يكون بوسعنا أن نشبّهه بـ **الصنم** (وقد يكون المقصود ساحراً أو عرّافاً) الذي تكمن وظيفته الأساسية في دعم «الفتيان» في نضالهم الدفاعي ضد الأوديب بفضل القوة السحرية، ذات السمة الشرجية، التي تُعزى إليه. وسنرى أن هذا الصنم يظلّ في الواقع غير متعيّن الجنس. ولاحظت أنّا فرويد (15) جيداً أن المراهقين كانوا يتبعون على الغالب شخصية تسمّيها «الزعيم» (فوهرر)، شخصية هي، في رأيها، ضرب من الوسيط، «فرداً عمره يقع بين عمر المراهق وعمر الأبوين»، عمر قد يندرج إذن في الإطار الأوديبي. والواقع أن الشخصية موضع البحث ليست في رأيي وسيطاً، إنها موجودة، على العكس، في طليعة المقاومة ضدّ عالم الراشدين، أعني ضد الأوديب. وهي حامل الإسقاط النرجسي المتّصف بجنون العظمة لأنصارها الذين تمثّل مركز تجمّعهم، وهي كذلك المزوّدة بمحتوى إيديولوجي أو بمحتوى آخر، يغذّي اندفاعاتهم الدفاعية ضدّ الأوديب : إنها رئيسهم بمقدار ما تعود الصلة التي توحّدها بالمنتمين إليها عليهم بحرية دافعية كبيرة مع منحة نرجسية مقابلة : والواقع أن المراهق موضع التساؤل ليس له أنا علياً أوديبية مكتملة؛ بما أنه لم يدمج الأوديب في نفسه، ويقاوم ضروب الحَصَر الناجمة عن عجزه الأساسي، ومخاوفه من الخصاء، واللاتعيّن لديه فيما يخصّ هويته الواقعية وجنسه، مقاومة يكون فيها مزوّداً بأنا عليا أمومية عتيقة ومثال للأنا يضفي أهمية كبرى على القيم الشكلية جراء نرجسيته. والحال أن توحّد المراهق بصنمه على مستوى معيّن (أتذكّر رسالة «فتى» لمعبوده : «أحبك، إنني معبودك مدى الحياة») والحماية التي

(15) ـ «مشكل البلوغ»، مجلة النفس، 1960.

يمارسها يمحوان كل ذلك بفعل التحرّر من الأنا العليا بالضبط، تحرّر يتيحانه. فليس الصنم أنا عليا، إنه، على العكس، هو البرهان على عدم وجود هذا المرجع النفسي الذي يحلّ الصنم محله على نحو مفيد. «**إنه يستطيع كل شيء**»، أعني أنه انتصر على الأنا العليا وبالتالي على الأوديب. فالانتهاكات التي يتيحها هي كلها مآثر مرآوية، والمفروض أنه قادر على كل شيء ويعرف كل شيء؛ والانتماء إليه إنما هو عيد هوسي حقيقي، فكل ما يفعله أو يقوله كامل. وأي كلام يصدر عن الصنم (ساحر أو كاهنة وحي) يُشرح ويُعمّق، ذلك أنه يدلّ على قضيب سحري يُعزى إليه. والواقع أن هذا القضيب موضع تنبّؤ ووعد بالحري (محتجب كوعد) يؤجّل التمتّع به إلى الغد دائماً[16]. وهذا التأجيل الأبدي هو الذي، على وجه الضبط، يعرّض العلاقة بين الصنم وأتباعه إلى الاضطراب، علاقة تبدو دفعة واحدة ثنائية المشاعر إلى حدّ كاف مع ذلك. ذلك أن وراء تبجّح الذين يزدرون الأوديب واحتقارهم ومهانفاتهم، يتكهّن المرء في الواقع وجود الاقتناع الصميمي أن القضيب الحقيقي هو قضيب الأب وهذا هو على وجه الضبط ما يخفيه اللبْس الذي يُصان قصداً، لبس يحيط بالقضيب الذي يعد به الصنم ويعد به نفسه. وبما أن أبا الهول (السفنكس) يمثّل الأم السادية الشرجية، بمعنى من المعاني في الواقع، أما أحشاؤها المظلمة والعميقة فتبدو أنها تحتوي السمة الأبوية، فإن الوعد الضمني بأبي الهول (أو بالصنم) لايتيح لنا أن نستشفّ اكتساب هذا القضيب فحسب، بل اكتسابه على **نمط سحري بالتجنّب، إذ يجري القفز فوق النضج، أي فوق التوحّد بالأب والأوديب**. ونحن نعلم أن أبا الهول كان يسبّب فقدان الشباب و«يعيث في الأرض فساداً»، ولكن لابدّ له على وجه الضبط، حتى يأتي إليه هؤلاء الشباب، أن يمارس عليهم ضرباً من الفتنة الحقيقية. وعلينا أن نعرض ما في أبي الهول يوحي معاً بالخشية والجاذبية.

---

(16) ـ كاللوفياثان (Leviathan)، سمكة ضخمة يرتكز عليها العالم وفق موروث عبري، يحتفظ إلهه باللذائذ للأبرار الذين سيستمتعون بها في يوم الحساب.

ونحن نذكّر هنا بما قلناه للتوّعن السبب المباشر، للصدْع على مستوى الأنا، وهو الاندماج القاصر للطور السادي الشرجي، فعدم النضج لدى المراهق يجعله عاجزاً عن الاضطلاع به، أي أن يدمجه في أناه. وستكون عدوانيته عدوانية كاذبة تسيل بأنحاء مختلفة جداً ولكنها تسيل دائماً خارج التبنّين الأوديبي. والحال أن كل شيء يجري كما لو كان «الفتى» يفوّض سلطته في الاندماج الأوديبي إلى الصنم، إذ يترك لهذا الصنم أمر الاضطلاع به عنه وتحقيقه، ولاسيّما أنه يُعتبر المصدر نفسه لعدوانية سحرية شرجية، قوية كل القوة. وليس هدف ذلك إيضاح موقع الصنم، ذلك أن المراهق يتوجّه إليه حتى يلقي الصنم بعدوانيته الشرجية في الميزان للحصول على نتيجة حاسمة، آملاً أن يستمد المراهق منه الطمأنينة أنه سيكون موضع قبول دون أن يكون عليه اللجوء إلى استخدام المكوّنة الشرجية. فأبو الهول يمثّل إذن القضيب الشرجي السحري القويّ والخطر (من هنا منشأ الخشية من الاقتراب منه، كما الاقتراب من الطاعون)، ولكنه يمثّل الوعد المعجزي أيضاً (أبو الهول هو كاهنة الوحي أيضاً)، أصل الفتنة. وإذا كان التقريب الذي أجريناه للتوّبين أبي الهول والصنم صحيحاً، فإن علينا أن نؤكده بالرجوع إلى المادة الأسطورية ذات العلاقة.

إننا، في عمل سابق [17]، أرجعنا العدوانية السادية الشرجية إلى العمل الوظائفي للجهاز الهضمي نفسه، وبخاصة إلى الأمعاء التي تضغط وتضفي التجانس والبراز، وإلى الشرج الذي يمسك ويطرد. ونحن وضعنا جهنم، محلّ الظلمة والاحتراق الذي تنطلق منه الأبخرة ذات اللون الكبريتي، في حزمة الخلايا العصبية الهضمية، مركز سلطة الشيطان، ذلك أن كل الإثمية العميقة للإشباع الدافعي مصدرها، في رأينا، المكوّنة الشرجية التي تدخل في الفعل الغريزي. والحال أننا نذكّر، دون أن نباشر هنا مناقشة عامة لهذه المسألة، أن الإثمية المرتبطة بالفعل الأوديبي نفسه تعود إلى جريمة لايوس الذي اغتصب كريزيبوس، ابن

(17) ـ «دراسة في العلاقة الشرجية بالموضوع»، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 1960.

بولوبس. ولا تُعتبر الجنسية المثلية جريمة في اليونان القديمة مع ذلك، ولكن في الفعل اغتصاباً، أعني تجنيداً للمكوّنة الشرجية بالمعنى« الحقيقي؛ وعقوبةً على هذا الفعل الذي ارتكبه لايوس إنما أُنبيء أن ابنه سيقتله، وذلك سبب من أجله كان قد عرّض أوديب إلى الموت. أما أوديب نفسه، فإنه يُمثَّل بوصفه محركاً عاجزاً، أي أن مكوّنته الشرجية مخصيّة. وإذا عدنا إلى الوراء كثيراً، فإننا نجد أن أصل عقوبة لايوس غضب الإلهة هيرا، ولكننا هنا أيضاً نكتشف المكوّنة السادية الشرجية على صورة **أفعى**. ونحن نعلمْ أن العرّاف تيريزياس كان عليه أن يحسم المسألة - خلال تزاوج الأفاعي - فأي من الاثنين، الذكر أم الأنثى، كان قد استمتع أكثر من الآخر؛ فاختار الأنثى، إذ جلب إلى نفسه غضب الإلهة. والحال أن الأفعى هي الصورة النموذجية للجنسية الشرجية، القضيب والبراز معاً، ونحن نعلم أن أسطورة التكوين تعزو إليها كل إثمية الخطيئة الأصلية؛ والسياق الشرجي على نحو نموذجي لايترك أي شك بهذا الصدد. والواقع أن أبا الهول (السفنكس) إنما هو الأفعى نفسها أيضاً: ونقرأ على هذا النحو في فصل «Sphinx» في الموسوعة البريطانية: «السفنكس ابنة تيفون - عملاق بجسم أفعى يبصق فمها النار - وإيشدْنا، خليقة نصف امرأة، ونصف أفعى (إيشدْنه تعني الأفعى في اليونانية). وأنجب الثنائي الهجين السام: سرْبير، هيدْر دولرن، أفعى ماء عملاقة ذات تسعة رؤوس، الشيمير نصف أسد، نصف عنزة، وذنب أفعى، وأنجب السفنكس نفسه، والدراغون، أفعى هائلة مجنّحة، وأخيراً جماعة الغورْغون الممثلة بوصفها خلائق أنثوية مجنّحةٌ لها أفاعي بمثابة شعور لهن.»

وكل هذه الذرية المتحدّدة من إيشدْنا، أخوة السفنكس وأخواته، مرتبطة بالأفعى، أي بعضو الذكر الشرجي و**الخصاء**. ودون أن نتكلم على قطع الرؤوس المتعدّد لسربير والهيدر دو ليرن اللذين قتلهما هرقل، كل الآخرين قتلهم بطل من الأبطال، بلّيروفون قتل شيمير، برْسه قتل الميدوس، وأوديب قتل السفنكس نفسه. وليس للسفنكس صفات ثعبانية ولم يفقدها، ولكن للمرء حقاً في أن يردّها

إليه، فكل السياق يبيّن، في الواقع، أن هذه المخلوقات المتحدّرة من إيشْدنا نسخ يمكن لأحدها أن يقوم مقام الآخر.

وقد يعترض عليّ هنا معترض أن الأفاعي هي أفاعي ولا شيء يتيح لي أن أجعلها تماثل المكوّنة الشرجية للجنسية، أي تماثل الأمعاء، والشرج أو وظيفتهما: الضغط أو التضييق. والحال أن لديّ، هنا أيضاً، ضامن هو الاشتقاق؛ فالمهتمّون بالدراسات اليونانية يمكنهم على هذا النحو أن يراجعوا، على سبيل المثال، المعجم الاشتقاقي في اللسان اليوناني لإميل بوازاك، أستاذ في جامعة بروكسل، ظهر عام 1938، شارع ليل، رقم 11، في باريس. فجذر السفنكس، «Spaig»، يعني، في رأي المعجم، «تضييق، خنق»، ثم «صلة» أو «صارّة»، وكذلك «عقدة»، أو «شوكة لتناول سرطانات النهر». أما معجم أسماء الأعلام اليونانية للدكتور و. بابز، 1863 ـ 70، فإنه يترجم Spheig بالمقابل «أفعى» و «عقدة» التي تضغط وتخنق، إلخ.

فلنتذكّر الفخّ الذي كان السفنكس قد طرحه بألغازه التي تجعل فهمها غامضاً بواسطة لغة سيبيلية (السيبليات كاهنات وحي) و بـ«تقنية عرافية» كاملة[18]، ولكن بالخشية، على وجه الخصوص، التي كان يوحي بها بفعل الاحتكار الذي كان في حوزته؛ وكلمات كاهنة الوحي يأتي من الألوهة، وهي وحدها التي لها حق تفسيرها، وذلك امتياز لا يُقيَّم ويغري بالتعسّف. ومهما يتوصّل المرء إلى أن تنظر إليه كاهنة الوحي بعين الرضى، بدلاً من أن يرتجف أمام غضبها، فإنه مع ذلك يشارك بقوتها الإلهية؛ ولم يعد لديه خوف من الفخ لأنه هو الفخ[19].

(18) ـ تقيم كاهنات الوحي احتفالاتهن في المغارات أو في أماكن سرية أخرى مع مسرحة ملائمة وبعض اللوازم، كما لانزال نراها في أيامنا هذه، وهي دائماً ذات ماهية شرجية، كالهياكل، والجماجم، وأمعاء الحيوانات، وتفل القهوة، وبقع الحبر، إلخ.

(19) ـ اللغز في ذاته نوع سادي، ذلك أن اللغز مرتبط دائماً بالفخ الشرجي. فالفرد يوضع أمام صعوبة، مانع، في حين أن من يضعه يستمتع بسيادة مطلقة؛ ويرى الفرد عندئذ بتعثرّ ويتعاظم عذابه بقدر ما يرتبط الرهان بخسارة (خصاء أو موت كما في حالة السفنكس). والظلام في ذاته فخ شرجي: فالضحية تُخدع و تُجذب في الأنبوب. فخداع شخص يُقال عنه في الألماني: «قاده خلف النور».

وظلام اللغة التي تستخدمها كاهنة الوحي تبيح أول الأمر كل التفسيرات في اتجاه نرجسية الفرد الذي يستفهم، ولو أن عليه أن يدفع الثمن بمخاوف وارتجافات ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع ذلك، على مستوى عميق، بالمتعة. (تقنية الظلام ذات الجرعات المحدّدة يألفها كل أولئك الذين يتعسّفون في استعمال سرعة التصديق لدى الناس وثمة خط متصل ينطلق من المشعوذين والمتكهّنين ليفضي إلى السحرة، والعرافين، والبهلوانيين، وأصحاب القول الاخرين بالمصادفات السعيدة). ويحجب العرّاف ويعد معاً، يجذب أول الأمر ثم يحيل إلى الغد، وذلك يؤمّن له زبُناً دائمين أوفياء. إنه يسحب باستمرار سندات على المستقبل، وذلك نهج يتيح له أن يظلّ في المجرّد، في اللامحدّد والضبابي، في الإلماعي، في الصيغة المفارقة والشعار، ليترك دائماً نافذة مفتوحة على المستقبل حيث يكون كل شيء ممكناً، وحيث سيحلق المرء شعره مجاناً، وسيكون بوسع الحمار أخيراً أن يأكل الجزرة.

واتصال الفرد بالساحر أو العرّاف يجعله يغوص مباشرة في السيرورة الأولية حيث العقل والمنطق يفقدان حقوقهما. ويكفي بعض من حركات الغواية، بل يكفي مجرّد اللبس والظلام أيضاً (على اللغة نفسها أن تحافظ على خصائص ما لا يمكن التعبير عنه)؛ وما إن يستقرّ النكوص على هذا النحو، حتى يغوص الفرد في النشوة وتُفتح الأبواب على عالم نرجسي من القدرات الكامنة اللامتناهية، وحسب المرء أن يصدّق به. ولكن الساحر يحرم الفرد في الوقت نفسه، إذا جعله مقيماً في هذا العالم، من وسائل ضرورية لخروجه منه. إنه لن يتحرّك، ولكنه سيفلت من الأغوال التي تواكب سيرورة النضج.

V

الخشية من ولوج الوضع اللاأوديبي يملأ الإنسان القديم بالرعب **فيلوذ بكاهنة الوحي** أمام خوفه من دوافعه. إنه يخضع لقرارات الألوهة وتبيّن لنا قراءة مسرحيات سوفوكل، الذي كان مع ذلك يعيش في قرن بيريكلس، إلى أي حدّ كان قدز الإنسان معلقاً برضى الآلهة. وبوسعنا أن نفترض من جهة أخرى، أن الإنسان كان على وجه العموم يتوجّه إلى كاهنة الوحي كلما كانت الدوافع الأوديبية أو مشتقاتها موضع الرهان.

ويتساءل ريمون دوسوسّور، في دراسته «المعجزة اليونانية»[20]، عن طبيعة العوامل التي غيّرت هذه الحالة من الأمور وجعلت الإنسان ينبذ هذه العبودية، إذ أشادت على هذا النحو حضارتنا. ويذكر على وجه الخصوص إبيقور الذي يضعه في مركز هذه الثورة ويقارنه بفرويد. والواقع أن تعليم إبيقور هو الذي أفضى - إذ صنع إذا صحّ القول توليفاً للأساسي من التغيير الهائل الذي كان قد حدث - إلى استقلال الفرد، إذ أثار نقداً دائماً للذات تبعاً للواقع (والواقع الإنساني قبل كل شيء) وليس تبعاً لسلطة خارجية عن الذات (والمميَّز أن بين الكلمات اليونانية النادرة التي تبنّاها شعب التوراة، يمثل اسم علم أصبح اسماً: إنه اسم إبيقور الذي يعني «الكافر» بالعبري).

والحال أن الثورة في عصر بيريكلس، التي لانزال نشارك فيها مشاركة واسعة في العصر الراهن، كان بعيدة عن أن تتغلّب على الظلامية التي كانت موجودة مع البزوغ الرائع للفكر الحديث، وذلك تواجد غير ودّي يستمرّ ما استمر أمراً حقيقياً قولنا إن الصراع بين أرْموزْد وأهريمان أبدي.

وكان على سوفوكل، إحدى الشخصيات الأكثر شهرة في عصرها، أن يشهد

(20) - المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، 1938.

ويشارك مشاركة فاعلة في ضرب من الأزمة، من المبارزة بين عالمين، عالم الوضوح وعالم الظلام، عالم العقل وعالم الخرافة، اللذين يتصادمان تصادماً ترافقه الضوضاء، وليس بين جيلين ـ كان في 75 من عمره حين كتب «أوديب ـ الملك و 90 من عمره حين مُثّلت مسرحيته «أوديب في كولون». وكان عليه أن يدرك أن هذا الضرب من الإكليروس، الذي كان يوزّع إرادات الألوهية على الفانين، كان يمارس، على الرغم من تحرّر الفكر الإنساني، ضغطاً على الناس وكان بعضهم يحثّون خطاهم نحو الأماكن التي كانت تنتشر فيها الصوفية العرافية، التي يغلّفها دخان الجهل وسحر طقس تعزيمي. وكان الشباب، المتطلعين إلى السكينة، يضلّون سبيلهم ويسرعون إلى أحشاء السفنكس السوداء، الذي كان يجعلهم يرتجفون تحت التأثير السحري والمرعب للغته اللغزية التي هو وحده كان يملك حقاً مفتاحها.

ومن الواضح أن المبارزة بين أوديب والسفنكس هي، في رأي سوفوكل، كامنةفي عقدة الدراما. والسبب أن سوفوكل كان، على المستوى الشعوري دون ريب، يهاجم الظلامية التي كانت تنبعث في كل عصر في ظل أقنعة مختلفة، والإرهاب الفكري الذي يستند إلى حصر الضعفاء، والخرافة التي يكون حاملها من يزعم أنه يعبّر عن الكلام الإلهي، والصوفية التي تتسرّب في فكر الشبيبة وتسمّمه.

أما على المستوى الشعوري، فيبدو أن أوديب، المنتصر على السفنكس، بطل، لا لأنه ربح في لعبة الأحجيات، بل لأنه، إذ فعل ذلك، أبعد، بحركة واحدة، كل الحضارة الكاذبة المصنوعة من الشعوذة، والصيغ السحرية والارتجاف أمام الغموض. وبيّن أنه لم يكن ثمة حاجة للمحافظة على الإسقاط على السفنكس، إسقاط يصنعه غير الناضجين وهو وحده الذي ينعم عليهم بالحياة والسلطة ذات القوة الكلية. إنه عارض المسخ على هذا النحو بأنا دون صدع وتغلّب عليه. وإذ اقتلع قناع أبي الهول(السفنكس)، فقد رفع الحجاب عن الفراغ فيه وألقاه في العدم على هذا النحو.

الفصل الحادي عشر
الأوديب والنرجسية(*)

مقدمة

الهدف الذي نتابعه في هذا العمل يكمن في تطبيق تصوّراتنا للنرجسية على دراسة النشوء لعقدة أوديب. وكنا قد رسمنا من قبل رسماً أولياً لأفكارنا الخاصة بالعلاقة بين الأوديب والنرجسية، منذ عام 1956، في تقريرنا عن **الوضع التحليلي وسيرورة الشفاء**(1). أما تصوراتنا للنرجسية بصورة عامة، فليس بوسعنا إلا أن نحيل القارىء إلى الأعمال التي خصّصناها لهذه المسألة. وستجد فروضنا تطبيقاً ثانياً على دراسة غشيان المحارم. ونحن نحدّد موقعنا في منظور الديالكتيك نرجسية ـ دافع. وننوي أن نتابع على هذا النحو غرضاً محدّداً كل التحديد ولا نرغب في أن نقترح هنا نظرية كاملة للأوديب أو لغشيان المحارم، وذلك أمر يحتمل من جهة أخرى أن نكرّر التقريرين المقدّمين إلى هذا المؤتمر تكراراً غير ذي جدوى ونأسف على أننا لم نستطع أن نأخذ علماً بالأمر خلال تحرير هذا العمل. (إننا إنما بسرور رأينا، عند قراءة التقرير الرائع الذي حرّره س. جـ. لوكه بارا، كم كانت الأفكار

(*) ـ مداخلة في المؤتمر السابع عشر للمحلّلين النفسيين بالألسن والرومانية، لوزان، 29 تشرين الأول (أوكتوبر) ـ ١ تشرين الثاني (نوفمبر)، 1966، نشر في **مجلة باريس للتحليل النفسي**، 1967، العددان 5-6.

(1) ـ في فصل «النرجسية والأوديب» على وجه الخصوص. كذلك نرجو أولئك الذين تفضلوا بحضور ندوتنا أن يغفروا لنا أننا نعرض هنا قضية معروفة لديهم من قبلُ، قضية العلاقات بين النضج البشري السابق لأوانه وحاجز غشيان المحارم.

المعروضة فيه قريبة من أفكارنا فيما يخص الصلات الموجودة بين الأوديب والنرجسية. أما العمل الموجز جداً والعميق جداً لمارسيل روك، فقد كنت على وجه الخصوص متأثراً من ملاحظتي أن الإعداد الشخصي جداً والأصيل جداً لموضوعه كان متمفصلاً مع فكرتي في هذه المسألة. فالتصورّ الذي يتوّجه دون تردّد نحو ازدواج مرجع الأنا العليا يكتسب بقلمه حيوية ووضوحاً وتدعمه أدلّة تكشف، على نحو حاسم، أهميته العيادية والنظرية على حد سواء).

ونحن نتّخذ نقطة انطلاقنا صياغتين مشهورتين لفرويد. والمقصود، من جهة، ذلك التوظيف النرجسي لعضو ذكر الصبيّ، الذي يتخلّى عن رغبته الأوديبية ليفلت من الخصاء[2]، ومن جهة أخرى، شرح فرويد عقدة الخصاء التي ستكون ضرباً من الإذلال الجنسي **المعزّو** [3] إلى الأب. فـ«العزْو» ينطوي على «إسقاط»، وذلك أمر يؤكّد، وقد ألمعنا إلى هذا الأمر عدة مرات في مكان آخر، أن عقدة الخصاء والوضع الأوديبي مرتبطان بخشية نرجسية ذات موقع أكثر عمقاً وكبتاً، وذلك أمر يُنصف الدليل التاريخي في الوقت نفسه (تهديد الأبوين أو المربين **الواقعي** بالخصاء يميل إلى الزوال) وينصف الدليل المستمدّ من نشوء النوع أيضاً (نظرية العشير البدائي وقتل الأب، المقتبسة من داروين وأتْكانْسون، فقدت قيمتها، كما نعلم، في ضوء البحوث السوسيولوجية الحديثة).

وقد يكون وهمياً أيضاً أن نتكلّم، من هذه الزاوية، على حاجز غشيان المحارم بوصفه كذلك، بالنظر إلى أن المقصود **إسقاط**، لاسيّما أن الوضع الأوديبي (الذي يتكوّن مجدداً على كل الأنماط التي تقابل كل المراحل قبل التناسلية) وبالتالي حاجز غشيان المحارم نفسه يجري **إسقاطهما**، خلال التحليل،

(2) ـ نذكّر في هذا الصدد بدراستنا في **الصورة القضيبية** ودور وأهمية هذه الصورة من وجهة نظر السلامة النرجسية أو الكمال النرجسي.

(3) ـ نحن الذين نضع الكلمة بالحرف البارز.

على ماض يتعاظم بعده (إذا كان فرويد قد حدّد عمر الأوديب بين 3 ـ 4 سنوات، فثمة آخرون أرجعوا هذه الفترة إلى سنتين، وتقابل المرحلة الأوديبية في رأي ميلاني كلاين ـ ونحن نعلم ـ النصف الثاني من السنة الأولى). ونحن نقترب هنا على هذا النحو اقتراباً متعاظماً من بدايات الوجود قبل الولادي وبوسعنا أن نتساءل أليس لنا الحق في أن نمدّ بحوثنا إلى ما وراء هذه الحدود.

I

«كنتُ، ربٌّ، في العدم بمنتهى العدم والسكينة؛ فأخرجتني من هذه الحالة لتلقيني في هذا الكرنفال الغريب.»

بول فاليري، **السيد تيسْت**

نحن نعلم تصورات أوتو رانك الذي يعزو إلى «صدمة الولادة» أهمية أولية، وذلك ما اعتبره فرويد «تتمّة مفيدة» لنظريته (4)؛ ونميل إلى الاعتقاد حالياً، متأثرين بأعمال فورنزي على وجه الخصوص، أن الرغبة الأوديبية، ذات العلاقة بالموضوع، في الولوج مرتبطة، على مستوى عميق، بالرغبة النكوصية، ذات الماهية النرجسية، في العودة إلى رحم الأم. ونحن نلحّ أيضاً، وقد قلنا ذلك في عدة مناسبات، على السمة النرجسية للحياة الجنينية، ولكننا حريصون على أن نوضّح بهذه المناسبة ذلك الفارق، الأساسي في رأينا، بين تصوّرنا وتصوّر «صدمة الولادة». وإذا كانت الأم، في الواقع، موضوع ليبيدي في رأي رانك، فإن الولادة صدمة للطفل من حيث أنها تفصل الثنائي الذي كان قد كوّنه حتى الآن مع أمه؛ وفي رأينا، على العكس، أن تكوين الثنائي أم ـ طفل تكوين يحدث **بعد الولادة**. وكان قصدنا دائماً أن نلمّح على تبعية الطفل بعد الولادة لأمه (والعالم) في حين أنه كان قبل الولادة ـ إذا تكلمنا من الناحية السيكولوجية ـ ذا استقلال ذاتي مطلق **وغير تابع**

(4) ـ مراسلات فرويد ـ أبراهام، غاليمار.

لأمه (وللعالم) التي كان يجهل وجودها. وليست الحالة النرجسية البدئية، في رأينا انصهاراً نرجسياً أم-طفل، ينزع، على نمط معيّن وخلال مرحلة معينة، إلى أن يقوم بعد الولادة، ولكن انصهار الطفل بعالمه، الذي **هو** العالم بالنسبة له (الأنا الكونية لفودرن)، انصهاراً سيبحث الفرد عن أن يجده مجدّداً، فيما بعد، منقولاً إلى سجلّ آخر وعلى مستويات مختلفة بصورة عاطفة ابتهاجيه مرتبطة بوهم قوة كلية مطلقة، مستعادة خلال لحظة.

والتمييز بين هذين المنظورين، أحدهما ينطلق من الثنائي الانصهاري أم-طفل ويفضي إلى علاقة ذات ماهية **دافعية**، والآخر ينبعث من حالة **نرجسية** ليس لها صفة جنسية تُساق إلى أن يضفى عليها النزاع، أقول هذا التمييز يظهر قطبيتي وضع ديالكتيكي. ويمرّ التياران الأساسيان المتناوئان من حيث المبدأ، قبل أن يبلغا ضرباً من التوليف، بسلسلة من الحالات الوسطى سندرسها في منظور نزاعي.

ومفهوم صدمة الولادة (صدمة نرجسية أولية، في رأينا، بوصفها نتيجة الإحباط بعد الولادي الذي أصاب النرجسية البدئية)، يجعلنا ننفذ بالضرورة إلى مشكل **النيوتونية** (5)، عامل هام-كما نعلم-في سيرورة النشوء البشري. والحال أن علينا ألا يغرب عن بالنا هذه البديهة التي مفادها أن الإنسان إذا كان نيوتونياً لدى ولادته، فإنه **لم يكن كذلك في أثناء حياته الجنينية**، وإذا شئنا أن نقيّم مفعولات سقوطه في العالم بقيمتها الحقيقية، فإن علينا أن نأخذ بالحسبان واقعاً مفاده أن الإنسان، بمعزل عن الصدمة التي يكوّنها انقطاع حالته النرجسية البدئية، **يمرّ إذا جاز القول، حين يولد، من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان**، وهو مرور يبدو

(5)-Néoténie: النيوتينية استمرار سمات يرقية لدى الإنسان والحيوان في سن الرشد «م». انظر أعمال جيزا رورهايم.

أن هذا الإنسان يعيشه بوصفه يسبّب الصدمة جداً كما تشهد على ذلك الأساطير، لاسيّما أسطورة التكوين(6).

والحال أن التوازن النرجسي للإنسان، إذا كانت الحال قبل الولادة تظلّ مستمرّة على صورة نرجسية بدئية، لن يكون أبداً بدهية وجودية مرتبطة بحساسية عامة تعبّر عنها، ولكن الجهاز الدافعي سيتكفّل بها، جهازاً كان في حالة الراحة حتى الآن. فالإنسان سيجد نفسه إذن، حين يولد، حائز إرث نرجسي يحمله، مرتبط بالحياة الجنينية، كان قد انتزع منه، من جهة؛ ومن جهة ثانية حامل جهاز جنسي ولكنه ما يزال لايعمل، في حين أن قرائن توتّر جنسي باحث عن تحريك هذا الجهاز على نحو مبكّر أمر ليس موضع شك. ويجد الطفل نفسه على هذا النحو منبوذاً من عالمين معاً وهو في هذه الظلمات المانعة لهذه **الأرض الحرام** الوجودية إنما يتعلّق بأمه يائساً أو، بالحري، بما تمثّل بالنسبة له في هذه اللحظة: إمكاناً، في وقت واحد لاستطالة حالته النرجسية قبل الولادية وبلوغ كماله في كون جديد ذي قاعدة دافعية. ويجنّد إحباط الطفل - الذي يجد نفسه ملقى بين منظومتين متناقضتي الماهية في البدء - استيهاماته البدئية. وهكذا تنزع التخطيطية العتيقة الكامنة «محتوي - محتوى» (الخاصة بالمنظومة النرجسية البدئية التي تعبّر عن نفسها في

(6) - يبدو جيداً أن النرجسية البدئية، التي نحاول استخلاص ماهيتها، هي التعبير، بين تعبيرات أخرى، عن مظهر معيّن من حيوانية الإنسان الأصلية؛ ونحن نعرف صنفاً من نرجسي - وقد تسوّل للمرء نفسه أن يقول **النرجسي**، إذ يختلط مع ذلك، بمعنى من المعاني، مع الإنسان دون أي صفة - يعيش على وجه الدقة كما كان يعيش «قبل سقوطه في العالم»، إذ يعيش الحياة كما لو أنها معطى مباشر ويعتبر الإنجاز غير المشروط لغرائزه أمراً بدهياً؛ فمفاهيم الجهد، والتسويغات أو الجدارة ليس لها أي معنى بالنسبة له ويعيش في حالة من التلقائية والبراءة الحيوانيتين اللتين أبانهما فرويد وهو يتكلّم على **الجاذبية الحيوانية** التي يملكها نموذج معين من النساء النرجسيات. ويبّن أيضاً في **عسر الحضارة**، كتابه، كم يدفع ثمن «مثاقفته» غالياً، مثاقفة تفقده براءته الحيوانية الأصلية؛ وليس ثمة شك في رأينا أن التضحيات الدافعية التي ينبغي للإنسان أن يقدّمها لبلوغ الثقافة مؤلمة في جزء كبير منها جرّاء سمتها، سمة الجرح النرجسي الذي لايعوّضه توظيف الثقافة نفسها، بوصفها قيمة، إلا بمقدار ضعيف جداً.

اللاشعور بـ «الصورة القضيبية»)، حين الانتقال إلى المنظومة المناوئة، أقول تنزع التخطيطية إلى أن تتكوّن على نمطها الجديد (الدافعي)، بصورة جماع استيهامي (محتوي ـ محتوى) بدئي، فموي، شرجي أو تناسلي [7]. والحال أن **هذا الوضع ذو علاقة على وجه الضبط بالوضع الأوديبي المبكّر، على صورة مبّسطة، وضع يجد نفسه الطفل مع ذلك ـ بسبب عدم نضجه الوظيفي ـ أنه يتعذّر عليه تحقيقه**. أضف إلى ذلك أنه يبدو، على مستوى معيّن، أنه يدرك هذا العجز (بمقارنته بحالة الكمال المطلق الذي كان يسبقه) **والشعور** النسبي باندفاعاته الجنسية **والشعور** بإخفاقه بوصفه دون شك نتائج العامل النيوتوني.

وسيفهم المرء أن الذكرى الكاوية لهذا الإخفاق يمكنها أن تحرك مشاعر الطفل وأن الكبت الناجع لهذه الصدمة أمر متعذّر، وتُعاش في الوقت نفسه بوصفها ضرورة مطلقة، نظراً للاستمرارية الداخلية والخارجية للإثارة الأوديبية، إذ أن كل اندفاعة جديدة تُلقي الفرد في أهوال الجرح النرجسي الذي توقظه ذكرى الإخفاق الأول! ويفهم المرء أيضاً **أنه يريد أن يعوّض الجرح النرجسي (الناجم عن عجزه الداخلي) بتحريم خارجي أقلّ جرحاً لنرجسيته إلى حد أقصى**.

وبوسعنا، في ضوء ما تقدّم، أن نقيّم أهمية **إضفاء المؤسّسية على «حاجز غشيان المحارم»**. والواقع أن ما يكوّن موضوع تحريم عام يمكنه أن يؤلف إحباطاً

(7) ـ من المؤكد أن الهناء قبل الولادي يمكنه أن يضطرب بفعل الضروب من العوامل كلها، كما لفت بعضهم نظري إلى ذلك غالباً وبحق. وهذا لايحكم حكماً مسبقاً مع ذلك على القيمة التي يمكن أن يتّخذها، على المستوى النفسي الفيزيولوجي، وجود حالة نرجسية مطلقة، كما تشهد عليها ـ وقد كررت هذا الأمر مرات عديدة ـ الأساطير، والأحلام، والاستيهامات، وروائع الفن، إلخ، وجود عابر على الأقل وكامن على أي حال.

دافعياً ولكنه لا يمسّ النرجسية أبداً، النرجسية المرتبطة بفردية كل منا، إذ يمكن أن تصبح هذه الحقيقة السيكولوجية، كما نعلم، **مبدأ حكومة**(8).

ففرضي يكمن إذن في أن «حاجز غشيان المحارم»، الداخلي والخارجي على حدّ سواء يحمي الفرد من الجرح النرجسي، من تذكّر الصدمة الأوّلية. وثمة على هذا النحو خاصتان إنسانيتان أساسيتان، تحريم غشيان المحارم والنيوتونية، تبدوان أن كلاً منهما ينجم عن الآخر. فلو أن الإنسان لم يولد عاجزاً وغير ناضج لما كان بحاجة إلى أن يحمي نفسه من رغباته الأوديبية. وهذا أمر يشرح في الوقت نفسه شدّة الرغبات الأوديبية وديناميكها النوعي، رغبات إنجازها يعني أمّحاء الصدمة الأولية، أي استعادة القوة الكلية المفقودة.

كذلك تحمي الإثمية المرتبطة بالدوافع من الخزي، حالة وجدانية ترتبط

---

(8) ـ إذا سلّمنا ـ وهنا إنما يكمن اقتناعنا ـ أن المرء يأتي إلى التحليل حاملاً الأمل اللاشعوري في أن تعود إليه نرجسيته (انظر دراستي في **الوضع التحليلي** ودراستي في **الصورة القضيبية**)، فما الرأي في نظرية تحليل نفسي تطرح مسلّمة مفادها التخلّي عن هذه الاستعادة، على غرار الديانة الكاثوليكية؟ الواقع أن إضفاء قيمة عليا على «قبول الخصاء»، بل توظيفه الصوفي، يتّخذ في اللاشعور دلالة صعود قضيبي. فالفرد يكون على هذا النحو مستقراً في حالة من الخداع والضياع. والمقصود في الواقع، هنا، إشباع رغبة إنسانية أساسية إذ يحمّل النظرية قناع الدفاع ضدّ هذه الرغبة، وذلك ما لا يمكنه إلا أن يسهم بنجاحها على نحو فريد، وهذه آلية تستخدمها الأديان استخداماً واسعاً وتكوّن هذه الآلية ماهية المازوخية كما أفهمها (انظر دراستي: **رسم أولي لنظرية نفسية دينامية في المازوخية**).

وليس «قبول الخصاء» بوصفه تخلّياً عن القوة الكلية شيئاً مختلفاً عن بلوغ مبدأ الواقع. والحال أن أي محلّل نفسي لا تراوده فكرة تأسيس نظرية في العلاج على بلوغ مبدأ الواقع... ما دامت الأمور تمضي من تلقاء ذاتها، مأخوذة بالحسبان في منظور المحلّل. ويجري الأمر مع ذلك مختلفاً كل الاختلاف من وجهة نظر المريض وديناميك العلاج، ديناميك لا يمكنه أن يُبنى على مبدأ مرتبط، من حيث التعريف، بالسيرورات الثانوية وبالتالي لا يوقظ أي صدى على مستوى اللاشعور الذي يعنينا وحده هنا. والحال أن صيغة «قبول المرء خصاءه». إذا كانت تنوب مناب صيغة «بلوغه مبدأ الواقع»، فالسبب أن الأولى، على الرغم من أنها تكافىء الثانية من «الناحية الفكرية»، تمس اللاشعور الذي لا ينخدع بها ويقصد «اكتساب قضيب» حيث تستسلم الأنا العليا لخديعة تخلّ مزعوم.

بالجرح النرجسي (7) (حاولت أن أبيّن في مكان آخر كيف أن السوداوي يبحث، على عكس المازوخي الذي يستخدم الإذلال استخداماً تكتيكياً ـ ظاهراً فقط مع ذلك ويخفي في الواقع اكتساباً قضيبياً ناجماً عن خصاء شرجي للأب ـ عن كبت انهيار نرجسيته الكامل (نزع التوظيف عن الأنا بفعل مثال الأنا) إذ يعبّر على صورة اتّهام (يرتبط بالدوافع) عن الانتقاص الذاتي من قيمته (مرتبط بالنرجسية)، وتلك محاولة ليس نجاحها إلا جزئياً مع ذلك.

وفي رأي جونز، الذي تقترب أفكاره من الأفكار التي عرضتها في موضوع الأوديب، أن الإثمية مرتبطة قبل كل شيء بالعجز لا بالممنوعات، فالفرد يشعر أنه آثم بكل ماهو عاجز عن فعله، فتكون الممنوعات الخارجية، ثم استدخال هذه الممنوعات وبالتالي تكوّن الأنا العليا ذاتها، ضروباً من الحماية من عاطفة العجز لدى الفرد. وبوسع المرء أن يضيف أن المعنى المزدوج ـ في الفرنسية ـ لفعل «Pouvoir» (يقدر) يشرح على هذا النحو: أن يكون الفرد قادراً وأن يكون مسموحاً له. ولا يمكنني إذا بقيت في الإطار المتوقّع، أن أفصّل في عرض هذه المسألة أكثر مما فصّلت.

II

يمتدّ التحريم الأوديبي، كما نعلم، إلى غشيان المحارم على وجه العموم ويفضي إلى قاعدة الزواج بالأباعد. والحال أن لكل شكل من الأشكال المختلفة لغشيان المحارم دافعيته الخاصة والدرجة المحدودة نسبياً من الإثمية التي تصيب على سبيل المثال غشيان المحارم بين الأخوة والأخوات لاتتناسب مع الدور الذي يؤدّيه هذا الضرب من غشيان المحارم في تنظيم زواج الأباعد. سنحاول هنا ضرباً من إضفاء المنهجية على هذا المجال بواسطة نظرية النرجسية. ونرجسية الطفل البدئية التي تصطدم بعدم نضجها بعد الولادة تُسقط على الأبوين، (لا سيّما على

الأب فيما بعد، والسبب دون شك لأن هذا الموضوع ليس مصدر الإحباطات في بداية الحياة، إذ تنجم حصراً عن الأم أو إليها تُعزى من حيث المبدأ).

أضف إلى ذلك أن الصبيّ والبنت هما **معاً** موضوع ضرب من المنحة الدافعية التي تمنحها الأم خلال العنايات التي توفّرها لهما، وهي منحة دافعية مناوئة في ماهيتها للإشباع النرجسي البدئي. أضف إلى أن الطفل يميل، بالنظر إلى عدم نضجه والصعوبة التي يعانيها في دمج دوافعه إلى درجة تتجاوز عتبة معيّنة، إلى أن يرى في هذه الدوافع أعداء ويواكبه أسف على الحالة الابتهاجية قبل الولادية. (فالميل الإنساني إلى النكوص مرتبط إذن بعدم النضج الأول لدى الإنسان). ويجعلنا ذلك نفهم لماذا تكون الصورة الأبوية، بوصفها سطح إسقاط نرجسي، ومثلها المحلّل في علاج تحليلي، أمراً لاغنى عنه في حياة الطفل الاستيهامية إلى جانب، دفعة واحدة، موضوعه المباشر، الأم. وندرك أيضاتلك الأهمية التي يتخذها الوجه الأبوي في كل الأديان وفي الأساطير. أما **الطوطمية**، فإن بوسعنا أيضاً أن نتصور أن البدائي، والطفل والعصابيّ أيضاً، الذي تعود نرجسيته ـ كما قلنا للتوّ ـ إلى مرحلة قبل الولادة، وبالتالي المرحلة الحيوانية، يبحث على وجه الخصوص عن القوة الكلية في هذه النرجسية ويسقط هذه الرغبة على **حيوان فحل أو نبات**، **قوته** وحيويته يتجاوزان تجاوزاً كبيراً قوته وحيويته، ويصبح هو وريثه على هذا النحو.

ويبين سياق هذه الإسقاطات نفسه (أديان، ميثولوجيات، قصص الجنيّات)، على وجه العموم مع ذلك، أن هدفها لايكمن فقط في الاحتفاظ بالحالة الابتهاجية، بل في أن يستقرّ الطفل في عالم يضعه في مأمن من إمكانات حدوث «الحلّ الدافعي» الذي يبدو أنه ينوي استبعاده بوصفه غير مرغوب فيه. والعنصر المدهش الذي يستمتع به الطفل يتيح له ضرباً من التوحّد بالآلهة الذين

يستمرون في أن يعيشوا الحياة السحرية التي طرد منها للتوّ. فالآلهة والأبطال يعيشون، في الواقع، في معجزة دائمة **ذلك أن حسبهم أن يرغبوا أو يريدوا حتى يولّدوا واقعاً على قدّهم. إن سيرورة النضج** [9]، التي شكّلت موضوع عدة عروض في ندوتي، أي المرور الإجباري بالسلسلة الطويلة، سلسلة النزاعات الدافعية التي تذلّ النرجسية الإنسانية، **تجد نفسها مستبعدة من هذا العالم** [10].

ولا يبدو أن الطفل يقبل أبداً ضرورة الدخول العميق في الواقع ويظلّ وهمه حياً في كل أطوار تطوره؛ وحتى طور الكمون وفي أثناء هذا الطور الذي ينبغي أن يعود على الطفل بمنفعة الاكتساب النهائي لمبدأ الواقع، نراه يتابع فاعلية لعب بأكبر ما يمكن من الجدّية في حين أنه يعلم، ويقول ذلك، أن هذا للإضحاك[11].

وغشيان المحارم ذو صلة، في ماهيته، بالرغبة في الإفلات من الوضع

---

(9) ـ الصلة التي حاولت أن أستخلصها من وجود عقدة أوديب، أي بين حاجز غشيان المحارم وعدم النضج الأساسي لدى الإنسان، تبدو لي أنها موضّحة في الأسطورة الأوديبية، نفسها؛ فأوديب، بعد أن قتل لايوس، يصادف السفنكس ويفكّ اللغز الذي يطرحه عليه: «ما الموجود الذي يمشي على اثنتين تارة، وعلى ثلاث طوراً، وعلى أربع تارة أخرى ويكون، على عكس القانون العام، هو الأضعف عندما يستخدم قوائم أكثر؟ ويجيب أوديب: «الإنسان». ألا يشرح السفكنس بهذه الإلماع إلى أطوار النمو المختلفة ذلك المصير الإنساني بعبارات النضج؟

(10) ـ طرد الله حواء وآدم من الجنة وحكم عليهم بالعمل والألم، أي بالجهد والصبر، أقول بكلمة واحدة حكم عليهما بالواقع «أنهما، إذ أكلا من شجرة المعرفة، لم يصبحا مثلنا»، أي قويّين كل القوة.

(11) ـ نحن نشهد تكوين نظرية تحليل نفسي ترفض أن تأخذ مشكلات النضج بالحسبان وتنصرف عن التصورّ الفرويدي لنموّ بمراحل، **إذ تتجاوز واقع التطور الإنساني ـ الفردي وضروب جوازه.** فهي لم تعد على هذا النحو تابعة للزمن وتشارك عندئذ في السحر. وهذا المنظور ذو علاقة برغبة الطفل في أن يكون كبيراً في الحال، دون أن يكون عليه أن يمرّ ببلوغ وضع الراشد، البلوغ البطيء والمؤلم.

الإنساني، إذ يحقّق الفرد مباشرة بعد الولادة - أي دون أن يترك من يتحدّر منهم ودون أن يدخل في الإعصار الدافعي - تلك السعادة، على نمط ابتهاجي بدئي[12].

فماهية غشيان المحارم ذات أصل نرجسي إذن، ولكن الحياة بعد الولادة تتوجّه دفعة واحدة نحو الإنجاز الدافعي. ولن يكون بوسع الفرد أن يحقّق كماله إلا من خلال توليف ناجح للعاملَيْن (بمقدار ما يكون ممكناً أن نتكلّم على نجاح في حالة غشيان المحارم، وهو تصرّف نكوصي بوضوح). ويمكننا مع ذلك، داخل هذا الاطار النكوصي، أن نتصوّر تشكيلة متنامية من الإثمية، أعني، في الواقع، من الخطورة فيما يخصّ ضروب القمع لغشيان المحارم الذي يُرتكب بحق التوازن النفسي لدى الفرد. **وتبدو لنا درجة الخطورة لغشيان المحارم متناسبة مع درجة فكّ الارتباط بين العامل النرجسي والعامل الدافعي في أشكال غشيان المحارم المختلفة** (ومتناسب دون ريب داخل الشكل نفسه مع درجة فكّ الارتباط بين هذين العاملين نفسيهما لدى فرد معيّن).

وسنستأنف البحث إذن في مختلف الحالات لغشيان المحارم: أقلّ العلاقات في غشيان المحارم إثماً هي العلاقة التي تجمع الأخ والأخت. والحال أن أهمية العنصر النرجسي بين الأخ والأخت واضحة؛ فالفارق في العمر غير بارز جداً، فهما متساويان ويشبه أحدهما الآخر، إذ أن كلاً منهما صورة الآخر في المرآة. والحب

---

(12) - يلاحظ فرويد، إذ يتكلّم على غشيان المحارم الموقوف على الألوهيات (موسى والتوحيد)، أن «الاهتمامات القلقة لدى طبقة النبلاء العالية فيما يخص نقاءها، من حيث هي طبقة، ذات علاقة براسب من هذا الامتياز القديم». والحال أن مفهوم طبقة النبلاء ذاته (شعار مثال الأنا النرجسي يمكنه أن يكون: «النبالة ملزمة») وهو مفهوم نرجسي على نحو نموذجي: النبيل يولد نبيلاً، أي أن للنبالة ماهيتها الداخلية وليست منوطة بأي اكتساب أو استحقاق أو خدمة، ذلك أنها، حتى ولو كانت «موضع استحقاق»، يمنحها العاهل، أي القوة الكلية، فالملك كاهن الله. والنبيل لا يعمل (وسيكون، في حال عمله، تابعاً للمكوّنة السادية الشرجية لا للنرجسية وهو، لهذا السبب، يفلت من اللعنة الإلهية التي أصابت أولئك الذين كانوا قد طُردوا من الجنة، ولا يعكف على أي جهد جسمي إلا المجاني أو الذي ينشد هدفاً نرجسياً سامياً (مثلاً فروسياً، إلخ).

بين الأخ والأخت نرجسي فقط على الأغلب، أي غير جنسي، ولا يعتبر على وجه الإطلاق غشيان محارم قبل أن تغنيه العوامل الدافعية التي تحوّل الثنائي الأخوي إلى ثنائي غشيان محارم بالمعنى الحقيقي للمصطلح. وغشيان المحارم أخ-أخت شائع جداً مع ذلك، بل مبتذل في بعض الأوساط. فكيف نفسّر عدم الضرر الزهيد نسبياً في هذه الضروب من المعاشرة؟ أولاً، ذكرى الصدمة النرجسية الأولية (يعلو صوت الرضيع بالبكاء، عاجزاً أمام الراشد) موضوعة في الخلفية بالنظر إلى أن الشريكين في عمر واحد على وجه التقريب، على خلاف ما يحدث في غشيان المحارم أم-ابن أو أب-بنت؛ فالسبب المباشر للجرح النرجسي يمكن إذن أن يُحافظ عليه مكبوتاً، لاسيّما أن إشباعاً نرجسياً واقعياً يعوّضه. والواقع أن حب الأخ-الأخت انتصار النرجسية أكثر منه إخفاقها [13].

فوضع الخصومة أب-طفل غائب (وهذا الباعث هو الذي يُدفع به كلاسيكياً في موضوع الإثمية الأوديبية) والموجود هو بالحري تحالف في وجه الآباء مرْض من وجهة النظر النرجسية ذلك أنه يعزّز موقع الثنائي الأخوي (انظر ميلاني كلاين).

وغشيان المحارم أب-بنت، الذي تكون نزاعيته (وبالتالي سمة الإثمية) أكثر أهمية، لايبلغ مع ذلك الخطورة في غشيان المحارم أم-ابن. ولكننا نواجه هنا تشكيلة كاملة من النسخ التي يجب النظر فيها وفق درجة المشاركة للعاملين النرجسي والدافعي.

---

(13) - إلا إذا كنت ضحية لظهور ذكرى خفيّة (لم يكن لديّ إمكان التحقّق منها، ولا يبدو لي أن ضرباً من تفسير **روميو وجولييت** بوصفها دراما غشيان المحارم الأخوي كان موضع اقتراح من قبلُ ويبدو لي أن هذا الزمر محتملاً جداً مع ذلك (وهذا مايشرح ضمن نطاق معيّن ذلك النجاح الهائل الذي حظيت به هذه الرائعة خلال قرون)، فتمويه غشيان المحارم يحدث بفعل انتقال وتمثّل بعكسه؛ الأسرتان متعاديتان، وهذا هو العنصر المركزي في الدراما، عنصر يتصف بأنه مع ذلك شأن أسري. ألم يجد المحبان من جهة أخرى (ويشاء بعضهم أن يقول الطفلان، لأنهما كانا فتيين جداً)، الثنائي الأبوي الوحيد يتكوّن من الكاهن والمرضعة؟ والخصومة بين الأسرتين قد تمثّل المكونة السادية الشرجية التي تناوىء العامل النرجسي وتنتهي إلى أن تدمّر الثنائي؛ وينتصر الحب مع ذلك ويجد الحبيبان، العاشقان في فيرون، نفسيهما متّحدين في النكوص العميق للنوم الأبدي.

نحن نعلم أن الاندفاعة الأوديبية لدى البنت قريبة جداً من الشعور، لا سيّما أنها تميل إلى إضفاء المثالية على الموضوع الأبوي إذ تضفي عليه نرجسيتها التي تكتشفها في الجماع المحرّم. إنها ـ فيما يخص هذه المسألة الخاصة ـ ستكون إذن قد بلغت هدفها النرجسي. وتجد نفسها بالطبع أمام الخشية الأوديبية بمعناها الحقيقي، خشية انتقام الأم، ولكن الأب إذا بادر إلى أن يجامع ابنته، فإنها تجد نفسها في مأمن، الأب، جرّاء التوظيف النرجسي الذي يكون هو موضوعه (مثال الأنا ذو القوة الكلية خلع الأم عن عرشها: انظر أعمال جـ: شاسّيغه سميرجل)، في حين أن الابن لا تحميه الأم من مظاهر عقدة الخصاء. فأوديب البنت يختلط مع ذلك بمصيرها السويّ، والموجود فقط ضرب من اانتقال فيما يخصّ هوية موضوعها، انتقال زهيد من جهة أخرى، وهو على الغالب أكثر من شفّاف.

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك، بما أن الموضوع الأول (الزائف) (انظر ب. غرانبرجر: معالم لدراسة النرجسية النسائية في **بحوث تحليلية نفسية في الجنسية النسائية**) للبنت هو الأم (علاقة فارغة من المحتوى الجنسي المرْضي على نحو حقيقي)، أن الاستيهامات الجنسية ذات العلاقة بالأب تبلغها في عمر أكثر تأخراً من الناحية الزمنية دون شك قياساً على الرغبة في غشيان المحارم لدى الصبي. ويعزّزها هذا النضج النسبي، إزاء الأم وأمام الخشية من دوافعها الخاصة على حد سواء.

أما العلاقة أم ـ ابن، فإنها دون ريب ذلك الضرب من غشيان المحارم الأكثر صدماً: وبما أن الصبي ـ في العمر الذي يحقّق خلاله غشيان المحارم ـ لا يسقط نرجسيته على الأم بل على الأب (نحن نعلم أن حباً، أي إسقاطاً نرجسياً مفرطاً للصبي على الأم، يقود إلى الجنسية المثلية)، فإن الإنجاز الأوديبي يعادل بالنسبة له خسارة الموضوع حامل مثال الأنا، مثاله (وذلك أمر يولّد الاكتئاب) ويثير في الوقت نفسه يقظة المخاوف من الخصاء من جانب الأب، تزدوج بمخاوف قبل تناسلية قديمة إزاء الأم، التي لا يؤمن الأب لها أي وظيفة من وظائف الحماية. أضف إلى

ذلك أن اندفاعاته الأوديبية المبكّرة جداً تتزامن مع نرجسية سريعة العطب، ذلك أنها تستند إلى جنسية غير ناضجة على الإطلاق، ويُحتمل عندئذ أن تدفعه حركاته النكوصية إلى أن يبلغ على هذا النحو ذلك الراق النرجسي البدئي **السابق على الصدمة**، أي راق ما قبل الولادة، وذلك أمر يكافيء ضرباً من الغوص في الذهان.

أما الوضع النرجسي بوصفه **دفاعاً** ضد الأوديب، فإننا ألححنا آنفاً في مكان آخر [14] على أن في اللاشعور استيهاماً بدئياً سمّيناه **الثالوث النرجسي** أو «استيهام الطفل الإلهي». فالطفل يرى نفسه بين أبويه موضع ضرب من العبادة وأنه ذروة المجد النرجسي الحقيقية (وبما أن ندّ هذا الاستيهام النرجسي هو الاستيهام البدئي لـ«المشهد الأولي»، الأبوان متّحدان في علاقة نرجسية يُستبعد منها الطفل، فإن هذا الاستيهام يحتوي اندفاعة عدوانية قاتلة، على نمط متناظر، تتّجه ضد الأبوين معاً).

وثمة جانب من هذا الاستيهام، استيهام «الثالوث النرجسي»، يبدو خلف «الرواية الأسرية» التي تكلّم عليها فرويد، إنه استيهام الطفل الذي ينيب ثنائياً نرجسياً أكثر إرضاء له مناب أبويه الواقعيين. ولهذا الاستيهام مكانه الراسخ جداً في اللاشعور مع ذلك ونحن نعلم تواتر الامتثال الحلمي للأبوين بوصفهما ثنائياً ملكياً، دون الكلام على صور أبوية كما تبدو في قصص الجنيّات وفي الميثولوجيا، إلخ [15].

---

(14) ـ **تمهيد لدراسة موقعية للنرجسية.**

(15) ـ مارت روبير (عنوان كتابها **رواية الأصول وأصول الرواية**: ترجمة وجيه أسعد، نشر اتحاد الكتاب العرب في دمشق) التي تصمّم كتاباً مخصّصاً بكامله لهذا الموضوع ـ تدعم في دراسة تتناول قصص غريم (قصص وروايات، **أدلة**، رقم 185) أن الرواية بوصفها جنساً ناجمة مباشرة عن «الرواية الأسرية» التي وجدها فرويد لدى مرضاه. فالطفل الراوي والراوي الأسري يشتركان في الرغبة النرجسية في أن يصنعا وجودهما، مجدّداً، وفي أن يعيدا، كما يروق لهما، كتابة عناصر حالتهما المدنية.

والمقصود بالنسبة للطفل، في هذين الاستيهامين («الرواية الأسرية»، و«الطفل الإلهي»):

1 - أن يعيش الأوديب على نمط غير نزاعي (نرجسي إذن) وفيه

2 - **تحتلّ** المنحة النرجسية محلّ الوضع الدافعي وتعمل بصفتها دفاعاً ضدّ هذا الوضع. ونذكّر هنا بما يقول فرويد عن دفاع الطفل ضدّ هذه الإثارة الداخلية التي هي الدافع وأعمال أنّا فرويد في الوضع الدافعي المعادي للأنا. ويسمّي فوربان الأنا العليا «الأنا ضدّ الليبيدية»، ومن المؤكد أن الأنا العليا الكلاسيكية مبنيّة على قاع ضدّ دافعي ذلك أن تبعية الطفل لأناه الجسمية تضعه أمام نزاعات في كل لحظة، في حين أن أناه الوجلة عديمة النضج أعجز من أن تحلّها. ويبيّن فورنزي أن «الطفل كان يعيش العهد المطلق للرغبة الفيزيولوجية بوصفها قسراً مذلاً، وذلك جرّاء - ولنقلْ - توظيف نرجسي لدافعه غير كاف(16).

وهذا هو السبب في أن كلّ سيرورة النضج، أي كل ما يمسّ الحواس،

(16) - الخوف أمام الدافع، الذي يمكنه أن يعاش بوصفه اضطهاداً حقيقياً، يتّخذ بروزاً خاصاً في منظور ضرب من المعارضة الديالكتيكية للرغبة في النكوص النرجسي الذي تجنّده الأنا تحت ضغط هذا الاضطهاد؛ ونحن نفكر في هذه المناسبة بكل علم النفس المرضي للأطوار اللاحقة من تطوّر الطفل (طور البلوغ والمراهقة)، مجال واسع متباين إلى حدّ كاف للوهلة الأولى، بالنظر إلى أن الكيانات الموصوفة من الناحية المرضية التي يحتويها لها مع ذلك قاسم مشترك هو ضرب من سرعة العطب النرجسي النوعي، وذلك يكوّن وجهة نظر يمكنها أن تُدخل تنظيماً متماسكاً في المجال المذكور؛ وبوسعنا أن نصف، بإيجاز كبير في الواقع، ثلاثة تيارات من هذا التنظيم التي يمكننا اعتبارها أشكالاً من **المحافظة على النرجسية بالنسبة للدفعة الدافعية**.

1- بإسقاط الدافع (والانزياح) في **الرهاب**؛

2- بالانطواء النرجسي العميق في **الذهانات**، وأخيراً

3- بالتوظيف النرجسي للدافع قبل التناسلي في **الانحرافات**، إذ أن هذا التوظيف يزوّد الدافع بقوة كلية نرجسية تضفي عليه النزاع، ونحن نذكّر هنا بما قلناه للتوّ عن موضوع الإثمية التي أرجعناها - مع جونز - إلى **العجز**.

والأعضاء، والدوافع، سيرورة آثمة بفعل واقع وحيد مفاده أن أنا الفرد، العاكفة على مهمة مرهقة وغير مكتملة أبداً، تجد نفسها باستمرار موضوعة موضع التساؤل. وبما أن مصدر الإثمية يجد نفسه أيضاً أنه الجسمانية، فإن الطفل سيميل، وهو يبحث في الوقت نفسه عن أن يستمدّ اللذة من جسمه، إلى أن يكره جسمه؛ وستبحث نرجسيته، لتصون استقلالها، عن أن تسقط نفسها على وجه أُضفيت عليه المثالية تبعاً للقوة الكلية، قوة هذا الوجه الذي يضع استقلال النرجسية، في ذهن الطفل، بمأمن من القسر الدافعي؛ فآلهة غالبية الأديان لاتأكل ولا تتغوّط ولاتعاني إثارات جنسية؛ والنقاش الذي يتناول جنس الملائكة ذو علاقة باهتمام أساسي لدى الطفل، الذي يطرح على نفسه السؤال نفسه عن أبويه أو الراشدين على وجه العموم(17).

فليس ثمة إذن شيء منطقي كالتمرّد المماثل الذي يجعل الطفل معارضاً للتحريض الأوديبي؛ ألا تبيّن لنا الأسطورة الأوديبية على وجه الدقّة قوة الدافع القاهرة، ومعركة الفرد ضد هذا القسر والإخفاق الحتمي لهذه المعركة الملحمية؟

وإذا كان الطفل حريصاً على أن يجهل جنسية والديه خلال زمن طويل، فذلك ليس لينفي خيبة أمله الأوديبية أو ليكبت على هذا النحو وضعه النزاعي فحسب، بل لأنه يرفض الحياة الدافعية في مجموعها ليُحلّ محلّها كوناً نرجسياً غير جنسي، جرّاء عدم نضجه (نيوتونية) الذي يجعله عاجزاً ـ وفق شدّة الدوافع المختلفة الأخرى على وجه التقريب ـ عن تحمّل الإثارات. والأسلوب الذي يدافع به عن نفسه، بهذا الصدد، مميَّز ونسمع الطفل على الغالب يقول لرفاقه الذين

---

(17) ـ ذلك لايكوّن، في رأيي، مجرّد دفاع أمام المشهد الأولي وأمام الأوديب، ولكنه ذو علاقة، على مستوى معيّن، بالإسقاط على الآباء (على الملائكة أو الآلهة) تلك الرغبة النرجسية البدئية، والتخلّص من الحياة الدافعية، لابسبب الإثمية ولكن من حيث أن الإثارات يتعذّر تحمّلها في ذاتها.

يبحثون عن التحرّر من الحياة الدافعية: «هذا أمر ممكن، ولكن والديّ لا يفعلان بالتأكيد أموراً مماثلة»، وذلك جواب لونيته النرجسية واضحة. ويفهم المرء أن الضيق الذي يستشعره الطفل في هذه الحال مصنوع من الخزي لا من الإثمية، ويحاول الطفل أن يظلّ في كونه النرجسي ليكون مع والديه «الثالوث النرجسي»(18).

وتعمل الغيرة بين الأخوة والحدّة الخاصة جداً التي تتّخذها الغيرة في بعض الحالات على المستوى نفسه؛ وسيفهم المرء على هذا النحو شدّة الضغينة لدى البكر إزاء الأخ الثاني الذي يصل ليطرده من «الثالوث النرجسي». وكان الواجب يقضي لدى العبرانيين أن «يُفتدى» الأبكار جزئياً، دون ريب، جرّاء هذه الإثمية الارتكاسية النوعية. وعندما يريد الطفل أن يعرف من أين يأتي الأطفال، فالمقصود على الغالب طفل معيّن يتمنّى أن يعيده إلى المكان الذي أتى منه، ومن هنا منشأ حاجته إلى الوضوح.

وعلينا، بعد أن توقّفنا قليلاً عند دراسة العامل النرجسي، أن ننتقل إلى تقييم الدور الآيل إلى عضو آخر من الثنائي الديالكتيكي، أي أنني أريد أن أتكلّم على الدافع ولاسيّما المكوّنة السادية الشرجية التي تقوم، في رأينا، بمهمة أساسية في سيرورة النضج الدافعي، سيرورة ذات مسيرة طويلة، غنيّة بالظروف الطارئة، ينبغي

(18) - فيلم برغمان السينمائي، **توت الأرض البري** (فريز)، يبيّن لنا شيخوخة رجل وصل إلى ذروة الأمجاد بعد أن أنجز مهنة جامعية رائعة؛ وفي حين كان الاحتفال بمرور خمسين سنة من الممارسة جارياً، يدرك؛ البطل مع ذلك أن حياته كانت خديعة، ذلك أن كل ما اكتسبه ينقصه هذا التألق، ينقصه إعلاء الشأن الذي كان الحب وحده - الذي ظلّ دائماً متعذّر البلوغ بالنسبة له - قادراً على أن يمنحه. وتبيّن الصورة الأخيرة من الفيلم بطل الفيلم صبياً صغيراً على شاطئ البحر بين أبيه الذي يصطاد السمك وأمه التي تنظر إليه وهي تطرّز. وتظلّ الصورة لحظة متخثّرة، كأنها تغوص في ماض خرافيّ، وتتّخذ الإضاءة بصورة مفاجئة لمعاناً من عالم آخر؛ ويفهم المرء أن الرجل الشيخ عاش حياته كلها في الأسف اللاشعوري على «الثالوث النرجسي» في الزمن الغابر وأن إخفاقه الوجداني نفسه ناجم عن التثبيت على على هذا الشكل الطفولي من السعادة الذي لم تستطع أية منحة نرجسية بديلة أن تعادله.

لنا أن نتبعها خلال الأطوار المتتالية من التطوّر، التي يبين طور البلوغ والمراهقة منها، طوران لم يدرسا إلا قليلاً، أنهما هامان جداً. وعلينا أن نبدأ بظهور الطور السادي الشرجي وبوصف الأسلوب الذي به يجري انتقال السلطة بين النرجسية والغلبة السادية الشرجية التي تحرّض تصرّفات جديدة تتعارض مع التصرفات الخاصة بالطور السابق. وبالنظر إلى عدم التناسب بين أبعاد هذا الموضوع الواسع والحدود المرسومة جيداً لهذه المداخلة، فإن علينا أن نتوقّف قبل أن ندلف إلى الأمام كثيراً، مصرّين مع ذلك أن نضيف بعض الملاحظات إلى ماقلناه للتوّ، إذ نقفز على هذا النحو فوق فحوى هذا العمل الممكن ونستبق نتائجه؛ والواقع أن سمة هذا العرض المجزّأة بوسعها أن تتيح المجال للانتقادات؛ ويمكن أن يُوجّه إليه اللوم أنه متمحور بصورة انتقائية على بعض الجوانب من الظاهرات الموصوفة. وهذا ناجم عن واقع مفاده أن تقديمنا مبتور وإذا كان يترك بعض المسائل في الظلّ فالسبب أنه لايمكنه أن يُشرح شرحاً مفصّلاً جرّاء الإطار الذي حدّد له.

فالملاحظة الأولى خاصّة بـ«الخوف من الدافع». وليس ثمة بالطبع «خوف من الدافع» دون توتّر دافعي. فالخوف مفعوله التوتر ومتمّمه. فالتوتر يفلح في أن يفيض على الخوف، أي أن يظهر من خلال هذا الخوف. وما أردنا أن نلفت الانتباه إليه قبل كل شيء مع ذلك، إنما هو أن الخوف ليس التعبير عن الدفاع فحسب، بل إنه موجود في ذاته ويستند إلى النرجسية التي تحمل في ذاتها كموناتها الخاصة، كمونات المنحة النرجسية.

أما النرجسية نفسها، فإن علينا بالطبع أن نميّز بين النرجسية المندمجة والنرجسية التي تستخدمها الأنا الإجمالية في الأوضاع الديالكتيكية وتصبح مرئية بوصفها كذلك، مستفيدة من إضفاء النزاع أو من عدم النضج، والأمران سيان. والنرجسية شأنها شأن الدوافع الجزئية: فهذه تفلح في أن تكوّن الحزمة ذات الأولية التناسلية في نهاية تطوّرها، تطوّر ديالكتيكي أيضاً في رأينا. أما السيرورة الديالكتيكية الموازية، نرجسية - دافع، فإنها تفضي إلى توليف، إذ يمكننا على هذا النحو أن نفهم مصطلح «تناسلية» بمعنى الإنجاز، إذ تشرف على سيرورة مزدوجة

من النضج. أما التوليف بين السيرورتين المتوازيتين، فإن القصة الرمزية تقدّم لنا الصورة: إن أولاد الفلاح يشتغلون الأرض تقودهم الجاذبية التي تمارسها عليهم فكرة الكنز الذي يختفي في أعماقها ووجوده فوق الطبيعي يمنح رهاناً يمجّد الجهد. فقلبوا الأرض وجعلوا الحامل المادي لرغبتهم السحرية على هذا النحو جديراً أكثر فأكثر بأن يؤمّن لهم إشباعاً مطابقاً للواقع؛ وينتهي عملهم المنجز مع ذلك إلى أن يمنحهم إشباعاً نرجسياً مرتبطاً بالمنحة الدافعية (تصعيد المكوّنة السادية الشرجية، دون الكلام على رمزية الكنز المخبّأ في أحشاء الأرض).

وهذا التطوّر المزدوج يعدّل النرجسية التي تهاجم الدوافع ويدمجها، من جهة، ومن جهة ثانية يعزو للموضوع البرازي، أي **المادة** (الأرض، العمل ونتاجاته)، صفات نرجسية؛ فيصبح كنزاً، ولكن وجوده يترسّخ في الواقع بدلاً من أن يكون سحرياً. ولم تعد النرجسية بحاجة، في هذه الدرجة من التوليف، أن توطّد نفسها بوصفها كذلك، فحاملها، بمعنى من المعاني، محلّ التوليف، انتهى إلى أن يمتصّها ويدمجها، شأنها شأن الدوافع؛ وإذا كان المرء يملك القضيب، فليس ثمة حاجة الى التلويح به وحاجته أقلّ أيضاً إلى أن يُنهك نفسه في ملاحقته.

* * *

الفهرس

٢٠٠٠ ط١/٨/٢٠٠٠